

الجيل الرابع

وقائع حياة بين الكتب والفن



ماهر البطوطي

الجيل الرائع

وقائع حياة بين الكتب والفن

تأليف

ماهر البطوطي



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٣٠٩ ٣

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٩.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.

جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ ماهر البطوطي.

المحتويات

٩	إهداء
١١	ملاحظةٌ ضرورية
١٣	الجيل الرائع
١٧	البدايات
٣١	الإسكندرية
٣٧	القاهرة
١٢٣	الوظيفة
١٣٧	وزارةٌ جديدة وعلاقةٌ عاصفة
١٤٩	من حالٍ إلى حال
١٥٧	عامان من الكارثة
١٧١	في ربوع الأندلس
١٩٣	١٩٧١-١٩٧٢ م
٢٠٧	١٩٧٢-١٩٧٤ م
٢١٩	العودة إلى مصر
٢٤١	في العالم الجديد
٢٦٥	أب ومحرر
٢٦٩	العمل يسير
٢٧٥	قراءات وكتب
٢٨٥	مواصلة الكتابة والنشر
٢٩١	رحلاتٌ أدبية وفنية

الجيل الرائع

٣٠٥	رحلة مارسيل بروسست وجورج صاند وبيير لوتي عام ١٩٩١ م
٣٠٩	رحلة جان جاك روسو عام ١٩٩٣ م
٣١٣	رحلة فان جوخ عام ١٩٩٥ م
٣٢١	رحلة آرثير رامبو عام ١٩٩٧ م
٣٣٣	النهايات

كان يوماً ما زلتُ أذكره من عام ١٩٦١م حين قرَّرتُ على نحوٍ قاطع أن أُنْخِذَ الكتابةَ والترجمة مهنةً أساسيةً لي. كنتُ أدرُسُ آخرَ سنةٍ في قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة، وقد تشبَّعتُ بالمقرَّراتِ الدراسية، خاصةً في تلك السنة، وتأثَّرتُ برواية «جيمس جويس»؛ «صورة للفنان في شبابه»، التي قرَّرتُ بطلُّها نذرَ نفسه للأدب والفن والجمال بكل أشكاله. كذلك درَّسنا «همنجواي» وحياته وأسلوبه الجديد في الكتابة. وكنتُ أتابع ما يصدرُ من كتبٍ مهمة خارج مقرَّراتِ الدراسة، فتأثَّرتُ بأدب «ألبير كامي» وفلسفته، وكتاب «اللامنتمي» الذي كتبه «كولين ولسون» وأصبح حديثَ الأدباء.

وكنتُ قد بدأتُ القراءة وجمَّعَ الكتب منذ كنتُ في العاشرة من عمري، فنشأتُ على كتب «توفيق الحكيم» و«طه حسين» و«نجيب محفوظ» و«يوسف السباعي» وشعر «أحمد شوقي». وبدأتُ أيضاً في جمع الكتب والسلاسل الجميلة التي كانت تُصدَّرُ في مصر في الخمسينيات، ومنها: «الهلال» و«كتاب الهلال» و«روايات الهلال»، و«اقرأ»، و«كتب للجميع»، وكتب ومطبوعات «كتابي» و«الكتاب الذهبي»، وغير ذلك.

وبعد التخرُّج في الجامعة، عرفتُ أن مَنْ يريد أن يتَّخِذَ الكتابةَ مهنة، فعليه إجادَةُ لغته العربية إجادَةً تامَّة، وكذلك ألاَّ يعتمد في معيشته على مكافآت الكتابة؛ فدرَّستُ القرآن الكريم وتَدبَّرتُ آياته ولغته، وقرأتُ كُتُب النحو المتاحة، وما طالته يدي من كتب التراث العتيقة. ولم أبدأ الكتابة إلا بعد أن شغلتُ وظيفةً مناسبة بوزارة التعليم العالي بالقاهرة، تركتُ لي وقتاً كافياً بعدها للقراءة والكتابة. ولما كنتُ أريد الكتابة في النقد الأدبي، كانت أوائل مقالاتي نقدًا وعرضًا لما أحببته من الكُتَّاب والأدباء. ثم جاءت الترجمة وأفسحتُ لها بعضَ الوقت أولاً، ثم زحفتُ على معظم الوقت بعد ذلك. وكان أولُ كُتُبي المنشورة عن

«إرنست همنجواي»، ثم رواية «جيمس جويس» التي أحببتها. وبدأتُ في دراسة اللغتين الإسبانية والفرنسية قبل أن تَندبني الوزارة للعمل مُلحقًا ثقافيًا في مدريد، حيث قضيتُ أكثر من أربع سنوات.

وبعد عودتي من إسبانيا، قضيتُ أربع سنوات أخرى بالقاهرة أزوّد المجلات في القاهرة وببيروت بمقالاتي المؤلّفة والمترجمة، قبل أن أتوجّه إلى نيويورك للعمل مترجمًا ثم محررًا بالأمانة العامة للأمم المتحدة. وقد عكفت على الكتابة والترجمة عن الأدب المكتوب بالإسبانية من شعر ورواية ومسرحية، حتى أساهم في تشييد جسرٍ ثقافي للقراء العرب إلى تلك الثقافة الثرية. ولكن لم أنس اللغات الأخرى، فترجمتُ لشاعر الشعب الأمريكي «والت ويتمان» وبعض آثار اللغة الفرنسية، وزاد إنتاجي بعد التقاعد من العمل حتى قاربَت أعمالي ثلاثين كتابًا.

ولما كانت الكتب الورقية، رغم أهميتها، تَذوي وتغيب حروفها بفعل الزمن، فقد رحّبتُ بقيام مؤسسة «هنداوي» بوضع كُتبي رقميّة على النت لتكون متاحة لمن يريد قراءتها، والمؤسسة بذلك تضطلع بعملٍ مهم في نشر الثقافة وإتاحتها وحفظها على مر السنين.

إهداء

هذه السيرة
الرواية مهداة إلى كل فردٍ من أفراد جيل الستينيات
الجيل الرائع.

ملاحظة ضرورية

هذه رواية حياة تحتوي على أحداثٍ واقعية وأخرى خياليةٍ قصصية، وشخصيات من الواقع وشخصيات من نسج الخيال. والأحداث والشخصيات — الواقعية والخيالية — تمتزج ببعضها امتزاجًا يصعب معه التحقق مما هو واقعي ومما هو من خَلْق المؤلف، بمن فيهم شخصية الراوي.

الجيل الرائع

الجيل الرائع هو جيل الستينيات. والصفة ليست بالضرورة صادقة إلا لمن رآها كذلك. وقد اخترتها لتُقابل العبارة الشهيرة «الجيل الضائع»، التي أطلقتها جرتروود شتاين على جيل هيمنجواي في العشرينيات من القرن الماضي.

وفي رأيي أن جيل الستينيات يشمل كل من بدأ الكتابة أو الإنتاج الفني خلال عقد الستينيات أو قبله أو بعده بقليل؛ ومنهم من توقّف ومنهم من استمر، وكثيرٌ أصبحوا من المشهورين في مجالات الفن المختلفة: الرواية والقصة القصيرة والمسرح والشعر والفنون التشكيلية وغيرها، ولا يمكن ذكر أحد حتى لا ننسى آخرين؛ فجيل الستينيات يضم المئات إن لم يكن الألوف. ولا يرد في هذا الكتاب سوى أفرادٍ معدودين — بعضهم من غير أهل الأدب والفن — وهم من عرّفهم المؤلف عن قرب؛ ولذلك فهو محدود، ولكنّ المشهورين من أهل ذلك الجيل معروفون للجميع. وأنا أعتقد أن فناني الستينيات هم وحدهم الذين يشكّلون «جيلًا» بالمعنى المتعارف عليه؛ أما أن يُطلق بعض النقاد كلمة الجيل على فناني كل عقدٍ تالٍ، فهو من قبيل التجاوز؛ فالأقرب إطلاق صفة «جماعة» على أولئك المبدعين.

وقد انطلق أفراد جيل الستينيات من خلفية مزدهرة من الأساتذة والمفكرين والأدباء والفنانين الذين أسّسوا نهضة ثقافية نهلت منها الجميع، أساتذة مثل طه حسين، لطفي السيد، توفيق الحكيم، المازني، عباس العقاد، سلامة موسى، أحمد أمين، محمد فريد أبو حديد، عبد الرحمن شكري، يحيى حقي، عبد الحميد يونس، حسين مؤنس، محمد حسين هيكل، أحمد شوقي. ثم عبد الرحمن بدوي، شوقي ضيف، سهير القلماوي، محمد مندور، أنور المعداوي، شكري عياد، لويس عوض، زكي نجيب محمود، نجيب محفوظ، عبد الرحمن الشرقاوي، عبد الحليم عبد الله، يوسف إدريس، فؤاد زكريا، صلاح عبد الصبور،

عبد المعطي حجازي، فتحي غانم، إحسان عبد القدوس، يوسف السباعي، سعد مكاي، فاروق خورشيد، وغيرهم.

والجيل له رؤاد، منهم إدوار الخراط، رجاء النقاش، محمد عناني، بهاء طاهر، الطاهر مكي، وغيرهم.

وجيل الستينيات يشمل المثات؛ ولذلك لا يمكن ذكرهم بالاسم، وقد اشتهر منهم الكثيرون فهم معروفون. أما من عرفهم الكاتب من هذا الجيل عن قرب فهم من عرفوا باسم «جماعة الدكاترة»: محمد عناني، عبد العزيز حمودة، سمير سرحان، فاروق عبد الوهاب. ودكاترة آخرون هم: نبيل راغب، جابر عصفور، ماهر شفيق فريد، عبادة كحيلة، نصار عبد الله. ومن الأصدقاء الآخرين: علي كمال زغلول، أيمن الأمير، حلمي جرجس، وهيب يوسف، وديع كيرلس، عبد الفتاح العدوي، محمد عتريس، توفيق عبد الرحمن.

ومن الطبيعي أن كل تلك الأسماء تختلف باختلاف الفرد من أفراد ذلك الجيل، بحكم تخصصه وبحكم ظروف حياته؛ فالكاتب غير الرسام وغير الموسيقار وغير السينمائي أو المسرحي؛ فلكل من هؤلاء أساندة وأقران غير ما ذكرتُ ها هنا؛ فقد نبغ من هذا الجيل أفراد في كل منحنى من مناحي الفنون. كذلك فقد اقتصرت أيضًا — بوجه عام — على ذكر المصريين إلا فيما ندر.

كما أن أفراد ذلك الجيل قد عاصروا أحداثًا جسامًا في تاريخ وطنهم وأمتهم والعالم أجمع؛ فهم قد عاصروا الاحتلال البريطاني لمصر، وعاشوا عبر خمسة حكام لبلادهم: الملك فاروق، الرئيس محمد نجيب، الرئيس جمال عبد الناصر، الرئيس أنور السادات، الرئيس حسني مبارك. وهم قد عاصروا حروبًا كثيرة: الحرب العالمية الثانية، حرب فلسطين ١٩٤٨م، العدوان الثلاثي، حرب ١٩٦٧م، حرب ١٩٧٣م. وقد تأثر كل فرد من أفراد جيل الستينيات بتلك الأحداث على نحو مختلف، كما أن منهم من انخرط في العمل السياسي، ومنهم من راقب الأحداث ودرسها دون أن يتبع جماعة معينة، أو ينقاد إلى أيديولوجية تُعَمِّي أبصاره عن أفكار الحياة.

وهناك صفات عامة تميز أفراد ذلك الجيل، قد يشتركون فيها مع غيرهم، وقد لا يعترف بها البعض، ولكنني أثبتتها هنا كفكرة شخصية:

- حب التجديد والتجريب في الشكل والمضمون.
- الارتباط بأفكار وبأيديولوجيات معينة تسود الأعمال الإبداعية والنقدية.
- تأثير العامل الجنسي والمشكلة الجنسية حتى بعد عبورها.

الجيل الرائع

- الاستغراق في الذات وعشق الذات إلى درجة النرجسية.
- الولوج بالسفر والترحال لأسبابٍ متعددةٍ مختلفة.
- الإحساس بالغربة والاختلاف عن الآخرين.
- التشاؤُن والتنافسُ والبغضاء فيما بين من اشتهر من أفراد الجيل.
- ردود الفعل العميقة لهزيمة عام ١٩٦٧م.

وكما ذكّرت، تتباين تلك الصفات ودرجتها من فردٍ إلى آخر، وتزيد أو تنقص بحسب ظروف كل شخص وانتماءاته. وتظهر روعة ذلك الجيل في قدرته على تجاوز المحن — لا الفردية والخاصة فحسب، بل والقومية الشاملة التي كان يمكن أن تعصف بأي طموح أو موهبة — والقدرة على الإبداع وسط العواصف والأنواء والتشاؤُن والبغضاء، والخروج من أَسْر «الشللية» إلى فضاء التعبير والخلق الرفيعين. وإذا كانت شتاتين قد أطلقت اسم الجيل الضائع على همنجواي ورفاقه وهم قد أصبحوا جيلاً رائعاً، فقد كان جيل الستينيات جيلاً رائعاً اسماً ومضموناً.

وهذا الكتاب وقائع أحداثٍ عاشها فردٌ من أبناء ذلك الجيل، ليس من ورائها مقصدٌ غير سرد الأحداث كما هي في حياة ذلك الفرد، دون هدف خلق عملٍ فني عميق أو رسم شخصياتٍ روائية؛ فهو كعنوانه، مجرد وقائع ليس أكثر، بعضها حقيقي وبعضها وهمي.

البدايات

أبدأ الرواية بشيءٍ مضادٍّ لفن الرواية كما حدّده ديفيد لودج؛ إذ أقجم نفسي فيها بأن أطلب إلى القارئ أن يحاول أن يتذكر أول ما يمكنه من أشياء في حياته، ويرى كم كان عمره حين يستطيع أن يستعيد في ذهنه أوائل أحداث حياته، حتى لو كانت تلك الذكريات مجرد صورٍ أو أصواتٍ أو كلماتٍ متفرقة مشوّشة.

أما أنا، وحيث إن الرواية تربط الحياة بالكتب والفن، فقد بدأت رحلتي الطويلة مع الكتب البداية التقليدية؛ أي عن طريق السماع. ولا أتذكر طبعًا الحكايات التي كانت تُقال لنا ونحن صغارٌ جدًّا، أو الهدهدات الطفولية، وأول ما تعود به ذاكرتي في هذا الشأن هو الوقت الذي أصبْتُ به بالحصبة، وأنا في حوالي السابعة من عمري. كنا في مدينة دمنهور، وغطت والدتي مصباح الغرفة بورقٍ شفافٍ أحمر اللون، وكانت تجلس إلى جوارِي وتقرأ لي قصصًا للأطفال. وكانت تلك الحكايات تخفّف عني كثيرًا من آلام الحمّى التي انتابتني في ذلك الحين. لا أتذكر من تلك القصص إلا نتفًا أعرف منها صيغةً عربيةً لقصة الأمير السعيد التي قرأتها بعد ذلك لأوسكار وايلد.

أما ذكرياتي الحقيقية للمجلات والكتب والقراءة فقد جاءت بعد ذلك، في عام ١٩٤٩م، في مدينة شبين الكوم، ولكن ذلك لا يعني عدم وجود ذكرياتٍ لي عن سنواتي السابقة. قرأت كثيرًا عن السن التي يمكن للإنسان أن يعود بذاكرته إليها. يقول البعض إنه يذكّر أشياء من سنته الأولى، بينما يتأخر البعض في ذلك نوعًا ما. وقد ذكر أحد الروائيين أن بطل روايته يذكّر لحظة مولده، وهذا من الخيال القصصي بالطبع.

وأول ما يمكن أن تعود به ذاكرتي إلى الوراء، صورٌ مفردة لا تحمل أي سلسلة متصلة، ومنها صورة والدي وهو يحلق ذقنه أمام مرآة في حَمّام الشقة التي كنا نقطن فيها في مدينة طنطا؛ حيث علمتُ بعد ذلك طبعًا أنني قد وُلدتُ هناك، وأنا كنا نسكن شقة في شارع

النحاس. كذلك يعود إلى ذاكرتي المشوّشة منظر أبي أيضًا وهو يذرف دمعة، وعلمت بعدها أن ذلك حدث عندما تُوفيت شقيقة لنا، أصغر مني، تُدعى نادية، ولم أعرف أبدًا ظروف وفاتها. وانتقلت الأسرة بعد ذلك إلى مدينة بنها، حيث أذكر منها شجرة فاكهة ضخمة في حديقة منزل مأمور السجن، والدي، نأخذ منها ثمارًا نسمّيها «بامبوزيا»، وأعتقد أنه الكريز. وكنا نملأ جرادل بلاستيكية بتلك الثمار اللذيذة. وأحمل ذكرى صورة والدي وقد عاد من العمل مرةً ومعه قالبٌ صغير أصفر اللون، وضّعه في مياهٍ ساخنة، فإذا به شوربة دجاج. ويبدو أن ذلك كان عند بدء ظهور تلك القوالب. كذلك صورة العربة الحنطور وهي تحمل والدي ووالدتي إلى السينما، بينما نرقبها من النافذة أنا وأخي الأكبر. وقد وُلد أخي الأصغر في تلك الفترة من مقامنا في مدينة بنها عام ١٩٤٤م.

وبعد انتقالنا إلى دمنهور، تبدو صور الشارع الذي يقع فيه السجن العمومي وسط المساكن، والمحلات التي نخرج لنشتري منها اللعب والحلوى والعسلية بالملايم والقروش. وزيارتي لوالدي في مكتبه بالسجن وقد جلس يستمع إلى شكوى سجين كان قد قفز من النافذة محاولًا الانتحار. ومرةً وقفتُ في الطريق أرقب سيارةً صغيرة تحمل محكومًا عليه بالإعدام في طريقه إلى سجنٍ قريب لتنفيذ الحكم فيه؛ حيث إن سجن دمنهور لم تكن به مشنقة. وكان وراء السجن نادر رياضي، ندلفُ إليه من الحديقة الجانبية، ونستمتع بمرأى الأزاهير ذات الألوان الخلابة، ونبحث عن القواقع بين الحشائش هناك. وقد بدأتُ التردّد على المدرسة في دمنهور، بعد تلقّي دروسًا خاصة في البيت من أزهريٍّ معممٍ، وبعدها التحقْتُ بالسنة الأولى الابتدائية مباشرة. وسبقتُ ذلك محاولة الذهاب إلى روضة أطفال، أذكر منها سيدةً مدرسة تقف في وسط الحوش وترفع منديلًا في يدها، ويُحاول الأطفال الإمساك به. وطفلةٌ تقول لي في عجب: «إنت أبوك عسكري!» ولم أبقُ في تلك الروضة إلا أيامًا معدوداتٍ مكثتُ بعدها في البيت أتلقيّ الدروس الخاصة. والتحقْتُ بالسنة الأولى الابتدائية، وكنا نلبس الطرايش الحمراء، ويفتّش الناظر كل أسبوعٍ على أظافرنا، ويضرب بالمسطرة من لم يكن نظيف الأظافر. ومن أهم ذكريات تلك الفترة الحرب في فلسطين، والغارات الجوية وتعليقات الناس على ذلك. وذكرى والدي وهو يقرأ الجريدة اليومية، ثم يغلق الراديو. ويتبيّن بعد ذلك أنه قرأ خبر وفاة زوج خالتي، الباشا، في حادث سير. ووالدتي تنتحب وترتدي السواد. وكذلك تفشّي مرض الكوليرا في مصر، وضرورة غسل الأيدي باليزول كل فترة. وفي دمنهور، عرّفتُ السينما لأول مرة في أفلام قصيرة كانت سحرًا بالنسبة لي. وفيها رأيت مواكب «المحمل»، وبدأنا هناك اللعب بالطائرات الورقية.

ولكن أغرب صورة بقيت في ذاكرتي من ذلك العهد وأنا صغير، صورتني وأنا مع والدتي في منزل بالقاهرة — يبدو أنها كانت في زيارة هناك وأخذتني معها — ونحن نُطل من النافذة، ونشهد الجنازة الشعبية لرئيس الوزراء أحمد ماهر باشا، الذي اغتيل عام ١٩٤٥م. ولا أدري لماذا بقيت هذه الذكرى في ذهني، وكان عمري آنذاك أقل من خمس سنوات.

وانتقلت الأسرة بعد ذلك إلى طرة؛ حيث يُعَيّن والدي ضابطاً بليمان طرة. وكان هناك صفٌ من البيوت المخصّصة لضباط الليمان بخلاف المأمور، ويمر المرء إلى المنزل عبر تعريشات عنب كثيفة. وذهبتُ مع أخي الأكبر إلى مدرسة ابتدائية في المعادي، مما تعيّن معه ركوب المترو كل يوم مع الجندي المراسلة الذي انتقل معنا من دمنهور، واسمه سعيد. وكان المترو يُسبّب لي قلقاً خفيفاً وهواجس رهيبة، خوفاً من عدم اللحاق به في الموعد المحدّد، أو السقوط بين القضبان. وعشش الخوف في داخلي من قصة سمعناها عن امرأة جميلة ثرية، انحشرت قدمها بين قضبان المترو إذ هو قادم، وأهابت بالناس من حولها أن يقطعوا قدمها ليخلصوها من الموت المحقّق، على أن تعطيتهم كل المصوغات الذهبية التي تتحلّى بها، ولكنّ أحداً لم يجرؤ على ذلك. ودهمها المترو قبل أن يتمكّن أي شخص من إخطار البوليس أو عامل «التحوية». ومن الواضح أن ذلك كان من الحكايات ليس إلا.

وبهرتني طرقات المعادي الهادئة الأنيقة. والمدرسة جميلة بها حدائق نلعب فيها، ونأخذ دروس الفلاحة. وسمعتُ عن غياب بعض المدرسين، وأسمع أنه قد قبض عليهم لأنهم من الإخوان المسلمين. وهناك أيضاً رأيتُ تلميذاً يسير وحوله ما يشبه «الزفة» من الرفاق والسعاة، وقالوا إنه تلميذٌ حصل على الشهادة الابتدائية!

وكنا في طرة نلعب في «الترولي» الذي يجري على قضبان لنقل الحجارة التي يكسرها نزلّاء الليمان من الحجر المجاور. وقد ظهر هذا الترولي بعد ذلك في أحد الأفلام المشهورة لفريد الأطرش وسامية جمال. وأذكر منظر السجناء يسرون والأغلال في أقدامهم، والتماثيل الأنيقة التي كنا نشترينا من صنّعهم. وقد استقبلتُ في منزل طرة أول صديقٍ طفلٍ لي من المدرسة، جاء مع والده. وفرحت الأسرة بوجود صديقٍ لي، وأهديناه بعض المفكّرات وأدوات الكتابة.

وهكذا، كما قلْتُ، لم تبدأ حياتي في الكتب والقراءة إلا بعد استقرارنا في شبين الكوم؛ فهناك تتداول الذاكرة أولى القراءات الخاصة في مجلات الأطفال الموجودة آنذاك: علي بابا التي كنتُ أجمعها وأشترك في مسابقاتها التي فزتُ في إحداها بمجموعة من

الأدوات المدرسية، والكتكوت التي كانت تأتي كملحقٍ لمجلة بنت النيل لصاحبته درية شفيق، وكانت والدتي مشتركةً فيها. وكانت الأسرة ترتبُ لشراء عدد من الجرائد والمجلات الدورية، فيذهب جندي المراسلة كل صباح لشراء «اللوازم»، ومنها الجرائد والمجلات التي كنا نشترها من بائعٍ صحفٍ يُوجد فيما وراء الكوبري الجديد على مشارف وسط المدينة. كنا نتلقّى الأهرام والمصري وأخبار اليوم وآخر لحظة والمصور وآخر ساعة، والاثنين والكواكب والصباح، وكثيرٌ غيرها. وكان والدي يشتري «كتب للجميع»، وبعض روايات الجيب. واعتدنا أنا وأخي الأكبر أن نقسم فيما بيننا الاحتفاظ بهذه المجلات، وبعدها الكتب التي بدأنا نشترها «على حساب البيت»، أو على حسابنا الخاص. وشيئاً فشيئاً، تحدّدت ملامح الاختصاصات على النحو التالي: المصور، ومجلة الاثنين لأخي الأكبر، بينما أخذتُ أنا الكواكب وآخر ساعة. وكان كلُّ منا يشتري كتباً وسلاسلَ أخرى حسبما يروق له، وكان على رأس قراءتنا في ذلك الوقت المبكر من العمر مجلات الأطفال، التي أضيف إليها بعد ذلك مجلة «سندباد» التي أصدرتها دار المعارف، وعن طريقها عرفنا إصدارات الدار من كُتب الأطفال المبسّطة، مثل سلسلة «أولادنا» ومسرحيات شيكسبير المبسّطة وكتابات كامل الكيلاني، وكنا نلتهمها التهاماً ونحتفظ بها، ثم اكتشفنا عالم الروايات البوليسية وروايات المغامرات، وكانت أشهر تلك الروايات هي التي تصدر في سلسلة روايات الجيب. ولما كانت تلك القصص تعتمد على الإثارة والتشويق، كنا نلتهمها التهاماً ونبادلها فيما بيننا، ونستأجرها من مكتبة «هويس» بالقرب من المدرسة، والتي صادقنا الشاب الذي يعمل فيها، وأصبحنا نتبادل تلك الروايات معه. ومن ذلك المحل كنا نشتر الأدوات المدرسية التي شُغِفْتُ بها منذ طفولتي، وصفحات ما كنا نسميه «الطبع» وهي صورٌ جميلة ننقلها إلى الورق بعد أن نُبلّلها بالماء، فتخرج بألوانٍ زاهية جميلة.

وبدأت شخصيات الروايات البوليسية وروايات المغامرات تتشكل في وعينا: أرسين لوبين لموريس بلان، هركيول بوارو لأجاثا كريستي، شرلوك هولمز لأرثر كونان دويل، وروكامبول وابن جونسون، وإدجار والاس ورافائيل ساباتيني، وغيرهم كثيرون. ولم ندرك في ذلك الحين أن ناشري تلك الروايات ومترجميها بدءوا يؤلّفون بأقلامهم كثيراً من الروايات التي ينسبوننها إلى أولئك الكتاب المشهورين، سداً للطلب الشديد عليها. وأعتقد أن جيلي بأكمله قد بدأ قراءته من ذلك السيل المتدفّق من الروايات.

وتدرّجنا مع مرّ الوقت والدخول إلى مرحلة الدراسة الإعدادية. وكنتُ من التلاميذ الذين التحقوا بها في أول عامٍ من إنشائها لتتوسط المرحلة الابتدائية والمرحلة الثانوية.

وعرفنا الطريق إلى مكتبة البلدية، وكان يشرف عليها شابٌ مثقَّف، أبدى استهجانه من أن نطلب كتبًا سطحية لا تفيد لغتنا ومعلوماتنا في شيء. وقد اقترح علينا ذلك الشاب المستنير كتبًا لطف حسين ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم، وكان ذلك بداية انفتاحي على تلك الكتب الأدبية النفيسة. وبدأتُ أنا وأخي نتنافس على شراء ما نستطيع من تلك الكتب القيمة، وكانت السلاسل التي تصدر شهرياً تتضمن بعضها، مما يسّر لنا اقتناءها بأثمان مناسبة، ومن ذلك كُتب عباس العقاد عن أبي الأنبياء والمسيح عليهما السلام. واهتم أخي باقتناء روايات الهلال وكتاب اليوم وكُتب للجميع، بينما جمعتُ أنا كتاب الهلال والكتاب الذهبي وسلسلة اقرأ. وما زلتُ أذكر دهشة والدتي وسخريتها من عنوان أحد كُتب اقرأ، وهو «مذكَرات دجاجة» للدكتور إسحق موسى الحسيني. كانت تضحك من مجرد فكرة دجاجة تكتب مذكراتها. وطبعاً كان العنوان مجرد غطاءٍ يحوي أفكاراً عميقة عالجه الكاتب. وجدير بالذكر أنني لم أقرأ هذا الكتاب قراءة فهم إلا فيما بعد، حين أصبحتُ مهياً لهذا النوع من الكتابات الرمزية العميقة. بيد أن مؤلفات يوسف السباعي كانت حُلماً لنا، بأغلفتها المذهبة الأنيقة في محلات «ساير داير» بوسط البلدة. وكانت لُعب الأولاد الحديثة المعروضة في ذلك المحل المتعدد البضائع مثار اهتمامي كذلك، فأصبحتُ تتجاذبني هي الأخرى. ومرةً تفاضيتُ عن شراء كتابٍ أريده واشتريتُ لعبة جندي يزحف على الأرض ويتوقف ليطلق بندقيته ثم يواصل زحفه، وكانت حديثَ الجميع في ذلك الوقت.

وبهذه المناسبة، يجدر القول بأن اللُعب قد شكّل جانباً مهماً من حياتنا في تلك الفترة، وكنا نمضي الوقت في ممارسة كل الألعاب المعروفة آنذاك: الكرة الشراب، أولها سنو، النحلة، ألعاب البلي الزجاجي والنيكلي، وألعاب الأعياد مثل «البمب» وشرائط «حبش وإطاليا» والصواريخ. وما زلتُ أذكر شيئاً غريباً كان يحدث في أوائل كل عام؛ إذ كان فرع النيل المسمى هناك «بحر شبين» العريض الذي يخترق المدينة، يجفُّ تماماً لفترة معينة، فكنا نهبط إلى قاعه ونلعب هناك ما شاء لنا اللُعب. وكنتُ أفكر دائماً: ماذا يحدث لو أن مياه النيل عادت فجأةً ونحن في القاع لاهين؟ كانت فكرةً مخيفةً وسببت قلقاً دائماً لي. وأذكر أن ذلك الجفاف كان يحدث في شهر يناير؛ لأن ذاكرتي ما تزال ترى صفحة جريدة «آخر لحظة» التي رأيتها مرةً بعد صعودي من قاع البحر الجاف، ووجدتُ عناوينها الضخمة الحمراء تقول: إقالة النحاس. وكان ذلك بالطبع بعد حوادث حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢م.

ومن مظاهر الترويح والرياضة، كنا مدمنين على ركوب «العجلة»، وكنا نستأجرها بقرش صاغ من محل العجلاتي، ونتسابق بها ونطوف في كل الأرجاء، شرط مصاحبة جندي المراسلة «سعيد» لنا. وقد حدث أن ذهبْتُ مع بعض الأصدقاء، واستأجرنا عجلًا ذهبنا به إلى «كفر المصيلحة» المجاورة للمدينة، حيث قضينا بعض الوقت هناك في ضيافة أحد الزملاء، ولم أكن قد أخطرتُ والديّ بذلك، وقد قلقا لتأخري وتلقّيتُ عقابًا جسيمًا على ذلك. وأذكرُ في واقعةٍ أخرى أنني كنتُ أركبُ عجلةً واحدةً مع أخي الأكبر: هو يبذل وأنا أقود «الجدون» في طريق الزراعية، حين ارتبكنا فجأةً والعجلة في أقصى سرعتها، فإذا بها تنحرف متجهةً إلى ترعةٍ جانبية مليئةً إلى حافتها بمياه الصرف الصحي الراكدة، وكان غرقًا محققًا، لولا عناية الله التي تداركنا؛ إذ اصطدمتُ العجلة في طريقها إلى التربة بشجرةٍ مزروعةٍ إلى جانبها. وسقطنا مبهوتين لا نصدّق ما حدث لنا. ومرةً أخرى، كنا جميعًا نركبُ العجل، حين اصطدمتُ بحائطٍ أسمنتِي وسقطتُ في مواجهته. وبعدها ظللتُ لمدة نصف ساعة أذكرُ للمراسلة ولأخي أنني فقدتُ ساعتِي، وطفق الجميع يبحثون عنها بلا جدوى. وفجأةً، أشرقت الشمس على ذهني على نحوٍ صافٍ غريب، وإذ بي أقول لهم: عمّ تبحثون؟ لقد تركتُ الساعة مع والدتي قبل خروجنا. وفهمتُ أنني فقدتُ الذاكرة طوال نصف الساعة تلك. وكانت من أغرب تجارب حياتي.

ومع تفتح الصبا والشباب، بدأت العواطف الإنسانية تغطي على أحاسيسنا، ووجدتُ متنفسًا طبيعيًا في فتيات أصدقاء العائلة والأقارب، اللاتي كن في سنٍّ مقاربة لسنّنا. وهكذا انتظرتُ بشغفٍ شديد زيارات هاته الفتيات؛ حيث كنتُ أذهب إلى حديقة السجن المترامية الأطراف كي أقطف الأزهار الحمراء لإهدائها للفتاة الصغيرة الزائرة. وكذلك كان هناك قريبٌ لوالدي، وكنا نزوره في شقته الفخمة بالبر الغربي، ونلعب مع ابنته الجميلة العاقلة التي ارتبطت فيما بعدُ بذهني بأغنية أم كلثوم، مصر التي في خاطري، التي سمعتها لأول مرة هناك. وكانت تلك الأحاسيس عاطفيةً رومانسيةً خالصة، تهيم في أجواء الخيال، وتجعلني أشعر على نحوٍ أصدق بقصص الحب وأغانيه وأشعاره وأتوحد معها. أما الأحاسيس الجنسية فكانت تُطل أيامها في لمحاتٍ خاطفةٍ هاجمةٍ جاثقة، عند مرأى صور الممثلّات الأجنبية في المجلات، مثل مارلين مونرو وجين راسل، نجمتي الإغراء في ذلك الوقت، في ملابس الرقص التي ظهرت بها في فيلميهما «الرجال يحبّون الشقراوات»، و«كيف تتزوّجين مليونيرًا؟». ولا أدلّ على عدم جدية الجنس في تلك المرحلة الطفولية من جلوسي ذات يومٍ على حافة التربة التي تفصل مبنى السجن عن مزرعة الأسرة الريفية،

التي تستأجر مساحة شاسعة من الأرض تزرعها بالفاكهة والخضراوات وتتعيّش منها، حين رأيتُ إحدى بنات تلك العائلة، وعمرها حوالي ١٣ عامًا، قد نزلت إلى التربة لتستحم، وتربعتُ على الحافة مصممًا ألا أترجّح حتى تخرج الفتاة لأراها عارية. وقد حضرتُ أمها واستحثتها على الخروج حتى لو رأيتها، قائلة لها: «بلاش دلح بنات». وانفرج الموقف حين قدّفت لها أمها بملابسها، فارتدتّها تحت القنطرة التي تقوم فوق التربة لتصل الشارع بأرضهم، وخرجت تقطر المياه من ملابسها!

ويجدر عند هذه النقطة إعطاء وصف للمكان الذي جرت فيه تلك الأحداث الخصبة. مدينة شبين الكوم بين عامي ١٩٤٩م و١٩٥٤م، يشقّها نهر النيل إلى قسمين؛ قسم يشمل وسط المدينة وفيه المحلات الكبرى والمدارس ودور السينما، وفيما وراءها مناطق سكنية يغلب عليها الثراء. ويشمل القسم الآخر مساكن متوسطة الحال وفقيرة، تنتهي بمباني السجن العمومي الذي تقع فيما وراء الطريق الزراعي والحقول. والسجن العمومي قد تم بناؤه على الطريقة الإنجليزية؛ فمقدمته بوابة ضخمة تفتح رأسياً، وفيها باب صغير للاستخدام العادي، وفوقها لافتة «السجن تأديب وتهذيب وإصلاح». وفوق المدخل فيلا أنيقة لسكن المأمور لها حديقة واسعة تمتلئ بأحواض الزهور وأشجار الفاكهة، ويقوم على خدمتها يومياً فرقة من السجناء بحراسة أحد الجنود. وفيما وراء تلك الحديقة الخاصة، تقع «جنينة السجن»، وهي مساحة شاسعة من الأرض المزروعة تتبع السجن، وتشكل المكان الذي يعمل فيه السجناء طوال النهار في المحاصيل الزراعية، التي تُباع بعد ذلك وتدخل حصيلتها في ميزانية السجن. وفيما وراء البوابة وفيلا المأمور، تقع مبانٍ جهماء صفراء اللون فيها زنانات السجناء. وكانت حديقة المأمور يفصلها جدارٌ عالٍ سميكٌ عن زنانة السجناء، كما يفصل جنينة السجن عن الزنانات جدارٌ مماثل، يقع وراءه مبنى مشنقة الإعدام! وكانت زنانات النساء تقع وراء حديقة المأمور، فكنا في المساء نسمع أصوات السجناء يتصايحن ويتشاجرن، ويغنين ويتبادلن الشكايات والقصص، فكان الأمر أشبه بالمرح الشعبي المرتجل.

وكانت فيلا المأمور تتكون من ثلاثة أدوار؛ غرفة خزين في الدور السفلي، ثم غرف المسكن في الدور الثاني، ثم السطح، وكان هناك سلّمٌ رخاميٌّ فخيم يصل الأدوار الثلاثة؛ حيث تعودنا على الانزلاق على «الدرازين» الخشبي الصقيل عند الهبوط أحياناً. كانت غرف السكن عديدةً واسعة، وخارجها غرفة كبيرة نُطلق عليها غرفة المسافرين؛ أي الصالون حديثاً. وفي سطح الفيلا عدة عُرف للتخزين، كما أن به سلّمٌ يؤدي إلى سارية لرفع الأعلام

في المناسبات الرسمية؛ العلم الأخضر ذي الهلال والنجوم في الأعياد، والعلم الأسود في اليوم الذي يجري فيه إعدام سجين. وحين أتذكّر الآن ما كان يحدث في أيام الإعدام تلك، لا أكاد أصدّق ما كنْتُ أفعل. كنا لا نذهب إلى المدرسة في ذلك اليوم، ونصعد في الصباح الباكر مع الجندي لرفع العلم الأسود فوق المبنى، ثم نطل من النافذة في انتظار وصول «عشماوي»، ونراه يدخل إلى غرفة والدي مأمور السجن، حاملاً معه حقيبةً متوسطة الحجم، ومعه مساعده. وبعد تنفيذ الإعدام، نرى أحد أشد المشاهد غرابة، حين تنفتح بوابة السجن الكبيرة، ليخرج منها جثمان المعدم في نعشه، ويكون في انتظاره جماعتان يفرّق بينهما الحرس؛ جماعة تطلق الصّريخ والصّوات والترحّلات وتتسلم الجثمان — وهي جماعة أقارب المعدم — بينما الجماعة الأخرى تُطلق الزغاريد وتوزّع أكواب الشرابات — وهم أقارب الضحية التي قتلها الرجل الذي جرى إعدامه! وفيما بعد، حين بدأت قراءة التاريخ وأحداثه، كانت فكرة إعدام الملوك والوزراء تملؤني رهبةً وغرابة، ولا سيما في الأفلام التي تصوّر ذلك الحدث، مثل إعدام ملك إنجلترا شارل الأول، وملك فرنسا لويس السادس عشر، والملكة ماري ملكة اسكتلندا، والسير توماس مور في فيلم «رجل لكل العصور»، والذي دهشتُ فيه أن السير توماس أعطى قطعةً ذهبية للجلاد كـ «بقشيش» قبل أن يقطع رأسه! وكان جلّادو كبار القوم هؤلاء يُغطّون وجوههم حتى لا يتم الانتقام منهم لو عادت أسرة الملك إلى الحكم، وهو ما حدّث كثيراً.

ومن ناحيةٍ أخرى، كانت عُرف التخزين في السطح تُثير فضولنا الصباني. وفي ظهيرة أحد أيام الصيف القائظ، خطر على بالنا أنا وأخي الأكبر التنقيب في صحّارة كبيرة من الخشب تركها عندنا أحد أقارب والدي. ولما فتحناها وجدنا فيها أدوات منزلية وملابس، ثم — ويا للهول — كومةً كبيرةً من روايات الجيب محفوظة بعناية، أغلفتها برّاقة زاهية. وكان كنزاً اقتسمته أنا وأخي غير مُلقين بالاً في تلك السنّ الغصّة إلى أي عواقب لما كنا نفعل. وفي حجرةٍ أخرى من حجرات السطح، أقمتُ ورشةً بدائية لتجليد الكتب. وقد بدأنا منذ هواية جمع الكتب في اختيار الثمين منها لتجليده في المحل المخصّص لذلك في وسط البلدة. وأصبحنا اختصاصيّين في أنواع التجليد: عربي وإفرنجي، والأخير يعني «الكعب الجلد»، الذي يمكن كتابة العناوين عليه بماء الذهب. ونتج عن ذلك الاهتمام محاولة القيام بالتجليد كهواية، فاشتريتُ مستلزمات ذلك من مسلّة الخيوط السميكة، والغراء الذي يُستخدم في لصق الأوراق، وأغلّفة التجليد. وقد كانت هوايةً لذيذة، وإن لم أنجح في إخراج أي مجلد على مستوى ناجح.

وفي مواجهة مبنى السجن ترعة صغيرة، تقع وراءها المزرعة التي أشرت إليها سابقاً، ويقطنها أخوان متزوّجان من شقيقتين، ولكلّ منهما أولاد وبنات، وكانت المنازعات والمشكلات لا تنقطع بين الشقيقتين وما ينجم عن ذلك من خلافات بين الأخوين.

كان وصولنا إلى شبن الكوم في حوالي فبراير ١٩٤٩، وكان البرد فيها شديداً عاصفاً. وتم إلحاقنا بالمدرسة الابتدائية هناك. ومن الطبيعي أن يكون تنقلنا الدائم بين المدارس في منتصف العام الدراسي له أثرٌ من الاضطراب النفسي، غير أنني لم أشعر بذلك في تلك الفترة.

وأذكر أن مدرس مادة الطبيعة تلقى شهادتي السابقة من مدرسة المعادي، وأحبّ أن يُجاملنا بما أنه رأى أنني ابن مأمور السجن، فأعلن للتلاميذ أن الشهادة تذكر أن ترتيبتي في الفترة السابقة كان الثالث على الفصل. ولكنني لم أدرك «اللعبة»، وظننتُ أن المدرس قد أخطأ في قراءة الرقم، فرفعتُ إصبعي وقلت: «لا يا أستاذ، أنا ترتيبتي كان ثلاثة وعشرين!» فبهتَ المدرسُ، وصاح بي غاضباً بعبارة لا أنساها أبداً: «الله يخيبك يا شيخ. بقي أنا كنت عاوز أمنجك قدام زميلك.»

وسرعان ما كَوّنتُ صداقاتٍ قليلة مع زملاء الفصل، ولكن المدرسة والدروس كانت عائقاً أمام الوقت الذي أقضيه في القراءة وفي اللعب، فكنا نستغل أيام الإجازات أفضل استغلال؛ ففي مجال القراءة، كان معظم الكتب ما زال مرتكزاً على الروايات البوليسية، وأضيفت إليها الروايات العالمية المُلخّصة التي تصدر في سلسلة روايات الهلال، وكُتِبَ الحب الرومانسي التي كتبها المنفلوطي. وكنتُ كثيراً ما أقرأ كُتبي تلك — إذا كان الوقت ربيعاً أو صيفاً — وأنا جالس في الشرفة، أو في الحديقة، أو جالساً بين أغصان شجرة الجوافة الضخمة مستظلاً بها. وكنتُ أحب مراقبة الفاكهة وهي تنمو صغيرة خضراء، في أشجار المشمش والجوافة والمانجو. غير أنها للأسف لا تكاد تتحول ثماراً ناضجة إلا فيما ندر؛ ذلك أننا لم نكن نمهلها، فنقطفها خضراء لنلعب بها، أو نقذفها بالحجارة حتى تسقط. ولا أذكر أننا أكلنا يوماً من ثمار تلك الأشجار، اللهم إلا شجرة الجوافة، التي كنتُ أكل من ثمارها وأنا أقرأ بين أفنانها الوارفة.

أما الفاكهة الحقة فكنا نأكلها من ثمار المزرعة المقابلة لنا. ورغم أن أصحابها كانوا يتمنّعون عن أخذ ثمنها، كانت والدتي تُصر على إعطائهم ثمن كل ما نطلب؛ فكنا نحب ثمار التين الشوكي في الصباح الباكر، والعنب والمانجو والتين البرشومي وغيرها من الفاكهة اللذيذة.

شكَّلت تلك الأماكن «الموئل» الذي أحاط بتفتُّح مداركي؛ إذ وعيتُ أن هذه الطبيعة الخلابة هي جزءٌ مكمل للمعلومات والقصص التي أطلعها في الكتب والمجلات، بالإضافة إلى الإحساس الجمالي الذي كنتُ أستشعره من مرأى التناسُق الفني في الطبيعة والأزهار والطيور من حولي. وبدأتُ في فترةٍ ما في قراءة قصص محمود تيمور وإبراهيم المازني ونجيب محفوظ. تأثَّرتُ برواية «سلوى في مهب الريح» بكل واقعيَّتها ورومانسيَّتها المضفَّرة. وأطلعنا الكتابُ الذهبي على رواية «خان الخليلي» التي زلزلتُ كياني كله تعاطفًا مع تضحية الأخ الكبير عاكف أفندي، الذي أحبَّ جارتَه حبًّا صامتًا، ثم كتم حبه حين علم بتعلُّق أخيه الأصغر بها، ثم إصابة الأخ الصغير بمرض السل ووفاته. وكان السرد في تلك الرواية ورسم شخصياتها على نحوٍ جديد ترك أثرًا بالغًا في تفكيري عن فن القصة. ورحتُ أبحث عن روايات نجيب محفوظ الأخرى، فقرأتُ زقاق المدق وفضيحة في القاهرة (صدرت بهذا العنوان في سلسلة الكتاب الذهبي، وعنوانها الأصلي هو القاهرة الجديدة). واقتنيتُ أيضًا مجموعة «همس الجنون» وإن لم أتمَّها إلا على مراحل.

وفي شبين الكوم بدأتُ أهتم بالأغاني الجادة. أذكرُ أنني أحببتُ قصائدَ أم كلثوم، وُلد الهدى، نهج البردة، مصر تتحدَّث عن نفسها. واشتريتُ من مكتبة «هويس» نشرةً مطبوعة طباعةً رديئةً بنصوص أغانيها، وأخذتُ أحفظها. وما زلتُ أذكر البيت الذي يقول:

الحرب في حقِّ لديك شريعةٌ ومن السموم الناقعاتِ دواءٌ!

وكانت كلمة الناقعات مكتوبةً بالفاء خطأً «النافعات»، وأخذتُ أغنيها كذلك سنواتٍ طويلة!

وإلى جانب الكتب والأغاني، اكتشفنا الأفلام. كان في شبين الكوم ثلاث دُورٍ للسينما، إحداها مغلقةٌ دائمًا؛ فكانت هناك سينما «نادية» الشتائية في الضفة التي يقع فيها مبنى السجن، وسينما «النصر» الصيفية في الضفة التي بها المدرسة. وكنا نذهب إلى السينما كل يوم أربعاء، ولنا لوجُّ مخصوصٌ فيهما، فكنا نتابع مسلسلي كابتن أميركا وشازام وغيرهما بانبهارٍ شديد، ونرى أيضًا أفلام رعاة البقر، علاوة على الأفلام المصرية الفكاهية والعاطفية، مما غدَّى فينا الخيال، وألهب المشاعر الدفينة في تلك السن الغضة. وتأثَّرتُ تأثرًا كبيرًا بالأفلام التي أشاهدها وروايات المغامرات التي أطلعها، فبدأتُ أنتهز فرصة وجود عدد كبير من الأصدقاء وأدعوهم إلى مشاهدة عروضٍ مسرحية أقدمها أمامهم؛ حيث

أرتجل وحدي أنواعاً من المغامرات والقصص المسرحية التي تعتمد على الأكشن، يستمدها خيالي مما أختزنه من روايات أحدث نفسي بكتابتها تقليدًا لما كنت أقرأ وأشاهد. وكانت تلك العروض تلقى نجاحًا كبيرًا ممن يشاهدها، حتى أدخلت في ذهني أنني سأصبح ممثلًا حين أكبر، وأصبحت أقول لمن يسألني ما أريد أن أفعل في المستقبل إنني سأعمل ممثلًا! وقد أعجبنا أيضًا بالأفلام الفكاهية الهزلية التي شاعت أيامها، من تمثيل لوريل وهاردي وبودابوت وكاستلو وإخوان ماركس. ولم تعد الأجيال الحالية تعرف أيًا من هؤلاء الممثلين الذين ملأوا صبابنا وشبابنا بالضحكات والبهجة.

وكانت نتيجة حضورنا السينما كل أسبوع أن شاهدنا كل الأفلام المصرية التي أنتجت في تلك الفترة، والتي أصبحت رصيدًا مهمًا في ذاكرتنا الفنية بعد ذلك، ومنها الأفلام الاستعراضية الغنائية لمحمد فوزي وفريد الأطرش وليلى مراد. ومن تلك الأفلام قلبي دليلى، وعنبر الذي خرجنا منه في صبابنا باستعراض اللي يقدر على قلبي واستعراض حدش مشغول البال، وبعد ذلك اهتممنا بأغنية مين يرحم المظلوم، وإعادة الموشح القديم «ملا الكاسات وسقاني». وأذكر أنني عاودني الخوف من منظر مكبر للقصبي وهو يتوعد أنور وجدي وليلى مراد بأنهم «سيدبحونها زي الفراخ!» وأفلام محمد فوزي وأغانيه الاستعراضية في فيلم «الحب في خطر»، مثل استعراض جنينة الغرام؛ حيث اختارت صباح إسماعيل ياسين على محمد فوزي؛ لأنه ضحى من أجل لقاءها بأكلة قلقاس وملوخية! أما فيلمه الرومانسي «ورد الغرام» فقد أسعد الجميع وما يزال، بأغنيات شحات الغرام وديالوج «فيه حاجة شغلاك» وقفشات سراج منير وسليمان نجيب حول عمل كل منهما. وأبهجتنا الأفلام الكوميدية الرومانسية لكمال الشناوي وشادية، والكوميديّة الصرف كفيلم المليونير لإسماعيل ياسين، الذي ما يزال يُضحكنا حتى اليوم. وهناك الأفلام الدرامية التي أبكتني مثل فيلم «وداعًا يا غرامي» وفيلم «ابن النيل». وقد عادت ذكرى ذلك الأثر بعد ذلك حين عُرض الفيلم الأخير في التليفزيون في الستينيات، وكان يشهده صبي من أبناء الجيران، فوجدته يبكي عند المناظر نفسها التي كانت تُبكي صغيّرًا. أما الفيلم الذي أضحكنا وأبكنا في الوقت نفسه فهو «غزل البنات»، وأودع عندي أيضًا رومانسية الحب وسُمومهُ الروحي الفائق متمثلًا في أغنية عبد الوهاب «عاشق الروح»، التي كانت وما زالت تغمرني في روحانية صوفية عشقية فائقة، فجمع ذلك الفيلم كل العناصر التي نُحبها، فكان أول فيلمٍ أشتريه على شرائط الفيديو كاسيت حين ظهر فيما بعد.

وفي سينما النصر الصيفية، كانوا يديرون أسطوانات الأغاني حتى يحين موعد العرض، وفي الاستراحة أو في فترات انقطاع الشريط. ويبدو أن مدير الدار كان معجبًا

بفريد الأطرش، فكنا نسمع أغانيه في تلك الفترة مرارًا وتكرارًا: «ليه دايمًا معرفشي بتقولي مقدرشي»، «حبيبي فين»، «أحبك إنت»، «يا زهرة في خيالي» حتى ضجرنا منها ونحن أطفال، ثم ها أنا أسمعها الآن في الغربية في الأفلام التي ظهر فيها فريد في ولعٍ شديد. والحق أن أغاني ذلك الزمن — وحتى هجمة الأغاني الشبابية والحديثة — هي رصيدٌ لا يفنى من الألحان والمعاني الرقيقة والأصوات العذبة، وهي التي طبعت حياة أفراد ذلك الجيل بالطابع الرومانسي في الحب، ومعاناة الفراق والتدلل وصراعات التقاليد والأعراف الاجتماعية. وما زال أغلبنا يعيش مع تلك الأغاني الخالدة، التي بعثها أكثر طبع الأفلام القديمة على شرائط الفيديو والذي في دي، حتى أصبحنا نعيش في طيَّاتها بدلًا من الأغاني الحالية التي لا نستسيغها، ولا تُعبّر عنا بأي حال.

وكانت الأسرة تُضي شهرًا من شهور الصيف في الإسكندرية؛ حيث كنا ننزل في كابين أنيق في حي كليوباترا يملكه أحد أصدقاء والدي. وكان الكابين يُطل على البحر، مما مكَّننا من النزول للاستحمام واللهو في المياه القريبة من الشاطئ؛ فلم نكن قد تعلَّمنا السباحة. وكنا في الليل نلعب مع الأصدقاء والأقارب كل أنواع اللعب والمغامرات المألوفة في تلك السن. ولم أكن أنسى القراءة في المصيف، بعد الاستحمام أمام الكابين، ومَرَّ علينا أحد الآباء يومًا فإذا به يصيح غاضبًا: «إيه ده؟ كلكم كده عندكم ملحوق!»، إذ كانت القراءة ترتبط في ذهنه بالاستذكار والامتحانات فحسب.

وفي مارس ١٩٥٢م بزغت شمسٌ جديدة في ثقافتنا المصرية، بصدور سلسلة كُتب «كتابي»، ثم «مطبوعات كتابي» على يد الأستاذ حلمي مراد. وقد أقبلنا على اقتناء هذه الكُتب بحماسٍ بالغ؛ إذ كانت تصدر في طباعةٍ متقنة وأغلفةٍ برّاقة بثمانٍ زهيد لا يزيد على ثمانية قروش. وكانت السلسلة تقدِّم خلاصةً لأهم الكُتب التي تهَمُّ المثقَّف الواعي، وتتنوَّع كيما تشمل جميع مناحي الأدب والفن والفكر والعلوم، فكان فيها القصص القصيرة، والروايات، وكُتب التاريخ، وسير الحياة، وتاريخ الفن والفنانين، وغير ذلك. وقد عرفنا عن طريق كتابي ومطبوعاته ركيزة الكُتب الأساسية، وبنينا عليها فيما بعد ما يلزم من قراءة الأعمال التي وردت ملخَّصةً في أصولها الكاملة، فمنها عرفنا دون كيشوت، والجريمة والعقاب، والشيطان على الأرض، ومسرحيات مولير، وكُتب علم النفس الحديثة، وحياة وأفكار جان جاك روسو وجورج صاند وجان بول سارتر. وزاد حلمي مراد بعد ذلك فقَدَّم لنا سياحاته في الدول الأجنبية، واللوحات الفنية الخالدة لكبار المصوِّرين الأجانب والمصريين، مطبوعة على «ورق الكوشيه الفاخر».

وفي هذه الأثناء، وقع الحدث الجلل، إذ فاجأنا الراديو ذات صباح (الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢م) بنبا قيام الجيش بحركة عسكرية سلمية، لم يكن أحدٌ يعرف مداها أو ما وراءها، إلى أن سمعنا الراديو يُنبئُه إلى إذاعة بيان مهم في مساء السبت ٢٦ يوليو. ولم يُثر ذلك توقعا خاصا من جانب أسرتي، فكان والدي خارج المنزل، وكانت والدتي في حديقة المنزل مع بعض الزائرات. وكنتُ أنا الذي أستمع بالصدفة إلى البيان، الذي أعلن تنازل الملك فاروق عن العرش، وخروجه من البلاد إلى المنفى. ولا أعلم مدى تأثري بذلك النبا إلا من ردّة الفعل لديّ؛ فقد رغبتُ أن أكون أول من ينقل ذلك الخبر، فهُرعتُ من فوريّ جاريا بسرعة فائقة هابطا السلم، ومندفعا أصيح بأعلى صوتي: «عزلوا الملك، عزلوا الملك!» ولكن النتيجة جاءت سريعا عكس ما توقعتُ؛ فقد كان هناك «خروف» مربوط إلى شجرة بالحديقة، استعدادا لعيد الأضحى الذي كان قريبا، فانتابه الفرع من صياحي، فقطع حبله وانطلق يعدو بأقصى ما يستطيع هنا وهناك. ونسي الجميع الثورة والملك، وانطلقوا وراء الخروف للإمساك به، وهو ما نجحوا فيه بعد جهدٍ جهيد.

وكان وقع الثورة وتغييراتها كبيرا في الحياة من حولنا، وأصبحنا نستمع إلى أغنياتٍ وطنية جميلة: «صوت الوطن» لأُم كلثوم، دعاء الشرق لعبد الوهاب، «على الإله القوي الاعتماد» لليلى مراد، «ما خلاص اتعدلت» لأحمد عبد الله. وبالطبع «نشيد الحرية» لعبد الوهاب، الذي أصبحت مقدمته الموسيقية فاتحة نشرة الأخبار بدلا من موسيقى مارش النصر في أوبرا عايدة لفردي.

وكنا نحن الذين في عمرنا الغضّ مدفوعين إلى الحماس بما يدور حولنا، دون أن ندرك مدى هذا التغيير ومعناه. وبدا والدي قلقا من التغييرات المرتقبة ومن «حملات التطهير» التي بدأ رجال الثورة إجراءاتها في كل دوائر الحكومة، ولكنه اطلع على التقرير الذي تم وضعه عن ضباط مصلحة السجون — وكانت تابعة أيامها لوزارة الحربية — وجاء فيه أنه يُعد من أشرف الضباط وأطهرهم يدا. وبعد ذلك بقليل، نال ترقية إلى رتبة القائمقام (العقيد حاليا)، وبعد ذلك بشهور نُقل إلى سجن الحدراء (الحضرة) بالإسكندرية.

الإسكندرية

١٩٥٤-١٩٥٥ م

كان الانتقال إلى الإسكندرية عاملاً مثيراً بالنسبة إلى الجميع؛ فوالدي متوجه إلى سجنٍ أكبر ومدينةٍ مهمة، رغم أنه لن يكون مأمور السجن بل وكيلاً له؛ إذ إن المأمور لا بد أن يكون في درجة الأميرالاي. وكنا نحن الأولاد الثلاثة تواقين إلى التغيير والخروج من ربقة الحياة في «الأقاليم» إلى ثاني مدن الدولة، خاصة أننا نعرفها جيداً، ولنا فيها أقاربٌ كثيرون وأصدقاءٌ لهم أولادٌ وبنات في مثل عمرنا. وكانت الشغالة التي عملت لدينا سنواتٍ طويلة سعيدةً هي الأخرى بهذا الانتقال؛ فقد كانت — كما عرفتُ بعد ذلك — تأمل أن تجد زوجاً بسهولة هناك، بعد أن فشلت في ذلك في شبين الكوم. كذلك نجح والدي في نقل جندي المراسلة — سعيد — الذي عمل معنا منذ إقامتنا في دمنهور.

وكان انتقالنا تلك المرة في الصيف، فلم نصادف مشكلة قطع الدراسة في منتصفها، كما حدث في شبين الكوم، فألحقنا والدي أنا وأخي الأكبر بمدرسة العباسية الثانوية بمحرم بك، واختار لي القسم الأدبي ولأخي القسم العلمي. وكان اختياراً عشوائياً موفقاً؛ فقد كنتُ أكره الرياضيات والعلوم، وأفضل الدراسات الأدبية والتاريخية. والتحق أخي الأصغر بمدرسةٍ إعداديةٍ قريبة. واستأجر والدي شقةً متوسطةً في حي الإبراهيمية في عمارة يمتلكها أحد معارفه. ولأول مرة نجد أنفسنا في وسط مبانٍ سكنية، في شقة لها شرفتان تطلان على المباني المجاورة في شارعين متقاطعين. وانتقلنا نقلةً كبيرة من الأقاليم والمسكن الخاص ذي الحديقة إلى تلك الشقة. وكانت الإبراهيمية في ذلك الوقت مليئة

بالأجانب المهاجرين في مصر من اليونانيين والإيطاليين أساساً؛ فمصر كانت لا تزال بلداً جاذباً للهجرة قبل أن ينعكس الحال وتصبح بلداً يهاجر منه كل من استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وعاينتُ الشقة ومكاني فيها، وغمرتني الإثارة؛ إذ رأيتُ كثيراً من الفتيات الحسنات في الشرفات المقابلة لشرفتي، ومن هنا بدأت صلتي بواحدةٍ منهن، هي مارينا الإيطالية، التي كانت في مثل سني.

وشَهِدْتُ إقامتنا في الإبراهيمية نوعاً من الحرية النسبية لنا، فأخذتُ في التجوال والتعرُّف على كل أنحاء الإسكندرية، وأحببتُ وسط البلد الأنيق بمحلاته الجميلة البرّاقة، ودور السينما، وشارع فؤاد، ومحطة الرمل. وأذكرُ أن أول سُلّم كهربائي متحرك في مصر كان في نفق محطة الرمل، وكان حدثاً جديداً أيامها. كانت الإسكندرية قد بدأت تتخذ صفة المدن الساحلية في أوروبا، من تناسُقِ عمراني وجمال في التخطيط والتنظيم. كان ممكناً أن تصبح مثل مرسيليا، وبرشلونة، ونابولي، إن لم تتفوّق عليها. وبها دور سينما فاخرة: أمير، وريالتو، ومترو، ورويال، وستران. وهناك أيضاً سينمات الدرجة الثالثة للتلاميذ: بلازا، وفؤاد، وكونكورديا، والشرق. وتميّزت تلك الفترة بهيامنا بالسينما والأفلام الأجنبية، فشاهدتُ منها كميةً كبيرةً في تلك السينمات، وكانت تُصَب ما تزال في أفلام المغامرات ورعاة البقر والأفلام التاريخية. ورأيتُ أول أفلام السينماسكوب هناك، وأظنه كان فيلم الرداء، الذي كان بارع الإخراج والتمثيل، وأبطاله ريتشارد بيرتون، وجين سيمونز، وفكتور ماتيور. وهؤلاء الممثلون — إلى جانب روبرت تايلور، وجون وين، وكلارك جيبيل، وروبرت ريان، وتيرون باور، وجين تيرني، وبربارا ستانويك، وجنيفر جونز، وسوزان هيوارد — كانوا ممثلي زماننا، ولهم صفاتٌ مميزة تختلف عن أبطال اليوم مثل توم كروز، وبراد بت، وأنجلينا جولي، وكامieron دياز.

وسرعان ما تعرّفتُ على الأماكن التي أحب ارتيادها في الإسكندرية، والمكتبات التي يمكنني أن أرى فيها أحدث المطبوعات العربية، وأرتّبُ لشراء ما أريده منها حسب مصروفي. واستمرّت قراءاتي في محيط السلاسل الشهرية وأدباء القصة المعروفين. وصدرت مجلة «الثقافة الجديدة»، وبدأتُ تنشر رواية نجيب محفوظ «بين القصرين» على حلقات، فتابعتها وأنا مبهور بسردها وشخصياتها ولغتها، ودفعني ذلك إلى إعادة قراءة روايات محفوظ السابقة: خان الخليلي، بداية ونهاية، زقاق المدق، السراب. وقد بهرتني بين القصرين منذ بدايتها، حتى إنني بدأتُ أنسخ بعض حلقاتها بخطي كما هي حتى أزيد

من درجة استيعابي لها. وواصلتُ جمعي لُكْتُب يوسف السباعي الفاخرة. وأذكرُ أنني كنتُ في ميدان المنشية، ورأيتُ كتاباً حديثاً للسباعي ثمنه خمسون قرشاً. ولم يكن في جيبِي إلا هذا المبلغ، فابتعتهُ ثم اضطررتُ إلى العودة للمنزل سائراً على قدمي مسافةً طويلة؛ حيث لم يكن معي ثمن تذكرة الترام أيامها، وهي مجرد «تعريفة»؛ أي خمسة ملاليم!

وقد عَرَفْنَا الإسكندرية قبل انتقالنا إليها، ولكنَّ بقاءنا الدائم فيها جعلني أرتاد أحياءها المختلفة، وأتذوّقها على مهل، فأعجبني حي فكتوريا بمبانيه الكلاسيكية الأنيقة وسكانه الأجانب. وزرتُ حدائق الشلالات وطُفْتُ في أرجائها. وزرتُ المقبرة اليونانية التي كنتُ أراها دائماً عند مرور ترام الرمل، وأتعبتُ من وجود التماثيل الرخامية بها. وأحببتُ مقاهي الإسكندرية، وكان يصحبني إليها ابن عمي الموظف في شركة بترول أجنبية. وأحببتُ أكثر ما أحببتُ مقهى «إيليت» الجميل الذي يُشعِرني أنني في جوٍّ أوروبي خالص.

وحين كنا في شقة الإبراهيمية، وقعت أحداث ميدان المنشية حين تعرّض جمال عبد الناصر لإطلاق الرصاص، وكان والدي بحكم عمله موجوداً في ذلك الاحتفال. وسمعنا الحادث في الراديو ولم نهدأ بالاً إلا بعد عودة والدي بعد ذلك، وطمأننا أن الجميع بخير. وتلا ذلك الحادث إجراءاتٌ خطيرة في البلاد، ما زلتُ أذكرها عن طريق عناوين الصحف الكبيرة الحمراء، عن الاعتقالات والمحاكمات، ثم اتهام اللواء محمد نجيب بالضلوع في المؤامرة، واختفائه من مسرح الأحداث. وأدت تلك التطورات إلى إخراج المزيد من ضباط الجيش والبوليس من العمل، مما دفع إلى ترقية والدي إلى رتبة أميرالاي وتعيينه مأموراً للسجن. وتبع ذلك انتقالنا من مسكن الإبراهيمية إلى فيلا المأمور في سجن الحدراء. وكانت لها حديقةٌ مربعةٌ ساحرة، تتوسطها نافورةٌ أندلسية صغيرة جوانبها مغطاة بالزليج الأزرق الجميل. وذكرياتي في ذلك المسكن قليلة وغير مؤثرة؛ لأننا لم نمكث فيه سوى شهور قليلة جرى بعدها نقل والدي إلى القاهرة وكيلاً لمصلحة السجون، ولكننا بقينا بالإسكندرية إلى حين انتهاء العام الدراسي.

وقد استمتعتُ في تلك الفترة بشوارع الإسكندرية الظليلة في حي الرصافة خلال الخريف. وفي الشتاء، أذكرُ يوماً هطل فيه بردٌ كبير الحجم علينا ونحن في طريق العودة من المدرسة، وهو ما لم أره من قبل.

وساعدتُ المواد المقررة علينا في السنة الثانية الثانوية في استكشافي المزيد من الموضوعات التي أحبها، وزادت من قراءاتي التاريخية والأدبية، فواصلتُ قراءة روايات

التاريخ الإسلامي لجورجي زيدان، وأحببتُ منها في تلك الفترة روايات فتح الأندلس والانقلاب العثماني والملوك الشارد. كما استمرَّت سلسلة كتابي ومطبوعاتها في تعريفنا بالكتب والروايات التي تستحق القراءة. ورغم أننا قد بدأنا ندُرُس مادة الفلسفة والاجتماع، فيبدو أنني لم أكن أستذكرها جيداً؛ إذ حصلتُ في التيرم الأول على درجة ٤ من ٢٠ في الفلسفة، مما أثار غضب والدي. أما في التيرم الثاني، فقد نلتُ ٢٠ من ٢٠. ما سبب هذه الطفرة الفجائية يا تُرى؟ لقد قام مدرس الفلسفة والاجتماع بزيارة ميدانية مع مجموعة من طلبة الثانوية إلى سجن الحدراء العمومي؛ حيث استقبلهم والدي بحفاوة بالغة. وفي أول حصة فلسفة لنا بعد تلك الزيارة، توجه لي المدرس قائلاً: «إنت ليه ضعيف في الفلسفة كده رغم إن والدك فيلسوف عظيم!» وكان ذلك بداية اتجاه أخذ ينمو ويتزايد مع رسوخ أقدام سادة البلاد الجدد من الضباط. وقد كان إلى جواربي في مدرسة العباسية تلك حسين عبد الناصر، الأخ غير الشقيق لجمال عبد الناصر. وحدث أن تشاجر مع أحد زملائنا الطلبة في نفس الفصل شجاراً عادياً، مما يحدث مثله مئات المرات في أي مدرسة، ولكن فوجئنا بغياب الطالب الآخر أسبوعاً، علمنا بعد عودته أنه تم عقابه بالفصل تلك المدة بسبب شجاره مع حسين. وأذكر أن الطالب المفصول بدا عند عودته ثائراً يتساءل: هل أصبح ذلك الشخص كعباً لا يمكن أن يمسه أحد؟ ولكني أشهد أن حسيناً كان عادياً في تصرفاته وهادئاً، ولا يبدي أي زهو أو تميز بسبب صلة القربى تلك، وإن كان يفعل ما يفعل بنفس الصمت والهدوء اللذين تميّز بهما أخوه الرئيس.

وفي فيلا سجن الحدراء، لم تكن هناك مبانٍ مجاورة أستمتع فيها برؤية الغيد الحسان كما في شقة الإبراهيمية؛ لذلك فقد فاضت عواطفني إلى خارج منطقة السكن. وأصبحتُ أتتبع تلميذة أراها كل صباح قبل الدخول إلى مدرستي، بعد أن يتركنا المراسلة سعيد ويعود إلى المنزل. كان يجذبني إليها — كالعادة — الوجه الملائكي الجميل المشرب بالحمرة، وأنف روماني أحبه تأسّياً بأنف الممثلة سوزان هيوارد، التي كانت أثيرة لديّ آنذاك.

وفي أحد الأيام، وكان يوم جمعة، كنتُ عائداً من وسط البلد بعد حضور الحفلة الصباحية بإحدى دور السينما، إذ بي أفاقاً بوجود جنود يضربون حصاراً حول السجن وما يُجاوره، ويمنعون المرور إليه. وأخبرتُ أحد الجنود أنني ابن مدير السجن فسمح لي بالمرور. وسمعتُ زميله يؤنبه على السماح لـ «كل من هب ودب» بالمرور، ولكنني أسرعتُ إلى المنزل لأعلم ما حدث. لقد قام عدد من السجناء السياسيين بشغب. وكان والدي قد انتقل

قبل ذلك إلى القاهرة؛ ولهذا كان بعيداً عن التحقيقات التي تلت ذلك الحدث. وصعدنا إلى سطح المنزل نرقب ما يحدث. وقد قمع الضباط والجنود الشغب، وأمكن السيطرة على الموقف بسهولة، وعاد الهدوء إلى السجن.

وقد أدّى ذلك إلى ضرورة انتقال المأمور الجديد إلى فيلا السجن، مما دعانا إلى استئجار شقة جديدة كيما نكمل في الإسكندرية العام الدراسي؛ وعليه فقد تركنا مبنى السجن، وانتقلنا إلى شقة متوسطة في حي محرم بك بالقرب من المدرسة. وفي شقة شارع القاهرة هذه عرّفنا أولى محاولاتنا في الترجمة؛ فقد شُغِفْتُ بقصة الرجل الخفي تأليف هـ. ج. ولز في طبعة لونجمان المبسطة. وشعرتُ ببهجة الترجمة ونقل المعاني من لغة إلى أخرى في تلك المحاولة المبكرة. وكنا في المدرسة نطالع مختارات بالإنجليزية من عديد من المؤلفات، بالإضافة إلى رواية مذكرات بكويك لتشارلز ديكنز في طبعة مختصرة. وقد شجّعني ذلك على البحث عن مزيد من الكتب الإنجليزية المبسطة ومطالعها.

وفي ذلك العام الذي قضيناه في الإسكندرية، فاق اهتمامي بالسينما والأفلام اهتمامي بالكتب إلى حدٍّ ما، فأخذتُ أرتاد دور السينما أكثر من مرة في الأسبوع، ورأيتُ بدايات السينما الإيطالية التي تخصّصت سينما ريو في عرضها، والأفلام الكلاسيكية في سينما محمد علي، وتعرّفتُ لأول مرة على قصة أوليس في الفيلم الرائع الذي مثّله كيرك دوجلاس. وتحّدّد ما يعجبني من ممثلين وممثلات في ريتشارد ويدمارك، جريجوري بك، سوزان هيوارد، آفا جاردنر، روبرت ريان، روبرت ميتشوم، جنيفر جونز، وكثير غيرهم. وعمدتُ إلى إعلانات الأفلام التي تُنشر بالجرائد فأقُصّها وألصقُها في مفكراتٍ صغيرة جمعتُ منها العشرات.

كذلك استمرّت اهتماماتي بالأغاني، وبهرتني أغنية النهر الخالد لعبد الوهاب، وبدأتُ أشعر بأحاسيس العاطفة الرومانسية مع أوائل أغاني عبد الحليم حافظ. ولم تجذبني كثيراً الأغاني الوطنية التي ظهرت في ذلك العام، مثل يا جمال يا مثال الوطنية لأُم كلثوم، وكانت ما تزال بعبارات بنجارتك يوم المنشية قبل أن يُستبدل بها ألفاظ برياستك للجمهورية عام ١٩٥٦م! وظللتُ أهيّم بأغاني أم كلثوم وعبد الوهاب العاطفية، وسيطرّت عليّ منها همسةٌ حائرة، ومن أد إليه كنا هنا.

وشهدتُ آخر أيامي بالإسكندرية، أول خطابٍ أكتبه ويُنشر في صحيفة كبيرة باسمي، في جريدة الجمهورية؛ فقد قرأتُ فيها رأياً للكاتب محمد صبيح، في عموده الصحفي «من النافذة»، عن عدم اهتمام الشعراء بالتغني بنهر النيل العظيم في قصائدهم، فعارَضْتُ

هذا الرأي واستشهدتُ بقصيدة النهر الخالد لمحمود حسن إسماعيل، وذكرتُ البيتَ الذي يقول: «يا واهبَ الخُلْدِ للزمانِ ... يا سَاقِي الحُبِّ والأغاني.» وقد نشر الأستاذ صبيح رسالتي كاملةً وعلّق عليها. وقد صدرَ ذلك العدد من الجمهورية يوم سفرنا إلى القاهرة، وكان أول شيءٍ بحثتُ عنه لدى وصولنا إلى العاصمة.

القاهرة

٥ شارع محمد شكري

سَعِدْنَا حين رأينا شَقَّتَنَا في ٥ شارع محمد شكري بالعجوزة؛ فهي واسعة، مُشرقة، جديدة لم يسكنها أحدٌ قبلنا، بها شرفتان، وحَمَامٌ ونصف. وهي تقع في منطقة هادئة، في شارعٍ تصطفُ فيه الأشجار ذات الأزهار الحمراء الوهاجة، وأمامها فضاءٌ شاسع يظهر على البعد منه عماراتٌ شاهقة عرَفْنَا بعد ذلك أن اسمها عمارات السعودية. والأهم من ذلك أن المدرسة التي قَبِلْتُ أوراقنا أنا وأخي الأكبر للثانوية العامة — وهي مدرسة الأورمان الثانوية النموذجية — كانت على مَبْعَدَةٍ دقائقَ سيراً من الشقة. وكان للشقة بابان؛ أحدهما الرئيسي ويُفضي إلى الصالة، والآخر جانبي يُفضي إلى غرفة الصالون. واحتلَّ والدي الغرفة التي بها الشرفة المُطلَّة على الشارع، واقتسمتُ مع أخي الأكبر غرفةً داخلية، بينما اتخذتُ والدتي الغرفة القصوى هي وأخي الأصغر. وكانت الشغالة تنام في غرفة المطبخ.

وكان استكشاف معالم القاهرة متعةً خالصة لي. وكالعادة كنتُ أركُزُ على دور السينما والمكتبات، وكان أول فيلمٍ شاهدناه هو «ثورة المدينة» لمحمد فوزي وصباح. وعرفتُ خط أوتوبيس أبو رجيعة رقم ٦ الذي يذهب إلى وسط البلد، وكذلك ترام رقم ١٥ الذي يشقُّ شارع النيل الرئيسي، ويربط الجيزة بميدان العتبة. وبالطبع، كان أهم اكتشافٍ لي في القاهرة هو سور الأزيكية بذخائره التي لا تُعد ولا تُحصى من الكتب والمجلات وجميع المطبوعات بكل اللغات. كان كنزاً وانفتح أمامي، فأصبحتُ أتردّد عليه كلما استطعتُ مستمتعاً بمرأى الكتب والطواف عليها. وبدأتُ أشتري الكتب التي تعودتُ عليها: روايات الجيب، وروكامبول، وما فاتني من روايات الهلال ومطبوعات كتابي

بقروش زهيدة. وبدأتُ أيضًا في اقتناء القواميس الصغيرة إنجليزي - عربي، وإنجليزي - فرنسي.

وفي مدرسة الأورمان، وجدتُ نفسي في وسطٍ لم آلفه من قبلٍ من حيث مستوى الطلاب فيها. كنتُ متعودًا أن أكون من بين المستوى الأعلى من التلاميذ دائمًا، بالنسبة إلى مجموع الطلاب في أي فصل. أما في الأورمان، فكان معي طلبة من عليّة القوم، وأثريائه على وجه الخصوص. كان هناك من زار أوروبا وله صورٌ مع برج إيفل في باريس، والكثيرون يحضرون إلى المدرسة في سياراتٍ خاصة ويرتدون أفخر الملابس. بيد أنني لم أشعر بأي إحساسٍ مغاير؛ إذ لم أكن أفكر في تلك الأمور على الإطلاق، كما أنني كنتُ أعتبر من طبقةٍ مناسبة أيضًا باعتبار والدي في رتبة اللواء، في وقتٍ كان الضباط هم أصحاب الحل والعقد في البلاد، ولكنني لم أكن أرى أننا من طبقة الأثرياء؛ فرغم أن والدي كان يتوجه إلى عمله بمصلحة السجون في شارع قصر النيل في عربية حكومية فاخرة يرتفع في وسطها العلم الرسمي، لم تكن لدينا عربية خاصة، وإذا خرجنا في العطلات نركب الأوتوبيس. وكان الركاب يندهشون لرؤية والدي حين يكون معي بزيه العسكري في الأوتوبيس؛ فلم يكن مألوفًا ألا يكون لأحدٍ في هذه الرتبة عربية خاصة. وكان الكمسارية يرفضون أن يتقاضوا ثمن التذكرة مني، أما والدي فقد كان يركب مجانًا بحكم عمله!

وكانت الدراسة الثانوية جادة، وتخصّصتُ في مادة التاريخ، وتنافستُ مع بعض الطلبة في اللغة العربية واللغة الإنجليزية. وكان تشجيع مدرس اللغة الإنجليزية (الدكتور) جرجس الرشيدي عاملًا هامًا في بداية قراءاتي الجادة خارج المقرر. وأذكر أنني كنتُ أقرأ رواية أوليفر تويست في نسختها المبسطة، فرآني الأستاذ الرشيدي فصاح مستنكرًا عبارته التي ما زلتُ أذكرها: what a shame, Maher، وكان يعني أنني يجب أن أقرأ الكتاب الأصلي الكامل وليس التبسيط. وكنا ندرُس في الإنجليزية موضوعاتٍ أخرى من كتاب العام الماضي «المخترات»، بالإضافة إلى مسرحية «كرايتون العجيب» تأليف ج. م. باري، التي طالعتها بنهم وإعجاب. وسرعان ما اشتريتُ أول قواميسي الكبيرة من الإنجليزية إلى العربية من سور الأزبكية، وهو قاموس سعادة من جزأين، وقد اصفرتُ أوراقه، وسرعان ما بدأتُ تتآكل.

أما في اللغة العربية فقد درسنا - ضمن جملة أشياء - مسرحية مجنون ليلى، وكنا نتنافس في إلقاء أبياتها وفهم معانيها. وساعدني على حفظ بعضها غناء عبد الوهاب للكثير من مقاطعها: الدويتو مع أسمهان، جبل التوباد، تلفتت ظبية الوادي.

كانت مواد الثانوية العامة مقدمةً معقولة للدراسات التي سأقبل عليها بعد ذلك. ولما كان تخصصي في التاريخ، استهوتني دراسة الثورة الفرنسية التي درّسناها باستفاضة. كان مدرسو الأورمان على قدر عالٍ من التمكن في تخصصاتهم، فكانوا يُحبّبونا في المواضيع التي يُدرّسونها لنا. ورغم كل حبي للأدب والتاريخ والكتب، دفعتني العادة في التفكير إلى وضع اختياري للكلية في شهادة التقدّم لامتحان الثانوية العامة على الترتيب التالي: كلية الطيران – كلية البوليس – كلية الآداب. كنتُ في الخامسة عشرة من عمري آنذاك، أنظر إلى وظيفة الضابط نظراً طبقيّة؛ فهي وظيفة مرموقة ومضمونة. ولما كان والدي وكثيرٌ من أفراد عائلتي من الضباط، لم أكن قلقاً من ناحية كشف الهيئة، ولم يخطرُ على بالي حينئذٍ عقبة الكشف الطبي.

كان الاستعداد للامتحان شاقاً، وكان نجيب أفندي صديق والدي يحضرُ كي يشرح لنا ما نريد من الدروس، وكنا نعرفه من أيام شبين الكوم. وقد عبّرنا أيام الامتحان على خير، وتحرّرنّا بعدها في انتظار النتيجة. وعُدْتُ إلى القراءة الحرة والأفلام وسماع المسلسلات في الراديو والأغاني التي أحبّها، والجلوس مع والدي في البلكونة المطلة على الشارع.

وظهرت النتيجة ونجحتُ أنا وأخي، وتقدّمنا بأوراقنا: هو إلى الكلية البحرية وكلية البوليس، وأنا إلى كلية البوليس وكلية الآداب جامعة القاهرة. وكانت هذه أول سنة يُطبّق فيها نظام مكتب تنسيق القبول بالجامعات. وفي كلية البوليس، التي كان مقرها في حي العباسية، اجتزْتُ كشف الطول والوزن. وذهبتُ لأداء الكشف الطبي، وذهب معي أحد الضباط من العاملين مع والدي، ولكنني فوجئتُ برسوبي في كشف النظر. كان المطلوب ٦ على ٦ في كلتا العينين، ولكن عيني الشمال كانت ٦ على ٩. وتقرّرت لي إعادة. وفي الفترة بين الكشف وإعادة، فعلنا كل شيء لتقوية النظر، من أكل الجزر إلى التطلّع لمُدٍ طويلة إلى الحشائش الخضراء في المتحف الزراعي المجاور لبيتنا، بالإضافة طبعاً لمحاولات التوصية والوساطة. وفي إعادة الكشف، رسبتُ ثانيةً في النظر. ورسبتُ أيضاً في إعادة الثالثة والأخيرة.

وتم قبولي بكلية الآداب جامعة القاهرة، وقُبِل أخي بكلية البوليس. وكنتُ قانعاً راضياً بكلية الآداب، وأقبلتُ عليها بنفس مفتوحة، ومضيتُ قدماً في إجراءات القبول بها. وفي الكشف الطبي، اجتزْتُ اختبار النظر بدرجة ٦ على ٦ في كلتا العينين، ولكنهم طلبوا مني إجراء كشف أشعة على الصدر نظراً لنحافتي. وجاءت أشعة الصدر سليمة، وبقي

أن أختار القسم الذي ألتحق به في الكلية. وحين طلبتُ الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية، انضح ضرورة أن أكون قد تخصصتُ في تلك المادة في الثانوية العامة، فاخترتُ قسم الاجتماع كبديل، ولكن والدي لم يرتحَ لذلك الاختيار، وأصرَّ على أن ألتحقُ بقسم اللغة الإنجليزية حيث المستقبل أفضل، وكان ذلك بصيرةً منه حيث ثبت ذلك قطعياً ولو بعد عدة عثرات. وسعى والدي لدى معارفه للتوسط عند عميد الكلية. وتدخلَ القدر في ذلك بعد أن التقى عند أحد أطبائه بصديقٍ للعميد وعَد أن يُحادثه في الأمر. وبالفعل، تم قبولي بقسم اللغة الإنجليزية، وكان ذلك في سبتمبر ١٩٥٦م.

وكانت المحاضرات الأولى استكشافية، للتعرفُ على ذلك العالم الغريب الجديد في الجامعة. معنا فتياتٌ كثيرات، وهناك معيداتٌ فانتات. هناك موادٌ عامة للسنّة الأولى كلها، مكانها المدرّجات الكبيرة، مثل مدرّج ١٣ في مبنى القسم، أو ٧٤ في مبنى الكلية، ثم ينقسم الطلاب إلى مجموعاتٍ لحضور موادٍ معيّنة. وفتحت لي دراسات القسم مجالاتٍ جديدة للقراءة والمعرفة. كنا ندرُس النقد، الشعر، الرواية، جغرافية إنجلترا وتاريخها، اللغة اللاتينية، اللغة الفرنسية. وكان العميد، الدكتور عز الدين فريد، هو الذي يُدرّس لنا التاريخ والجغرافيا. وكانت محاضراته في مدرّج عامٍ كبير، ويتكلم بهدوء ووضوح، وينتقي كلماته، ويحدّثنا عن أمورٍ ثقافيةٍ عامة إلى جانب مادة الدراسة، مما جعل محاضراته متعةً عظيمة. ودفعني ذلك إلى شراء كُتب «أكسفورد» عن تاريخ إنجلترا من على سور الأزبكية، بالإنجليزية، مما ساعدني كثيراً على هضم تلك المادة التي تُشكّل رافداً مهماً لدراستنا للأدب والحضارة الإنجليزيّين.

أما في الرواية، فقد درسنا مرتفعات وذرنج لإيميلي برونتي، وكنتُ قد قرأتُ ملخصها في كتابي، وصدرت بعد ذلك كاملةً في مطبوعات كتابي، واشتريتُ الترجمة اللبنانية لها كيما تسهل لي مطالعتها بالإنجليزية، وكتمرين على الترجمة أيضاً. وسعدتُ جداً بالرواية وأجوائها، وبالرومانسية التي تشيع في حب هيثكليف لكاثي. وحين بدأتُ في مطالعة المقالات المقررة علينا في كتاب النقد الأدبي، واجهتُ صعوبة في فهم العبارات ومقاصدها؛ فقد كان أسلوبها جديداً عليّ تماماً. وكان من بين تلك المقالات «التقاليد والموهبة الفردية» لإليوت، وهو من معالم النقد الجديد الذي كان يُشيّعه الدكتور رشاد رشدي، رئيس القسم آنذاك. وفي الشعر، درسنا كتاب «الذخيرة الذهبية» لبلجريف، وكانت به مقطوعاتٌ ممتعة أدخلتني مباشرةً إلى زُبدة الشعر الإنجليزي، خاصةً الشعراء الرومانسيين.

وبدأتُ أَكُونُ صداقاتٍ مع بعض الزملاء في القسم، فتعرَّفتُ على صلاح ونبيل ووهيب وحلمي وعبد الرحمن وعبد الستار وحامد وتهامي. ولم تكن العلاقة مع الفتيات سهلة، فلم تتعدَّ صلاتنا بهن التحية والأسئلة العابرة.

وفي وسط كل هذا، وقع العدوان الثلاثي في أواخر أكتوبر ١٩٥٦م. وكنتُ في الكلية مساء يوم، حين أخرجونا من محاضرة المعيدة «ثريا» قائلين إن الدراسة بالجامعات قد توقَّفت لأجلٍ غير مسمَّى. وعُدنا إلى المنزل في توجُّس وترقُّب. وعشنا تلك الأيام القليلة في فورة من الحماس الوطني، من خطاب عبد الناصر في الأزهر، وغارات الطائرات على المدن المصرية، والإنزال في بورسعيد، وعمليات المقاومة المصرية الشجاعة. وطوال تلك الفترة، كنا ملتفتين حول الراديو نسمع أخبار القتال، وتوقَّفت محطة الشرق الأدنى التي كانت تُذيع بالعربية من قبرص فتأكَّدت تبعيَّتها لبريطانيا. وجاء عدد من أفراد الجيش وتمركزوا في أسفل عمارتنا في ٥ شارع محمد شكري، وبات البلد كله في حالة حرب. واستمرَّت المناوشات في بورسعيد وحرب العصابات ضد القوات المعتدية هناك، واتضح من الأيام الأولى تأمر بريطانیا وفرنسا وإسرائيل للقيام بهذا العدوان الثلاثي. وأفرخت هذه الظروف الكثير من الأناشيد والأغاني الوطنية التي ألهمت حماس الناس وباتت على كل لسان: والله زمان يا سلاحي، الله أكبر، دع سمائي ...

ولم أنقطع في تلك الأثناء عن القراءة وزيارة سور الأزبكية. وكانت إميلي بروننتي قد أعجبتني، فواصلتُ قراءة روايات الأخوات بروننتي الأخرى، مثل جين إير وفيليت، كما قرأتُ عن حياتهن الغريبة. بيد أن تحولاً رئيسياً طرأ عليَّ في تلك الفترة، وجعلني أشعر، مرةً أخرى، بضرورة الالتحاق بكلية البوليس لضمان مكانة اجتماعية لائقة، على أن تكون القراءة والأدب والفن هي الهوايات الأساسية التي أمارسها بجانب عملي. وشجَّعني على ذلك ما رأيته من إحرابي المعدل المطلوب للنظر في كشف الجامعة الطبي. وكنا نزور أخي الأكبر في الكلية بعد انتهاء فترة ٤٥ يوماً من العزل الكامل. وفي زيارتنا الأولى، وجدتُ بعض الطلبة ييكون عند مرأى أسرتهن، ولكن أخي كان سعيدياً بدراسته وبزيارتنا. وبعد ذلك، انتظمت زيارته لنا في عطلة نهاية الأسبوع.

وعاد السلام إلى مصر بعد نجاح الأمم المتحدة وقوات الطوارئ في حل الأزمة، وانسحبت القوات الغازية كلها، وساعد على ذلك طرفا النقيض: الاتحاد السوفييتي وأيزنهاور. ولم نعلم نحن المصريين في ذلك الوقت بمرور السفن الإسرائيلية بمضيق تيران حتى أزمة ١٩٦٧م. بيد أن الجميع كانوا مبهورين بقدرة مصر الناصرية على صد

عدوان ثلاث دولٍ مجتمعة وإجبارها على سحب قواتها والخروج من الأراضي المصرية. وبدا انتصار مصر في انتهاء اتفاقية الجلاء بينها وبين بريطانيا، وما حدث من بعدُ من استقالة إيدن، رئيس وزراء بريطانيا أيام العدوان، وسَعدنا بصوت أم كلثوم يشدو «صوت السلام»، وفائدة كامل تغني «عاد السلام يا نيل».

وانتظمتنا في الدراسة ثانية، ولكن قرارى بترك كلية الآداب والالتحاق بكلية البوليس استمر، مخلفاً أثراً ضاراً وعميقاً في تحصيلي الجامعي؛ فلم أعد أهتم بالمواد والكتب المقررة علينا، ورحتُ أطلع ما أريد من كتبٍ خارجية بالعربية والإنجليزية. وعرفتُ طريقي إلى مكتبة مدبولي بوسط البلد بميدان سليمان باشا (طلعت حرب)؛ حيث تصل المترجمات اللبنانية الكاملة لروائع الأدب العالمي. وانغمستُ في تلك القراءات العامة على حساب المواد الجامعية، وفي التردد على دور السينما لمشاهدة أحدث الأفلام. وقد شُغفتُ شغفاً هائلاً بفيلم «طيش الشباب» لجيمس دين، وعنوانه الأصلي Rebel Without a Cause، وهو أول فيلم يُعرض في مصر لهذا الممثل، الذي أصبح بعد ذلك رمزاً للتمرد على كل ما هو مألوف. وقد وجدتُ في الفيلم مثلاً للشباب غير المتألفين مع بيئتهم وواقعهم، ويحلمون بعالمٍ أفضل يحققون فيه ذواتهم، ووجدتُ نفسي أتماهى مع تلك الأحاسيس، وأشعر بنفسى غريباً غير مؤتلفٍ مع نفسي ولا مع مجتمعي. وأُعجبتُ من يومها بجيمس دين وبناتالي وود التي مثلت معه، وتابعتُ أفلامهما الأخرى من يومها. والغريب أن كليهما قد لقيا مصرعهما في ظروفٍ فاجعة.

وتعرّفتُ في ذلك الوقت على الشخص الذي سيكون له الأثر الأعظم في توجهاتي الأدبية مستقبلاً، والذي توثّقت علاقتي به حتى يومنا هذا (الدكتور) محمد عناني؛ فذات يوم كنتُ عائداً من الكلية سيراً على قدمي كالمعتاد أحياناً، حين دلفتُ من شارع النيل إلى شارع الدري (الفردوس)، سمعتُ من ينادي عليّ في مواجهتي، ويسألني إن كنتُ أدرس في قسم إنجليزي بأداب القاهرة، فلما أجبتُ بنعم قال إنه هو الآخر يدرس في القسم، في السنة الثانية، وإنه يسكن في شارع الدري. وذكّرتُ له أنني أسكن في شارع محمد شكري، وتبادلنا حديثاً طويلاً عن الأحوال في القسم وفي الحي، وسرنا معاً تجاه بيته. وسألني عما أدرس وأقرأ، فقلتُ له إنني أقرأ كثيراً خارج المقرر، وإنني قد بدأتُ أكون مكتبةً صغيرة عندي في البيت، فقال إننا يجب أن نتزاور؛ فهو يهوى القراءة أيضاً، ويحب الموسيقى والغناء مثلي، ولديه عودٌ يعزف عليه حين يكون وحده في البيت.

وحين اقترب موعد امتحانات التيرم الأول، بذلتُ جهدًا كبيرًا في استذكار ما استطعتُ من مقرر الرواية، ولكن النقد النظري وقف عقبةً كأداءً أمامي، والأسوأ أن امتحانه كان شفوياً. وانعقدت الامتحانات في شهر فبراير متأخرة عن موعدها بسبب الحرب. وأجبتُ في الاختبارات التحريرية بما أعرف، وإن كان خامرني الإحساس بأنني لن أنجح؛ ولزمني هذا الشعور في معظم الامتحانات التي تقدّمتُ إليها طوال عمري. أما امتحان النقد فقد كان مهزلة. كانت اللجنة مشكّلة من الدكتور رشدي مع دكتور آخر حديث السن هو الدكتور سعد، وكانا يمتحنان طالبين معاً في كل مرة. ودخلتُ مع صديقي وهيب، ويبدو أنني ورطته معي في شأنٍ لا يهمني كثيراً باعتبار أن سنة الآداب هذه هي سنةٌ عابرة سأتركها إلى كلية البوليس. وفيما يلي نص خطابٍ طريفٍ عابث أرسلته بعد الامتحانات وبدء إجازة نصف السنة إلى صديقي عبد الستار بعد أن سافر إلى قريته، يصف بطريقةٍ هزلية شعوري عن هذا الامتحان، وأثبت الخطاب كما كتبتُه بأخطائه وعبثه:

القاهرة في صباح ٢٦/٢/١٩٥٧م حسب التوقيت المحلي للمدينة وعلى المقيمين خارجها «المنصورة» أن يُراعوا فروق التوقيت عزيزي عبد الستار

«بعد التحية والسلام، والصلاة على خير الأنام، تركتك وأنت فرحان ومزأطط، وتركتني وأنا ضلوعي عماله تطفطط. إنت خلصت الامتحان، وأنا إلى تخليص الامتحان عطشان. إنت ضامن نجاحك وفلاحك، وأنا — ماهر البطوطي — ضامن سقوطي. ولا أطيل عليك الكلام، قول لأ طوّل، ذهبت باكر امتحانك (٢٥ فبراير) إلى اللجنة ووجدت صلاح قيّد اسمه (لأنه لم يكن قد امتحن بعد) وكان رقمه في الورقة ٤ فقيّد اسمي رقم ١٨. أما صلاح، فقد امتحن وعمل كويس جداً، أما أنا فلم يصل إليّ الدور فرجعت البيت فرحان، وفي جيبني جعران.

ولكني كنتُ قد صمّمت على الامتحان في هذا اليوم المشئوم، فجئتُ ثانية إلى لجنة الامتحان بعد الظهر ولم يكن فيه طلبة كثير، ولم يكن هناك إلا لجنة رشدي — سعد، فدخلتُ أنا وواحد وجلسنا. وإليك ما دار بالحرف والنص، ولن أحذف شيئاً لئلا تعتبرني لص، وتعزمني على أكلة خص (خس). سألونا عن اسمنا، فلما ألديتُ باسمي سألني دكتور رشدي «هل أنت تقرب لابن بطوطة» (والله العظيم ده حصل، والله العظيم، والله العظيم) وضحكنا.

ثم هف زميلي سؤال عن The statement in narration، فطقطع قلبي
لأنني لا أعرف شيئاً ولا حرفاً في هذا السؤال. ولكن الحمد لله جابو زميلي فيه
ببعض الكلام. ثم سألني أنا عن The unity of action فجابو بالنص: The
action must be united، ثم تذكّرتُ بعض الكلام عن ال Organic، ثم سألني
بعدها أسئلة كثيرة.

ولا أطيل عليك الكلام، قول لأ طوّل، فبالاختصار لبّخت تليخ شديد.
أظنك تمرح الآن في الغيطان، مع الشيخ زيدان، وتتقاذفوا بحبات الرمان.
أما عن حالنا فقد انتهى الامتحان، وبدأت القراءة والزوغان.
لقد افتقدناك كثيراً، فقد كنت تفطرنّا فطيراً، وتجعل يومنا مطيراً، وتلبسنا
حريراً. ولكن ها قد جاء التيرم الثاني، ولا بد أن تعود من تاني، ومعك الريال
البراني، وتقعد تكلمنا عن الكاني والماني.
ما زلنا أنا وصلاح نضحك على قلقاس، فأثبتنا أننا من جزيرة سيلاس.
وأخيراً:

أرجو أن تكون بخير صحة وعافية، وتكون المنصورة بلد دافية، وأن تكون
معدتك تهضم الزلط، ولكن على ألا تركب متن الشطط..»

أخوك: ماهر البطوطي
٥ شارع محمد شكري بالعجوزة - القاهرة

وعبد الستار هذا له قصة تماثل قصة «شباب امرأة» التي تحوّلت فيلماً من تمثيل
تحية كاريوكا وشكري سرحان وشادية، ولا أدري هل قيّض له الله فتاة تقوم بدور شادية
أم جرّفه تيار تحية كاريوكا.
وفي إجازة نصف السنة المختصرة، عرفت قدامي كنزاً جديداً متمثلاً في دار الكتب
بميدان باب الخلق، فترددتُ عليها كثيراً، واستخرجتُ بطاقة للاستعارة الخارجية.
واستمتعتُ بفحص بطاقات الكتب في أدراجها، فتعرّفتُ على كثيرٍ من العناوين التي كنتُ
أجهل وجودها. وأعددتُ قائمة بالكتب التي لفتت انتباهي، وأكثرها في علم النفس، فقرأتُ
ترجماتٍ لكتب فرويد وأدلر ويونج، منها كتاب «تفسير الأحلام»، وكُتبت عن الخجل والقلق
والانطوائية. وكنتُ أقرأ كتاباً داخل الدار، وأستعير كتابين للقراءة الخارجية.

وبدأ التيرم الثاني في أوائل مارس، وذهبتُ إلى منطقة المدينة الجامعية لدفع المصروفات واستخراج الكارنيه. ووقفتُ مع شلة الأصدقاء. وفي لمحّة خاطفة، وقع بصري على الفتاة التي ستصبح محط اهتمامي وموضع استحواذي لسنواتٍ عدّة قادمة، فتاة صغيرة، ترتدي زيّاً إنجليزياً للطالبات، يميّزه الجونلة السكوتش الحمراء. ولكن أكثر ما يلفتُ النظر فيها هو عيناها. لم تكونا عيّنين عاديتين، بل عالمٌ بحاله، بحيرتان واسعتان، خضراوان خُصرة لم تُعهد من قبلُ في العيون. رأيْتُها عند شباك دفع المصروفات، وبعدها وقفتُ تتحدث مع صديقة لها. وبعد أن استخرجنا الكارنيهات، توجّهنا إلى الجامعة ودخلنا القسم. ورأيْتُها في القسم أيضاً رغم أنني لم أرها قبل ذلك في التيرم الأول.

وأقبلتُ على دراسات التيرم الثاني بعدم الاكتراث نفسه، فمثلاً، كان مقرّراً علينا مسرحية مكبث لشكسبير، فقرأتُها مع مضاهاةٍ بالترجمة العربية التي قام بها لها خليل مطران، ثم طِفقتُ أطالع مسرحياتٍ أخرى لشكسبير في مكتبة الجامعة، وأدوّن أسماء الشخصيات فيها. وأذكرُ أن أحد زملاء في نفس السنة وهو أحمد كمال، الذي أصبح معيّداً بعد ذلك، رأيَني أفعل ذلك، فدهش دهشةً بالغة، ونصحني بالتركيز على المنهج المقرر ومكبث فقط. وكنا ندرس اللغة اللاتينية، ولم أكن أعرف أن الامتحان يأتي من نفس الفِقرات القليلة التي ندرسها؛ وعليه فقد قمتُ بالبداية في دراسة اللغة من أصولها، واشتريتُ كُتب تعليم اللغة بنظام «هوجو» الذي كان منتشرًا أيامها. وكان ذلك بالطبع بعيداً كل البعد عما يتطلبه الامتحان. أما مادة اللغة العربية فقد كانت مبعث اغتباطي وسعادتي؛ فقد كنا ندرس أحمد شوقي، ونتلقى محاضراتٍ عامة من الدكتور شوقي ضيف، فدرستُ كتابه «شوقي شاعر العصر الحديث». كما درسنا إحدى قصائد المتنبي مع «الدكتور» سيد حنفي، وهي القصيدة التي مطلعها:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمُهُ بأن تُسعدا والدمع أشفاه ساجمُهُ

ودخلتُ في جماليات هذه القصيدة البديعة الصعبة، وتشبّعتُ بصورها الخلابة حتى كدتُ أحفظها عن ظهر قلب. وقد تأثّرتُ بهذين الشاعرين أشد تأثير بعد ذلك، وأصبح ديوان المتنبي ذو الجزء الواحد، من الكتب التي أطحبها دوماً أينما سافرتُ في رحلة طويلة أو إلى بلدٍ آخر.

وظهرت نتيجة التيرم الأول، ووجدتُ أنني ووهيب قد رسبنا في مادة النقد الشفوية، ونجحنا في بقية المواد. ولم أبه كثيراً لذلك نظراً إلى تطلّعي لتغيير الدراسة بعد ذلك. وفي

التيرم الثاني الذي استمر حتى يونيو، تعرّفتُ على فكري صديق وهيب الذي اتضح أنه اكتشف الفتاة التي خطفت قلبي عند استخراج الكارنيه، وأنه تعلّق بها هو الآخر، وحاول التحدّث إليها عدة مرات، ولكن فكري كان قد انقطع عن الدراسة، واختط لنفسه طريقاً آخر في العمل بالصحافة، مفضلاً ذلك على المُضي في دراسته الجامعية. وعرفتُ أن الفتاة اسمها شريفة (وأذكر هنا اسماً مستعاراً غير الاسم الحقيقي)، ولكنها لم تكن تحضّر إلى الكلية بانتظام.

وتعدّدت الكتب التي عكفتُ عليها في تلك الفترة، من الروايات البوليسية، والسلاسل الشهرية في روايات وكتاب الهلال وكتابي ومطبوعات كتابي. وقرأتُ المزيد من روايات نجيب محفوظ ويوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله، وعشتُ كل أجواء الرومانسية التي زخرت بها تلك الروايات؛ ولذلك فحين جاء وقت الامتحانات في شهر يونيو، لم أكن مستعدّاً جيداً إلا في مادة اللغة العربية. وكان امتحان اللاتيني كارثةً محقّقة؛ فقد كتبتُ أشياء لا علاقة لها بموضوعات الامتحان.

ومرّت أيام الامتحان الذي أدّيناه في ملحق قسم جغرافيا بالقرب من النيل. وبعد فترة قصيرة من الإجازة في الإسكندرية، عُدتُ إلى القاهرة للاستعداد للتقدّم إلى كلية البوليس من جديد. ومررتُ بنفس إجراءات العام الماضي، مع التركيز مجدداً على تقوية حدة الإبصار، من حقن التقوية، إلى إراحة العينين، وإطالة النظر إلى الحقول الخضراء، بل ومحاولة الحصول على «واسطة» كبيرة. وتوجّهتُ إلى الكشف الطبي، ومرةً أخرى أرسب في كشف النظر. وأعدتُ الكشف مرتين أخريين، مع تكرار الرسوب.

وعندها، لم يكن من بد من مواجهة الواقع. وأدركتُ أنه لا مفر من طرح الالتحاق بكلية البوليس جانباً نهائياً. واستقر تفكيري المراهق أيامها بالتعويض عن ذلك بالالتحاق بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ولكن ذلك كان صعباً وأمامه عوائق كبيرة. ولم يعد هناك من سبيل غير القبول بدراستي في كلية الآداب والانتظام فيها بصورة جادة هذه المرة. وكانت هذه العودة في ظروفٍ أسوأ؛ إذ كنتُ قد رسبتُ في مادتين أخريين في التيرم الثاني: اللغة اللاتينية والدراما، بالإضافة إلى مادة النقد السابقة. ورغم أنه قد جرت العادة في تلك الأحوال على «جبر» إحدى المواد الثلاث بما يسمح للطلاب بالانتقال إلى السنة التالية بعلمين، فإن ذلك لم يُطبّق في حالتي لا أعرف لماذا، ووجدتني أعيد السنة الأولى بثلاث موادّ فقط!

وهكذا وجدتُ أمامي عامّاً دراسياً كاملاً أدرس فيه موادّ قليلة، مما أفسح المجال أمامي لقضاء ذلك العام كما أحب وأشتهي. وبالفعل، أصبح العام الدراسي

١٩٥٧/١٩٥٨م هو الفترة الأساس التي شكَّلت مهادًا صلبًا لقراءاتي ومشاهداتي ومغامراتي الجمالية والعاطفية. كان عامًا فريدًا من كل جانب. أحسستُ بنفسي مُعلِّقًا ما بين السنة الأولى والسنة الثانية حيث كان جميع أصدقائي. ولم أكن أُعد نفسي بين طلاب السنة الأولى، فأصبحتُ أقسمُ وقتي بين محاضرات السنة الثانية مع أصدقائي نبيل ووهيب وحلمي وحامد، مع حضور المواد المقررة عليَّ في السنة الأولى. وقد جذبتني في السنة الأولى اهتماماتي بجمال الفتيات، وبرزتُ منهن ليلى وليلى ورنده وهدايت، وغيرهن. وتسألُ الأمر الواقع رويدًا رويدًا إلى أعماق نفسي، بالقبول التام بدراستي بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، وعزمتُ على أن أبرعَ فيها وأحققَ ما أصبو إليه من نجاح. وكان والدي يجعلني أعدُّه دائمًا أن أكون ناجحًا مثل طه حسين، وأن أحصل على الدكتوراه مثله. وكنتُ في ذلك العام أبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، في فورة الشباب وغمراته، وضغوط الرغبة الجنسية وضروراتها، وفي نفس الوقت في فورة العواطف الرومانسية التي تتمثل في جمال فتيات الجامعة البريء الرقيق، الذي يتناقض في ذهني مع تلك الفورات الجنسية العاصفة. ولذلك كان ذلكما النوعان من الفورات منفصلين تمامًا الواحد منهما عن الآخر، مما كان يسبب انفصامًا نفسيًا ظل الكثير من جيلنا يعاني منه سنواتٍ طويلة.

وقد تبلور اهتمامي وتكثفَ بشريفة منذ خريف عام ٥٧ بصورةٍ أشد؛ فقد أقام قسم اللغة الإنجليزية حفل استقبال للدفعة الجديدة، حضرته في إحدى الأمسيات، وجاءت فيه شريفة في أبهى حُلَّها، مما جعلني أتحقق أنها ستكون محط أحلامي وتهويماتي. وكان حفلًا جميلًا تخلَّله أكل الجاتوه مع حمدي، الذي لم يكن يعرف كيف يأكله بالشوكة، وعرضُ مسرحي شارك فيه عمرو ومحمد.

وتنوعت قراءاتي تنوعًا واسعًا خلال ذلك العام الدراسي؛ فبالإضافة إلى تركيزي على دراسة المواد الثلاث التي رسبتُ فيها — الدراسة الصحيحة التي تؤدي إلى النجاح — واصلتُ القراءات الخارجية، سواء في الكتب التي أشتريها، أو التي أستعيرها من دار الكتب أو مكتبة الجامعة التي أصبحتُ من روادها الدائمين. واكتشفتُ مع بداية العام كتابًا غريبًا في مكتبة الجامعة عنوانه «كيف تصبح بوليسًا سرّيًا خاصًا؟»، فشغفتُ بقراءته، ونقل فقراتٍ منه، على مدى شهورٍ عديدة. وانبثقت في ذهني فكرة البوليس السري، الذي يقدّم خدماته لمن يريد الكشف عن أسرارٍ خاصة بأسرته أو زوجه، وما إلى ذلك من أمور،

حتى إنني أرسلتُ إلى إحدى الصحف أَسْأَل لماذا لا تُوجد مثل هذه المكاتب في مصر رغم انتشارها في دول العالم. وكنتُ قد قرأتُ قبل ذلك ملخّصاً لرواية جراهام جرين الرائعة «نهاية العلاقة»، وشاهدتُ الفيلم المأخوذ عنها (وهو الفيلم القديم؛ فقد ظهر فيلمٌ جديد عن الرواية بعد ذلك)، والتي يلعب أحد المخبزين السريين دوراً رئيسياً في أحداثها. وتطوّر الأمر إلى أن توجّهتُ بصحبة زميلي تهامي إلى مكتبةٍ بالدقي؛ حيث أوصيتُ على طباعة كروتٍ باسمي وتحتها «بوليس سري خاص». ولم أتبيّن وقتها مدى خطورة طباعة شيء كهذا في العهد الذي كنا نعيش فيه، ولكن الأمر لم يتعدّ ذلك، ولم تُثر هذه الحادثة مُعقباتٍ تُذكر.

وكان عرض الفيلم الأمريكي «الحرب والسلام» في القاهرة حدثاً فريداً للمثقفين؛ فقد كان فيلماً جميلاً من كل ناحية. وكنتُ قد قرأتُ الرواية ملخّصة، فدفعني إعجابي بالفيلم إلى البدء في قراءة الرواية الكاملة بالإنجليزية. وكنتُ قد تعرّفتُ على صديقي «وفيق» المخضرم في دراسة الحقوق، والذي كان مثقفاً رفيعاً يهتم بالآداب العالمية وعلى رأسها الأدب الروسي، بوصفه كان يعتبر نفسه يسارياً شيوعياً. وقد نصحتني بقراءة تشيكوف ومكسيم جوركي وشولوخوف. وكان قد صادق إحدى الجميلات من فتيات قسم إنجليزي بعد أن خطفها من أحد أصدقائه، وانتهى به الأمر إلى أن خطفها منه هو أحد أصدقائه أيضاً! وسقط وفيق في وهدةٍ من الألم والضياع لفترةٍ طويلة.

وكنتُ أجتنبُ طلبة السنة الأولى؛ فقد اعتبرتُ نفسي متقدماً عليهم، ولكن ذلك لم يمنع من قيام صداقاتٍ مع بعض منهم، على رأسهم «سامر»، الذي كان شخصية فريدة قُدر لها أن تقوم بدورٍ مهم في الحياة الثقافية المصرية. كان شيوعياً هو الآخر مثل وفيق، بيد أنه كان شيوعي الفكر والسلوك معاً، اضطراراً فيما يبدو؛ فقد كان من أسرة رقيقة الحال. واشتهر بمعلوماته الواسعة الغزيرة. وسرعان ما التفتّ حوله فتاتان إحدهما تُحبه والأخرى سيّدة مطلقة تشاركه أفكاره التقدمية. وكانت هناك حالةٌ من التوتر الدائم بيني وبين سامر لا ندري لها سبباً سوى الخلاف في الآراء، بينما وراء ذلك ما وراءه.

وكان مجلسي الأساسي على بوفيه الآداب؛ حيث يتقاطر الأصدقاء، ويجلسون ويذهبون، وأنا كذلك، ما بين حضور المحاضرات، أو تتبّع الحسان، والبحث عن شريفة. واكتشفتُ مُعجّبين آخرين بشريفة عدا فكري، منهم حامد. ولم يتضح ذلك بجلاءٍ سوى مع بدايات عام ١٩٥٨م.

وفي بداية ذلك العام، نشرت مجلة صباح الخير بعض سطور عاطفية أرسلتها إليها،
أثبتها هنا والتعليق عليها كما يلي:
«أما ماهر حسن البطوطي فيكتب لنا هذه الأغنية:

هل تذكرين يا شيري،
أياماً جميلة،
أمضيها تحت الخميلة،
والقمر يضيئنا
بنوره الفضي،
ثم يغيب القمر تحت السحاب،
فلا أشعر باختفائه؛
لأن عينيك الخضراوين
تضيئان المكان؟

وقد سألت شيري فوجدتها ناسية خالص يا أستاذ ماهر، ولا تذكر خميلة ولا سحاب
ولا يحزنون ...

أما حكاية العينين الخضراوين فهي تقول إنها عينا القط الذي كان يقف إلى جوار
العمود لأن عينيه سوداوان ... وابقى بـص كويس يا أستاذ ماهر وأنت بتحب ...»
وقد سررت جداً بنشر تلك السطور رغم ما بها من سخرية؛ فقد كانت رسداً لحبي
شريفة، وعرف بها كثير من الزملاء والأصدقاء. وكانت بالفعل كذلك؛ إذ زارنا فكري
بعدها مباشرة، وقال إنه قرأ ما كتبته وعلم منه أنني قد «خلفت» في حب شريفة. فرددت
أنني أحبها قبله، وأوضح له بما لا يدع مجالاً لشك أنني فعلاً أهيمن بها، وأنني عازم على
تحقيق ذلك الحب، وكررت ذلك حتى لا يفكر في الرجوع إليها. وبالطبع، حدثت بعد ذلك
مواقف وإشارات حول ذلك الموضوع، ولكنها لم تغير شيئاً. وقد اقتصر صلتني بشريفة
في التريم الأول على تبادل النظرات والوجود معها أينما كانت، على قلة مرّات وجودها
بالكلية. وقد تملكني منذ تلك الفترة نوع من الهوس بالملابس والأرقام المتعلقة بمن أهوى،
فكنت أكتب في كل مرة أراها ما كانت ترتدي من ملابس بألوانها، وأرقام أي عربة أراها
فيها، وأرقام الأوتوبيسات التي أركبها للذهاب إلى الجامعة. وقد عرفت مسكنها، في فيلا
جميلة بالقرب من الجامعة، وصرت أتردد عليها في ذهابي وإيابي.

وقرأتُ في تلك الفترة رواياتٍ وقصصًا جديدة ليوسف إدريس، وما جدُّ من روايات إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي. واكتشفتُ رواية طه حسين شجرة البؤس، التي أعجبتني فيها رسم الشخصيات والشكل الذي اتخذته كرواية أجيال. وقرأتُ كتاب فن القصة للدكتور نجم، وهو مرشدٌ أوَّلِي للقصة والرواية. وفي ذلك العام، وقعتُ على كتابين كان لهما أبلغ الأثر في تكويني الثقافي والروحي. الأول هو رواية «الغريب» لألبير كامي، والثاني كتاب «اللامنتمي» لكونن ويلسون. ومن المدهش أن اسمي الكتابين في الإنجليزية كان واحدًا في بعض الترجمات، فكانت رواية الغريب تُسمى أحيانًا The Outsider، وهو نفس عنوان كتاب ويلسون. وقد فهمتُ رواية ألبير كامي على النحو الذي يروق لي. وقد طارت شهرته لحصوله على جائزة نوبل للآداب عام ٥٧.

ألبير كامي

ورواية الغريب تحكي عن شاب فرنسي (ميرسو) يعيش في الجزائر إبَّان الاحتلال الفرنسي لها، ويعيش حياته يومًا بيوم دون مشاعر ودون اهتمام بأي شيء؛ فحين تموت أمه في دار للمسنين يذهب لحضور جنازتها ولا يُبدي أية مشاعر بهذا الحدث. وهو يخرج مع صديقه ويذهبان إلى السينما ويسبحان بعد عودته مباشرة. ويتورط ميرسو في شجار لأحد جيرانه مع بعض العرب فيتبعه اثنان منهم حين يذهب مع صديقه والجار وصديقه إلى البحر، وحين يقترب العربيان منه على نحوٍ تهديدي ويُحس بالشمس تُغمي أبصاره، يُطلق النار على أحدهما فيُرديه قتيلاً. وبقية الرواية تحكي وقائع المحاكمة؛ حيث لا يجد ميرسو مبررًا لقتله العربي غير وهج الشمس الذي غمر عينيه، فتُصدر المحكمة حكمها عليه بالإعدام بالجلوتين. وحين يزوره القسيس ليطلب منه التوبة والإيمان، يثور عليه ميرسو، ويعلن في النهاية أنه ذاهبٌ إلى الموت راضيًا. ونفهم السبب أنه لا شيء يربط بينه وبين من حوله من البشر.

وقد تأثرتُ بهذه الرواية، وأحببتُ ألبير كامي منذ قرأتها، فتابعْتُ أعماله التي وجدتُها، والتي أثارت الانتباه بعد حصوله على نوبل عام ٥٧، فترجمتُ له دار الآداب ببيروت كل أعماله تقريبًا، واشتريتُ قصصه القصيرة بالإنجليزية من مكتبة شادي بعد ذلك. وقرأتُ «الطاعون» و«أسطورة سيزيف» و«الرجل المتمرّد»، ولكن أكثر ما أعجبتني بعد الغريب هو كتابه «السقوط»؛ ففيه تقنية رائعة واقتصادٌ في التعبير جعل له مذاقًا

رائعاً وتأثيراً قوياً. وكان في ذهني دومًا أحداثُ القصة التي قدّمها في مسرحية «سوء تفاهم» ووردت عابرةً في «الغريب»، من الابن الذي يعود إلى أسرته بعد أعوامٍ طويلة، ويُخفي عليهم شخصيته ليفاجئهم بعد ذلك، ولكن الأم والابنة يطمعان في سرقة فيقتلانه، ليعلمًا بعد ذلك من زوجته حقيقة هويته، فتنتحر الأم والابنة من هول فعلتهما. وكانت تلك القصة رمزًا لعبثية الحياة، إلى أن جاءت نهاية كامي نفسه لتصبح التصوير الأمثل لفلسفته في اللامعقول والعبثية، حين تصطدم العربية التي كان يقودها صديقه ونشره جاليمار ومعه كامي بشجرة عند عودتهما إلى باريس في ٤ فبراير ١٩٦٠م، فموت كامي عن ٤٦ عامًا، ويعثرون في جيبه على تذكرة عودة بالقطار إلى باريس، قبل أن يدعوه جاليمار لمرافقته في عربته.

وقد فتّني كامي بقصصه وفلسفته وحياته، ولم يؤمن الزمن هذا الافتنان، وهو يبرز في مقدمة الكتاب الذين قرأت لهم وأعدت قراءتهم حتى الآن.

كولن ويلسون

والكتاب الثاني، اللامنتمي لكولن ويلسون، نال شهرةً عريضةً عند صدوره. وهو عبارة عن رصدٍ لظاهرة الاغتراب في الأدب والحياة. وقد شدّني الكتاب على الفور؛ لأنه كان يعالج تلك الظاهرة بوصفها ظاهرةً وجودية، ويناقش مواقف سارتر وكامي ضمن من يعرض لهم في كتابه. وقد عالج ويلسون في كتابه كل مؤلفينا المفضّلين؛ فقد وجد ما يجمع هنري باربوس وبطل روايته وبين سارتر وروايته الغثيان. وهو يتتبّع براءة شعور عدم الانتماء وعبثية الوجود في كثير من الكتب وعند مؤلفين لا يجمع بينهم شيء، مثل همنجواي وكافكا وهرمان هسه. ويحلّل ويلسون أعمالاً لهنري جيمس ولورانس العرب، وحياة الرسام فنسنت فان جوخ وراقص الباليه نجنسكي، ليُلقي الضوء على رؤى لم يطرقها النقاد من قبل. وقد لفت نظري حديثه عن «جورديف» و«أوسبنسكي»، ولم أكن أعرفهما من قبل، وجهودهما في السيطرة على الجسد وعلى الانفعال وعلى العقل، للوصول إلى حالة من اليقظة والحرية.

وكان الجميع يتنبّئون لكولن ويلسون بمستقبلٍ زاهر في الكتابة، وبالفعل لقي كتابه الثاني «الدين والمتمرد» (وصدر بالعربية تحت عنوان سقوط الحضارة) نجاحاً كبيراً؛ إذ واصل تحليله عن اللانتماء والخيال الشعري، كما كتب مقدمةً للكتاب فيها موجزٌ لحياته هو. وقد تابعتُ كتابات ويلسون بعد ذلك، وكان غزير الإنتاج، فقرأتُ روايته

«طقوس في الظلام» و«ضائع في سوهو»، وكان يهتم بالجرائم والجريمة. بيد أن ويلسون انجرف بعد ذلك في كُتبه إلى القوى الغيبية وما وراء الواقع، والجرائم ودوافعها، وما بعد الحياة، ومتاهات العقل، والجنس وصوره ودوافعه، وما إلى ذلك. وقد أقل نجمه رغم إصداره ما يقرب من مائة كتاب. وقد قرأت في بعض كتبه التالية أنه يُلقي بتبعية فشل كُتبه إلى أن النقاد صنّفوه منذ البداية ضمن «الشبان الغاضبون»، مع جون أوزبورن صاحب «انظر وراءك في غضب» الذي صدر في وقت صدور اللامنتمي. والحقيقة أنني وجدت في كتب ويلسون الأخرى التي جذبتني عنوانها، مثل «الكتب في حياتي» و«القوى الخفية»، و«من أطلانطس إلى أبي الهول» وغيرها، تشوّشًا في الفكر وضحالة في التفكير. وحتى كتابه «صناعة الرواية»، رغم أهميته، فهو يحتوي على آراء ذاتية شخصية نتيجة النقد الذي تلقاه عبر حياته ككاتب.

وقد دفعتنني رواية الغريب إلى القراءة عن كامبي وسارتر وسيمون دي بوفوار. وكانت دار الآداب ببيروت قد وفّرت ترجماتٍ عديدة لكتاباتهم بالعربية، إلى جانب كل ما استطعتُ الحصول عليه بالإنجليزية. وبدأت أهتم بالوجودية في صورتها الفلسفية والحياتية. وكان أنيس منصور يتحدث في مجلاته عن الوجودية كظاهرة بين شباب فرنسا والغرب، ولكنه كان يرصد آثارها وليس الفلسفة القائمة عليها.

وهكذا بدأت أعجب بالوجودية، وقرأت عن كيركجارد وكتابات الوجودية. وقرأت ما توفّر من مسرحيات سارتر وكُتبه، وكان كتابي قد نشر بعض ملخصات كُتبه، وصدرت ترجمات عربية لمعظم مسرحياته، ومنها «البغي الفاضلة» التي صدرت بالعربية بعنوانها الكامل، في الوقت الذي لم تضع الطبعة الفرنسية الأصلية كلمة البغي كاملة أيامها، بل أشارت لها بالحرف p كناية عن Putain. وهكذا كانت مصر أيامها أكثر تحررًا ثقافيًا من فرنسا التي كانت مثالًا للحريات الفنية والثقافية والشخصية. وكانت مصر لم تعرف بعد التقيد والرقابة الأخلاقية المبالغ فيها، اللذين جاءا بعد ذلك؛ فقد كنا نبتاع المجلات الفرنسية مثل «فرو فرو» من باعة الصحف على نحو عادي، وهي التي تحتوي على صورٍ عارية دون موادٍ إباحية. أما المواد البورنوغرافية الصريحة فكنا نشترها خلسة من بعض الأكشاك المعينة في منطقة وسط البلد، وكلها صورٌ ومجلاتٌ أجنبية، عدا تلك المطبوعات الفاحشة المكتوبة بالعربية والمطبوعة طباعةً رديئة، وتُوحى بأنها ترجمة لكتبٍ أجنبية مع التحوير والإضافة لتلائم الذوق المصري! وكانت تلك المطبوعات — بالإضافة

إلى مجلة القصة، القديمة، وغيرها — تفرّج عن تهويماتنا الجنسية، ثم تزيدها اشتعالًا وإثارة. وظل هذا العامل الجنسي يشكّل القطب الثاني في نفوسنا في مواجهة قطب البراءة والرومانسية.

ومضت حياتي في الكلية على نفس النمط. أما قراءاتي فقد دخلها الكثير من الأشياء الجديدة؛ فمع الفيلم الرائع «وداعًا للسلاح»، من تمثيل جنيفر جونز وروك هدسون (ومن هنا بدأ إعجابي بجنيفر جونز؛ لأنني وجدتها تشبه شريفة في بعض النواحي) اكتشفتُ إرنست همنجواي، وقرأته أولاً في ترجماته اللبنانية، ثم ابتعتُ العجوز والبحر، وقرأتها في أصلها الإنجليزي. وبهرتني لغة همنجواي الدقيقة التي لا تعرف الزخارف اللفظية. وشاهدتُ بعد ذلك فيلمي «وتشرق الشمس ثانية» و«العجوز والبحر»، تمثيل سبنسر تريسي. وأصبح همنجواي فيما بعدُ في أوائل قائمة كتّابي المفضّلين الذين قرأتُ كل ما كتبوه وما كُتب عنهم.

وصدّرت اعترافات جان جاك روسو الكاملة في مطبوعات كتابي من عدة أجزاء، والتهمتها التهامًا، وبدأ حبي لكُتب السيرة والسيرة الذاتية من قراءة هذا الكتاب الفريد، وتمنّيتُ لو كانت يومياتي السطحية بمثل عمق روسو وصراحته. وتعبّبتُ من نقص المكتبة العربية لهذا النوع من الاعترافات والقص العميق الصريح. وبدأتُ أيضًا في قراءة قصائد شيلي بالإنجليزية، وهمتُ بقصيدة قصيرة له بعنوان «سرينادا هندية»، احتوت على كل ما يجذبني من شوق وشجن وألم وغربة وحب وأحلام وموت. وترجمتها يومئذٍ فجاءت على هذا النحو:

إني أصحو على أحلامك الوردية،
في أوائل غفوات الليل العذبة؛
إذ النسيم يهبُّ عليّ،
والنجوم تتلألأ ساطعةً في السماء
أصحو على أحلامك الوردية،
وقد قادت روحُ قدمي،
لا أعرف كيف،
إلى نافذة حجرتك،
يا حبيبتي.

* * *

النسمات الهائمة
تغفو فوق النبع المظلم الصامت،
ويساقط أريج الأزاهير الصفراء،
كأنها الأفكار العذبة تخطر في الأحلام.
وشكوى العندليب
تموتُ فوق قلبها،
كما سأموت فوق قلبك،
مثلما أنت حبيبتي.

* * *

أَوَاه ...
ارفعوني من فوق الحشائش.
إني أموت! إني أخور! إني أسقط!
فليُطِرني حبك بالقبلات
على شفتي وجفني الشاحبة.
وجنتي باردة بيضاء،
يا للأسى!
وقلبي يدق سريعاً عالياً
أَوَاه ...
فلتضميه إلى قلبك؛
حيث سينفطر أخيراً.

وتعرفتُ على زميل من الطلبة العرب الوافدين من العراق، فأدخلني معه إلى عالم
عبد الوهاب البياتي وشعره، وطالعتُ ديوانه «أباريق مهشمة»، ونقلتُ بعض قصائده في
دفترٍ خاص. وتابعتُ البياتي بعد ذلك، وتطوره وشعره وصوره. وكان ذلك الصديق قد
حاول إكمال دراسته الجامعية في النمسا، فكان يقص علينا مغامراته في فيينا مع الفتيات
وعن الطبيعة الساحرة هناك، مما كان يُلهب خيالاتنا الواعدة.

ووجدتُ في مكتبة جامعة القاهرة ديواناً صغيراً للويس عوض اسمه بلوتولاند، فاستعرتُهُ، وفوجئتُ برنة التمرُّد والتجديد التي فيه؛ تمرُّد على أنماط الشعر العربي وعلى الصور التقليدية، وعجبتُ من مقدمته التي يعلن فيها المؤلف أنه عاد من بعثته في إنجلترا وكل شيءٍ أمامه باللون الأحمر؛ أي يُبدي إيمانه بالشيوعية. وعرفتُ من سامر أن هذا الديوان ممنوع، وإندهش من وجوده في مكتبة الجامعة. وقد حرصتُ على نقل قصائد كاملةٍ منه، وأحببتُ منها قصيدة «الحب في سان لازار» حفظتُ بعض سطورها، ومنها:

في محطة فكتوريا جلستُ وفي يدي مغزل.
وكان المغزل مغزل أوديسيوس.
عفوًا إذا اختلفنا أيها القارئ؛
فقد رأيتهم، رأيتهم سكان الأرجو، وجلُّهم من النساء ارتدين البنطلونات،
ولبسن أحذيةً من كاوتشوك.
أما نحن، أنت وألفريد بروفروك وأنا،
فلنا المغازل نتعلَّل بها، وبين الخيط والخيط نرفع أهدابنا إلى الأمواج في
الأفق، لعل موج الأفق يحمل الأرجو.
وفي الصباح، عندما يصير موج الأفق موج الشاطئ، نرى وجه السعادة.
جلستُ وبيدي مغزلي في انتظار بنيلوب التي لا أعرفها.
وهل أتت بنيلوب إلى رصيف نمرة ٨؟
كلا، لم تأتِ بنيلوب إلى رصيف نمرة ٨.
هذه الجزيرة العابسة. لقد رأيتُ الجاريات يدخلن خلجانها مُثقلات.
رأيتُ الجاريات يحملن الطيوب والخشب والمُر.
رأيتُ الجاريات يحملن العبيد إلى سوق النخاسة في مسقط رأس
ولبرفورس.
رأيتُ الجاريات يحملن السمك إلى ألسكا، والسكر إلى جزيرة موريس،
والقطن والبصل إلى مصر، والشاي إلى الصين، والأفيون إلى الهند،
والببغاوات والفيلة وأدوات الزينة إلى القطبين، والمترايوزات إلى
الصديق والعدو على السواء.
لكنني لم أرَ الأرجو بينها.
يا مُفرِّق الرياح! أنا هنا على رصيف نمرة ٨ وبيدي مغزلي، لكن القطار
تحركَ قبل أن تصل الأرجو.

كنتُ أهتم بهذا النوع من الشعر الموسوعي المحتوي، وفهمته أكثر حين درسنا تي. إس. إليوت والأرض الخراب وبروفروك، وهو ما يبدو أثره بوضوح في بعض شعر بلوتولاند. وقد اكتست تلك القصيدة معاني جديدةً عندي بعد ذلك بسنواتٍ عديدة، حين كنتُ أذهب إلى مدينة الهافر مع زوجتي الفرنسية لزيارة أسرتهما هناك، وكنا نركب القطار دائماً من محطة سان لازار ونعود إليها، بينما أنا أتابع في ذهني أبيات القصيدة مع إيقاع القطار. وقد حصلنا على الديوان وبتعليقٍ إضافي من لويس عوض بعد أن أعاد الصديق الدكتور سمير سرحان إصدار مؤلفاته عن الهيئة العامة للكتاب.

ورغم أنني كنتُ أعيد السنة، ولم يكن عندي في التيريم الأول سوى مادةٍ واحدة هي النقد وهي شفوية، فإنني لم أستذكر كما يجب. وفي أيام الامتحان حرصتُ على اختيار لجنة مناسبة، فأديتُ الامتحان وحدي أمام «الدكتورة» هدى حبشية وثريا مليكة. وأجبتُ بقدر ما استطعت، وتحدثنا في أمورٍ كثيرة، وخرجت راضياً إلى حدٍّ ما وإن لم أكن سعيداً بأدائي فيه. وكان ذلك يوم ٢٣ يناير ١٩٥٨م. وقضيتُ إجازة نصف السنة في تجولات ومقابلات الأصدقاء والأقارب، الذين زرنا معهم السيرك الروسي، الذي كان حديث الجميع في ذلك الوقت حين زار القاهرة لأول مرة. وازدادت علامات التقارب بين مصر والاتحاد السوفييتي في كل مجال، ومنها افتتاح محل لبيع الكتب الروسية والمترجمة عن الروسية بأسعار زهيدة، وترددتُ عليها واشتريتُ منها الكثير من الكتب القصصية بالإنجليزية والعربية. وأهم ما اشتريته منها قصص تشيكوف، وكتاب عن حياته؛ وكان تشيكوف قد أصبح «أيقونة» في الثقافة المصرية، إلى جانب مكسيم جوركي وشولوخوف ودستوفسكي، وغيرهم من الكُتاب السوفييت.

واستمتعتُ في ذلك العام بمشاهدة أفلامٍ رائعة، عربية وأجنبية، منها «نساء صغيرات»، و«الفتيات»، و«بيتون بليس»، و«كوفاديس»، و«لا أنام»، و«الطريق المسدود»، و«سايونارا» وكثيرٌ غيرها. وكنا نتابع بحماسٍ أيضاً الأغاني العاطفية والوطنية الجديدة التي يخرج بها عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ، وكانت تعبر عما نشعر به من عواطفٍ جياشةٍ عاصفة، معظمها عن الحب الخائب عسير المنال، وعذاب المحب من عدم تجاوب حبيبته معه. وقد انغمستُ في شيءٍ غريب منذ سنة الإعادة، هو مراسلتي لبرامج ما يطلبه المستمعون، في كل الإذاعات، أطلب فيها أغاني معيّنة لأصدقائي مثل نبيل ووهيب، وكنتُ أهدي بعض الأغاني الأجنبية في البرنامج الأوروبي إلى شريفة، ويذاع الإهداء بالفعل، وكنتُ أشعر أنها قد سمعته أيضاً وفهمت مرماه.

وشهدت هذه الفترة حدثاً سياسياً وقومياً مهماً، هو الوحدة الكاملة بين مصر وسوريا، تحت اسم الجمهورية العربية المتحدة. وتابعت بدايات الوحدة في الصحف والإذاعة، وبقي في ذهني منها أن جمال عبد الناصر، في خطابه إعلان الوحدة، نسي أن يشكر الرئيس السوري شكري القوتلي، وعاد بعد أن أنهى خطابه كي يُوجّه إليه الشكر بوصفه المواطن العربي الأول. وأصبحت احتفالات الوحدة وأخبارها وزيارات عبد الناصر لسوريا تأخذ أغلب وقت الإذاعة، بينما زادت أيام الإجازات وتعطيل الدراسة لإقامة الندوات واللقاءات في حرم جامعة القاهرة.

وفي هذا الوقت أيضاً، قمتُ بكتابة حكاية خيالية عن حادثٍ بوليسي اشتركتُ بها في مسابقةٍ أعلنتها مجلة البوليس التي كانت تصدر أيامها، وفزت بجائزة المسابقة وقدرها جنيه واحد. كذلك أرسلتُ إلى المجلة ترجمة لقصةٍ بوليسية طريفة ترجمتها عن الإنجليزية، فتلقّيتُ خطاباً من المحرّر يرغب في لقائي. وذهبتُ إلى مقر المجلة بالقرب من دار الأهرام القديمة، وقابلت أحد المحرّرين لمناقشة القصة. ودخل الحجرة في هذه الأثناء محرّر شاب استنجد به المحرّر الأول كيما يشارك في نقد القصة، ولكن الأخير — الذي دعاه المحرّر باسم رجاء النقاش — اعتذر بأنه لم يقرأ القصة. وكانت المرة الأولى التي أرى فيها الأستاذ النقاش، الذي سيكون أحد رُعاتي الأدبيين كما سيبين فيما بعد.

وركّزتُ في التيرم الثاني على مسرحية مكبث، وعلى مقاطعٍ عدّة باللاتينية كان الامتحان يتطلب ترجمة بعض السطور منها. وقد عرفتُ هذه المرة كيف أذاكر للنجاح، فأجبتُ إجابةً مرضيةً في الامتحانين. وفي صيف ذلك العام، سافرنا كالعادة إلى الإسكندرية، وكان والدي قد خرج إلى المعاش من شهور، وأصبح لديه متسعٌ من الوقت لقضائه في المصيف. وقضينا ذلك الصيف في حي المنصرة، في عشة أحد الأصدقاء من أيام شبين الكوم، وكانت وسط مزارعٍ شاسعةٍ من النخيل السامق، مما وفرّ لنا جوّاً هادئاً جميلاً. وقد شجّعني ذلك الهدوء على قراءة الشعر، ووجدتُ في نفسي ميلاً شديداً لقراءة شعر الأخطل الصغير، الذي عرفته من أغنيّتي عبد الوهاب «الصبا والجمال» و«الهوى والشباب»، فذهبتُ إلى ميدان المنشية، واشتريتُ ديوانه «الهوى والشباب»، في طبعةٍ أنيقة بخمسين قرشاً. وقد استمتعتُ بقصائد الديوان الرومانسية، ودفعني ذلك إلى أن أنظم بعض المقطوعات الشعرية المُغرقة في العاطفية والرومانسية، أتغنّي فيها بشريفة وجمالها وحبّي لها. وكنتُ قد انقطعتُ منذ عامي الخامس عشر عن النزول إلى البحر أو لبس المايوه، فكنتُ الآن أجلس على الشاطئ، أقرأ وأتصفّح الوجوه وأرقّب المصطافين. وكنتُ قد أحضرتُ معي

مسرحية هملت التي كانت في مقرّر السنة الثانية، لقراءتها مُقدِّماً خلال الصيف. وكان هذا تحوُّلاً تراكمياً في موقفني من الدراسة في كلية الآداب؛ فقد بدأتُ أنظر إليها نظرةً جادة أنطلع معها إلى إحراز النجاح في مجالاتها، وجاء ذلك من خلال المتعة التي أستشعرها من قراءة الأدب، سواء القصة أو الرواية، والشعر والمسرح.

وقد تبدى ذلك بوضوح مع بداية العام الدراسي الجديد في سبتمبر ٥٨، وقد أصبحتُ في السنة الثانية، مقبلاً على الدراسة بشغفٍ وجد، خاصةً مقرّر الرواية. وكنا ندرس في تلك السنة الرواية الإنجليزية في القرن الثامن عشر، ومنها روايات «جوزيف أندروز» لهنري فيلدنج، و«كلاريسا» لصمويل ريتشاردسون، و«مول فلاندرز» لدانييل ديفو، و«رحلة وجدانية» للورانس ستيرن. وهذه الروايات كانت البدايات «الرسمية» للرواية الإنجليزية، وأطلق عليها النقاد صفاتٍ كثيرة حسب أنواعها، من «ملحمة كوميدية نثرية» إلى روايات البيكارسك (الصعاليك). واهتممتُ بقراءة المراجع التي أوصانا بها الأساتذة، مثل «نشأة الرواية» لإيان وات، والمرجع الضخم في عدة أجزاء من تأليف «بيكر» الذي كنا نتخاطف قراءته داخلياً من مكتبة الجامعة. وكانت الكتب والمراجع الإنجليزية شحيحةً جداً في السوق بعد العدوان الثلاثي وندرة استيراد الكتب من الغرب، مما اضطرّ الأساتذة إلى طبع المسرحيات والقصص والمقالات المقرّرة في مصر، في المكتبات المصرية، خاصة مكتبة الأنجلو، نظراً لعدم توافرها في السوق، وهكذا ظفرنا بالمقدمة الرائعة لمسرحية هملت التي وضعها الدكتور يس العيوطي لها. وقد توغلّْتُ في دراسة هملت، وقرأتُ معظم ما وجدته مكتوباً عنها، من تفسيراتٍ شتى ينحو بعضها منحى الغرابة الشديدة. وكان أقرب الشروح إلى نفسي هي التفسيرات السيكلوجية لتردّد هملت في الانتقام السريع لمقتل والده، فقرأتُ كتاب «إرنست جونز» عن ذلك، وأعجبتُ به جداً. وقد زادت تلك الشروح والتعليقات من فهمي للمسرحية، ومن إدراكي للأبعاد الكثيرة التي ينطوي عليها هذا النصُّ المبدع، وهذا هو المغزى الحقيقي والهدف من النقد الأدبي السليم. وقد استمرّ حبّ هذه المسرحية في قلبي منذ ذلك الوقت، حتى إنني لم أسافر سفرَةً طويلة إلا وكانت هملت معي. وكانت هي أول كتابٍ أشتريه في مدريد غداة وصولي إليها عام ١٩٦٩ م.

أما دراسة الشعر في السنة الثانية فقد تركّزت على الشعراء الميتافيزيقيين، وشعرهم جافٌ صعب. وقد اخترتُ منهم «جورج هربرت» لدراسته بعمق لغرض الامتحان الشفوي. وامتحنتُ أمام لجنة الدكتور شوقي السكري، ودخلتُ مع زميلي عبد الستار. وقد أجبنا إجاباتٍ حسنةً على وجه العموم، ولكن ما أحنّنتني لعدة أيام بعدها أن الدكتور شوقي

سأل عبد الستار عن ترجمة كلمة Ecstasy ولم يعرف، وكنتُ أعرفها من حضوري محاضرات الدكتور مجدي وهبة، وهي «التجلي»، ولكنني تظاهرتُ بعدم معرفتها أنا الآخر حين تطلّع لي الدكتور شوقي حتى لا أرح زميلي عبد الستار، وقالها الدكتور بعد ذلك تمامًا كما كنتُ أعرفها. وقد عصّف بي القلق من جراء عدم إقدامي على الإجابة التي كانت ستعطيني درجةً أعلى بلا شك، وبِتُّ يتنازعني الأسف على ذلك واحترام مشاعر صديقي عبد الستار.

ودرسنا أيضًا مادة «الحضارة»، قرأنا فيها مطالعاتٍ من كُتب ومقالات بعض الإصلاحيين والفلاسفة الإنجليز، مثل جون لوك وفرانسيس بيكون وماكولي. كما درسنا نُتقًا من «يوميات صمويل بيبس» وهي طريفةٌ شائقة. بيد أنني لم أعلم حقيقة تلك اليوميات وحقيقة حياته وعبئه إلا بعد ذلك في نيويورك، حين اقتنيتُ الطبعة الكاملة من تلك اليوميات في ستة أجزاءٍ ضخام، وكانت بها أسرارٌ خاصة غاية في الشناعة! كذلك أبحرنا في عددٍ من مسرحيات العصر الإليزابيثي، علاوةً على هملت، فدرسنا تاجر البندقية لشكسبير أيضًا، والدكتور فاوستوس لكريستوفر مارلو. وكما في الماضي، لم يمنعني الاهتمام بالمواد المقررة عن القراءات الخارجية، فواصلتُ قراءة روايات نجيب محفوظ الجديدة، وأعدتُ قراءة الثلاثية. وقرأتُ رواية الشارع الجديد للسحار، وخمّنتُ فيما بعد أنها هي الرواية التي أشار محفوظ إليها أنها نتيجة حديثه عن خطته لكتابة رواية أجيال. وكان من بين الكتب التي أضفتها إلى كُتبي المفضلة، مثل كتب كولن ويلسون وألبير كامي، روايات فرانسواز ساجان؛ فقرأتُ رواياتها الثلاث الأولى التي اجتاحت العالم الأدبي وقتها؛ صباح الخير أيها الحزن، ابتسامة ما، في يوم في شهر في سنة، وأعجبتني نبرة الحرية والتمرد التي تشيع في كتاباتها الشابة. وثار كلامٌ أيامها بتأثر إحسان عبد القدوس بروايتها الأولى في روايته لا أنام. كما أغرت شهرتها السينما على إخراج رواياتها أفلامًا، فشاهدناها في سينما كايرو. وافتتنتُ ببطلة «ابتسامة ما» التي كانت تشبه شريفة، والتي ظهرت في معطفٍ أحمر رشيق، أصبحتُ أحلم بعده بإهداء شريفة معطفًا مثله! وفي المشاهد التالية تعبير روائي عن أجواء أفراد من الجيل الرائع في الفترة الجامعية. والتعبيرات الروائية لا تلتزم قطعًا بالزمن والمكان الحقيقيين.

«- شريفة وصلت!

ما إن سمعتُ هذه العبارة من نجيب حتى تغيرَ حالي. انبعث في نفسي ذلك الشعور الطاعني بالنشوة الممتزجة بالقلق والترقب. تركتُ لوحة جدول

المحاضرات، وخرجتُ من مبنى القسم إلى ساحة جون ملتون أطلّعتُ في كل الاتجاهات. كان يجب أن أسأل نجيب أين رأى شريفة، ولكنه كان مسرعاً إلى المحاضرة. أنا أختار محاضراتي ولا أحضر كل محاضرة. وحين تكون شريفة في الجامعة، فلها الأولوية على كل شيء.

كان يوماً ربيعياً صافياً من أيام القاهرة الجميلة. رحْتُ أتعوّل في الأنحاء القريبة من القسم، وطفْتُ على بوفيه الكلية الواقع بين القسم والمبنى الرئيسي للآداب، ولكنني لم أجد شريفة، ووجدتُ نبيل فجلستُ معه إلى حين.

– مالك؟

– لا شيء. سمعتُ أن شريفة هنا وأبحث عنها.

– آه. لم أَرها.

– وأنت؟ أخبر نانسي إيه؟

– لم تحضُر اليوم.

– يا بختك!

طبعاً. الحب عذاب إذا كان بهذا الشكل. أعلم أنه يدفع المرء إلى عالمٍ سحري جميل، وهيامات وإلهامات، ولكنه عذابٌ إذا لم يتضمّن تحقيقاً للذات. وحكايتك مع شريفة غريبة. فتاةٌ سحرية، زميلتك في نفس القسم والسنة الدراسية، ولكنها بعيدةٌ قصية. حين تراها ترتبك. تكتفي بالتطلع إليها ومتابعتها أينما ذهبت، من بعيد، ولا كلامٍ إلا مصادفة، وهي البادئة دوماً. يوم تبعْتُها إلى مكتبة الجامعة وجلستُ أمامها وهي تُطالع في مرجع بالإنجليزية. تقرأ وتكتب ملاحظات في كراسةٍ معها. وأنت تُلاحظها، ورأيت كيف أن قلم الحبر الذي تكتب به قد فرغ منه الحبر، وبدت الحيرة على وجهها وهي تُحاول أن تُخط كلماتٍ أخيرة، فسارعتُ تلقائياً بعرض قلمٍ آخر عليها، فرفعتُ لي وجهاً ملائكياً مضرجاً بالحمرة الطبيعية وابتسامةٍ خجلى وهي تأخذه مني وتقول شكرًا بالإنجليزية. واغتبطتُ لأنها لا بد لاحظتُ أنني بعلمي هذا إنما كنتُ أراقبها وأرى وأنفعل ... وبعد وقتٍ أصابني القلق؛ إذ وجدتُ أن قلمي قد لطح أصابعها بالحبر، ولكنها لم تُعلّق على هذا إلى أن أعادته لي شاكرة مرةً أخرى.

كنتُ جالساً على البوفيه مع نبيل، ولكن عيني تجوب الأنحاء باحثَةً عن شريفة.

- عندنا محاضرات إيه اليوم؟
- شعر وحضارة ودراما.
- هل ستحضر؟
- طبعًا. فاضل ساعة.
- ما أخبارك في المذاكرة؟
- انتهيتُ أمس من هملت وشروحا.
- أنا ما زلتُ في منتصفها.
- سيستمر الدكتور العيوطي في شرحها اليوم.
- أنا أعرف المسرحية من زمن، قرأتُ عنها منذ كامل كيلاني، ثم قرأتُها بترجمة عربية قديمة، ولكنها صعبة بالإنجليزية وتحتاج وقتًا.
- ألم تأخذ درسًا مما حدث لك العام الماضي؟ كُف عن قراءة الترجمات.
- لماذا؟ إن هذا درسٌ جميل أيضًا في الترجمة. ولا تنسَ أننا لو كتبنا فسنتكتب بالعربية لا بالإنجليزية.
- هذا ليس سببًا. وعندك يا أخي شرح العيوطي عليها في كتابه الذي صدر عن الأنجلو. إنه رائع.
- فعلاً. أحب ما كان يقوله في البداية: Right from the start, there is a commotion in the state.
- ها أنت تُوجع دماغنا بعبارة كل سنة، السنة الأولى كانت من مكبث، وليدي مكبث تقول: Rise gentlemen, his highness is not well.
- ها ها. ولكني ما زلتُ أستخدم عباراته الشكسبيرية الحقّة.
- أعرف. I humbly take my leave. أنا مُعجَب جدًا بمكبث. أرى حتى أنها أفضل من هملت.
- وهبط علينا سامر فجأةً صائحًا: من هذا الذي يُفضّل مكبث على هملت؟ فأجابه نبيل: أنا.
- كيف هذا؟ معنى ذلك أنك لا تفهم في شكسبير؛ فهملت هي أعظم أعماله.
- هل رأيتم كتابي؟
- ودفع أمام أبصارنا كتابًا أصفر الغلاف. فتعجبتُ كيف تيسّر له الكتابة والنشر وهو في تلك السن الصغيرة ونحن ما نزال نتلمس خطواتنا الأولى في الحياة.

- إنه ترجمة لقصص قصيرة.

- وكيف نشرته؟

- عن طريق أصدقائي.

كنتُ أعرف أن «سامر» من رواد مقهى عبد الرحمن الشهير، ولا بد أنه تعرّف هناك على العاملين في مجالات الكتابة والنشر. وكنتُ معجباً بقدرته الفائقة على التعرف على الناس ومخالطتهم والفوز بإعجابهم. على عكسي أنا تمامًا. وكانت لديه قدرة عجيبة على النقاش ومحاولة إقناع الآخرين، والتوصل إلى حلول وسط للالتقاء معهم، حتى على حساب آرائه الصميمة هو. وكان هناك موقف غريب بيني وبينه، نابغ من فرق طبقي لا أكاد أشعر أنا به، في حين أنه كان فيما يبدو متأثرًا به إلى حد عميق. كان والدي ضابطًا ذا رتبة عالية بالجيش، وكان والده جنديًا رقيق الحال. وكان رشاد معروفًا باتجاهاته الاشتراكية التي تكاد تصل إلى الشيوعية، بينما أنا لم يكن لي شأن بالسياسة، مُفضلاً الفن والحب على الانغمار في هذه التيارات السياسية التي كانت تموج بها الجامعة والبلاد. وكنتُ من أشد المتأثرين بسارتر، بيد أنني كنتُ بمنجاة من نظريته في الالتزام والانخراط العقائدي والسياسي، أخذًا منه الوجودية. وقد أدخلني سارتر ووجوديته إلى عالم ألبير كامي أيضًا، ووجدتُ فيه ضالتي المنشودة في الأدب، وأصبحتُ أكاد أحفظ روايته «الغريب».

وطلبتُ قهوة لسامر وأنا أتصفّح كتابه. كانت فيه مقدمة كتبها له ناقد مشهور. كان حديثًا جميلًا أن ينشر زميلٌ لنا كتابًا وهو ما زال في السنة الثانية بالكلية. وقدّمتُ له تهنئة مخلصّة خالية من أي شعور بالحسد، بل وفيها نوع من الانبهار.

- وأنت، أما زلتَ تلوذ ببرجك العاجي؟ انزل إلى الحياة الواقعية يا رجل. اترك سارتر وكامي وتعال معنا لدى تشيكوف ودستوفسكي.

- تقصد ماركس وإنجلز!

- الأدب والفن لا ينعزلان عن الناس والحياة.

- إني معك، ولكن الأدب والفن يختلفان عن الكتابات الاجتماعية والاقتصادية.

- أنت من البرجوازية الصغيرة. لا فائدة فيك.

قال سامر ذلك ضاحكاً ونهض مسرعاً بعد أن احتسى قهوته. كان دائماً بصحبة اثنتين من زميلاتنا، لا يكادون يفترقون. منهما واحدة كان مغرمًا بها، وزميلة لها أكبر سنًا، مطلقة؛ وتجري وراء الاشتراكية والاشتراكيين.

نهضتُ مع نبيل بعد أن دفعتُ الحساب، متجهتين إلى محاضرة الدراما. اتجهت كالعادة إلى آخر صف في مدرج ١٣، ولكن نبيل تركني وجلس في صف قريب من الأمام، وكان المدرج نصف ممتلئ، وفيه الوجوه المألوفة من الزميلات والزملاء. سامية وسهير والليالي. وجلستُ أتصفح بعض الكتب وأتشاغل بالنظر من النافذة إلى الحديقة، وزاوية «وردزورث» المليئة بالزهور الجميلة. كان كُلي أمل أن تحضر شريفة هذه المحاضرة إذا كانت في الكلية. وهي تحضر عادةً مع زميلات لها من شلة الإنجلش سكول.

كان منظر فتيات الإنجلش سكول مبهجًا لي؛ فهن يبدون مختلفاتٍ عن الفتيات الأخريات. أما شريفة فهي زهرتُهن وأنضرهن. تَلَفَت النظر أول ما تَلَفَتِه بعينَيها الخضراوين الواسعتين. لم يرَ أحد مثل هاتين العينين. وبشرتها المُشرَبة بالحمرة. ثم ملابسها ذات الطابع الإنجليزي، السكوتش. لا بد أنها قد وُلِدَت في إنجلترا. كنتُ أَلَقُّطُ المعلومات عنها منذ رأيْتُها لأول مرة في أول التحاقنا بالجامعة. كنا ندفع المصاريف ونستخرج الكارنيهات، وكانت هي واقفة في الصف. وكانت رؤية صاعقة! التفتت بعد أن تناولت الكارنيه فرأيْتُها، والتقت العيون فصُعِقْتُ من هذا الجمال النادر. وصادفتُها في القسم الذي التحقتُ به فتمَّت سعادتي ونعيمي. ولكن منذ ذلك الوقت لم نتبادل الكلام إلا قليلًا، وبمبادرةٍ منها هي.

ودخل الدكتور المدرج، وهبط الصمت. بدأ يُلقي تعليقًا على مسرحية هملت، ويتلو بعض الأبيات ويشرحها. وتطرَّق حديثه إلى كتاب صدر عن شكسبير للعقاد، وذكر ساخرًا الإشارة إلى أن أصل اسم شكسبير الشيخ زبير. وتعلَّات الضحكات.

وخرجنا من مدرج ١٣، إلى دهليز «جون ملتون»، وانضممتُ إلى نبيل مرةً أخرى. وما إن خرجنا إلى الساحة أمام القسم، إلا ورأينا نانسي مع زميلة لها أماننا. واضطرب نبيل، واستأذن مني وذهب إليهما يُحيي نانسي. كان أكثر حظًا مني؛ فقد كان يُحادث نانسي وهي تعلم أنه يُحبها. ولكنها كانت فيما

يبدو ثُلُوعه، وكان يُشك أنها تفعل نفس الشيء مع وهيب، زميل الشلة. كان نبيل وهيب يتنافسان على حب نانسي، ولكنها لم تكن تعطي كلمة قاطعة لأي منهما.

كانت نانسي أوروبية المظهر، شقراء، باريسية القوام، ذات دلال لا يخفى على أحد. وكان نبيل يُحاول أن يفوز بقلبها ويهش عنها الآخرين، وخاصة وهيب، ولكنها كانت غير مستقرة ولا تعطيه جوابًا شافيًا. بيد أن حاله معها، في رأيي، كان أفضل من حالي مع شريفة؛ فهو يقول إنه قد خرج معها وذهبا إلى السينما والكازينوهات أكثر من مرة، رغم أن أحدًا لم يكن يُصدّقه. ربما كان يقول ذلك كي يغيظ وهيب ويُقنعه أن نانسي له.

ذهبتُ وحدي إلى البوفيه، ولما لم أرَ أحدًا أعرفه تجوّلتُ في مبنى الكلية الرئيسي، عني أرى شريفة، ولكنها لم تظهر. ربما كان الأمر قد اختلط على نجيب. الكلية غاصّة بالضجيج ولافئات الجداول والإعلانات والكل في هَرَج ومَرَج. وخرجتُ من الكلية إلى صحن الجامعة، والدائرة المستديرة الواسعة. على يميني قبة الجامعة وساعة بج بن، وأمامي كلية الحقوق. سرتُ ببطء متوجّهاً إلى بوفيه الحقوق هربًا من ازدحام بوفيه كليتنا. وجدتُ هناك زميلنا عثمان. وكنا قد تعارفنا نتيجة اهتماماته الموسيقية وحبه لفيروز مثلي. كان مع فتاة لا أعرفها، فتركتهما في حالهما، وجلستُ إلى مائدة مستقلة. تلفتُ حولي فوجدتُ بعض فتيات القسم. الفتاة التي تشبه كيم نوافك. كنتُ أبادلها النظرات فقط. لم يكن ذلك خيانةً لحبي لشريفة؛ فهي الأولى في حياتي العاطفية، ولكن هذا لا يمنع الإعجاب بصنوف الجمال التي تُحيط بي من كل جانب.

وجاء ناشد، الطالب المخضرم في كلية الحقوق، مرتديًا نظارته السوداء، وجذب كرسياً إلى جواربي دون دعوة. وسألته عن التحقيق الصحفي الذي أجراه عن شباب الجامعة وجعلني أحدث فيه، ولم يكن قد ظهر بعدُ في الصحيفة التي يزعم أنه محرّرها. رد عليّ بعبارة المعهودة: «سيظهر في العدد القادم.» وابتسمتُ في داخلي؛ فقد تعودتُ على هذه المقولة، وعلى أحاديث ناشد المُبالغ فيها عن نفسه، وعن جهاده أيام ما قبل الثورة، وفنجان قهوته الذي أدفع ثمنه كلما كنتُ معه.

ومن بعيدٍ لمحت «وفيق» قادمًا يسير بطريقته المترنحة، التي يميل فيها بجسده إلى الأمام. كان أيضًا من أصدقائي الحميمين رغم أنه في الحقوق.

وكان مُعَمَّرًا فيها أيضًا؛ إذ كان مشغولاً بأنشطته السياسية والحياتية، فكان لا يحضر الامتحانات، ويُقدِّم أعذارًا وهمية. كان والده من كبار رجال الجيش، وكان ذلك يُعفيه من العقوبات الشديدة التي تنزل بمن هو مثله من الناشطين سياسيًا.

ولما لم يرني وفيق، نهضت وسلمت عليه ودعوته إلى مائدتنا. كان واضحًا أنه ثَمِل إلى حدٍّ ما. وكنا متعودين على رؤيته على هذه الحالة بعد أن قطعت فائزة علاقتها به، وخُطبت لأحد أعز أصدقائه. جلس بعينيَّ الزائغتين الضيقتين وسلم على ناشد. يبدو أنه كان بينهما ودٌ مفقود.

– هل علمتم آخر الأخبار؟

– ماذا؟

– لقد قبضوا على معظم الإخوان.

– الإخوان المسلمون؟

– مسلمون إيه! الرفاق.

– آه. وأنت؟ لماذا لم يقبضوا عليك؟

– أنا مختفٍ!

وقهقهت. بينما قال ناشد: أيوه يا عم. يا بخت من كان النقيب خاله.

– أيوه يا عم إيه ونقيب إيه. أنا أدافع عنهم. دول قبضوا على لويس

عوض.

ألمني هذا الخبر. كان من كُتابي المفضلين، رغم أنني لم أعاصره إبَّان عمله في القسم. كان قد فُصل من الجامعة ويكتب في الصحف. الوحيد الذي يمتلك أسلوبًا مميزًا في الكتابة وفي اللغة تعرفه على الفور دون أن تقرأ اسمه على المقالة.

وسرد وفيق أسماءً أخرى على مسامعنا، ولكنني لم أكن أعرف أحدًا منها.

كان ناشد يسمع بهدوء. وتذكَّرت ما يُشاع عنه أنه يتعامل مع جهات الأمن.

كان وفيق مهتاجًا ويبدو أنه شرب كي يُهدئ من ثورته. كنت قليلًا ما أراه

هكذا. وفيق قارئٌ ممتاز، ومع أنه لم يكن معنا في قسم اللغة الإنجليزية، ولا

حتى في كلية الآداب، فهو قد قرأ الكثير من الكتب العالمية عن طريق إجادته

الإنجليزية. ربما كانت ثقافته الواسعة تُعزى لميوله السياسية الثورية. كنتُ

أشعر به أصيلًا، ليس كسامر، ولكن حظه أقل في التعامل مع الناس والحياة.

لم يكن له مكر سامر أو دهاؤه. ورغم أنني كنتُ بعيداً تماماً عن ميول جميل السياسية، فقد كنتُ أعاطف مع مأساته الشخصية، بعد أن أوردته صراحته ومباشرته موارد الهلاك. كان قد انتزع فائزة زميلتنا من صديق لها معنا في القسم، بأن كشف لها أن ذلك الصديق يتفاخر بما يفعله معها أمام الجميع. وكانت فضيحة، ولكن فائزة وثقت بوفيق وبدأت علاقةً معه، ولكن الحب لم يستمر طويلاً من ناحيتها؛ فقد شرب وفاق من نفس الكأس؛ إذ انتزع صديق مقرباً له فائزة، وأصبحا مخطوبين رسمياً الآن. وأعتقد أن هذه الواقعة كانت وراء إدمان وفاق الشراب، وكان يتحدث عن فائزة كأنها فردوسه المفقود. وتعمدتُ تغيير موضوع الحديث إلى ما أحبه.

– فلنترك أخبار السياسة. ماذا تقرأ الآن يا وفاق؟

– أنا لا يشغلني الآن إلا ما يحدث لرفاقي. عجيبٌ أمرٌ يا سامي؛ ألا تهزك هذه الوقائع الخطيرة؟

– إنني أهتمُّ بها وأتابعها. ولكني لا أشارك فيها. إن عندي ما يشغلني أكثر من هذا.

– ستقول الفن والأدب. إن هذا لا ينفصل عنهما. انظر إلى الكاتب الذي تحبه؛ سارتر. إنه يلقي بفكره كله في الالتزام بالمذاهب والصراعات السياسية. – ها. إنك تقول ذلك لأن سارتر شيوعي. إنني أقرأ لسارتر وأحبُّ أدبه. ولا تنسُ أنني بصدد تكوين جماعةٍ وجودية. ولكني أفضلُ البير كامى في مواقفه وأفكاره أكثر من سارتر. وتدخلُ ناشد قائلاً:

– ولكن كامى يريد للجزائر أن تبقى فرنسية. وسارتر مع الجزائر المستقلة.

– إن هذا ينبع من كون كامى مولوداً في الجزائر. وهو قد تعاطف مع نيل الجزائريين حقوقهم كاملة. وقد تبنى ذلك حتى قبل ثورة ١٩٥٤ م. ومن ناحيةٍ أخرى، هذه سياسةٌ بحتة. أنا أدرس الأدب والفن، أما في السياسة، فلكل واحدٍ حرية الاعتقاد.

فقال وفاق: معنى هذا أنك توافق على الاعتقالات التي تحدث في مصر الآن؟

– أنا لا أدري ما وراء هذا. والحكومة بالطبع تعرف ما تفعل. ولتذكر أنكم كنتم من أشد المناصرين للثورة. ولكن يبدو أن موقفكم منها مرتبط بموقفها من قوم بني الأحمر. ها ها.

فقال ناشد: احذر يا سامي، الجامعة ومن فيها مراقبة.

– أنا لا يهمني شيء في سبيل إبداء رأيي. وعلى كل حال، لقد كنت أسأل عن قراءات وفيق. فقال وفيق: قبل هذه الأحداث كنت أكمل قراءة شولوخوف. روايته النهر الهادئ من أروع الروايات.

– هل قرروها عليكم في الحزب؟

قال ذلك ناشد مقهقهًا، وضحكنا معه.

قلت: لقد سمعتُ عن ظهور ترجمة عربية لكتاب مهم أحدث ضجة كبيرة في الغرب. اللامنتمي لكون ولسون، على ما أذكر.

فقال وفيق: طبعًا. لقد ظهر عند مدبولي. بخمسين قرشًا. لقد قرأته بالإنجليزية.

– وما رأيك؟

– إنه كتاب مهم. أعتقد أنه سوف يعجبك كثيرًا.

نظرتُ في ساعتِي، وناديتُ الجرسون، ودفعتُ الحساب، ثم استأذنتُ من الصديقين للتوجه لحضور محاضرة تالية. شعر. كنا ندرس شعر الميتافيزيقيين الإنجليز الذي كنتُ أجده جافًا صلبًا لا روح فيه. كان معي الكتاب المطبوع على عجل في مكتبة الأنجلو، بعد منع استيراد الكتب الإنجليزية بعد العدوان الثلاثي.

مررتُ على مكان «الحزب النازي»، وتذكرتُ حامد الذي أطلق هذه التسمية على دلال وزميلاتها؛ لأن دلال ذاتُ عَيْنَيْنِ زرقاوين كعَيْنِي الألمانية. وفجأة، رأيتُ شريفة تهبط من سلالم المكتبة العامة متجهة إلى القسم. يا للخسارة، لقد ضاعت مني فرصة الجلوس بالقرب منها في المكتبة! كانت بهيئة المنظر، ببلوزتها الحمراء على الجونلة الاسكتلندية، تحوطها تلك الهالة الذهبية التي كنتُ أراها دائمًا حولها. أسرعْتُ الخطى كي أذهب للمحاضرة؛ فلا بد أنها ذاهبة إليها أيضًا. وعلى سُلَم القسم، استوقفني عاطف ليتحدث معي، وقضيتُ معه وقتًا بينما أنا أتحرقُ شوقًا للدخول.

هُرَعْتُ إلى مدرج ٧ الصغير، ولما دخلتُ وجدته نصف ممتلئ؛ لأن المحاضرة كانت «سكشن» وليست عامة. ولكنني وجدتُ شريحة في لحظة واحدة، كالعادة. كانت جالسةً في طَرَف الصف، واثنان من الطلبة في أقصى الطرف الآخر. كانت فرصة للجلوس إلى جوارها. وتحركتُ ببطء. وقبل أن أهتمَّ باستئذانها للمرور إلى الصف، وجدتُ زميلًا يحاول الدخول، ولكنها صاحت فيه: محجوز. وسألها: كل هذا؟ وردّت: نعم، كله محجوز. وطبعًا جفَلْتُ من هذا، وقنعتُ بأن أجلس خلفها بصفٍّ في الجانب المقابل كيما أستطيع رؤيتها. كانت تقرأ في كتابٍ استطعتُ أن أثبِّن منه أنه رواية توم جونز، وهي المقررة علينا في منهاج الرواية الإنجليزية هذا العام. كانت تكرر الصفحات بسرعة، طبعًا، فهي من الإنجلش سكول. أما نحن فنستغرق فترةً أطول بكثير. وأنا في قراءتي أُمّر بكثيرٍ من الكلمات التي لا أعرفها. البركة في قاموس النهضة العتيد. كنتُ أحب هذا القاموس بجزأيه الكبيرين، وأفضله على قاموس إلياس الذي أرجع إليه أيضًا. ربما كان من الأفضل أن أستخدم قاموسًا إنجليزيًا لتنمية حصيلتي اللغوية، وكنتُ أفكر في قاموس أكسفورد الموجز الذي يُناسب ميزانيتي. هل يا ترى شريحة قد منعتُ من يريد الجلوس إلى جوارها كي أجلس أنا أم لكي تمنعني أنا كذلك؟ مَنْ يدرى؟

وبدأتُ المحاضرة. موضوعٌ جاف. لماذا لا أشعرُ بموسيقى وصور الشعر الإنجليزي بمثل ما أشعره من الشعر العربي؟ إننا ندرس هذا العام قصيدتين طويلتين للمتنبي، أستمع بهما إلى حد أنني اشتريتُ ديوانه الكامل لقراءة المزيد. وشعر شوقي. والأخطل الصغير الذي ضحيتُ قبلًا بمصروف شهرٍ كامل لشراء ديوانه «الهوى والشباب» حين كنا نصطاف في الإسكندرية. ولكن، لا بد من دراسة هذه القصائد الإنجليزية فلسوف نُمْتَحَن فيها. سوف أطلب من عبد الرحيم أو كمال المساعدة في فهمها. طبعًا شريحة تقرأ هذا بسهولة، ولكن الصعوبة عندها في اللغة العربية. وأنا متفوّق فيها. آه لو كنا نتبادل التعاون. كنتُ قد حصلتُ على تقدير ممتاز في مادة اللغة العربية في العام الماضي بينما رسبتُ شريحة فيها، وتأجّلتُ بالنسبة لها هي وكل طالبات وطلبة المدارس الإنجليزية. كان المقرّر يشمل بعض قصائد شوقي، ومسرحيته مجنون ليل. الدكتور شوقي ضيف ومحاضراته الرائعة. وكتابه عن شوقي شاعر العصر

الحديث. أي متعة! كم كانت دراسة العربية ممتعة، ربما كان يجب أن ألتحق بقسم اللغة العربية. ولكن ... آه من النظرات التقليدية والبحث عن المستقبل الأفضل عملياً ومعيشياً، في الترجمة والإذاعة وغيرهما! ولكني مُصمَّم على أن أدرس العربية دراسةً منهجية في قسم اللغة العربية أو في دار العلوم، بعد أن أنهيت دراستي في قسم اللغة الإنجليزية؛ ذلك أن أهم شيءٍ للمترجم هو إتقان اللغة العربية. وأيضاً للترجمة من العربية إلى الإنجليزية. أحلم بأن أترجم رائعة نجيب محفوظ رغم طولها الشديد. ولكنها أهم روايةٍ قرأتها في حياتي. وهو ينشر الآن روايةً أخرى في الأهرام.

– اقرأ القصيدة من فضلك.

ورأيت الدكتور يشير إليّ. مصيبةٌ كبيرة.

وقفتُ فأشار لي الأستاذ أن أجلس. ومضيتُ أقرأ القصيدة كيفما اتفق. جون ملتون. قراءة متأنية لا أعلم إن كان نطقي فيها سليماً أم لا. وزاد من ارتباكِي وجود شريفة في المدرّج تسمعني.

وانتهيتُ لا أعلم كيف. وقال الأستاذ: حسن. ثم انطلق يشرح أبياتَها ومعانيها. وتطلّعتُ ناحيةً شريفة ففُوجئتُ بأنها تنظرُ لي. وتلاقت نظراتُنا كالعادة من على البعد. لحظةً نورانية. عياناً شفافتان، يغوص المرء فيهما، ويسبح إلى الأعماق. تتجلى له السماوات العلى، وتدقُّ الأجراس دقاتٍ متناغمةً متساوقة.

وكنْتُ أنا من خَفَضَ بصره أولاً. وغرِقْتُ في شرح الأستاذ وفي تهويماتي الشريفة. وبعد المحاضرة أسرعْتُ بالخروج ولكني لم أرَ شريفة. ولحق بي نبيل ووهيب وتوجَّهنا كالعادة إلى البوفيه. كان كمال هناك ودعانا إلى الجلوس معه. كان قد عُيِّن معيداً في القسم بعد تخرجه بامتياز. واعتذر نبيل ووهيب وجلسْتُ أنا معه. قلتُ له: أمْس، أنهيتُ دراسة رواية جوزيف آندروز المقررة علينا.

– هل بدأتِ الدكتوراة أنجيل شرحها لكم؟

– ليس بعدُ.

– أعلم أنها زوجة الأستاذ جرجس الرشيدِي؟ لا بد أنك حضرته في

الأورمان.

- حَقًّا؟ طَبْعًا! لقد درَّس لي وشجَّعني كثيرًا.
- وهل قرأت الروايات الأخرى لنفس المؤلف؟
- ضحكتُ وقلتُ: أنا لستُ موسوعيًّا مثلك.
- لا، لا تقل هذا. إنك مهتم بالأدب، ولا بد أن تقرأ كل شيء. وبسرعة.
- إنني أركِّز بالكاد على المقرَّرات التي علينا.
- ولكنك قلتَ لي إنك قرأتَ عشرين مسرحيةً من مسرحيات شكسبير؟
- نعم. ولكن بعضها مختصر وبعضها بالعربية.
- لا، هذا لا يُجدي.
- أعرف. ولكن، شيء خيرٌ من لا شيء، ثم إن هذا يفيدني في الترجمة. هل أكملتَ مسرحيتك؟
- إنني أعمل فيها ولكن ببطء؛ فأنا أركِّز الآن على الكورسات التي عهد لي بها الدكتور لتدريسها. أعلم أنني تحت الاختبار؛ ولذلك لا بد أن أبذل كل جهد في التحضير لها.
- هذا رائع. طبعًا ستتفوّق في تدريسها، وسوف يعتمد عليك رئيس القسم كثيرًا.
- توهَّج وجه كمال فرحًا وغبطة كعادته وقال: المستقبل بيد الله. ولكن المهم أنني أستمتع بالأدب وأعيش حياتي فيه. ليس الأدب، بل الفنون كلها. هي كلُّ لا يتجزأ. الموسيقى والتصوير والكتب والتماثيل. والجمال الأنثوي فوق كل شيء، ولكن الحياة هنا لا تنفع، لا كتب ولا موسيقى ولا فن. وإذا خرجتَ مع فتاة فلا بد أن تتوارى معها في الخفاء. لا بد من التَّرحال إلى أوروبا والنهل من الحضارة هناك.
- المفروض أن تُوفد لدراسة الدكتوراه في الخارج.
- نعم، ولكن الشُّقَّة ما زالت بعيدة، وأمامي الكثير كيما أكوِّن نفسي. ولا تنس ضرورة متابعة الوضع الثقافي والفني هنا. لقد أثَّرت المناقشات الأدبية التي تدور الآن على صفحات الجرائد والمجلات من حياتنا الفكرية. إنني أتابعها منذ بدأت المعركة ضد الرومانسية في الإبداع والنقد. الحقيقة أننا في حاجة لدفعةٍ شديدة إلى الأمام.
- وجاء عبد الرحيم متقافزًا كعادته. ووقف إلى جوار مائدتنا يحيينا. كان معروفًا أن هناك تنافسًا بينه وبين كمال على الفوز بثقة رئيس القسم والاقتراب

منه؛ لأن عبد الرحيم كان قد تعيّن أيضًا معيدًا في نفس الوقت مع كمال، ومعهما عددٌ آخر من المعيدات والمعيدين، فقد كان القسم في حالة إعادة تشكيل، وكان الدكتور يريد أن يكون طبقةً جديدةً من الأساتذة الواعدين، ولكن، شتان بين كمال وعبد الرحيم. عبد الرحيم يركّز كل همّه في المقرّرات الدراسية ولا يخرج عن نطاقها، في حين أن كمال يجمع بين كل شيء. واستمع عبد الرحيم إلى نقاشنا وقتًا ما، ثم قال عبارته الشهيرة: I have to go. وانطلق بعيدًا.

ودفع كلُّ منا حسابه. كانت الساعة قد قاربت الرابعة وتعيّن العودة إلى البيت، ولما كنا نقطن في نفس الحي فقد سرنا معًا إلى خارج الجامعة. وحين رأى كمال الزحمة على محطة الأوتوبيس اقترح أن نمشي إلى ميدان الجيزة ونأخذ الأوتوبيس من بدايته. ورحبْتُ بذلك؛ فقد كان كلانا من محبي المشي. وسألني عن رأيي في أغنية عبد الوهاب الجديدة، فرددتُ أنها أعجبتني، وأُنني أزمع أن أحصي عدد المرات التي يردّد فيها كلمة لا لا لا، فضحك كمال عاليًا وقال إنه قد أحصاها بالفعل، وإنه يفعل ذلك دائمًا، وإن أشهر ترداد كلمة عند عبد الوهاب هو في أغنية يا ترى يا نسمة، حين ردّد عبد الوهاب كلمة يا ترى ٢٥ مرةً متتابة بنغماتٍ مختلفة. وذكر أنه قد نجح في عزف بعض المقاطع المشهورة على العود؛ فهو قد تعلّم العزف عليه، وأصبح قادرًا على الوصول إلى درجة عالية من الجودة في اللعب عليه، حتى إن بعض المعارف قد طلبوا منه الاشتراك في بعض الأفراح بالعزف عليه. وكان ذلك شيئًا جديدًا أعرفه عن كمال يُضاف إلى مواهبه الأخرى. ولما شكوتُ له من صعوبة الشعر المقرّر علينا قال لي إنني يمكن أن أمرّ عليه في المنزل ليشرح لي كل ما أريد.

مررنا على حديقة الحيوانات على اليسار، ثم كلية الزراعة إلى اليمين، حتى وصلنا إلى ميدان الجيزة. وهناك، قال كمال إنه سيذهب إلى أحد معارفه في داخل شوارع الميدان، وفهمتُ من تلميحاته وضحكه أنها إحدى الفتيات. وكان كمال معروفًا بمغامراته التي كنا نحسده عليها. ودّعته وذهب، بينما وقفتُ أنا في انتظار الأوتوبيس. وطافت في ذهني أحداث اليوم، ومَن قابلتُ من الأصدقاء وما حدث من وقائع وما قيل من أحاديث وتعليقات. وبدأت أمام عيني أهمية حياتنا جميعًا في هذا المكان وهذا الوقت. كنا جماعة نسعى إلى تكوين مستقبلنا بالطريقة المعروفة، وهي إتمام الدراسة الجامعية لمحاولة التوظّف

في عملٍ محترم، وكنا ما نزال في السنة الثانية، ولكننا كنا ننظر بطموحٍ إلى إنهاء الدراسة بتقديرٍ مناسب والحصول على وظيفةٍ جيّدة. بيد أننا كنا أيضًا مجموعةً تسعى إلى تحصيل الثقافة والمعرفة فيما وراء مجرد التعليم الجامعي. كلنا في مطلع الشباب حيث التوقّد والاندفاع والآمال العريضة. وكلنا نعيش قصص حب — سواء ناجحة أو متعثرة — تُثري حياتنا بالتجارب العميقة وبالألام كذلك. وكان لكلّ منا أحلامه بالمستقبل؛ فهذا يريد أن يصبح مترجمًا، وذاك مدرسًا وآخر دبلوماسيًا. أما أنا فكنْتُ ما أزال حائرًا فيما أفعل، لم أستقرّ على شيءٍ بعدُ بالنسبة للمستقبل. كنْتُ قد فشِلْتُ في الالتحاق بكلية البوليس؛ حيث كنْتُ أطمع في عملٍ برّاق ومرتبٍ كبير. وها أنا الآن أدرس اللغة. وكنْتُ مستمرًا في حُب القراءة التي بدأتُ معي منذ الصغر، منذ كنْتُ ألْتهمُ كُتبَ كامل الكيلاني وإصدارات دار الهلال ثم حلمي مراد. ورقد ذلك كله روايات المغامرات والروايات البوليسية التي بدأ بها جيلي كلّهُ القراءة؛ فكنّا نلتهم مغامرات أرسين لوبين وروايات أجاثا كريستي وأرثر كونان دويل وكثيرًا غير ذلك.

وجاء الأوتوبيس واندفع الجميع نحوه. وجلسْتُ كعادتي في المقعد المنفرد في الأمام، وأخرجت «الأبونية» كيما أريه للكماري حين يمرّ. زحام وجلبّة وصياح. ويستدير الأوتوبيس عائدًا إلى العجوزة؛ حيث أهيّط وأسير إلى منزلنا. شارع محمد شكري. أعيش مع أسرتي وإن كنْتُ أحيًا في عالمي الخاص بي. غرفتي مستقلّة لها باب على السُّلم. معي مفتاحه. ولغرفتي نافذةٌ تطل على الشارع. وإلى جوارِي شُرْفَةٌ أجلس فيها أحيانًا. أتطلّع إلى فتيات الجوار فريدة وروحية. منذ أيام المدرسة. كبرنا معًا ولكن بالنظر فقط.

الحجرة كما تركتها بالصباح. كُتِبَ في كل مكان. ومكتبٌ صغير عليه روايةٌ مفتوحة. وكتب على السرير. كنْتُ قد أكلْتُ في الجامعة سندويتشات؛ لذلك لم أطلب طعامًا. ذهبتُ فقط إلى الثلّاجة، وتناولْتُ زجاجة كوكاكولا، وعُدْتُ إلى حجرتي.

كانت كل كُتبي أدبية الطابع؛ بالعربية والإنجليزية. وكنْتُ أعيب على بعض أصدقائي كوفيق وناشد الاشتغال بالسياسة؛ فالأدب والفن لا بد أن يكونا خالصين، يجب التفرُّغ لهما، ولكن تلك الفكرة لم تمنعني من التعلُّق بأدباء «الالتزام»؛ سارتر وبوفوار وكامي. وقد دلّقت إليهم عن طريق الوجودية التي

كنتُ أحياء فيها، ولكن مسألة الالتزام تلك لم تكن تُعجبني. الفنان يُمكنه متابعة السياسة كجزء من وعيه العام، ولكنه لا بد أن يتفرغ لفنه وأدبه وقراءاته وكتابات الفنيه؛ ولذلك كانت كُتبي كلها في الأدب. روايات ومسرحيات وشعر ونقد. كنتُ أعبد الفنان قابلاً في محرابه، أو على ذرى الألب، مخلصاً لفنه ولا شيء غيره. وكنتُ قد نسختُ نهاية كتاب زهرة العمر لتوفيق الحكيم، وعلقتُها في طَرْف المرأة في الحجرة كي أراها كل يوم.

وبعد أن غيّرتُ ملابسِي وارتديتُ البيجامة، سمعتُ نقراتٍ على باب حجرتي الذي يُفضي إلى السلم. أسرعْتُ إلى فتحه، وقد كنتُ معتاداً على استقبال أصدقائي في كل وقتٍ دون موعد. وبالبيجاما. وجدتُ سامر أُمامي فرحبتُ به، ودعوته إلى الدخول. كان كثيراً ما يأتي لي بعد الجامعة فنتحدث ونتناقش، ونحتسي البيرة في كثيرٍ من الأحيان. كان يرتدي قميصاً وبنطلوناً، شعره قصيرٌ غير مرتّب كالعادة.

جلس، ثم أخرج غُلبة سجائره، وأشعل واحدة، وبدأ يدخنُ دون أن يُقدّم لي واحدة. عادته. قال إنه جاء يعرض عليّ مشروعاً.

- أنت تعرف أنني بحاجة إلى نقود. مصروفي لا يكاد يُذكر. وأيضاً لم أتناقض أتعاباً عن ترجمة الكتاب الذي صدر؛ فهذه الكتب لا تُوزع الكثير؛ ولذلك لا يدفعون أجراً للمترجمين؛ لهذا فقد توجّهتُ إلى حيث يدفعون.

- ماذا تعني؟

- هل سمعت عن «مذكرات فتاة»؟

- طبعاً.

- هل تعلم؟ إنني أنا كاتبها.

- مش معقول!

- لمَ لا؟ بدأتُ من نصِّ بورنوغرافي، ولكنني أضفتُ إليه من عندي الكثير، مع تطعيمه بالكلمات المصرية الصميمة.

- صحيح. وهو غالي الثمن ويصعب الحصول عليه بسهولة.

- لهذا فهم يدفعون جيداً.

- طبعاً لأنَّ الشبان يتلهفون عليها.

- عندك نسخة؟

- كان عندي ولكنني تخلّصتُ منها.
- تريد أخرى؟
- يا ريت.
- خُذ.
- وأعطاني نسخةً من ملفٍّ كان يحمله.
- ولكنني جنّْتُ أعرّض عليك أن تشترك معي في ترجمة بعض هذه الكتب.
- أنا؟
- نعم. لِمَ لا؟ أنت ستترجم الكتاب ترجمةً حَرْفيةً، ثم أقوم أنا بعد ذلك بصياغته على النحو المطلوب.
- إني مشغول في المذاكرة والقراءة كما ترى.
- ضحك سامر عاليًا، وقال: يا أخي، اكتب أي حاجة.
- ولكن ليس لي خيالُك الدفّاق يا سامر.
- وهل هذه أمورٌ خيال؟ إنها أمورٌ غريزية. قل إنك لا تريد لأنك في غير حاجة للنقود. إنما أنت برجوازيٌّ كبير.
- وضحكنا معًا.
- وأين البيرة؟
- ابتسمتُ، وناديتُ على صباح، وقلْتُ لها أن تأتينا بزجاجة بيرة ستلا وكوبين. وجلس سامر متربّعًا على الكرسي الأسيوطي، وجعل يتأمل كعادته عناوين الكتب المصفوفة فوق دولا ب ملابسي.
- آه. أرى عندك هنري ميلر.
- طبعًا. ولكنني لم أقرأه بعدُ.
- إن المقارنة بينه وبين لورانس ممتعة. ويمكن أن يفيد ذلك؛ فنحن سندرسُ لورانس في الليسانس.
- وهل قرأته أنت؟
- طبعًا. إني أقرأ بسرعة وألتهم الكتب.
- وكيف تجد الوقت وأنت معنا في الكلية معظم الوقت وفي زياراتٍ مستمرة؟
- فضحك سامر عاليًا ولم يُجب.

«يا له من شخص غريب، ذي مقدرة فائقة على عمل الكثير في وقت قليل! إنه يصل إلى ما يريد بسرعة فائقة، وبكل الوسائل الممكنة، ولكن كان له أعداء أيضًا. كمال وعبد الرحيم مثلًا لم يكونا يستريحان له. وكانا يرفضان زيارتي إذا عرفا أن سامر سيكون عندي. سامر يعتبر نفسه أفضل من الجميع. ويحادثهما كنديين له. وكان يقول إنه هو أيضًا سوف يعمل معيدًا، فأستأذًا في القسم.»

وصلت البيرة المسقعة، وهُرع سامر يصُب لي وله، وأسرع بالشرب منها في لذة ظاهرة. كان يبدو لي شخصًا جمع في يده كل شيء، الفتيات والثقافة والفن والمتع الحسية، وها هو يسعى للنقود. ولا تنس التقدير العالي الذي ناله في السنة الماضية وهو جيد جدًا. ربما كان يُعوّض نشأته المتواضعة في حوارى ذلك الحي الشعبي، ولكنه كان من رواد مقهى عبد الرحمن، الذي تعرّف فيه على بعض كبار المثقفين. وكالعادة، بهرهم بشخصيته ومناقشاته وقراءاته، وكان ذلك مقدمةً لنشر كتابه الأول وهو في تلك السن الصغيرة. كان يبدو لي باهرًا، ولكني رغم ذلك كنت أحب أن أشاكسه كلما يحلو لي. وهو كان أيضًا يردُّ مشاكساتي بمثلها، ودائمًا يقرنها بوصفي بالبرجوازي الصغير. ورغم كل ذلك، كان يتقبل أي دعوة مني أو من الشلة للدفع عنه في أي مناسبة؛ على البوفيه، السينما، الكتب.

وانتزع كتابًا من على الدولاب وصاح: لم أكن أعلم أن لديك هذه الرواية للمركيز دي ساد؟

– لقد اشتريته حديثًا من مكتبة شارع عرابي.

– إنني أعرفها. لا بد أن يعرفك صاحب المكتبة كي يجعلك ترى كنوزه. هل الرواية كاملة؟

– أعتقد هذا.

– دعني أرى.

وغرق في الكتاب، ثم قال بعد دقائق: نعم. إنها الطبعة الأصلية.

– وكيف عرفت بهذه السرعة؟

– فيها الكلمات إياها. أتعرف؟ يمكن ترجمة هذه الرواية أيضًا وبيعها

سرًا.

- حرامٌ عليك يا سامر، أنا لا أحب أن يصبح دي ساد مثل مذكَرات فتاة.
- ما زلتُ في مثاليّتك. انزل إلى الأرضِ يا رجل.
- لا أحد يريد أن يرتبط اسمه بمثل هذه الكتب. ألا تقلق أنت من ذلك وأنت على أعتاب مهنة ناجحة في النشر والتأليف؟
- أبدًا. إنها عملية تجارية بحتة. والقبض كاش. وليست هناك أسماء مكتوبة.
- لا. يجوز لو فكَّرتُ في شيء من هذا في ترجمة عشيق الليدي تشاترلي.
- وحتى هذه لن أجروُ على أن أضع اسمي عليها، ولكنه لورانس.
- أتعرف أن قضية هذه الرواية ما تزال متداولةً في إنجلترا؟ يترافع في صفها كبار الكُتَّاب ومنهم فورستر.
- إنك مطلعٌ على كثير من الأمور الثقافية في الخارج. كيف يتأتى لك هذا؟
- إني أطلع الصحف الأدبية الأجنبية في المراكز الثقافية الأجنبية هنا، ولكن نصيحتي لك أن تتركَ لورانس. أعرف أنك تهيم بمرتفعات وذرنج وغيرها من الروايات الرومانسية.
- نعم. ولكنها مترجمة إلى العربية بالفعل.
- إنها ترجمة لبنانية في غاية السوء. الحقيقة أن الترجمات خارج القاهرة كلها «مسلوقة»؛ ولذلك فالسوق يسمح بترجمة جديدة.
- يبدو أنك تنتوي ترجمة لورانس.
- بفكر.
- على العموم سمعتُ أن إحدى رواياته مقرَّرة في مواد السنة الرابعة، ولكن لا أعتقد أنها عشيق الليدي تشاترلي.
- كلا. إنها رواية «أبناء وعشاق» فقط، وهي حلقة من ثلاثية متوافقة جاء بعدها «قوس قزح» و«نساء عاشقات». إني أقرأ كل هذا منذ الآن. أرى أنك تُذكرُ باجتهاد. يبدو أنك تسعى إلى الحصول على تقدير جيد جدًا.
- ياه! لا طبعًا. أنا لو نجحت بجيد يبقى كويس.
- بالعكس. جيد جدًا سهلة جدًا لو تركَّز عليها.
- أنا أترك ذلك لك ولفتيات دفعتنا من الإنجلش سكول.
- انظر إلى كمال وعبد الرحيم. إن أيًا منهما لم يحصل على جيد جدًا إلا في السنة النهائية؛ ولهذا يجب التركيز على هذه السنة.

- غريبة. إن من سيحصل على التقديرات الممتازة في دفعتنا هم بنات الإنجلش سكول.
- نعم. ولكني سمعتُ أن رئيس القسم يريد أن يطعم القسم بمن يُجيد اللغة العربية. وهؤلاء الفتيات يؤجلن امتحان اللغة العربية إلى النهاية، ولا يعرفن شيئاً في الترجمة.
- عندك حق. وأعرف أيضاً أن الدكتور رشدي رئيس القسم يريد أن يكون مدرسةً أدبية تلتف حوله وتؤمن بمبادئه في الأدب والنقد؛ ولهذا يحرص الجميع على التقرب منه عن طريق شاعره وناقده المفضل.
- على العموم أرى أن قوّتنا في اللغة العربية ستكون مفتاح التفوّق على فتيات الإنجلش سكول من دفعتنا، ولكن، كم هنّ جميلات!
- هُس. أنت عندك صاحبك.
- نعم. ولكن هذا لا يمنع من الإعجاب بالجمال أيّاً كان. وأنت وشريفتك ... وضحكتُ عاليًا حتى أقطع كلامه قبل أن يقول شيئاً لا يرضيني وأُضطرّ إلى الرد عليه. وشربنا مزيداً من البيرة المسقّعة. وبعد الانتهاء، نهض سامر وتأهب للخروج قائلاً: سأخذ الرواية أكملها ثم أعيدها لك.
- يبدو أنك سوف تقتبس منها لكتبك الإباحية.
- فقهقه سامر قائلاً: لا. لا. أنا أفدّس الروايات الجادّة، ولا أقحمها في هذا الهذر. وعلى فكرة، لقد بدأ الكتابُ العرب في استخدام كلمة الإيروسية بدلاً من الإباحية.
- وفتح الباب وغادر قائلاً: سلام.
- وأغلقتُ الباب وراءه. وعُدْتُ واستلقيتُ على السرير. كنتُ معزولاً تقريباً عن بقية الشقة. بها والدتي وشقيقي الأصغر. وكانت والدتي ما تزال في الشرفة التي تقضي فيها معظم المساء.
- وتهيأتُ للنوم كي أستيقظ مبكراً كعادتي، ولكن صور شريفة وذكريات اليوم كانت تتزاحم في مخيلتي. كم أشتاقُ إلى مطالعة وجهها الصبوح المُشرب بالحمرة الوردية، والغوص في أعماق عينيها الخضراوين، وأصبح فيهما إلى جنّات النعيم. منذ رأيتهما ونحن ندفع المصاريف في العام الماضي وهي قد أسرّنتني فلا أستطيع منها فكاكاً. نعم كنتُ أعجّب بفتيات أخريات، ولكن لكي

أُتْعِزَى بهن عنها؛ فقد كانت بعيدة المنال مني. والخطأ خطئي؛ فقد كنتُ أشعر أحياناً بها تشجّعني على الحديث معها، ولكني لم أكن أستطيع ذلك. والبهجة التي تمنّحني في رؤيتها هي كل شيء. إنها تملأ جوانحي وعقلي وقلبي بإشراق لا يمكن وصفه. إشراق من نوع جمالي فنّي يجعلني أحسّ بدفقة الحياة في كل ذرة مني. واستمتعتُ بهذه الفكرة التي تجعلني «مختلفاً» عن الآخرين، ممن يتوقون إلى الحصول على فتاتهم، بل ويتمثلون مواقف حسية معهن.

وانسابت إلى مسامعي أنغام موسيقى من راديو في الجوار. موسيقى ليالي لبنان لعبد الوهاب. أعشقها. تُذكّرني بشريفة. اخضرار عينيها كخضرة روابي لبنان. وبعد قليل سمعتُ يا جارة الوادي. هذا راديو معجبٍ آخر ببلبنان أو لعله لبناني. أماننا عائلة سورية جاءت بعد الوحدة.

«وعادني ما يشبه الأحلام من ذكراك.»

آه لو كانت معي هناك حيث أحلم.

«ودخلتُ في ليلين ... فرعك والدّجى.»

لا، شريفة شَعرها أشقر. كيف كتب شوقي هذا البيت؟! وكيف أجازوه؟! غداً أرجو أن تحضّر شريفة إلى الكلية. سأحاول أن أجلس إلى جوارها مرة أخرى. وإلا فسوف أتبعها كالعادة عن قُرب. حتى إذا خرجت عائدةً إلى منزلها. أعرف حيث تقيم. الفيلا الأنيقة حيث تصعد السلالم كحورية من حوريات الجنة. دائماً أمرُّ على شارعها وأتطلّع إلى الفيلا وأراها أحياناً في بنطلونٍ أزرق. وتراني وتنظر طويلاً. ثم تجلس في الحديقة تقرأ على كرسي وتنساني تماماً. وأحياناً أراها في نافذة الطابق العلوي. لا بُد أنها حُجرتُها. وأقف أتخيّل ما يحيط بها. كُتِب. أسطوانات. ملابس. وفي الفيلا عربتان كلتاها كرايزلر. عرفتُ كل شيء عنها. وحتى رقم تليفونها. يوماً سأحاول محادثتها. هذا الحامد عليه اللعنة ينافسني في حبها. ولكني أعتقد أنها تفضّلني أنا. هو من الأقاليم. أسمر. مبتذل. طبعاُ القرد في عين أمه غزال. ولكنه يشغلني ويغار مني.

ها هو النوم يتسلل إلى عيني. يا تُرى ما سيأتي به الغد؟! إنني أستقبل كل يومٍ جديد بأملٍ جديد ورجاءٍ عامر. شريفة. هملت. وفيق. الدكتور العيوطي. الدكتورة فاطمة ...»

ومن المعالم الثقافية التي مررتُ بها في تلك الأيام حضوري أفلام محمد عبد الوهاب، وكانت سينما كايرو وسينما ديانا قد أقامتا مهرجاناً لأفلامه، فحرصتُ على حضورها جميعاً في حفلة الظهيرة، واستمتعتُ بالأغاني والموسيقى الخلابة التي تحتويها، خاصة أفضل أغنية عندي، أيامها وحتى الآن: الصبا والجمال، في فيلم يوم سعيد. ولاحظتُ أن الأغنية في الفيلم بها تنويعاتٌ تختلف عن الأغنية التي تُذاع (نادراً) في الراديو أو التي في الأسطوانة. ولاحظتُ أيضاً أن المطربة شادية حرصت هي الأخرى على حضور تلك الأفلام، ورأيتهُ مراراً هناك. أما الأفلام المهمة التي شاهدناها في ذلك العام فيبرز منها فيلم «وتشرق الشمس ثانية»، قصة همنجواي، وتمثيل آفا جاردنر وتيرون باور، وقد شاهدتهُ عدة مرات (مثلاً فعلتُ مع فيلم وداعاً للسلاح)، وفيلم بين الأطلال، قصة يوسف السباعي، وتمثيل فاتن حمامة وعماد حمدي، وشاهدتهُ عدة مرات كذلك. وحضرتُ في ذلك العام الدراسي مسرحية «٣٠ يوم في السجن»، على خشبة المسرح الجامعي؛ حيث شاهدتُ فؤاد المهندس وخيرية أحمد في الدورَيْن الرئيسيَّين، وازداد إعجابي بفؤاد المهندس، وكنتُ أستمع إلى أدواره في برنامج ساعة لقلبك وأضحك من قلبي لابتكاراته العجيبة.

وكانت السينما من أهم مشاغلي أنا ونبييل الذي كان يطمح أيامها أن يكون نجماً سينمائياً، وكنتُ أشجعه على ذلك وأصاحبه في زيارته للمخرجين والممثلين. وكنا نتبارى في معلوماتنا السينمائية، عن الأفلام والمخرجين والممثلين الأجانب والمصريين، ونردّد العبارات التي وردت في الأفلام وأصبحت كالصكوك، خاصة الفكاهية، على ألسنة نجيب الريحاني وعبد السلام النابلسي واستيفان روستي وإسماعيل ياسين. فكنا نغرق في الضحك من عبارات «جك البلا في نحسك» و«نشنت يا فالح»، و«هات لي يا بني عصير قصب» لاستيفان روستي؛ و«إيه، حته أجزخانة مش هنعرف نقشطها» و«شيء لزوم الشيء»، و«إذا لم تكن لي والزمان شرم برم فلا خير فيك والزمان ترلي» لنجيب الريحاني؛ وغير ذلك من الأقوال والالزمات الفكاهية لعبد الفتاح القصري، وشرفنطح، وعبد السلام النابلسي، وكثير غيرهم.

١٩٥٩

وفي صيف عام ١٩٥٩م حدث ما قلب حياتي رأساً على عقب، وهو وفاة والدي فجأة ونحن في المصيف بالإسكندرية.

كنتُ قد حملتُ معي عدداً من الكتب لقراءتها حين توجّهنا ذلك الصيف إلى الإسكندرية، وأقمنا في شقة خالتي بسيدي جابر. كان معي رواية «نيكولاس نيكلي»

لديكنز كاملة؛ وكنت أعرف أننا سندرس له في العام الدراسي المقبل رواية «آمال كبار»، ولكنني أحببت الاطلاع على الرواية الأخرى لما علمته من تناولها أمور التعليم وفساده أيام تشارلز ديكنز. وبدأت أتعلم القراءة السريعة مع التركيز، وكان ذلك مهمًا جدًا نظرًا للكمية الهائلة من الكتب التي أريد أن أقرأها خارج المقرّر. وكانت مطبوعات كتابي قد أصدرت ترجمة عربية لرواية بوريس باسترناك «دكتور زيفاجو» في جزأين كبيرين، فاحتملنهما معي لقراءة الرواية على الشاطئ.

وقد أصيب والدي دون أية مقدمات بنزيف في المخ في الحادية عشرة ليلاً، وحملته سيارة الإسعاف إلى المستشفى الجامعي، وذهب معه أخي الأكبر بينما بقيت مع والدي في الشقة. وقد ظللتُ ساهراً بقية الليل، أدعو الله أن يعبر بنا هذه المحنة؛ فقد كان أبي يعاني من ضغط الدم وأمراض القلب. وجاءتنا الأنباء من المستشفى بخطورة الحالة، وأن الأمل في الشفاء ضعيف. وكانت ليلة قضيتها في مناجاة مع الله، بكل طريقة يمكن المناجاة بها، ولكن قضي الأمر، وعاد جثمان والدي في عربة عسكرية بوصفه كان ضابطاً، وعدنا جميعاً إلى القاهرة حيث قضينا أياماً جهماً حزيناً لا يمكن وصف أجوائها. كان والدي قد عمل في ديوان مصلحة السجون وكيلاً للخدمات العامة مشرفاً على إعادة تأهيل السجناء بعد الإفراج عنهم، ثم تقاعد في أوائل عام ١٩٥٨.

وبعد مرور الإجراءات التابعة للوفاة، قضيتُ أياماً في وحدة أتأمل ما حدث. وفي البداية، تفهمتُ حكمة الله في مشيئته التي يصعب علينا إدراك مغزاها، واستسلمتُ لقضائه. غير أن هذا الموقف تغير بالتدريج، حين بدأت أتساءل عن أمور الحياة والموت والدين، وبدأ إيماني يهتز اهتزازاً عنيفاً. وامتزج ذلك الاهتزاز بقراءاتي في الفلسفة الوجودية، فأصبحتُ من تابعيها، وأمسييتُ أدعو لها بين رفاقي. وقرأتُ أكثر وأكثر في كتب سارتر وكامي، بكل ما تحمله من معاني الحرية الفردية والمسؤولية التي تستتبُعها والتمرد الوجودي وتوابعه الجدية. لم أكن أخذ الوجودية بمعناها السطحي الذي يأخذه الشباب منها عادة من أجل التحرر من التقاليد، بل أخذتُ معناها الفلسفي الذي يؤسس مبادئ حياة. واشتريتُ ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي لكتاب سارتر «الوجود والعدم»، ولكن قراءته كانت عسيرة. والتمستُ الكتب التي تشرح أسس ومبادئ الوجودية، وغصتُ في بحار الماهية والحرية واللامعقول والتمرد والانتحار والغربة والانتماء والتعمق في معنى الوجود.

وكان لا بد للحياة من أن تسير بعد هذه الواقعة الأليمة، وتذكرتُ قصيدة الشابي التي تقول إنه لم يكن يصدق أنه سوف يعود للحياة العادية بعد موت أبيه. وعُدتُ إلى

لقاء أصدقائي في ذلك الصيف، ممن يبقون في القاهرة كالشافعي ونبيل ووهيب وسمير وعبد الرحمن ووفيق وكمال، أو ممن يزورونها كمحمد عباس وعبد الستار وحسيب. وأغرقت أحزاني بقراءة مقررات السنة الثالثة مقدماً، فطالعت واحدةً من أعظم الروايات قاطبة: «طاحونة نهر فلوص» من تأليف جورج إليوت. وقد قرأتها بشغفٍ عظيم، وعُدْتُ لقراءتها مراراً وتكراراً بعد ذلك وحتى يومنا هذا؛ فهي بحق أول روايةٍ حديثةٍ تغوص في أغوار النفس لتقدّم مجاهلها وصراعاتها الخفية. وما يزال الفصل الطويل المَعنُون «الإغراء الأخير» الذي يصوّر «ماجي توليفر» وهي تقاوم حبها لخطيب ابنة عمها يمثل أصدق تصويرٍ لعذابات الحب الذي لا يعرف قاعدةً ولا تبريراً. ويذكر «مارسيل بروست» أنه كان لا يستطيع أن يمنع دموعه حين يقرأ هذه الرواية. وقد اعتبر النقاد جورج إليوت (وهو اسم الشهرة للكاتبة ماري آن إيفانز) أوّل من كتب الرواية النفسية، والبعض يرى أن روايتها «ميدل مارش» هي أفضل ما كتبت، بيد أنني أرى أن طاحونة نهر فلوص تفضّلها؛ فهي روايةٌ مكتملة الأركان، ورسم الشخصيات فيها يدل على حرفيةٍ روائيةٍ ماهرة. وفيها يتابع القارئ شخصية ماجي توليفر منذ طفولتها، وحياتها مع أفراد أسرتها، ونضال أبيها ضد أحد أثرياء البلدة، ثم التقلبات التي تمرّ بها ماجي وأخوها الذي يسعى لاسترداد مكانة الأسرة بعد وفاة الأب. ثم الحب الذي نشب فجأة بين ماجي و«ستيفن جست» خطيب ابنة عمها بمقريةٍ منها، وما سبّب ذلك الحب من مأساة للأسرة كلها؛ حيث لم ينته الأمر إلا بموت ماجي وأخيها غرقاً في الفيضان الذي اجتاح البلدة ليلاً. وقد تركت هذه الرواية أثراً لا يمحي بين زملاء دفعتي في القسم؛ فعندي لا تزال النسخة التي درستّها في تلك السنة الثالثة وعليها تعليقاتٌ مكتوبة بخط أنيق من صديقي شافعي، وكلها تعبيرٌ عن فهمٍ واعٍ لصراع الإنسان مع القدر ومع الطبيعة. وكان من أثر مطالعتها عندي هو زيادة الخوف من الوقوع في «الإقليمية» Provincialism، التي تعني الانحصار في جوٍّ من التقاليد والأعراف الخانقة، التي تحدّ من حرية الانطلاق والتجديد في الفكر والإبداع والخيال. وبقيت في ذهني من الرواية أفكارٌ لا تمحي، منها أن النسوة السعيدات، كالدول السعيدة، لا تاريخ لهن. ومغزى ذلك أن الألم والمعاناة هي التي يُسجّلها التاريخ، وتُسجّلها الكتب والروايات والفن.

كنت قد اتبعت خطةً معينةً في دراسة الروايات المقررة علينا، وهي أن أقرأ إلى جانب الرواية المقررة أكبر عدد من الكتب الأخرى لنفس المؤلف أو المؤلفة. وهكذا قرأت لجورج إليوت «ميدل مارش» و«آدم بيد» و«سيلاس مارنر». وقد بدأت في محاولةٍ لترجمة آدم

بيد، ومضيتُ فيها شوطاً ولكن لم أكمل. ولما كنا ندرُس رواية جين أوستن «الكبرياء والهوى» فقد قرأتُها إلى جانب «سنس أند سنسبيليتي» و«إيما». وقرأتُ ترجمةً عربيةً جيدةً للكبرياء والهوى جلبتُها من مكتبة الوفد العريقة بشارع الفلكي، وقد عرفني صاحبُها وجلب لي الكثير من الكتب العربية التي نفدت ولم أعُد أجدها في المكتبات. غير أن أوستن لم تُرَق لي كثيراً بسبب تسطح شخصياتها، رغم إعجابي بلغتها الجميلة، وبراعتها في استخدام «وجهة النظر» في عبارات رواياتها، خاصة افتتاحية الكبرياء والهوى التي صارت مثلاً!

أما تشارلز ديكنز فكان قصةً أخرى. كانت الرواية المقررة علينا له هي: «آمال كبار»، وكنتُ قد قرأتُها منذ صباي، وكثيراً غيرها لديكنز ملخّصة بالعربية؛ إما في «كتابي»، أو في سلاسلٍ أخرى. ولم تكن هي أفضل أعمال ديكنز، فقرأتُ إلى جانبها النصوص الكاملة لقصة مدينتين وديفيد كوبرفيلد وأوليفر تويست. وكنتُ قد قرأتُ في الصيف نيكولاس نيكلي. ثم استعرتُ من دار الكتب الترجمة الكاملة لمذكرات بكوك، التي أنجزها عباس حافظ، بروعة وإقتدار، في ثلاثة أجزاء، قرأتُها إلى جوار النص الإنجليزي فاستفدتُ فائدتين؛ النص الفكاهي الممتع، والتدريب على الترجمة إلى العربية.

وفي حياتي العاطفية بالكلية، كان يوم عيد ميلادي التاسع عشر يوماً لا يجود الزمان بمثله. كنتُ قد حلمتُ بشريفة حلماً رومانسياً رائعاً، وخرجتُ في الصباح الباكر ماشياً إلى الكلية، ماراً بالشارع الذي تقع فيه فيلا شريفة، وإذا بي أراها تخرج من البيت وتتجه مثلي ماشيةً إلى الكلية. وتتبعُها في انتشاء وتجلُّ؛ أي Ecstasy! وأنا مبهور بهذا الموقف الفريد، ولكن لم يُسعِفني قلبي بالتغلب على عقلي الواعي كي أتقدم وأحدث شريفة بعد أن رأيتني. ووصلنا إلى الكلية دون كلام. وبعد حضور محاضرتين في القسم، رأيتها تتجه إلى مكتبة الجامعة، فذهبتُ أنا أيضاً إلى هناك، وواتنتني الشجاعة فجلستُ أمامها على مائدة المطالعة. وهناك، تكلمتُ مع شريفة لأول مرة مباشرة؛ لاحظتُ أنها قد طلبتُ قلماً من الفتاة التي تجلس إلى جوارها، فاعتذرت الفتاة بأنها لا تملك قلماً إضافياً، فأسرعتُ أنا دون تفكير وقدّمتُ لها قلماً متسائلاً بالإنجليزية: «هل تريدين قلماً؟»، فاحمر وجهُها قليلاً، وابتسمت ابتسامةً عريضة وهي ناظرة لي بوجهها الملائكي وتقول مترددة: لا، لا. فقلتُ إنني لا أحتاج إليه الآن. فقبلته قائلة: ثانك يو. وعُدنا نكبُّ على المراجع التي أمامنا وأنا أنظر إلى شريفة بين الحين والحين. لم أكن قد رأيتها من هذا القرب من قبل، وبدت لي أكثر جمالاً وشفافية، وبشرتها وردية تتماثل مع ألوانها الأخرى في تناسقٍ لم يشهده

أحدُ أبدًا بمثل هذه الروعة. وظللنا على هذه الحال فترةً طويلة، وبعدها أعادت لي القلم وهي تشكرني. وبعد فترةٍ أخرى، لملت حاجياتها وخرجت وهي تلتفتُ نحوي وتقول مرةً أخرى: ثالك يو. وغمرتني حالةٌ من السعادة والانتشاء لا يمكن وصفها؛ فقد كانت أول مرة قاطبةً نتحدث فيها. وقد رأني نبيل ووهيب وأنا جالسٌ أمامها وسألوني بعد ذلك عما حدث، فقلت لهما بالتفصيل، فهنَّوني بما فعلت.

وفي صباح اليوم التالي، قابلتُ شريفة في صالة القسم فأحنت لي رأسها وبادلتها التحية. وظننتُ أننا سنواصل تلك الحالة من الصداقة والمعرفة، ولكن ذلك لم يحدث مع الأسف. وبعد ذلك بعدة أيام، تكرر جلوسي على نفس مائدة المطالعة التي تجلس إليها شريفة بالمكتبة. وفي هذه المرة، بادأني هي الحديث، طالبةً مني أن أحفظ مكانها وحاجاتها إلى أن تعود. ورددتُ بالإيجاب بإنجليزيتي السقيمة الجافة، فشكرتني وخرجت. وهمتُ سابقاً في بحران من السرور والبهجة إلى أن عادت وحملت حاجاتها وخرجت بعد أن شكرتني ثانية.

وحدث بعد ذلك بأيام أن وجدتُ صديقي إبراهيم في المدرج الكبير المخصَّص للمحاضرات العامة، جالساً إلى جوار شريفة وهو يتحدث معها. وقد أثارني ذلك المشهد، فقابلتُ إبراهيم بعد المحاضرة، وسألته عن الفتاة التي كانت إلى جواره، فحكى لي أنه قد تعرَّف عليها يوماً ما في المكتبة، وسألها إن كانت معنا في السنة الثالثة أم الرابعة، فردَّت بأنها في السنة الثالثة؛ لأنها قضت عامًا بأكمله مريضةً في الفراش. وحرصتُ أنا بعد ذلك أن أذهب مع إبراهيم إلى المحاضرة التالية مباشرةً في مدرج ١٣، وأن أمر عدة مراتٍ أمام المدرجات وأنا ممسك بذراعه وأحادثه، وفعلتُ ذلك إلى أن تأكدتُ أن شريفة قد رأتني معه وأنا أنظر إليها. وخيَّل لي أنها رأت ذلك وفهمت ما أعنيه فابتسمت! وحين عدتُ إلى المنزل تناولتُ ورقةً وقلمًا وكتبتُ القصة التالية عن ذلك الحدث:

«النور خافت، والأبواب مغلقة، والجو فسيح، والمصابيح الكهربائية مطفأة. النقوش على الجدار تبدو غريبةً وكأنه أول مرة يراها. تُرى أهي نقوشٌ عربية أم إسبانية؟ كان يقرأ عن الفن الأرابسك ليلة أمس وتعبَّج من معنى هذه الكلمة التي لم يعرف ماذا تعني إلا عند قراءته هذه. والتفت برأسه إلى الأمام فطالعه وجه الأستاذ وهو يلقي المحاضرة. وجهه غريبٌ كنايليون، ومن الغريب أن يفكر في نابليون الآن. متى تنتهي المحاضرة بالأمها. ونظر إليها وكانت تضحك ثم تلتفت في حذرٍ إليه لترى وقع ذلك عليه. أه لو تدرين ماذا تفعلين

بقلبي يا فاتنة القلوب! ترى ماذا يقول لك هذا الأبله الذي يجلس بجانبك؟ وكيف عنَّ له أن يبادلك الحديث؟ أه ... إن وجهه يحمر وهو يكلّمك، أيكون عنده ذلك الإحساس بجمالك الذي يكمن في فؤادي؟ لقد حادثك أنا مرارًا وكنتُ أتساءل عما يحدث لي إبّان ذلك، هل يحمر وجهي مثله؟ لو أن ذلك يحدث فما أغباني أن أبدو أمامها هكذا كما يبدو الآن هذا الأبله القميء. هل هناك ألمٌ في الدنيا يفوق ألم النفس الذي يغمرني الآن؟ الأستاذ يتكلم عن لورد بايرون. لماذا ينظر نبيل إلى شريفة هكذا؟ أيكون بينهما شيء؟! ماذا سيكون بينهما؟ أعهدتَ فيها أنها تعرف أحداً؟ مهلاً مهلاً، لقد وصلتُ إلى درجة غريبة من التفكير يا سامي. الجنون. إني أخشى الجنون فلا يمكن أن أُجن. لا بد أن أكتب شيئاً أو أظهار بالكتابة؛ لأن الأستاذ ينظر نحوي كثيراً. ترى هل لاحظ أنني ألتفت ناحية شريفة كثيراً؟! الجنون. إن نبيل مُعجّب بنانسي فكيف يُعجّب بشريفة؟! إن الإعجاب شيء والزواج شيء آخر. أما رأيتَ أن فكري كان ينافسك في حُبها؟ يا للكرامية؛ كانت أياًماً حزينه. ترى لو أن فكري كان ما يزال في الجامعة، هل كنتَ تجد لحظة واحدة من خُلو البال؟ ولكنك لست وحدك الآن في حُبها. هناك عبد الحميد ينتظر هناك في الخارج وقد يراها وهي خارجة. ماذا ستفعل عندئذٍ؟ ستكون لحظة حرجة. ما زال الأبله يُحادثها. أتعذّبيني؟!

– ما معكش قلم زيادة من فضلك؟

سعاد تبدأني بالحديث، يا للسعادة!

– اتفضلي.

ما أهمية ذلك الآن وحبي الكبير يشغل فكري؟! وأراحه أنه أعطى القلم لسعاد حتى لا يكتب شيئاً. ما أغباني! إن هذا مجرد تبرير مع نفسي فقط؛ فالأستاذ لا يدري أنه ليس معي قلم. يا لحزني! إنها تضحك. هل يُبدد بياض أسنانها هذا الجو الكئيب كما كتبتُ مرةً في قصيدة عنها؟ لقد قال فكري مرة إن أعظم شيء يتمناه المحب هو أن يجعل حبيبته تضحك. أه لو كنتُ مكانك أيها الأبله! ضحكك سخيفة تُبديك كالساذج الأحمق. أطمع في شيءٍ منها؟ ذلك أبعد إليك من أحلامك. وما الذي تطمع فيه أنت؟ أأكون مثله؟ اضحك يا زميلي اضحك فأنت لا تدري عنها شيئاً — لا تدري بأمر العربات الفاخرة والفيلة الضخمة والمال المتدفق. لا تدري بأمر الخدم والحشم والسائقين والموظفين.

اضحك يا زميلي في الإخفاق. وآله أن يضحك ذلك الفتى بينما قلبه هو يبكي. أصحيح أن عدم معرفة الشيء يجعله كأنه غير كائن؟ من قال هذا؟ أظن أنه عطليل ... أو هملت لست أدري. لو كنت ذهبت إلى السينما اليوم لفاتك منظر شريفة مع هذا الفتى. كان أفضل. ستظل صورتكما مطبوعة في ذهنك طوال بقائك. ترى أسيخرج معها بعد انتهاء المحاضرة؟ باطل الأباطيل. إنني لقاتك أيها الفتى. بل سيقطك حُبك، فستعرف يوماً ما. زوسيماً قبل يد أحد التعساء لأنه رأى دخوله الجنة. إنني أنحنى لك أيها الأبله.»

وقد ظل الحال بين شريفة وبينى على هذا المنوال، دون أن أتمكن من تطوير ما حدث بيننا بحيث أوصل الكلام معها وتحيتها، برغم كل الظروف التي أتيت لي للقيام بذلك، وما لقيته منها من ود في الحديث معي. ويا لها من حسرة أليمة إذ يخطر على بالي ذلك الأمر الآن، بعد أن تقدّم العمر ونضج الفكر ودخلت في العديد من تجارب الحياة؛ كم كان هيناً وسهلاً أن أصادق شريفة وأن أقول لها ما تعنيه بالنسبة لي. وكانت الحادثة قبل الأخيرة بينى وبينها عشية امتحانات نصف السنة، حين أعلنوا أرقام جلوس الطلبة والطالبات في ساحة الكلية. وقد رأيت اسمي ورقمي، ثم كالعادة، بحثت عن اسم شريفة ووجدته. وحين كنت أمام الجداول، لاحظت مجيء شريفة ومحاولتها البحث عن اسمها. وحدث ما كنت أنتظره، إذ توجهت شريفة نحوي تطلب مني أن أساعدها في العثور على اسمها، فقممت بتنفيذ ما كنت قد أعددت؛ إذ أشرت على الفور إلى اسمها في الجدول، بما يوحي بأنني كنت قد رأيته مسبقاً. فرددت شريفة رقم جلوسها وهي تكتبه في كراسيتها، ثم شكرتني وانصرفت.

وبقيت أنا حتى حان موعد الامتحان في مبنى قسم الجغرافيا على النيل. وهناك، لم تجد شريفة مكانها بسهولة، وتطوّع البعض بالبحث لها عنه، فتقدّمت إليها بسرعة، وظللت أرى الأسماء على المكاتب، وهي تسير خلفي، إلى أن وجدت مكانها وجلست إليه وهي تشكرني بحرارة. وقد حدث كل هذا في موجة من الصخب جعلت الكل يروننا، مما جعل زملائي يهتفونني فيما بعد على ما رأوه من تقارب بينى وبين شريفة. وكان هذا آخر حديث مباشر يتم بينى وبينها! وقد تباعد حضور شريفة إلى الكلية بعد ذلك، ولم تتقدم علاقتنا إلى أكثر مما حدث. ورغم أنني قد احتفظت بعاطفتي تجاهها على الدوام، فقد بدأت ألتفت إلى فتيات أخريات من زميلاتنا.

وقد تصوّرتُ أنني اطلّعتُ على دفتر يوميات شريفة، فكان كالآتي:

٥ يناير

عامٌ جديد. احتفلنا به منذ أيام مع الأقارب والأصدقاء. رأيتُ شاباً كثيرين ولكن لم يلفتُ أحدٌ منهم نظري.

ما زال سامي هذا يُطارِدني أينما ذهبت. لا أدري ماذا أفعل معه. أنا لا أفهم لماذا يفعل ذلك. لماذا لا يجيء ويُكلِّمني؟! يبدو السبب أنه خجولٌ جداً، وأن تقاليد مصر تضغطُ عليه. لقد وُلِدْتُ في إنجلترا حين كان أبي يدرُس الدكتوراه هناك؛ ولذلك فأفكاري مختلفةٌ بعض الشيء. لماذا لم يمكُث في إنجلترا بعد ذلك ويقبل عروض العمل التي قدّمت له من الجامعات هناك؟ ما زال هذا سرّاً غامضاً يُحيرُني. وما يُحيرُني أكثر هو عدم رغبته في الذهاب الآن بعد أن استولت البلاد على كثير من الأراضي التي كنا نمتلكها. ومع ذلك، لا أنكر أننا نعيش في راحةٍ تامة؛ فعندنا الفيلا وسيارتان وعزبة في الريف. ربما يعوِّض أبي زواجه بإنجليزية بالانغماس في مصريته الصميّة، ببقائه في مصر وعمله بالجامعة، وإصراره على أن أدُرُس في جامعةٍ مصرية وليس في الجامعة الأمريكية، وكذلك على الأسماء المصرية الصميّة التي أعطاهَا لي وإخوتي.

أنا الآن في السنة النهائية بالجامعة، ولكني لا أشعر بانتماءٍ كبير إليها، فلا أذهب كثيراً إلى الكلية، وما زال مَرَضِي الشديد في الصيف الماضي يلاحقني. تزورني زميلات القسم، وأعرف بعضهن منذ أيام المدرسة الإنجليزية. حين نتقابل، نتحدث أحياناً عن الحب والعلاقات، ويجيء ذكر سامي المُعجَب بي ويضحكن كثيراً.

ذات مرة، رأيتُ سامي على الرصيف المقابل من منزلنا. تعجّبتُ كثيراً. دُكرَني هذا بما أقرؤه من قصص الحب الرومانسي العنيف. كان ينتظر متطلّعاً إلى النوافذ. تعمّدتُ أن أفتح نافذة حجرتي وأُطل منها. هذا أقل ما يستحق. نظر ناحيتي وأطرق إلى الأرض وتظاهر بأنه يسير ثم يعود مرةً أخرى. بعدها، هبطتُ إلى أسفل، وفتحتُ الباب ونزلتُ السُّلم المرمي، ثم توقّفتُ في منتصفه، وجلستُ فترة على إحدى درجاته. خسارة أن سامي لا يُكلِّمني. بدأتُ أنا عدة مراتٍ وحادثته، وكان يُردُّ باقتضاب؛ إما أنه خجولٌ جداً، أو أن إنجليزيتة

ليست جيدة. آه لو نتبادل الدروس فيُعَلِّمني هو العربية وأدْرِبه أنا على الحديث بالإنجليزية. أسمع أنه من أسرة كبيرة، وهو يبدو دمثًا، ليس ككثير من زملائنا.

٩ يناير

أنا سعيدة بالروايات المقررة علينا هذا العام. مختلفة تمامًا عن روايات العام الماضي المتعلقة بروايات القرن التاسع عشر. أحصل دائمًا على درجة ممتاز في الرواية؛ فهي أحبُّ المواد عندي. كنا قد درسنا في المدرسة الإنجليزية معظم هذه الروايات، مرتفعات وذرنج، طاحونة نهر فلوص، روايات جين أوستن وتشارلز ديكنز. هذا العام مختلف؛ فنحن ندرس جيمس جويس وهمنجواي وجيل القرن العشرين. إنني أستمع برواية صورة للفنان في شبابه، وأتعاطف جدًا مع بطلها ستيفن ديدالوس. من أرتبط به يجب أن يكون مثله، فنانًا حساسًا يعشق الجمال والحقيقة. أسمع من زميلاتي أن سامي يتحدث عن الفن والأدب، كما أنه يدعو إلى الوجودية لا أدري كيف. أنا أراه دائمًا بصحبة الكتب، ويقرأ حين يكون وحده على البوفيه. ربما لينظر لي دون أن يراه أحد! مقررّ الدراما يشمل الملك لير. جيدة ولكن ليست في روعة هملت. والأدب الأمريكي ندُرّس فيه موبى ديك للفييل وهي رائعة. شاهدتُ الفيلم وأعجبتني جدًا تمثيل جريجوري بيك. الأستاذة التي تُدرّسه لنا رائعة، ويبدو أنها تعرف سامي؛ لأنها وجّهت له سؤالًا في المحاضرة عن موعد محاضرات مادة المقال التي تُدرّسها أيضًا في «سكشن» صغير. لم يُفت على أحد احمرار وجه سامي حين رأى نفسه مخط الأنظار.

١٥ يناير

ذهب فصلنا بأجمعه تقريبًا لمشاهدة فيلم الليلة الثانية عشرة عن مسرحية شكسبير في سينما أوديون بوسط البلد. سامي هناك، وكالعادة كان متابعًا لي، مما عرّضني لضحكات زميلاتي وتعليقاتهن. والحقيقة أحسستُ في داخلي بشيء من المتعة من وجود من هو مأخوذ بي إلى هذه الدرجة. ضحكنا كثيرًا من المسرحية الكوميدية. لم أكن أعلم أن السينما الروسية متقدمة على هذا النحو.

٥ فبراير

تقدم أحد شبَّان العائلة لخطبتي ورَفَضْتُ.

(ترجمة عن الأصل الإنجليزي لليوميات)

وأعود من حديث حياتي إلى حديث كتبي، فأذكر أننا درَّسنا في التيرم الثاني للسنة الثالثة أنطوني وكليوباترا وعطيل لشكسبير، ورواية عودة المواطن لتوماس هاردي، الذي أحببته أيضًا، وقرأتُ له رواياتٍ أخرى غير تلك، وأشهرها «تس سلية آل دربرفيل» التي قرأتها مع ترجمةٍ فخيمةٍ لفخري أبو السعود، للتمرُّن على الترجمة الجيدة في نفس الوقت. ودرَّسنا أيضًا مواضيع في الحضارة. وكانت دراسة الشعر في تلك السنة مُنصَّبةً على الشعراء الرومانسيين، فكانت دراستهم متعةً وعلمًا في الوقت ذاته. وقد عشقتُ شعر شيلي وبايرون على وجه الخصوص، وأحببتُ وردزورث وكيثس وانفعلتُ بقصائدهم، وهمتُ مع أجزاءٍ من المقدمة لوردزورث. كنتُ أتخيَّل نفسي فيها أنا الشاعر الذي يضحك مع تشوسر، ويمرح وسط طبيعة الشمال الخلابة. وقرأتُ عن حيوات هؤلاء الشعراء، وتأثَّرتُ بها تأثُّرًا بالغًا، خاصةً حياة بايرون وشيلي؛ فقد عاش بايرون حياةً عاصفةً منذ بداياتها، يدفعه شوقٌ غامض إلى الحرية والتحلل من كل قيود المجتمع الذي يحيا وسطه، ويحمل لقبًا من ألقاب النبالة فيه. وعاش بايرون حياته طولًا وعَرُضًا، وعَشِقَ وهام وسافر يستطلع أوجه الحياة الأخرى في الشرق، وكتبَ شعرًا سحريًا جعله يستيقظ فجأةً وقد أصبح مشهورًا. والتقى بشيلي في أوروبا، وكان شيلي مع زوجته الصغيرة ماري يقيمان في فيلا جميلة على بحيرة «ليمان» في جنيف، وهناك كتبتُ ماري روايتها الشهيرة عن فرانكنشتاين. وقد شَهِد بايرون ملابسات مصرع صديقه غرقًا في أثناء إقامتهم بإيطاليا، وكتبَ عنه قصيدته «أدونيس». وحملتُ روح بايرون الجامعة صاحبها إلى السفر إلى اليونان؛ حيث صوِّر له تفكيره المشاركة في حربها لنيل حُرِّيَّتها من الدولة العثمانية. غير أنه قضى بمثل نهايات معظم الشعراء الرومانسيين، صغير السن بعيدًا عن وطنه، لم يحقق ما ذهب إليه من النضال مع اليونانيين.

وقد فُتِنْتُ بالكثير من قصائد بايرون وشيلي، ولكن قصيدة الأخير المَعنونة «سيرينادا هندية» هي التي كنتُ أردها كثيرًا أمام أصدقائي، خاصة سطورها الأخيرة التي تجسِّم المرارة والفشل والموت، وقد أوردتُ ترجمتها من قبل.

وهناك أيضًا جون كيتس الذي أبدع وكتب شعرًا خالداً رغم موته في سن السابعة والعشرين. وقد امتزجت تلك المشاعر الرومانسية التي تُمجد الكآبة والموت مع الأفكار الوجودية التي انشغلتُ بها، فأنتجتُ لدي فكرة الأُسُودِ الدنيوي الوجودي الذي لا مفر منه إلا بالتمردُ والجنون والموت أو الانتحار!

أما كولردج فقد شكّل لي عالمًا قائمًا بذاته، وفتح لي أبواب الإلهام والإبداع عن طريق الحلم واللاشعور؛ أي الأمور الغيبية والنفسية التي كانت قد بدأت تسيطر على تفكيري النقدي أيامها بأحلامه وتجاربه في استخراج الصور الشعرية من أعماق النفس. وقرأتُ أيضًا كتاب «دي كوينسي» «مذكَرات أكل أفيون» وكانت نُسخة الإنجليزية متعددة على سور الأزبكية. وكنتُ أعجب من السماح بتداول كتابٍ له مثل ذلك العنوان، غير أن أمور الغيبات العقلية والمخدرات لم يكن لها تلك الوصمة التي تُوجد عليها اليوم، وكان عددٌ من الأدباء والفنانين يُجرون تجاربهم على تلك الأنواع من حيث صلتها بالخيال والإبداع الفني.

كذلك لا أنسى دراسَاتنا الفكرية لمقالات جون بين وإدموند بيرك ودرابدين وستيوارت ميل، وكلها عمّقت في نفوسنا النثر الإنجليزي القوي، المقترن بالحُجج الفكرية أو السياسية التي يتناولها الكاتب.

وقضيتُ الأيام السابقة على الامتحان النهائي في فورةٍ عصبية، ما بين الاستذكار المتواصل المركز، والرغبة من عدم تحقيق الأمل بالنجاح، وهو الشعور الذي يلزمني ولزمني دومًا فيما تقدّمتُ له من امتحانات، ولكن النتيجة كانت مشجّعة؛ فقد نجحتُ بتقدير عام جيد، مع حصولي على تقدير جيد جدًا في عدة مواد منها الرواية.

وكان صيف ١٩٦٠م نقطة تحولٍ أخرى في توجّهاتي الأدبية وقراءاتي العامة. كانت علاقتي قد توثّقت بـ «الدكتور» محمد عناني، الذي تم تعيينه معيدًا بالقسم، وأصبحنا نلتقي كثيرًا سواء في الكلية أو خارجها، ونتزاور؛ فقد كان يسكن مع أسرته على بُعد خطواتٍ من منزلي. وكنا نتناقش في جميع أمور الحياة والفن؛ فهو إلى جانب تعمّقه في الأدب الإنجليزي، متبحر في الأدب العربي، الذي درّس فيه معظم كتب التراث الأدبي، وكانت كلها في مكتبة والده المتخصّص في اللغة العربية ودارس علوم الطيور. ومع عناني عرفتُ الطريق إلى كافيتيريات ذلك الزمان؛ سان سوسي، كازينور، الحمام، والأمريكين وجروبي عدلي وجروبي سليمان وباريزيانا وسان جيمس. وهو ذو اهتماماتٍ متعددة؛ فاهتمامه الأساسي هو المسرح — وكان يكتب مسرحيةً عنوانها الدرجة السادسة — وهو يكتب الشعر المنظوم،

ويعرف بحور الشعر في العربية كما في الإنجليزية، ويترجم إلى عربية ناصعة، ويعزف على العود، ويهتم بالموسيقى والأغاني العربية الراقية، وفي جلسة مشهودة في حديقة جروبي عدلي، عرّفني عناني على «المستشار» أحمد السودة وعلى عبد الفتاح العدوي خريج قسمنا. وقد أصبحنا فيما بعد جماعة أصدقاء لا نفترق. وكنتُ أتناقش مع عناني في ضرورة التخلُّص من «التقليدية» في أسلوب الحياة، ووجدنا مأربنا في كلمة smug التي عبّرت عن الصفات التي يجب أن نتفادها، كما وردت في قاموس أكسفورد الصغير في طبعته أيامها. وهذه الصفات الممجوجة هي: of commonplace – respectable – narrow-minded – self-satisfied – comfortable – unambitious – unimagination character or appearance. ومن العجيب أن الطبقات الحديثة من نفس القاموس قد اختصّرت تلك الشروح بحذف بعض الصفات؛ وهذا من رذائل عصر السرعة الذي أدى أيضًا إلى خروج الموسوعة البريطانية عن ثوبها الأكاديمي إلى صورة حديثة لا تشفي غليل الباحث المتعمق (وهذا ما دفعني إلى اقتناء طبعة عام ١٩٧٣م من الموسوعة، قبل أن أحصل على آخر طبعة في صورة إلكترونية).

وتوثّقت صلتني في الوقت نفسه بـ «الدكتور» عبد العزيز حمودة، وكنتُ أعرفه منذ عام ١٩٥٦م، ولكن علاقتنا توطّدت حين كان في الليسانس، ويعمل جاهداً للحصول على تقدير يؤهله للعمل معيّدًا بالقسم. وقضيتُ جانباً من صيف ٦٠ معه، نتجول في المكتبات حيث كان ينتقي الكتب والقواميس التي ستشكّل مكتبته الخاصة، في حين كنتُ أنا أستمكّل شراء بقية الكتب المقرّرة علينا في السنة الرابعة. وكنتُ قد حصلتُ من نبيل وحامد على بعض الكتب التي درسوها في الليسانس، وأهمّها رواية صورة للفنان في شبابه لجيمس جويس وأبناء وعشاق لـ د. هـ. لورانس. وكان مقرّراً علينا بالإضافة إلى ذلك روايات وداعاً للسلاح لهمنجواي، واهبط يا موسى لفوكنر، وذلك علاوة على رواية موبى ديك للمفيل. وقد حاولتُ استكمال تلك الكتب بصعوبة؛ حيث لم يكن الكثير منها متوافراً في السوق، خاصة قصة فوكنر.

كانت السنة الرابعة تختص بالأدب المعاصر؛ فمع الروايات التي سبق ذكرها، درسنا شعر ت. س. إليوت ونقده، ومسرحية لآرثر ميلر إلى جانب الملك لير لشكسبير. وقد انغمرتُ في دراسة المواد المقرّرة بشغفٍ شديد؛ فقد كانت الأقرب إلى ما أحبّه وأتفاعلُ معه. وكان يتردد في أسماع القسم اسم طالب في السنة الثانية متخصص في شعر إليوت ونقده، ينشر تراجمه لقصائد إليوت في مجلة الأدب. وكنتُ قد سمعتُ به حين قدّمه طاهر أبو زيد

في برنامج «جرب حظك» وهو ما يزال تلميذًا، على أساس معرفته ونبوغه في الأدب واللغة الإنجليزية؛ وقد تصادقنا بعد ذلك وبعد أن تخرجنا من الكلية.

وفيما يلي أيضًا تصويرٌ روائي لهذه الفترة وصُحبتُها من الجيل الرائع:

«انعقدت شللٌ بوفيه الآداب كالعادة. على منضدةٍ جلس سامر وراوية وزميلةٌ أخرى كانت تُلَازِمهما. وفي الجوار، شلة سامي، تضم الخمسة «الأصليين»، وهم سامي ووهيب ونبيل وحلمي وعلي. الجامعة في صحبٍ وضجة. كانت الدروس معطلةً بمناسبة احتفال الجامعة بمنح درجة الدكتوراه الفخرية للأمير سيهانوك الكمبودي. وهناك جنودٌ وحرُسٌ في كل مكان، بالإضافة للحرس العادي الذي كان من طبيعة الحياة اليومية في الجامعة.

- خسارة أن يُضَيَّعوا يومًا دراسيًا من أجل هذا الهُلس.

- هُلس؟ هذه سياسةٌ عليا للدولة. حاذِرُ أن يسمعك أحد.

- أوصَلت الأمور إلى هذا الحد؟! ألا نستطيع الكلام؟!

- لقد كنتُ مع أحد العاملين في الأجهزة العليا. وقد سمعتُ منه ما تشيب لهوله

الأبدان.

فقال سامي: وما أدرانا بحقيقة كل ما يُقال؟ أنا أقول ما أريد ولا يهْمُنِي.

- طبعًا أقاربك كلهم من رجال الجيش والبوليس.

- لا دخل لهذا بآرائِي. وعمومًا أنا لا صلة لي بأحدٍ منهم. أنا لي حياتي المتوحّدة.

ومن ناحيةٍ أخرى، أنا لا أحب إضاعة وقت الدراسة في هذه المظاهر الفارغة، فليتركوا الطلاب لشأنهم؛ الدراسة والتحصيل.

- أنت عَدَمِي يا سامي. لا تنسَ أن الطلبة كانوا دائمًا عمادَ العمل السياسي؛

المظاهرات والمطالبة بالدستور والديمقراطية.

- هذا زمان. انظر الآن.

- هُس.

- انظر. الكل يخاف الآن حتى من مجرد الكلام. وأنا واثقٌ أن بالكلية جواسيس

للسلطة.

- هذا أدعى إلى أن تصمت. هل أنهيتَ «طاحونة نهر فلوص؟»

- إنني أطرق صفحاتها الأخيرة.

- تعبيرٌ جديدٌ جيد.

وفجأة، لمح سامي شريفة من بعيد. كان يعرفها فورًا من أبسط الأشياء؛ مشيتها،

ملابسها، فهَبَّ واقفًا واستأذن من الشلّة.

- ما لك؟

- لا شيء. سأراكم فيما بعدُ.

- لا بد أن شريفة هنا!

وأُسرع سامي الخطى وراء الشبح الجميل. ولدهشته وجدها تتجه إلى قاعة الاحتفالات. كيف لشريفة أن تهتم بأمرٍ مثل هذا؟ وكان يُبغض تلك المناسبات، ولكنه وجد نفسه مرغماً على انتهاز هذه الفرصة التي لا تسنح كثيراً. مضى خلفها واقترب منها. وشعر أنها أحسّت بوجوده. وقابلت صديقةً لها، ودخلت معها القاعة، في المدرجات العليا. جلسَ وجلس سامي وراءها مباشرة. كان يُحب ذلك كي يحظى بإدراكٍ شامل لوجهها وحركاتها كلها. كانت الصديقة تتحدّث إليها دون انقطاع، بينما تبدو شريفة كأنها لا تسمع. وطفقت تنظر حوالَيْها، ثم من خلفها. وتلاقت نظراتُها مع سامي. وثبّتت عينيها في عينيهِ إلى أن اضطرَّ إلى تحويل بصره وهو مشدوه. كانت أول مرة تُحدّق فيه شريفة بهذا الإصرار. وشعر بتوهُّج ونشوة وإشراق، ولكن بخجلٍ أيضاً.

وترامى إلى السمع ضجيجٌ بالخارج، ثم دخل الضيف مع مضيفه المصري. فارح الطول. في البذلة الرمادية الغامقة كعادته. واسمراره المصري الأصيل. وتأمل سامي هذه الشخصية الغريبة الباهرة. وعادت به الذكرى إلى يومٍ من صيف عامٍ مضى. كان قد دخل إلى حرم الجامعة في الصيف بعد أن مرَّ كعادته على شارع رافع؛ حيث تقطن شريفة. كان متعوداً أن يقابل بعض أعضاء الشلة في الجامعة أحياناً خلال شهور الصيف؛ حيث لا دراسة. ولكن عِلْم بعد قليلٍ أن الاتحاد القومي يعقد جلساته في مباني الجامعة والكليات المختلفة. وبعد ذلك، مُنع الدخول إلى الجامعة، بعد أن دخل هو بالفعل. وجلس أمام القسم، على إحدى درجات السلم القليلة، في مواجهة المكتبة العامة. وقام يتمشّى فوجد سيارةً فارهة سوداء تقف أمام باب المكتبة. وقف تحت شُجيرة «روبرت بيرنز» على مدى خطواتٍ من العربة. وفجأة، رآه. فارح الطول، أنيقاً، كارزمالك. واقترب سامي أكثر دون أن يمنعه أحد. كان عبد الناصر قد خرج من المكتبة مع السراج وكلُّ واحدٍ منهما يدعو الآخر إلى الدخول إلى العربة. ورفع عبد الناصر عينيهِ، ورأى سامي نظراته العميقة. وأحس سامي برعدةٍ عنيفة تجتاح كيانه كله. وثبّت في مكانه لا يتحرّك، ولهثت أنفاسه، وكاد قلبه أن يتوقف. يا لهاتين العيّن! أي سحر فيهما يسيطر على مَنْ يراهما؟! كانتا عيّن فيهما قوّةٌ جاذبة لا يُمْكِن لأحد أن يحيد عن مسارهما. ومال عبد الناصر ودخل العربة التي انطلقت إلى مبني آخر من مباني الجامعة. ووقف سامي متسماً فترةً إلى

أن انقشع الذهول الذي استولى عليه. وعرف الآن مدى السحر الذي يتمتع به هذا القائد. وعادت إلى ذاكرته المناقشات الحادة التي كانت تدور بين أصحابه من المهتمين بالسياسة، وفريق يطعن في عبد الناصر ويتهمه بالسيطرة وحُب الحكم والدكتاتورية، والآخر يدافع عنه ويلتمس له الأسباب. كان سامي قد عاصر أزمة مارس ١٩٥٤ وهو ما زال يافعاً، كما أنه كان في الإسكندرية حين وقعت حادثة المنشية وسمّعها في الراديو، ولكنه في ذلك الوقت لم يكن يُدرك أبعاد كل ذلك؛ فقد كان صبياً مشغولاً بروايات يوسف السباعي، ومشغل حُبّه للفتاة مارينا الإيطالية، التي كانت تسكن في مواجهة شقتهم في الإبراهيمية، ثم جاء تأميم قناة السويس، وكان سامي في ميدان باب الحديد حين استقبلته الجماهير بعد عودته من الإسكندرية عام ١٩٥٦م، والكل يهتف بحياته، وكادوا يحملون عربته فوق الأكتاف. والحرب وخطبة الأزهر ثم الانسحاب والنصر. كل هذا أقام هالة ضخمة كانت تنال منها إشاعات الاعتقالات والتعذيب، والخوف الذي شمل الجميع. ومع الوحدة مع سوريا تضخّمت الأمور وأصبحت الجمهورية العربية المتحدة شعلة الحرية في العالم النامي. وتوافد الجميع إلى القاهرة؛ مركز الحرية والإشعاع الفكري التقدمي.

ومضى الاحتفال في مراسيمه المعهودة؛ خطب واستعراضات، والروب الجامعي، ومعظم الأساتذة حاضرون في الصفوف الأمامية. كانت مصر تشهد الكثير من هذه الاحتفالات، وتزدحم العاصمة بمواكب الزوّار والحكّام. وكان ثمة من يتهايمسون بجذوى هذا الإنفاق بينما اقتصاد مصر في حاجة إلى البناء والتكامل مع سوريا، التي انضمت إليها في وحدة كاملة. كانت تصل إلى الأسماع أخبار الصراعات بين أصحاب السلطة والنفوذ، وتظهر أنباء تغييراتٍ عليا في الصحف دون أسباب أو مقدمات، وتظهر مجموعة من أصحاب المصالح ومراكز القوة ومن لفّ لفهم إلى القمة وثُمسك بنواحي الحياة. كانت مصر قد برزت قائدةً لحركات تحرير الشعوب التي كانت خاضعة للاستعمار الغربي، وكوّنت معها حركة عدم الانحياز، وقطبها الأخران الهند ويوغوسلافيا. وكانت تُسمع، همساً، انتقادات كثيرة للاهتمام بالخارج ونسيان الداخل، ويقولون إن ذلك سوف يستبين أثره فيما بعد، على المدى الطويل.

وتتابعت الكلمات والمشاهد. وسامي غارق في التفكير وتاه عن شريفة. ونظر أمامه بغتة فلم يجدها. لا هي ولا صديقتها. بيد أنه اضطر إلى البقاء في مقعده إلى حين انتهاء الاحتفال وخروج الجميع. وبعدها عاد إلى القسم. وجد كمال فحيّاه باسمًا. أخذه كمال من يده، وخرج به إلى ساحة ملتون. كان يتحدث عن كتابٍ فرغ من قراءته لتوّه، عنوانه «منازع الفكر الحديث»، وجده على سور الأزبكية.

- إنه أروع كتابٍ قرأته منذ زمن. ولكني لم أعثرُ إلا على ترجمته إلى العربية؛ لأن الأصل الإنجليزي لم يصل إلى مصر. سألتُ عنه في مكتبة الأنجلو. لعن الله السياسة والحروب التي كادت أن تغلقَ قسَمَنَا وتُغَيِّه من كلية الآداب. المهم. المؤلف هو الفيلسوف الإنجليزي «جود»، ولا أعرفه اسمه بالكامل لأنهم - تصوّر - لم يكتبوا في الترجمة الاسم كاملاً. لقد تُرجم ونُشر في بغداد. طباعة جيدة. المهم. الكتاب معظمه فلسفيٌّ صرف، الفيزياء وغيرها، وقد استمتعتُ أيضاً بذلك الجانب. لكن المهم فيه هو الفصل الأخير الذي يتناول السيكلوجية الجديدة في الأدب المعاصر. وقد بحث فيه الرواية والقصة والتجارب الأدبية، وتحدّث عن هكسلي وتشيكوف وكاثرين مانسفيلد. لقد كان كشفًا بالنسبة لي.

- ولكن كيف تطبيق القراءة في الفلسفة والفيزياء؟! إنني أريد دراسةً أدبيةً فنية صرفاً.

- كل فروع المعرفة ترتبط ببعضٍ يا سامي. لا تستطيع أن تفصل هذا عن ذاك. يجوز أنك تفكّر هكذا لأنك لم تتخرّج بعدُ وأنت مقيدٌ الآن أكثر بالمقرّرات. بعد التخرّج ستكون حرّاً في قراءة كل شيء.

- يجوز. ولكني الآن مخلص أشد الإخلاص لنظرية الفن للفن.

- لقد تأثّرتُ بالدكتور رشدي إذن. نحن معه في هذا ظاهريّاً؛ لأنه يحب تكوين مدرسة، ولكننا في الواقع ننتهج خطناً المستقل.

- إنني أيضاً متأثّر في هذا بجيمس جويس. لقد قرأتُ بتركيز شديد نظريته في الفن، التي يعرضها على لسان ستيفن ديدالوس في رواية صورة الفنان شابّاً التي ندرّسها هذا العام.

- يا لها من روايةٍ رائعة! بالمناسبة، الأفضل أن تُترجمها صورة للفنان في شبابه. أنا لا أحب ظرفية شابّاً هذه التي تبدو غير عربية.

- طبعاً أنت تُترجم الآن الكثير. قل لي. ما هي أفضل وسيلة لإجادة اللغة العربية حتى يمكن الترجمة بها في أسلوبٍ قوي سليم؟

- عليك بالقرآن. إنه هو أساس كل بلاغة لغوية. اقرأه وادرسه جيّداً، واحفظ الكثير من أساليبه البلاغية. إن الكتاب الذي درستُ فيه القرآن في بلدتي هو أساس تقويم لساني العربي، ولكن، قل لي: هل وراءك شيء الآن؟ لماذا لا نذهب إلى السينما؟ هناك فيلمٌ قديم لعبد الوهاب يُعرض في سينما مترو. أعرف أنك تشترك معي في حب أغانيه القديمة. هيا. أنا عازمك.

- لا أريد أن أثقل عليك.

- أبدأ. لقد قبضتُ اليوم مبلغًا محترمًا. هيا بنا.

وشعر سامي بالنشوة إذ يذهب مع كمال لقضاء الوقت؛ فقد كان يُمثّل له نموذجًا للفنان وطموحه. كما كان يُلهمه بأقواله وأفكاره.

أشار كمال إلى تاكسي، وأدخل سامي ثم دخل معه. كان ذلك شيئًا باهرًا لسامي أيضًا؛ فلم يكن متعودًا على التاكسيات. إن في العمل استقلالًا رائعًا. ونظر من نافذة العربة فتبدّت له الأشياء والناس والمباني مختلفة. وازدادت نشوئته، وتذكّر كلمتي ecstasy، و epiphany التي يحтар المترجمون في نقلها إلى العربية. وتذكّر أن الدكتور مجدي قد اقترح كلمة «التجلي» لترجمة الكلمة الأولى بدلًا من كلمة «النشوة».

وعبر التاكسي شارع الجامعة، واتجه إلى كوبري عباس، طبعًا لزيادة الأجرة. كان يمكنه الذهاب عن طريق كوبري الجلاء. وعبرت العربة الروضة فشارع القصر العيني. وسط البلد. يبدو فعلًا أن هذا الطريق أقصر أو أسهل. وهبط سامي وكمال بعد أن دفع الأخير الأجرة مع البقشيش. وبدأ المشي من أول شارع سليمان، وكمال يتحدث، وسامي يتطلّع إلى المحلات التجارية الأنيقة ونوافذها اللامعة وبضاعتها البرّاقة. الشارع يبدو أنيقًا نظيفًا مرشوشًا، وسامي يشعر دائمًا بالهيبة في وسط البلد، ويحس أنه ينتقل فيها إلى بلدٍ من بلدان أوروبا كما يتخيّلها من قراءاته. وكعاداته في تسمية مناطق الكلية والقسم بأسماء أدباء مشهورين، كان يُسمّي شوارع وسط البلد بأسماء أجنبية؛ فهذا شارع الشانزليزيه، وذاك الشارع الخامس في نيويورك، أما ميدان سليمان، فهو بحق ميدان بيكاديلي اللندني. وكان كمال يضحك وهو يسمع ذلك من سامي، ويقول: نعم، ولكن حين نفتح أعيننا نجد أننا ما زلنا هنا في القاهرة.

وأخذ كمال سامي إلى مكتبة الأنجلو، كيما يسأل عن مسار طبع ترجمة لكتاب له. ورحب البائعون بكمال إذ كانوا يعرفونه، ودلف سامي معه وكانت أول مرة يرى صاحب المكتبة. ووقف كمال يتحدث معه ويسأله عن وصول أي كتب جديدة بالإنجليزية، بينما راح سامي يتطلع إلى عناوين الكتب بانبهار. كانت أول مرة يدخل المكتبة زائرًا وليس لشراء كتاب والخروج سريعًا. ولح في ركنٍ من أركان المكتبة الكاتب الشهير جالسًا على مقعدٍ متواضع وأمامه صفٌّ من الكتب ينظر فيها. يا له من منظرٍ رائع! أوّل مرة أرى هذا الكاتب على الطبيعة بعد أن قرأتُ له بعض الكتب. سارة أثّرت فيّ كثيرًا، وأعتبرها من أفضل الروايات النفسية. وقد أحببتها لأنها سجّلت نفس خواطر الغيرة التي أحس بها

تجاه شريفة، حين أراها تُحادثُ زميلًا لنا. ويوم رأيتهما مع إبراهيم في المدرج وهو يكلمهما وهي تُردُّ عليه. وكان صديقًا لك، فانتظرتُ انتهاء المحاضرة كي تُهرعَ إليه لتسأله كيف يعرف شريفة. واستغرب هو وقال إنها زميلته ومن الطبيعي أن يُحادثها. وقال لي أشياء جديدة عنها لم أكن أعرفها، منها أنها مرضت لفترة طويلة قضتها في الفراش. وتعمدت بعد ذلك أن تراني شريفة وأنا مع إبراهيم، علَّ هذا يشعرها أنني أعرف أصدقاءها تمامًا. وقد أراحني ذلك بعض الشيء. وكان عددٌ من زملاءي أيضًا يتحدثون عن جمال شريفة، فكان كل ذلك مصدر غير مستمرة لي. وكان في غير همٍّ على سارة، وهو المفكر المثقف الرفيع المستوى، تعزية طيبة لي.

وأفاق سامي من تأملاته على كمال يجذبه من ذراعه ليخرجا. وسأله سامي إن كان قد لاحظ الكاتب الكبير، فقال نعم وإنه شاهده كثيرًا من قبل في المكتبة. وقد حدثه صاحب المكتبة عن المجال العريض الذي يطالع فيه الكاتب؛ إذ يشتري كتبًا بالإنجليزية عن الحشرات والسُّلالات والفضاء والكون، وهو الكاتب الأدبي والشاعر المُرَهَف وصاحب كُتب الشخصيات الدينية. وأضاف كمال: إنه كاتبٌ موسوعي من الطراز الذي قلتُ لك عنه؛ وهو ما يجب أن نفعله أنت وأنا. وكان سامي يتعجب من إصرار كمال على ربطه به في مجال الإبداع والفن والكتابة بينما هو ما يزال على مشارف التخرُّج.

واصطحب كمال سامي إلى مطعم «روي» حيث جلسا إلى مائدة صغيرة. وطلب كمال زجاجة بيرة ستيل، وطبق مكرونة لكلٍ منهما. وتحدث كمال وسامي يستمع ويحلق في تلك الأجواء المرمية.

– شوف. هنا الواحد لا يستطيع أن ينطلق كما يُحب. أن يظهر في الأماكن العامة مع الفتاة التي يُحبها. ولا تصل كُتب ولا مراجع. ولا حياةً جامعيةً حقّة. ولا بنات ولا غرام ولا يحزنون.

– ولكنني أرى مما تحكيه لي أنك أفضل في كل تلك الميادين من الكثيرين.
– ها ها، تقصد الفتاة التي تعرّفنا عليها في سان سوسيه. لقد بقيت معي فترةً فعلاً، ولكن تلك الأمور لا تصل إلى خواتيمها الطبيعية هنا.

– شيء أفضل من لا شيء.
– ليس هذا هدفي. إنني أبغي الوصول إلى قرار الأشياء. وهنا الأمور ناقصة؛ ولذلك لا بد من الفرار.

– تقصد الذهاب إلى أوروبا للدكتوراه.

- هذا أو الهجرة أو العمل بالخارج. ولكني أتردد لأن هدي في الأدبي الحقيقي هو الكتابة باللغة العربية والترجمة إليها، وربط الآداب الأجنبية بالأدب العربي عن طريق الأدب المقارن.

- طبعاً؛ فأنت قد نشأت في جو اللغة العربية الحقة، وقرأت في كتب التراث الذي يقتنيه والدك.

- إن هذا الموضوع هو ما يشغلني حقاً. بالإضافة إلى المسرح. أنا أكتب أول مسرحية لي، وأرجو أن يساعدني الدكتور رشدي في تمثيلها على المسرح.

كان كمال يتكلم وهو يجرع البيرة ويأكل طبقه من المكرونة الاسباجيتي بنهم شديد. كانت هذه عادته. وطَفِقَ يتكلم ويأكل، ثم استحث سامي على الانتهاء من الأكل حتى يلحقا بالفيلم، فالتهم سامي طبقه بسرعة، وجرع كُوبه كيفما اتفق، ودفع كمال الحساب، وانطلقا مسرعين يعبران الشارع إلى سينما مترو. كانت تعرض مهرجاناً لأفلام محمد عبد الوهاب، وكان فيلم ذلك الأصيل من أحب الأفلام لديهما؛ رصاصة في القلب، ليس للموضوع طبعاً رغم أنه من تأليف توفيق الحكيم، ولكن لمجموعة الأغنيات التي فيه. وجلسا في مقعدين باللوج، من القطيفة الناعمة، في الصف الأخير؛ فقد كان كلاهما طويل القامة، ولا يُحْبَان حَبَّ الرؤية عمن يجلس خلفهما. وبدأ الفيلم. كان كمال قد شاهدَه من قبل، ولكن كانت المرة الأولى بالنسبة لسامي، الذي استمع إليه في الراديو فقط.

- أترى؟ حلمي رفلة كان ما يزال صاحب المكياج.

- غريبة.

- ولسة. سترى ليلي فوزي وسامية جمال كومبارس في أغنية لعبد الوهاب. وفاتن حمامة، طفلة.

وتتابعت مناظر الفيلم. عبد الوهاب ببذلته الأنيقة، سكرتير وزير. صوته العادي وهو يتكلم فحسب رنان كأغانيه. وضحكته المُفتَعلة الشهيرة. ومشاهد القاهرة قديماً بمحلاتها وشوارعها وتاكسياتها. والحسان في حفل محسن. كأننا في أوروبا. وأغنية إنسى الدنيا وريح بالك. ألحان رائعة عذبة. وما يزال يعطي الجديد والغريب. من أغانيه الحديثة بفكر في اللي ناسيني. ثم الدفقة الإلهامية التي صاحبت مجموعة أغاني علشان الشوك اللي في الورد بحب الورد. ثم الأغاني الوطنية، وأغاني الوحدة، خاصة أغنية «خي» التي كان سامي يكرهها أشد الكره!

وكان كمال يُدِنُّ في خفوت مع الأغاني، خاصة دويتو «حكيم روحاني حضرتك» مما أزعج سامي الذي كان يُحب الإنصات في هدوء. ولكنه كمال، فماذا يفعل معه؟! كان

يتقبَّل منه ما لا يتقبَّلُه من الآخرين، خاصة انفلات لسانه بكل الكلمات المكشوفة التي لا يسمح بها سامي في مجلسه، حتى مع شلته الخاصة، ولكنه كمال، الذي يطلق هذه الكلمات والعبارات في عفوية طفولية لا يمكن معها الاعتراض على شيء. فضلاً عن أنه كان بمثابة أستاذه أو مرشده في الحياة بصفة عامة. كان يعطيه معلومات وخبرات كثيرة عن الحياة والحب والجنس والعلاقات مع الناس، فوق الأدب والفن والدراسة والمستقبل. وكان يُحدِّثه عن مغامراته الغرامية دون حرج أو خشية.

وتتابعت مناظر الفيلم. راقية إبراهيم بصوتها الذهبي وآهاتها الحاملة. ترى أين هي الآن؟ وجوقة الممثلين المعروفين الذين يصاحبون عبد الوهاب في معظم أفلامه؛ بشارة واكيم، ومحمد عبد القدوس، وعبد الوارث عسر. وآه من أغنية جئتُ لا أعلم من أين. إيليا أبو ماضي. هذه القصيدة التي أثَّرت في كل من قرأها، وتأثَّرت بها أجيالٌ عديدة. وحين بدأتُ في قراءة رواية صورة الفنان لجويس، راعني أسلوبُها الجديد ولغتها المبتكرة التي جعلتُ السرد يتوافق مع سن البطل ستيفن ديدالوس. ولم أكن أدري يومها أن ذلك بداية قصة هُيامٍ طويل الأمد بجيمس جويس، أحد الكتَّاب الذين تخصصتُ في أعمالهم عن محبة وتقدير. وكنتُ أحبُّ أن أقرأ عن حياة الفنانين والكتَّاب الذين أحبُّهم، ووجدتُ في المكتبة العامة كتاب ريتشارد إلمان عن حياة جويس، فازدتُ حباً له على صعوبة رواياته.

وشكَّلت تلك الأعمال الأدبية الرائعة، بالإضافة إلى صداقاتي مع عناني وحمودة ونبيل، أساساً جديداً وخلفية تنمو تدريجياً بالمهنة التي أنشدها في هذه الحياة، وهي القراءة الواعية التي تزيد من معرفة المرء بالحياة والإنسان، ثم محاولة الكتابة عن الأفكار التي تتملَّكني وتريد أن تخرج إلى الورق في صورة إبداعية. بدأ هذا الشعور غامضاً هُلامياً، ثم أخذ يتشكَّل بمرور الأيام، ومناقشاتي مع الأصدقاء الذين تخرَّجوا وبدءوا حياتهم العملية. كان نبيل ووهيب وحلمي قد عمِلوا بالتدريس؛ نبيل بالمنيا، ووهيب في أسبوط، وحلمي في الفيوم. وكان نبيل هو الذي مضى في طريق الدراسات العليا في القسم، وكانت مثابرته وإصراره محل إعجاب الجميع؛ فقد كان معروفاً أن إعداد الماجستير ومناقشته تكاد تكون مقصورة على المعيدین العاملين فعلاً بالقسم. وكان نبيل أيضاً يشترك معي في الطموح في الكتابة والتأليف والترجمة، بعد أن راحت عنه آمال العمل في السينما. ورغم عمله في المنيا، فإن ذلك لم يمنعه من حضور كل محاضرات السنة التمهيدية للدراسات العليا بالقسم، التي كان يعقدها الدكتوران رشاد رشدي، وأمين روفائيل.

وفي سنة الليسانس واصلتُ حياتي العادية في الكلية، من الجلوس كثيرًا على بوفيه الآداب أو الحقوق مع ثلاثة الأصدقاء؛ غير أن سُمعتي كدارسٍ جاداً أخذت في التبلور بين زملائي في السنة النهائية. وقد ساعد على ذلك ما أُشيع من أنني قد حصلتُ على الدرجة النهائية الممتازة في مادة الأدب الأمريكي. وكان يقوم بتدريس هذه المادة أستاذٌ مُنتدب من الجامعة الأمريكية بالقاهرة، اعتاد أن يختار ورقةً إجابيةً متميزةً ويُعطيها درجة ٢١ من ٢٠. وهذا من غرائب الأمريكيين وتقاليِعهم. وكان الذي حصل على تلك الدرجة الممتازة في العام الماضي هو عبد العزيز حمودة، مما جعله مشهوراً في القسم آنذاك. وحين ظهرت النتيجة وجدتُ أنني قد حصلتُ على درجة ممتاز في تلك المادة فعلاً، وهذا ما أثار الاستغراب من بعض زملاء الدفعة، ممن لم أكن على علاقةٍ وثيقةٍ بهم أو بهن؛ فقد عبّرت لي واحدةٌ منهن عن عَجَبها؛ لأنني نادراً ما أكتب المحاضرات، وأنني أقضي معظم وقتي على البوفيه!

وكان صديقي سامر يسعى جاهداً للحصول على تقدير جيد جداً حتى يتسنى له الالتحاق بسلك التدريس الجامعي، وكان عناني يشجّعني على الحصول على تلك الدرجة أيضاً، ولكنني في داخلي لم يخطر ببالي لحظةً واحدةً إمكانية ذلك، كما لم أكن أتصور نفسي مدرساً في قسم اللغة الإنجليزية. بل بدأت تنمو في داخلي فكرة الفنان الخالص لفنه، والأدب والفن والكتابة والترجمة، والحياة الحرة من أجل التفريغ لكل هذا دون تشويش من طموحاتٍ مادية أو علاقاتٍ سياسية بأي مذهب أو حزب. وكان مثالي في ذلك ستيفن ديدالوس بطل رواية جويس، وكذلك ما قرأته عن حياة همنجواي، الذي كرّس حياته كلّها كيما يُنتج أدباً جيداً. وهكذا استبانت اهتماماتي بالتركيز على المجال الروائي، بما سبق لي احتضانه من الروائيين الروس الخوالد، إلى جانب ألبير كامي وسارتر وفرانسواز ساجان، وآلان جويس وهمنجواي.

[April is the cruelest month, Breeding

Lilacs out of the dead land, mixing

Memory and desire, stirring

Dull roots with spring rain.

كان الدكتور رشدي واقفاً أمام المدرج الكبير، يتلو هذه الأبيات في أول محاضرة له عن شعر إليوت. وكان مشهوراً عنه أنه يخصّص أول محاضرة لتلاوة قصيدة الأرض

الخراب كاملةً بصوته الجَهْوَري الغليظ، على أن يبدأ تعليقاته وشرحه في محاضراتٍ تالية. كان معروفًا بغرامه باليوت، سواء في شعره أو في نظريته النقدية. وقد اتَّبَعَ أسلوب هذا النقد الجديد في كتاباتٍ كان ينشرها في المجلات الأدبية، ويُفَارِعُ النقاد الآخرين في شدة وعنف، خاصةً من يسميهم «الأدباء الحمر» كنايةً عن الفكر اليساري والشيوعي. وقد جمع الدكتور رشدي حوله عددًا من الأدباء الناشئين من تلاميذه والمعידين والمدرسين في القسم، ممن يُشَاطِرُونَهُ — صدقًا أو نفاقًا — رأيه في نظريات الشعر والنقد. وكان فنانًا و كاتبًا حقيقيًا، يُسَهِّمُ في النقد والترجمة والقصة القصيرة، وإن كان تخصصه الإبداعي هو المسرح؛ فقد قدَّم عدة مسرحياتٍ نالت نجاحًا كبيرًا. وكان كل إنتاج جديد له يثير زوبعةً كبيرة من ناحية النقاد اليساريين. وكان المثقفون في هذه الحِقْبَةِ يتابعون تلك المعارك بشغفٍ عظيم، لِمَا كانت تُوفِّرُهُ من حركةٍ واسعة في الحياة الأدبية والفنية، وبين أفراد هذا الجيل.

What are the roots that clutch, what branches grow
Out of this stony rubbish?

جلس سامي في المدرِّج مع نبيل وهيب وإبراهيم، يُنصِتُونَ كأن على رءوسهم الطير.
كان سامي قد صادق إبراهيم منذ رآه يتحدث مرةً إلى شريفة.

Unreal city,

Under the brown fog of a winter dawn,

A crowd flowed over London Bridge, so many,

I had not thought death had undone so many.

الكل موجود بالمدرِّج الكبير؛ فمحاضرة الدكتور رشدي الشهيرة تجتذب الكثير. وهناك وقوفٌ في الممرَّات. والجميع حاضرات؛ شريفة ونانسي وسهير. كان سامي قد بدأ يهتم بسهير بعد طول غياب شريفة، وعدم قدرته على التواصل معها. سهير مختلفة؛ فقد كانا يتبادلان الحديث كثيرًا. كانت فاتنةً أيضًا، ذات عيون خضراء أيضًا، ولكن مع بشرة تميل إلى السمار. ورغم أنها مسيحية فلم يخطر على باله هذا الأمر على الإطلاق. لا يلحظ أحدٌ هُويَةَ الدين. ولكن حين قال لعبد الملاك ضاحكًا إنه معجب بإحدى المسيحيات من زميلتنا، سأله: وهل هي تُبَادِلُكَ الإعجاب؟ وقال: بالطبع، فاجأه عبد الملاك بقوله: إذن فهي ساقطة. ووجم سامي ولم يُعلِّق ولم يفهم سبب ذلك. كانت أول مرة يصادف ردًّا

فعلٍ مثل هذا. كان معظم شلة العقول من المسيحيين. وحتى عبد الملاك من أصدقائه الحميمين؛ ولذلك لم يُعر تلك الملاحظة أيّ التفات.

Goonight Bill. Goonight Lou. Goonight May. Goonight.

Ta ta. Goonight. Goonight.

Good night, ladies, good night, sweet ladies, good night,
good night.

ومضى الدكتور رشدي في إلقاء القصيدة الطويلة، وسامي لا يكاد يفهم ما يسمع. وطَفِقَ يتأمل وجوه الحاضرين. كان هناك أشخاص لا ينتمون لليسانس، مثل إدوارد في السنة الثانية، ولكنه مشهور بتخصّصه في البيوت، حتى إنه نشر بعض الترجمات لشعره في هذه السن المبكرة. يقولون إنه نابغة منذ صغره، وإنه يحفظ القاموس الإنجليزي. هذا منافسٌ كبير لسامر. نانسي، نبيل يقول إنه متواعدٌ معها على اللقاء والذهاب إلى السينما هذا المساء. لا أحد يعرف الحقيقة؛ ذلك أن نبيل خياله واسعٌ جدًا. وهام سامي في مشروعاته المستقبلية، ومنها ما يجدر فعله مع شريفة، وعن تركيزه على المقرّرات الدراسية حتى يتمكن من النجاح بدرجة جيد على الأقل، والموازنة بين الدراسة والقراءات الخارجية التي لا يستغني عنها، بالإضافة إلى لقاءاته مع الشلة، ومع الأصدقاء، والدعوة لجماعة الوجودية التي تبنّاها.

When lovely woman stoops to folly and
Paces about her room again, alone,
She smoothes her hair with automatic hand,
And puts a record on the gramophone.

أفاق سامي على ضحكات من بعض الطالبات عند سماع تلك الفقرة التي لم ينتبه إليها سامي. لا بد أن فيها فكاهةً ما. سوف يسأل عنها فيما بعد؛ فقد تطلّع إلى شريفة ووجدها تضحك أيضًا. ولاحظ أن الضاحكات كلهن من خريجات المدرسة الإنجليزية. لا بد أنهن يفهمن ما يسمعن، كما نفهم نحن المتنبّي وشوقي من مجرد سماع قصائدهما. ضحكة شريفة فريدة من نوعها. وأيضًا القصيدة التي يدرّسونها هذا العام للمتنبّي هي أحسن قصائده. وقد قرأ سامي مقالةً لظه حسين يقول فيها إن أغنى بيتين في الشعر

العربي الكلاسيكي هما — في رأيه — بيتا المتنبي في تلك القصيدة الفريدة، وهما كما تردّدا في ذهن سامي ساعتها:

يا ساقِيَّ أَمْخُرُ في كُؤُسَكِما؟ أم في كُؤُسَكِما هُمُ وتسهيْدُ؟
أصْخِرُهُ أنا؟ ما لي لا تُحَرِّكُنِي هَذي المُدَامُ ولا تلك الأَغارِيْدُ!

وأحسَّ سامي أنه يتفق مع ذلك القول تماماً؛ فقد كانا بيتَيْن من أروع الشعر الغنائي قاطبة.

وتفكَّر في جماعته وأصدقائه. إنهم مثالٌ لهذا الجيل من الشباب. متوزَّعون ما بين الحب والجنس والفن، وبعضهم في السياسة والطموح. سامي وراء شريفة، وحمدي وراء نادية، وعصام وراء نبيلة، ونبيل وراء نانسي. ما نتيجة ذلك؟ وهل سيفوز أيُّ منهم بمن يُحب؟ وماذا عن سطوة الجنس القاهرة؟ هل يفكِّر أحدٌ منهم في حبيبته وهو في خلوة الجنس؟ يا له من جيلٍ تحوطه المشاكل من كل ناحية!

These fragments I have shored against my ruins

Why then Ile fit you. Hieronymo's mad again.

Datta. Dayadhvam. Damyata.

Shantih Shantih Shantih

وأفاق سامي على الصمت الذي تبَّع هذه الأبيات، فعلم أنها نهايةُ القصيدة اللعينة. إنه لم يفهم منها شيئاً. لا بد أن يلجأ لكمال أو عبد الرحيم ليقْرأها معه. وقال الدكتور رشدي إنه سوف يبدأ الشرح والتعليق على القصيدة في المحاضرة التالية. ولمَّ أوراقه، ووضع المنديل في كُمِ الجاكت. وخرج. وتبادل الطلاب عباراتِ الدهشة من القصيدة، وإلقاء المُحاضر ذي الوقع، بينما كانت بنات المدرسة الإنجليزية يضحكن ساخرات.

وبدأ الحضور في الخروج من المدرِّج. وحاول سامي أن يتلَّكأ كيما يتمكَّن من محادثة شريفة والنهل من عينَيها وشفَتَيها. وكان الجميع يستعجلونه بمن فيهم نبيل الذي يريد أن يلحق بنانسي هو الآخر، فتنحَّى لهم عن الطريق وانتظر. وعندما رأى شريفة تخرُج من صفها، حاول التقدُّم، ثم تنحَّى كأنما ليدعها تمر، فنظَّرت إليه بتلك العينين الساحرتين وتمتمت: Thank you. ومرَّقت من أمامه تتبعها شلَّةُ الإنجلش سكول. وانسلَّت الصفوف تهبط درجات المدرِّج، وخرجوا إلى الممرِّ فالصالة، إلى خارج القسم؛ حيث انتظر سامي

وصول أفراد الشلة. وبعد قليل، انضم إليه وهيب وحلمي وعاطف. وتوجَّهوا جميعاً كالعادة إلى البوفيه.

– مقرَّرات هذه السنة دسمةٌ حقاً بما يتناسب مع الليسانس. ها نحن نصل أخيراً إلى أدب القرن العشرين. إنني أقرأ رواية جويس وكأني في حُلْم. إنني أرى أن هذه هي أحسنُ روايةٍ قرأتها.

– أنت تقول هذا عن كل روايةٍ جيدة تقرأها. أنسيتَ ما قلَّته عن «طاحونة نهر فلوص» لجورج إليوت في العام الماضي؟!
– تلك الرواية أيضاً. كم أثَّرت في نفسي! هل تعلم أن مارسيل بروست كان يبكي عند قراءتها؟

– رُكِّز يا سامي رُكِّز. لا تقرأ الآن في غير المقرَّر. يجب أن تحصِّل على جيد جداً لتلحق بصديقك كمال وعبد الرحيم.

– كلا. ليس ذلك من ضمن طموحاتي. لقد تركتُ ذلك لنبيل.
– أنا لم أقل إنني أريد أن أصبح معيَّداً.
– الكل يطمح إلى ذلك. انظر ماذا يفعل سامر.
– سامر موضوعٌ آخر. إنه يريد كل شيء. طبعاً له حق، إذا كان قد نشر كتاباً وهو ما زال في الجامعة.

وجاء حامد وخيري وحسيب، واتسَّعت الحلقة.
– هل فهم أحدٌ قصيدة الأرض الخراب؟
– لا بُد من دراستها أولاً حتى نفهمها.

كان حامد ينافس سامي في حب شريفة. ولكنه كان محبباً من التصاق سامي بها على ذلك النحو، ومن تفانيه في متابعتها والحديث عنها. أما خيري فكان صديق حامد ولكنه مشغولٌ بمشاكله المالية والغرامية هو الآخر؛ فقد كان مشغولاً بفتاة أردنية من عائلةٍ معروفة، ولكنها كانت شبه مخطوبة لزميلٍ آخر. أما حسيب فكان يجاهد في كتابة أزجالٍ جميلة، وكان يطمح أن ينشر بعضاً من كتاباته في المجلات الأدبية.

كان جيلاً نشأ في بيئةٍ من الأوهام، يُحاول أن يحفر لنفسه خطأً في تاريخ الزمن الضائع. كان الكل يتطلَّع إلى المستقبل الذي يُوشك أن ينفتح أمامه بعد التخرُّج. في الوقت الذي كانت البلاد فيه في حالة احتقانٍ خفي لا يُدرِكها إلا من يتعمق في دراسة أوضاعها، سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية أو السياسية. الوحدة مع سوريا في

أوجها، ولكنها تُواجه مشاكل خطيرة منذ التأميمات في العام الماضي. وقد شهدت الشلة حادثة غريبة فريدة في الصيف الماضي حين كانوا مع الشافعي في شارع سليمان. صاح شافعي بأحد أصدقائه من الضباط المصريين كان يسعى إلى معاكسة إحدى الفتيات: عيب يا حضرة الضابط! فإذا ببعض الضباط السوريين ممن كانوا في زيارة لمصر يظنون أنه يقصدهم بقوله، وكانت مشكلة استمرت ساعتين حتى استطاع الطرفان تسوية الأمر وإقناع الضباط السوريين أنهم ليسوا المقصودين. كانت ثمّة حساسية مرضية بين المصريين والسوريين، تؤكدُها الشائعات التي تصل إلى الأسماع عن اضطرابات مماثلة وقعت في ثكنات عسكرية في مصر الجديدة وتم التكتّم عليها. ثم استقالات بالجملة من المسؤولين السوريين.

كانت البلاد مضطربة بالأقاويل والأحداث، والكل يتوقّع شيئاً يحدث، ولا يعرف أحدُ كنهه. لا الصحف تذكر شيئاً، وليست هناك مصادر أخبار تشفي غليل من يريد معرفة الحقائق. وليس هناك من طريق سوى سماع الأخبار من زميل له صلة بأوساط عليا تعرف ما يجري في الخفاء. وكانت الشلة تستمع إلى جانب من تلك الوقائع من «الملتزمين» مثل ناشد وجميل، رغم اختلافهما الشديد. بعد أن خرج الشيوعيون من السجون والمعتقلات، أصبح الكثير منهم يحتل أماكن مهمة في المناصب الثقافية والصحفية. كان وفيق ما يزال في السنة الثالثة بالحقوق، رغم التحاقه بها منذ ما يزيد على السبع سنوات، ويتحایل على الاستمرار في الدراسة بالشهادات المرضية. وكانت أحواله تتدهور من عام لآخر، وانغمس في الحركات السياسية حتى ينسى حبه الفاشل الذي لم يستطع أن يتجاوزه بعد.

كانت حجرة سامي في شارع رمزي مُلتقى الكثير من أعضاء الشلة وغيرهم. وكان في ذلك المساء عاكفاً على قراءة رواية «أبناء وعُشاق» المقررة عليهم، حين دق الباب الخاص بحجّرته من على السلم. وقام في بيجامته التي اعتاد مقابلة أصدقائه بها، وفتح الباب ليدخل وفيق. دخل متطوّحاً كعادته، وجلس على الفوتيل المُواجه للسرير الذي يرقّد فيه سامي.

— ماذا تقرأ؟

— لورانس.

— إنه من أعظم الروائيين. ماذا تقرأ له؟

— أبناء وعُشاق؛ فهي مقررة علينا هذا العام.

- تعرف طبعا أنها أول روايةٍ من ثلاثية. قرأتها كلها. لا بد أن تُكمل الباقي. قوس
قُرح وبعدها نساءً عاشقات.

- لكن المقرّر طويل جداً. سأقرأها فيما بعد الليسانس، ولكني أتعجب لك. كان
يجدر بك أن تدخل الآداب بدلاً من الحقوق. مع كل ما تقرأه، كنتَ ستنجح بامتياز.

- النصيب. أو بالأحرى والدي. قال ما يُقال دائماً إن الحقوق مدرسة الوزراء. وها
أنا ملتصقٌ بها، ولكن، كما ترى، أنا لا تهمني الدراسة أو التخرّج. أنا أقرأ لمزاجي. وفوق
كل شيء، أنا أناضل من أجل العدالة الاجتماعية. لا بد من القضاء على الفوارق الطبقيّة،
بل يجب أن تسود طبقة العمال والفلاحين.

- ها ها. إنك تقول هذا يا وفيق بينما تعيش عيشة البورجوازيين الكبار. تعيش في
قصر، وخدم، وسهرات، وشراب.

- هذا لا يمنع ذاك.

- كل المجاهدين يقولون ما تقول. نرى كبار الاشتراكيين بل الشيوعيين يركبون
المرسيدس ويعيشون في فيلات. هذا انفصام في الشخصية. اسمع، ما رأيك في أن تترك
حكاية الشيوعية هذه وتنضمّ معي في جماعة الوجودية؟

- أنا أحب سارتر وبوفوار ونظريتهما، ولكنني لستُ مستعداً لذلك الآن. إن لي دوراً
مهماً أريد تنفيذه، ولكن، قل لي، ما دعاك إلى إنشاء تلك الجمعية؟

- لقد رأيتُ أن الوجودية يُساء فهمها من قبل الكثيرين؛ ولهذا فنحن في الجمعية
نُحاول إزالة سوء الفهم عن هذا المذهب. وأنا مؤمن أن الفلسفة وراء الوجودية هي ما
تجعل من الحياة حياة.

- إذن لماذا لا تصبح ملتزماً كسارتر؟

- إنني لا أتبع سارتر في هذا. ولا تنسَ أن الوجودية ليست سارتر فحسب. أنا مثلاً
أحب ألبير كامي أكثر. ورغم قوله إنه ليس وجودياً، فهو في كتاباته وجودي حتى النخاع.
انظر إلى موته في العام الماضي وكيف كان عملاً عبثياً خالصاً، ثم إن أبا الوجودية هو
كيركجارد.

- أوكي أوكي. ما لك اليوم يا سامي. أين المسقّعات؟

وخرج سامي طالباً من الخادمة إحضار زجاجتي كوكاكولا، ثم دخل الغرفة معلناً
لجميع أن الكوكا قادمة؛ لأنه ليس في حاجة إلى المزيد من الكحوليات؛ فقد كان واضحاً
أنه قد شرب الكثير قبل حضوره.

- أنا لا أعرف كيف أتكلّم أو أناقش إلا حين أكون سكراناً.
- عذراً جميل. هذا القول سيُصبح مثلاً يُردّده الكثيرون. هل يا تُرى كلمة سكران
معربة أم ممنوعة من الصرف؟
- دائماً وراء اللغة، يبدو من جرّاء مادة الترجمة عندكم. دعك من هذا. كيف حالك
مع شريفة؟

- كما هو.
- أفضل مني على كل حال.
أنت حكايتك حكاية.
ودق الباب الخارجي مرةً أخرى. ونهض سامي فوجد سامر، ومعه كالعادة بعض
الأوراق والكتب تحت إبطه. وكعادته أيضاً، كانت السيجارة في فمه. وبأن عليه السرور
لمرأى وفيق. وتركهما سامي ليُوصي بزجاجة كوكاكولا أخرى، وسرعان ما دخلت الخادمة
بالزجاجات الثلاث.

- أخبراك إيه يا سامر؟
- ماشية. كتبت قصةً قصيرةً جديدة.
- اقرأها علينا.
- انتظر حتى أستريح وأكزّع من مُسَقَّعات سامي المشهورة.
ووضّع سامر حمله على المنضدة، ورأى سامي أن منها قصائد مختارةً لإليوت. ها
هو قد بدأ يحضّر نفسه للانضمام إلى بطانة الدكتور رشدي كي يعيّنه معيماً. كان سامر
لا يترك فرصةً واحدة إلا وينتهزها للإفادة من أي شيء يُلوح له في الأفق. كان الجميع
يعرفون انتهازيّته ولكنهم يحسدونه على ذكائه الخارق، ويغارون من نجاحاته، خاصةً
مع راوية زميلته.

- هاكُم قصتي أيها السادة.
وبداً سامر يتلو بصوتٍ هادئٍ قوي. وانسابت السطور والصفحات وسامي ووفيق
يُنصّتان باهتمام ويجرّعان في خشوع من الكوكاكولا، وبعد حواليّ عشرين دقيقة، قال
سامر: وهنا، تنتهي القصة.

ظل سامي ووفيق صامتَيْن، ثم صاح وفيق: قصةٌ جميلة.
وقال سامي: ولكن، أليست مشابهةً لقصة «مكان نظيف حسن الإضاءة» لهنجواي؟
فصاح سامر من فوره: لم أقرأ تلك القصة.

- إذن فالأمر مجرد توارُد خواطر. على العموم، فيها مضمونٌ قوي.

- المضمون لا ينفصل عن الشكل والقالب.

- ها ها. لقد أصبحت «رشدياً» خالصاً.

وضحك الجميع.

- ألسَتَ اشتراكياً يا سامر؟

- اشتراكي في حالات، ومن أتباع الفن للفن في حالاتٍ أخرى.

ضحك آخر.

وبدأ سامر ووفيق يُلمِلمان حاجياتهما. وطلب وفيق من ماهر استعارة رواية لكافكا،

مؤكدًا أنه سوف يُعيدها سريعاً.

- جميل! إنك لم تُعد لي بعدُ رواية فوكنر.

- لا لا، سأعيد لك الاثنتَين معاً.

- أوكيه.

واصطفَق الباب وراءهما.

عاد سامي إلى الفراش وإلى خَلوته التي يعشَقها. وجَذَب الكتاب الذي كان يقرؤه. الغُثَيان لسارتر في ترجمته العربية. كان قد اكتشف منذ عامين الترجمات التي كانت تنشرها بيروت، وأصبح يُتابعها ويقتني ما يهْمُه منها، بعد أن تعدَّر الحصول على الأصول. وكان يحرص على متابعة مؤلَّفات سارتر وكامي؛ حيث إنه يدعو إلى الوجودية، ولا بد له من الدراية التامة بكتب أقطاب المذهب. وهو يشعر أنه هو روكنتان سارتر، وميرسو كامي. إذا كان الوجود سابقاً على ماهية الإنسان، فالإنسان حرٌّ حريةً مطلقة. ولكن، ماذا يفعل المرء بحُرِّيَّته؟ تلك هي المشكلة. وإذا كان الوجود عبثياً ولا معقولاً، فأَيُّ شيءٍ يخلع معنىً على الوجود؟ كل ذلك يجب مناقشته والوصول إلى حلولٍ له. وقرأ سامي أيضاً كُتُب فيلسوف الوجودية المصري، وتشربها وأعجب بها، على صعوبة أسلوبه ولغته. وقد باغته كتاب «اللامنتمي» لكون ولسون، وأصبح من دُعائه، خاصة بعد أن قرأ عن حياته الغريبة، وظروف تأليف ذلك الكتاب.

كان كتاب اللامنتمي هو الأمثل لجيله. وعرف أن أفراداً عديدين قرَّعوه وتأثَّروا به مثله. وضع سامي الغُثَيان جانباً وتناول كتاب ولسون. مطبوعات لبنان أيضاً. كان قد قرأه أكثر من مرة، وقلَّب صفحاته. وقد توالَت منشورات لبنان تملأ المكتبات العربية، ومنها مكتبات القاهرة، وكان أفراد هذا الجيل يتلقَّفونها في لهفةٍ وشوق. كانت لبنان قد أضحت

المنتج الأول للكُتُب، فانفتحت شهينها على إصداراتٍ حديثة وجريئة. وتابع أفراد الجيل فضيحة كتاب «سفينة حنان إلى القمر»، وأعجبوا بإفراج القضاء عن الكتاب وكتابته، وتلقفوا الكتاب وقرعوه وأعجبوا به. وظهرت ترجمة لوليتا إلى العربية، فاستعاضوا بها عن الكتاب الأصلي، الذي كان لا يمكن أن يصل إلى مصر في ذلك الوقت. ورغم ذلك، كانت التيارات الفنية والثقافية والأدبية تُفوّر وتُموّر في أوساط المثقّفين بالجامعة. وشلة «العقول» في قلب هذه الأوساط. وسامي على رأسها لنشر آرائه الوجودية والدعوة لها.

كانت السلطة تترك الأمور على حالها طالما لا تقترب الأنشطة من السياسة أو الفكر السياسي. كانت الحركة الأدبية والفنية في ذروتها، ومقالات لويس عوض تُتْرَى كل أسبوع في الأهرام، وقصص نجيب محفوظ ويوسف إدريس. وسَمِعَ الجيل همساً عن رقابة على بعض الأعمال الأدبية، منها رواية أولاد حارتنا، التي نُشِرت مُسَلَّسَةً في الأهرام، ولكن لم يكن هناك قولٌ فصل فيما يتردّد من إشاعات. وكانت الكتب تصدرُ أكواماً من مطابع الدولة، ولكن القليل منها هو المفيد. كان التركيز على الفكر الاشتراكي. أما الأدب فقد توجّه إلى بعض الأعمال الكلاسيكية، التي هي بمأمن من أي تفسيرات خاطئة.

كان سامي يشعر أنه في وسط غليانٍ حضاريٍّ وثقافي، يواكب غليانه العاطفي — والجنسي الخفي. وينعكس هذا الغليان والفوران على دراسته وقراءاته وحبّه. وأصبح حبّه متعدّداً؛ فبعد أن أصبحت شريفة لا تأتي كثيراً إلى الكلية، ورغم أنه كان ما يزال يعتبرها حبّه المثالي الأعظم، فقد كان لازماً لأشواقه العاطفية أن تجد لها متنفساً، فبدأ يهتم بزميلتهم سامية، بل ونحو سهير أيضاً. كان ذلك تحوّلاً جاء مع التحولات الكبيرة التي طرأت عليه على مر السنوات الأربع في الكلية. شعر أنه قد نضج كثيراً عما كان عليه عند التحاقه بالجامعة. لم يكن على ثقةٍ بعد في المهنة التي يريد أن يتخذها لحياته، أو الهدف الذي يسعى وراءه، ولكنه يشعر شعوراً مبهماً أن الفن والأدب هما مقصده وغايته. وساعده على ذلك شخصية ستيفن ديدالوس في رواية جويس، التي تقصّ اهتداء بطلها — الذي هو رمز لجويس نفسه — إلى غايته من الحياة، وهي أن يُعبّر عن نفسه في الحياة أو في الفن على أكثر الأشكال حريةً وكمالاً، مستخدماً الأسلحة الوحيدة التي يسمح لنفسه باستخدامها (الصمت والمنفى والمقدرة)، ولكن الأمور ما زالت غائمة أمام عينيه: هل يريد أن يُقلّد الآخرين ويعمل للتعيين معيذاً بالقسم؟ هل يسير على خطى كمال وعبد الرحيم ويُنَافِسَ سامر الذي يسعى بكل جهده ليُصبح معيذاً؟ أم يُكرّس بضع سنوات من حياته لقراءة كل ما يرغب فيه بحرية بعد قيود الالتزام بالمقرّر الدراسي الذي يخرقه

كثيراً منذ الآن؟ لقد شعر دائماً أنه مختلف عن الآخرين، وله برنامج حياة مختلف، حتى إنه يقرن نفسه بمصطلحات «الغريب»، و«اللامنتمي»، و«المتفرد»، فلماذا إذن يتبع النمط التقليدي للحياة؟

كان أفراد الشلة قلقين أيضاً على المستقبل، متطلعين إليه في شوق وخوف. نبيل يركّز على استكمال دراسته للماجستير ثم الدكتوراه، بعد شعوره أنه لن يستطيع الحصول على جيد جداً في الليسانس، ولكن الوصول إلى الماجستير من خارج الكلية أمر صعب جداً هو الآخر. أما وهيب فقد وجه اهتمامه إلى أن يعمل مدرساً في وظيفة مضمونة، يمكن من خلالها أن يحصل على إعارة خارجية تُمكنه من توفير المال المطلوب للمستقبل. وحلمي أيضاً له نفس الأفكار، وإن طمح إلى المرتب الكبير لتحقيق الحلم التقليدي لتكوين أسرة «محترمة». أما أعجب الآمال فهي خطة إبراهيم؛ العودة إلى قريته والعمل على بناء منزل له هناك! حسيب وعلي هما فقط اللذان لهما آمال فنية. حسيب يريد أن يبرع في كتابة الأزجال والشعر العامي، ومحاولة النشر أو بيع الأغاني لكبار المطربين. أما علي فقد كان أشبه أفراد الشلة بسامي. له مشاريع طموحة للقراءة والكتابة، ومشروعه العاطفي مع إحدى الفتيات، التي تعرّف عليها في حفل بالأوبرا، يسير بنجاح.

كان الجيل مدفوعاً بزخم هائل من ظروف الحكم في البلاد، والحدود التي تقيّمها تلك الظروف في وجه أفرادها، بالإضافة إلى صعوبات الحياة العادية. كان الجو العام جوّ حماس وترقّب وقلق. المشروع الثوري الاشتراكي على قدم وساق، باهر الصورة الأمامية دون كشف ما يعتمل في الخفاء إلا على من يبحث ويدقق ويسأل، في حذر شديد. يُدرك الجميع ضرورة أن يكون المرء متساوفاً مع ذلك المشروع ولا يحيد عنه قيد أنملة، حتى وإن قاده ذلك إلى نسيان مبادئه وآرائه الخاصة. وكان بين هؤلاء من يُخلصون لفنهم ومبادئهم ولكنهم يُجارون الحياة، مثل كمال وعبد الرحيم. ومنهم من يتلون بألوان الطيف، كرشاد وناشد. ومنهم من يخلص لمبادئه — مهما تكن — على حساب مستقبله، كوفيق. ومنهم الطامحون الفنانون، كنبيل، والطامحون التقليديون، كوهيب وحلمي، ومنهم المتواكلون، كإبراهيم. ويبقى سامي، لا تصنيف له، أو فيه كل تلك التصنيفات السابقة مجتمعةً تتصارع في داخله.

وفي وسط كل هذا الخضم، لم يكد أفراد الشلة يتلمّسون طريقاً واضحاً لهم. لقد قرءوا «وداعاً للسلاح»، المقررة عليهم، وعرفوا اصطلاح «الجيل الضائع» الذي أطلقته «جرتروود شتاين» على همنجواي وجيله من الفنانين، ورسب في أذهانهم أنهم بدورهم

هم الجيل المصري الضائع. وكانوا يقولون لهم إنهم جيلٌ على موعد مع القَدَر، ولكن، أي موعد؟

كان سامي دائماً يردّد قولته الشهيرة: «لا بد أن نعمل «كاتاكلزم» (تغيير شامل) في حياتنا». ومرةً ردّ عليه نبيل ساخراً: وجدتُ الحل.

– ما هو؟

– نمشي على أيدينا بدل أرجلنا.

وقهقه الجميع. ولكنها سارت مثلاً.

جلس سامي مع عبد الرحيم في كازينور، على مائدةٍ مُطلّة على النيل. توجّه قبل ذلك إلى شقة عبد الرحيم القريبة من كازينور؛ حيث استقبله وأطلّعه على مكتبته العامرة التي يزوّدها كل يوم بما تيسّر من الكتب والمراجع. لقد استخلص عبد الرحيم سامي كصديقٍ مقربٍ له؛ إذ لم يكن من منافسيه ككمال أو سامر؛ ولذلك كان يقضي معه الكثير من الوقت، ويساعده في شرح ما استغلّق عليه، ولم يَضِنّ عليه بأسراره حتى العاطفية منها.

– ما أخبار جيزيل؟

– رائع. كنتُ معها في المكتبة أول أمس، وطلّبتُ مني أن أشرح لها بعض الشعر الميتافيزيقي.

جيزيل فتاةٌ جميلة من أصل تركي في السنة الثانية في القسم. جذبتُ اهتمام عبد الرحيم بجمالها وذكائها إذ كان يدرّس لهم النقد الأدبي على منوال أستاذه الدكتور رشدي؛ لذلك لم يجد حرجاً أن يساعدها في مقرّر الشعر ما دام أنه لا يُدرّسه لها. شقراء، زرقاء العينين، طويلة؛ بكل هذا لافتة للأنظار. تبدو متحرّرة تتمتع بجذب انتباه المعجبين.

لم يَكُن صعباً عليها جذب اهتمام عبد الرحيم.

– وماذا تنتوي معها؟

– لا أعرف. أشعر أنها تميل لي، ولكن لا بد من أخذ هذه العلاقات بمنتهى الحذر. إنها طالبةٌ في القسم الذي أعمل بالتدريس فيه.

– ولكن العواطف لا تعرف القيود. أرى أن تُحاول تلمّس ما في شعورها تجاهك.

– ما في شعورها أعلمه جيّداً. إنها ميّالةٌ لي.

تعجّب سامي من قُرط ثقة عبد الرحيم بذاته، وأرجع ذلك إلى نجاحه في عمله، وتطلّعه إلى المزيد من النجاحات.

- عظيم. عليك إذن بالسير قُدماً في هذه العلاقة.

وفي كازينور، بعد طلب المشروبات وما إليه، بدأ عبد الرحيم يشرح لسامي قصيدة الأرض الخراب من أولها إلى يائها، والنيل يجري منبسطاً أمامهما فيخفف من غلواء تشاؤم إليوت في قصيدته اليبابية. وبدأت أسرار القصيدة تتفتح تدريجياً أمام عيني سامي، وعبد الرحيم يجلو له غوامضها والفلسفة التي تكمن وراءها، مضيفاً الكثير من ظروف كتابتها والتغيرات التي أجراها عزرا باوند عليها حتى خرجت بالشكل الذي هي عليه الآن. ووجد سامي أن القصيدة بها ملامح وجودية ظاهرة، فضحك عبد الرحيم وقال له إنه من الممكن لأي شخص أن يجد صدقاً لمعتقداته في النصوص العميقة التي تحتمل تفسيرات عديدة، ولكنه لا يغامر بالوصول إلى تلك النتيجة دون مزيد من الفحص والتحليل. طبعاً هو أكاديمي، ولا بد أن يتبع النهج الأكاديمية في بحثه، ولكن سامي فنان، ووجودي، فله مطلق الحرية في تفسيراته.

وانسابت شروح عبد الرحيم؛ إذ تناول القصيدة سطرًا سطرًا يشرحها لسامي بالعربية والإنجليزية أحياناً، ومضى من الفصل الأول إلى الفصل الخامس النهائي، فما إن جاءت السطور الأخيرة، مُختمة بـ «شانتني، شانتني، شانتني» حتى كانت القصيدة كلها واضحة في وعي سامي، الذي استوعبها الآن، وملأته إعجاباً، وأحس أن الدكتور رشدي وجماعته على حق في الإعجاب بإليوت ذلك الإعجاب، الذي يبدو لأول وهلة مُبالغاً فيه.

- وهكذا. أرجو أن تكون الآن قد تمثلت معاني القصيدة واستوعبتها.

- تمامًا. والشكر لك.

- لا شكر على واجب.

- الآن أدرك مدى أهمية القصيدة وإليوت. هل تعرف ذلك الطالب في السنة الثانية

الذي يدعونه «راهب إليوت»؟

- تقصد إدوار. نعم إنه من تلاميذي. لقد ترجم بعض قصائده ونشرها في مجلة

الآداب البيروتية، ولكن الترجمة ليست جيدة. كان يجب أن أراجعها له أولاً.

- ينشر في هذه السن المبكرة؟ إنه قد تفوَّق على سامر.

- هذا كله عبث؛ فما ينشرانه لا قيمة له.

دائمًا يغمط الآخرين حقهم. هو ينظر إلى الأمام؛ ما سوف يكتبه وينشره. تردّد

سامي، هل يدعوه إلى الغداء في كازينور، أم أن ذلك سوف يكون مُحرجاً كأنه ردٌّ لجميله

في معاونته؟ وحسَم أمره.

— هل تشعُر بالجوع؟ أرجو أن تقبل دعوتي على بعض الطعام هنا.

ضحك عبد الرحيم.

— أنت ما زلت طالبًا. دَع لي هذا الأمر، ولكن فلنذهب إلى وسط البلد، ونأكل هناك،

ثم نمرُ على بعض المكتبات. إنني في حاجةٍ لعدد من القواميس.

جميلٌ أنْ أَخَذَ الأمور بهذه البساطة.

— ولكن هذا كثير. إنني أريد ردَّ بعض أفضالك.

— رُدُّها بعد أن تتخرَّج وتوظَّف، أما الآن فهيا بنا.

وأصرَّ عبد الرحيم كذلك على دفع الحساب. خرجا إلى ساحة الجيزة قبالة كوبري عباس، وأشار عبد الرحيم إلى تاكسي ودلَّفا إليه. كان مشهورًا بالكرم؛ فقد أتى من أسرة ريفية ثرية تأصلت فيها الشهامة، وأمَّته أيضًا بالتقاليد الراسخة التي لا يحيد عنها بسهولة. وكان من حظ سامي معرفته ومعرفة كمال أيضًا؛ فكانا يمدَّانه بالزاد العلمي والفني والمادي أيضًا، ممثلًا في ارتياد المطاعم والكافيتيريات التي لم يكن سامي متعودًا على زيارتها، لما تتضمنه من مستوى آخر ونفقاتٍ أخرى.

وبعكس كمال الذي كان يحب الأماكن الأوروبية، ولا يجد حرجًا في طلب المشروبات الروحية، أخذه عبد الرحيم إلى مطعمٍ شرقيٍّ مشهور بتقديم الدجاج على الطريقة الشعبية. ما أشدَّ اختلاف هذا المكان عن مطعم جروبي أو الأمريكيين أو روي! ولكنه يُضارِعها في النظافة. به أماكنٌ مخصصة للعائلات؛ ولذلك كان كل من يحوطهما من الرجال. وليس به مشروباتٌ روحية. وكان الأكل مصريًا خالصًا، مع مشروب الخروب، والشاي بالنعناع في النهاية.

واستمتع سامي بالجلسة مع عبد الرحيم، الذي راح يحدِّثه عن إعجاب الفتيات به وبعلمه الغزير، وعن طموحاته في الكتابة للمسرح؛ إذ بدأ كتابة مسرحية بعنوان «الإطار المليء»، وكان يأمل أن يضمَّه الدكتور رشدي إلى هيئة المجلة التي يعتزم إصدارها عن المسرح. ونهضًا بعد ذلك وسامي يشكر عبد الرحيم على كل كرمه الحائمي، وتوجَّها إلى مكتبة الأنجلو. وهناك غرَّقا في فحص الكتب كالعادة، واشترى عبد الرحيم بعض الكتب بالتخفيض المخصَّص للأساتذة. وفي مكتبة النهضة، امتدَّح سامي قاموس النهضة ذا الجزأين، مما دفع عبد الرحيم إلى شرائه، ثم عثر سامي على نسخة من «قاموس الجُمَل والعبارات الاصطلاحية» لنفس مؤلف قاموس النهضة، وكان يبحث عنه من زمن، ففرح به، وحملَه لشرائه.

- هل وجدتَ شيئاً لك؟
- هذا القاموس. إنه لنفس مؤلف قاموس النهضة.
- وقلَّب عبد الرحيم فيه بسرعة ثم قال:
- جيد. سأخذ نسخة لي أيضاً.
- وذهب مع سامي إلى حيث كان القاموس، ولكنهما لم يجدا نسخة أخرى معروضة.
- ولما سألا قيل لهما إن هذه النسخة هي آخرُ الموجود؛ لأنه نافذٌ من زمن.
- غير معقولٍ هذا. إني لفي حاجةٍ إليه.
- وتردَّد سامي بعض الوقت. كان هو أيضاً يريد القاموس، وهو يعرفه قبل عبد الرحيم. ولكن ... هل من سبيل؟
- يُمكنك أخذَ هذه النسخة، وسأبحث أنا عنه في المكتبات القديمة أو على سور الأريكية.
- جميل. مؤكَّد ستجد نسخةً أخرى.
- وأعطى سامي عبد الرحيم نُسخته وهو يتمزِّق ألماً خفية؛ إذ كان متأكداً أنه لن يعثرُ على نسخةٍ أخرى أبداً.

اقتربت امتحانات الليسانس، وانهمك الجميع في الاستعداد لها. كل واحدٍ له موادٌ يخشى منها؛ سامي يخشى اللغة اللاتينية، وفهيم الرواية، ونبيل الدراما. أما فتيات الإنجلش سكول، فاللغة العربية هي «بُعْبُعهن».

أصبح كل فردٍ من أفراد الشلة في شُغلٍ عن الآخرين، ما عدا جماعة «العقول»؛ فقد دأبوا على التزاوُر واللقاءات؛ إما في الكلية وإما في حُجرة سامي. وانهمكوا في تبادلِ العون الدراسي؛ فنيل يقوم بشراء ملازمٍ شرحِ دروس اللغة الفرنسية من أحد المدرسين في منيل الروضة، مكتوبةً على الآلة الكاتبة، ويتبادلها مع الجميع. وشعر سامي أن المواد التي تتطلب الحفظ عن ظهر قلب لبعض النصوص، كاللاتينية والفرنسية، هي ما تُزعجه حقاً؛ فقد اعتمد على الفهم المنطقي للموضوعات والتعمُّق فيها، ولكنه خضع لمتطلبات النجاح في هذه المواد، التي يأتي الامتحان فيها بإيراد نصوصٍ مقرَّرة، والمطلوب ترجمة هذه النصوص إلى العربية أو الإنجليزية. وكان قد حاول في السنة الأولى أن يدرُس اللغة اللاتينية دراسةً منهجية بعيداً عن النصوص المقرَّرة، فكانت النتيجة كارثة. وبعدها عرف أن الامتحانات لها مقاييسها ولا بد من التوافق مع تلك المقاييس. أما الدراسات الحقَّة،

فهي تأتي بمنأى عن الامتحانات في خطٍ خاصٍ مدروسة؛ ولهذا فهو يتوق إلى التحرُّر من ربة حصار المقررات كيما ينطلق بعد ذلك لدراسة ما يُحب وفقًا لمنهجه الخاص. وتعوّد سامي على الذهاب كل يوم تقريبًا بعد أن انتهت الدروس استعدادًا للامتحانات إلى الجامعة؛ حيث يرى بعض الأصدقاء، ويذكر هناك كما يحلو له. وحين أعلنت الكلية أرقام الجلوس للامتحانات، كان سامي هناك كالعادة، فذهب إلى بهو الكلية الرئيسي حيث علقت الأرقام، وكثير من الطلبة يتزاحمون لمعرفة اسم شريفة أولاً، واطمأن إلى وجوده، ثم بحث عن رقمه هو، وكتب الرقمين في دفتره. وبقي في البهو يتفرّج وينتظر وصول أحدٍ يعرفه للحديث. وفجأة، لمح شريفة آتية من الباب الخلفي، متجهة إلى كشوف الأرقام. ورأها تُجاهد في الوصول إلى الكشوف وسط الزحام، ثم تنتقل من لوحة إلى أخرى بحثًا عن اسمها. وتجمّد وجود سامي في لحظة حول وجود شريفة، ولم يعد يرى غيرها من حوله وسط طوفان الطلاب المتزاحمين. وفي لحظة سماوية، وقعت المعجزة؛ إذ أفاق سامي من نشوته وبحرانه على صوت شريفة تحدّثته بالإنجليزية: أسفة لإزعاجك، ولكن هل يمكن أن تساعدني في العثور على اسمي ورقم جلوسي؟

– طبعًا.

ومضى سامي من فوره قُدماً واثقًا، وشريفة إلى جواره، وتوجّه من فوره مباشرة إلى الصفحة التي رأى فيها اسمها سابقًا، وقال لها: ها هو. ووضّح من ذلك أن سامي قد بحث عن الاسم من قبل وعزّفه حتى قبل أن تطلب شريفة معونته. وملأه ذلك الإحساس، وإدراك شريفة لذلك، نشوة وحبورًا. وحين تورّد وجه شريفة، أدرك سامي أنه على الطريق الصحيح.

– آه، شكرًا. إذن هو ٣ و ٧ و ٢.

– نعم، ٢٧٣.

– شكرًا جزيلاً. وحظ سعيد. أرجو أن تكون مستعدًا للامتحان.

– إني أبذل جهدي. وأنت؟

– مثلك. هناك مواد أحبها وأخرى أكرهها. وكما تعلم، العربي عندنا مشكلة.

– لو أحببت شرحت لك أي شيء ترغبين فيه.

ضحكت شريفة وقالت: لا أعتقد أن هناك متسعًا من الوقت الآن. ولكن شكرًا. ولو

أردت شيئًا سأخبرك.

— إذن حظُّ سعيد لك أيضًا.

آه وآه. سطعت الشمس وأشرقت، وصدحت الألحان من حوله، وأينعت أزهار وطارَت عصافير، وانسابت غدائر وتلألأت أقمار. وتبدت الدنيا من حوله سعيدةً مضيئةً. وسبح في طوفان من السعادة الغامرة. وتابع شريفة بنظره وهي تخرج من الكلية، لا بد عائدة إلى منزلها. كانت ترتدي الفستان السكوتش الذي يجعلها تتبدى في صورة ملائكية. لقد تكلم بعض أصدقائه يومًا ضد الحب الأفلاطوني، وقالوا كلامًا جنسيًا جريئًا عن الفتيات. يومها شعر سامي بالإهانة، وقطع عليهم الحديث بطريقته الساخرة العدوانية التي تلجم الآخر وتقطع عليه الطريق. كيف لشريفة أن تكون في طبقة الفتيات الأخريات. وعادت إلى ذهنه «قصر الشوق» وعائدة شداد وكمال عبد الجواد. هل يا ترى هو واهم نفس وهم كمال؟ كان يرى شريفة ناضجةً جسمانيًا أيضًا، وإن تجاهل موطن الفتنة فيها، وكان يُبعدُها تمامًا عن فكره في أوقات حسيَّاته المنفردة، على أن تعود إلى مركز الروح بعد ذلك. وهذا ما ربطها بالرومانسية والروح والسمو والعفة. لم يكن، مثله مثل كمال عبد الجواد، يتصورها في موقف الجنس، رغم أن ذلك طبيعي. وهي ستزوج يومًا ما وتجرب الجنس والحمل والولادة، ولكنه لم يكن يفكر في ذلك مطلقًا، رغم أن تلك الأفكار كانت تُراوده عند التفكير في حبيباته الأخريات، كسامية وسهام. ولكن شريفة نوع آخر. وماذا يريد من شريفة؟ وهل يا ترى سيرها بعد التخرج؟ كل ذلك في علم الغيب.

وأفاق سامي من نشوته على صوت فريد يقول له: رائع يا سامي. رأيتك مع شريفة. هكذا تهبط إلى أرض الواقع بدلًا من تهويمات الخيال. تهانئي.

وعرت سامي بهجة أن رأى آخرون نجاحه مع شريفة.

— طبعًا. نحن أصدقاء. وهي تكلمني كثيرًا، ولكنكم لا تُصدّقون. أرجو أن تقول ما رأيته لحامد.

— حامد هذا لا أمل له مع شريفة. وأنا سعيد جدًا لرؤيتي لها معك.

الآن تقول ذلك ويا طالما ألمحت إلى فشلي مع شريفة نتيجة رومانسيتي الشديدة. أما هو فكان عمليًا. يحكي ما يفعله مع صديقه دون حياءٍ مما يصد سامي عنه في ذلك الأمر. يتفاخر أن سميرة قد رفضت عريسًا ثريًا من أجله. وهو يخرج معها كثيرًا. ثم قال إنه استقبلها في شقته حين كان وحده، وجرى بينهما ما جرى. حكى تفاصيل رهيبة ملأت الجميع بالحسد، وملأت سامي — بجوار الحسد — تقززًا. «كيف تحكي مثل هذه الأمور الخاصة على الجميع هكذا؟! يا أخي، راع أننا نعرف الفتاة.» هقهه فريد وقال إنه يأمل أن يصل كل محبٍ منّا إلى ما وصل إليه!

وقد دخلتُ الامتحانات النهائية بصورةٍ جديدة كنتُ قد ناقشْتُها من قبلُ مع سامر، وهي طريقةٌ لفتتْ نظر الأستاذ المصحح لورقتنا، فكنتُ أجيب عن السؤال في شكل مقال أو بحثٍ منشور، أبدؤه بِفقرةٍ مقتبسة لها علاقة بالموضوع، ثم أضيف عدَّة حواشٍ أشرحُ فيها المزيد من التعليقات عليه. وكان هذا كفيلاً بجذبِ نظر المصحح إلى الورقة على أقلِّ تقدير. وقد خرجتُ من الامتحانات مطمئناً إلى حدٍّ ما، وإن لم أكن أفكرُ إلا في مجرد النجاح فَحَسْب. وواصلنا بعد انقضاء الامتحانات التردُّد على الكلية، وعلى التقديم في عددٍ من الوظائف التي تم الإعلان عنها؛ حيث كانوا يقبلون أوراقنا بشرط النجاح بعد ذلك. وحين ظهرت نتيجة اليسانس بعد ذلك في شهر يوليو، سررتُ جداً إذ وجدتني قد نجحتُ بتقدير جيد مرتفع؛ حيث حصلتُ على جيد جداً وامتياز في عدة مواد، وبخاصة حصولي على امتياز في الرواية، وهو ما كان له مغزى مهم بالنسبة لي. وقد نقص مجموعي درجاتٍ قليلة للوصول إلى تقدير عام جيد جداً، وأسهم في ذلك حصولي على تقدير مقبول في مادةٍ وحيدة كان يُصحَّحها مدرس لغةٍ قديم يستعين به القسم من زمن، وكنتُ أعرف أنه قضى سنواتٍ طويلةً يعمل في إحدى الدول العربية، فضمنتُ إجابتي جملةً عن تلك الدولة علَّ ذلك يُعجب المصحح، ولكن يبدو أن تجربة ذلك الأستاذ في تلك الدولة لم تكن سارة، فكان أن انعكس ذلك في تصحيحه لورقتي!

وبدأت أيام الامتحانات، وسامي يذهب إليها قلقاً، يشعر أنه لم يستعدَّ الاستعداد الكافي، وأنه سوف ينسى كل شيء، ثم يخرج راضياً بعض الرضا. وكان يرى شريفة تجلس إلى مقعدها، ومعها دواية حبر، وتنهمك في الكتابة وهي تضع يدها على خدِّها. ونجح مرَّات في تبادل كلماتٍ قليلة معها في الصباح، أما بعد انتهاء الامتحان، فلم يكن ينجح في العثور عليها أبداً. وتعوَّد أن يذهب مع إبراهيم بعد كل امتحانٍ سيراً على الأقدام إلى ميدان الدقي، ويجلسان إلى الكافيتيريا الشهيرة هناك؛ حيث يشربان التمر هندي ويتناقشان في الامتحانات. ووثقت تلك اللقاءات بينهما؛ حيث تواعدا على مواصلة اللقاء والاتصال بعد ظهور النتيجة؛ لأن إبراهيم كان ينوي الذهاب إلى قريته فور نهاية أيام الامتحانات.

انتَهَج سامي في إجاباته على الأسئلة نهجاً كان قد ناقشه قبل ذلك مع سامر. المطلوب هو جذب انتباه الأستاذ الذي يصحَّح المادة بحيث يستمر في قراءة الإجابة حتى نهايتها؛ ولذلك كانت الفكرة هي بدء كل إجابة باقتباسٍ أدبي في أعلى الصفحة، على غرار كتابات بعض المشهورين. وفي مادة النقد النظري، عمد سامي إلى إيراد أمثلةٍ بلغاتٍ مختلفة منها اللغة العربية، ولم يجد أفضل من شعر علي محمود طه كي يصوِّر النزعة الغنائية

التدفقية، في مواجهة الشعر العقلاني الذي تدخل فيه الصنعة البنائية. واستخدم كذلك أشعار قصيدة الكرنك التي كان يعشقها وإن لم يتذكر مؤلفها.

وكانت فترة الامتحانات فترة عصيبة بقلقها وتعبها. وحين انتهت تنفس الجميع الصُّعداء. والتقت الشلة في آخر يوم، ومضوا جميعاً إلى وسط البلد. وعلى كوبري قصر النيل، قام سامي بمراسيم آخر امتحان، بأن ألقى كتاباً لم يعد في حاجة إليه في النيل. ولكن مراسم هذا العام كادت أن تنتهي نهايةً سيئة؛ إذ هرع إليهم أحد الجنود وسألهم ماذا فعلوا. وحاول سامي أن يشرح له الأمر، ولكنه لم يفهم شيئاً، وطلب أن يصحبهم إلى قسم البوليس. ذكر لهم أن مجرد التوقف على الكباري فيه مخالفة للأمن، وأن إلقاء شيء من الكوبري قد ينطوي على أمر خطير. ولم يُنقذ الموقف إلا تدخل البعض بأن ذكروا للجندي أن أخا سامي هو فلان الذي يشغل مكاناً مهماً في المباحث. وبعد أن رأى الضابط كارنيه سامي وتحقق من لقبه، تركهم لشأنهم منذراً إياهم بعدم تكرار ذلك مرة أخرى. وعادت إلى ذهن سامي نوبات الحراسة والاستعدادات الحربية في فاتحة مسرحية هملت. ولكن، ما لنا وللدنمرك؟ إننا في مصر المحروسة!

وعبروا ميدان التحرير، في طريقهم إلى كافيتيريا لابس. وجلسة لابس جميلة، وجود مكيف لطيف يتيح لهم النقاش ومشاهدة الغيد الحسان. وفي المحل طبق مكرونة بالفرن لذيذ الطعم ذو سعرٍ معقول. وكانت الشلة تتهكّم على حب نبيل لذلك الطبق، وحرصه على طلبه دائماً هناك، مشيرين إلى أن ذلك الحرص مرآة لحرصه في الإنفاق، كما يقول سامي في التشنيع عليه.

— ها قد أتت الإجازة أخيراً. ماذا سنفعل في الصيف؟
— سننتظر النتيجة طبعاً. ونستطيع أن نتقدم للوظائف من الآن.
— بالفعل؛ فقد سمعتُ أن الاستعلامات تعقد امتحانات ومقابلاتٍ لخريجي أقسام اللغات، ويقبلون دفعاتٍ هذا العام ممن لم تظهر نتائجهم بعد.
— إذن علينا أن نتقدم أيضاً. وهناك أيضاً امتحان مسابقة المترجمين في المصانع الحربية.

— أنا سأنتظر أسبوعاً أو أسبوعين للراحة، ثم أبدأ في التقديم للوظائف.

وفي انتظار النتيجة، واصل الأصدقاء الذين بقوا في القاهرة لقاءاتهم. وكان سامي على مواعده السنوي الغريب؛ إذ كان يختار يوماً في أوائل الإجازة يخصّصه للمشى والتأمل،

يبدأ من أمام منزله بالعجوزة وينطلق إلى الإسعاف فشارع رمسيس بطوله، إلى العباسية وحتى مصر الجديدة. وهناك يستريح ويأكل في أحد المطاعم ثم يشرب القهوة في جروبي مصر الجديدة قبل أن يقفل عائداً على قدميه. وقد حافظ سامي على هذا التقليد منذ ثلاث سنوات، وها هو اليوم يخرج في ملابسه الصيفية للقيام بهذه الرحلة الشيقية. وأفضل ما في الرحلة ما يلاقيه في طريقه من أناسٍ وعرباتٍ ومبانٍ. يستشعر الجمال في كل ما هو جميلٌ منها؛ أبنية كلاسيكية بديعة يُحب التوقّف أمامها وإشباع بصره من تناسقها. فيلا شارع رمسيس التي تحمل اسم أستاذٍ أدبيٍّ كبير. ترى أهو صاحبها أم مجرد تشابُه في الأسماء؟ وميدان رمسيس وما يزخر به من حركةٍ دافقة. يتفرّع جانباً إلى شارع الفجالة الذي يرتاده كثيراً في طلب الكتب والأدوات الكتابية التي يعشقها. وفي العباسية، ثم مبنى الكاتدرائية المهيب الذي يُعيد إلى ذهنه مباني الكاتدرائيات والكنائس المشهورة في بلاد أوروبا، والتي حَلَمَ بزيارتها يوماً، وخصوصاً نوتردام دي باري، التي عرفها أولاً من أهدب نوتردام. يا لها من قراءاتٍ متنوعة! طِفَقَ يفكرُ في سنوات التكوين الثقافي والأدبي منذ الصغر، منذ بدأ القراءة في شبين الكوم، ثم الإسكندرية فالقاهرة مع سور الأربكية ودار الكتب. وبعد ذلك الجامعة والمقرّرات الأدبية الرائعة في قسم اللغة الإنجليزية. وصل سامي مع تلك الخواطر الحنينية إلى مشارف مصر الجديدة. وسار متجولاً فيها، يتفرّج على فتارين المحلات التي تمتلئ ببضائع باهرة. كانت «القوانين الاشتراكية» قد صدرت منذ فترة، ولكن أثرها لم يكن ظاهراً في بعض المحلات، التي كانت تعتمد على الاستيراد المُقنّع، وعلى التهريب، للحصول على البضائع التي تعوّدت الطبقات الثرية على امتلاكها. وكانت ظاهرتا «مسافرو الشنطة» وسوق غزة في قلب القاهرة، قد بدأتا في الظهور.

توجّه سامي إلى المطعم الصغير الذي يرتاده هناك. له حديقة جميلة، جلس إلى إحدى موائدها وطلب طبقه المفضّل؛ كبدة مشوية مع بطاطس مقليه وزجاجة بيرة ستيل. وعاد ثانيةً بذاكرته إلى أحوال حياته الماضية، وكيف جاءت فتيات الجامعة فحفرت في فؤاده بحرّاً من الهَيّام بالجمال الأنثوي الذي وجد ضالّته في شريفة أساساً. كان أصدقاؤه يحكّون عن مغامراتٍ عاطفيةٍ وجنسيةٍ أبعدَ مدى؛ ولذلك كان لكل واحدٍ من أبناء ذلك الجيل عالمه العاطفي والغرامي والجنسي الخاص به. وسرعان ما أغرق سامي عالمه في عالم قراءاته، وعالم الوجودية التي أصبح يُبشّر بها، وأصبحت مكتبته تزداد يوماً بعد يوم من الكتب التي تتفق مع ذلك العالم الخاص به. ولم يخلُ الأمر من بعض

«المصنّفات» الحسية التي كانت تثير فيه نوازع الجنس. وكان يعرف أن الجميع لديهم مثل تلك المصنّفات. وكان البعض يتحدث صراحةً عن مغامرات جنسية، مثل كمال الذي كان غارقاً في هذه الأمور، على نحوٍ لا يفرّق بين أحد؛ فهو مع فتياتٍ محترمت، وبنات بلد، على حدٍّ سواء، باحثاً عن الجنس الخالص، ولا يشعر بحب أو خلافه. كان الجنس يمثل مشكلةً كئوداً أمامهم، وعلى كل واحدٍ أن يحلّها وفّق ظروفه وأوضاعه. حانت ساعة العودة من مصر الجديدة. واتخذ طريقاً مغايراً موازياً للطريق الذي جاء منه، بقصد التغيير. وفي العودة، كان تفكيره مُنصبّاً على المستقبل وليس الماضي. ذلك المستقبل الذي كان على وشك أن تتحدّد سماته لكل فردٍ من أفراد الشلة.

الجامعة في قیظ يوليو. رغم الصباح الباكر، داهم الحرُّ المكان، وتسَلّطت الشمس على الأماكن المفتوحة، فلجأ نبيل إلى ظل شجرةٍ صغيرة، وجلس تحتها في انتظار مَنْ يحضُر من الأصدقاء. كان اليوم هو موعد ظهور نتيجة آخر العام، والكل في تشوّفٍ وانتظار. وعقلُ نبيل مشغولٌ بخطّطه للمستقبل مع نانسي؛ فتارةً يتحیل أنه قد حظي بعمل في القاهرة يؤهّله للتقدّم لخطبة حبيبته، وتارةً أخرى يصطدم بواقع أنه يحتاج إلى عملٍ ذي دخلٍ كبيرٍ يمكنه من الإنفاق على الزواج.

وتوافدت شلة الأصدقاء؛ سامي وحسيب وهيب وزملاء آخرون من المعارف. وقام الجميع وتوجّهوا إلى القسم، فإذا بعم علي وحوله ساعيان آخران، وهو يعلّق صفحاتٍ كثيرةً داخل اللوح المغطّى بالزجاج ثم يُغلّقه وينتظر إلى جواره هو وزميلاه. وهُرع الجميع إلى اللوحة وعيونهم تكاد تخرُج من مكمّنها تلهُفاً على رؤية مصيرهم. وإن كان سامي قلقاً من السّاعة المنتشرين حولهم، وما يطلبون من حلاوة النتيجة دون تمييز بين مَنْ نجح ومَنْ رسب، ينقلب إليه نبيل بوجهٍ مشرق وفرحٍ طاغٍ ليهتف به: مبروك. لقد نجحنا. وقبل أن ينتهي من عناقه ينقّض عليهما عم علي بنفسه وقد تأكّد من النجاح، فيدّس ماهر يده في جيبه ولا يجد من الفكّة غير ريالٍ فضي، فيدّسه في يد عم علي الذي يسعدّ به، ويقول مبروك وهو يضعه في جيب جلابه. وكأنما اعتبر نبيل أن الريال يكفي لهما هما الاثنين، فأخذ بيده واتخذاً ركناً من القاعة ينتظران زملاءهما.

– هل رأيتَ نتيجةً وهيب؟

– لا، رأيتُ اسمي واسمك واسم نانسي فخرجتُ من الزحمة.

– وما تقديراتنا؟

- أنا وأنت جيد. نانسي جيد جدًا.

- شفت شريفة؟

- لا.

كان نبيل يشعر ببعض القلق المشوب بالغضب؛ لأن نانسي تفوّقت عليه، ولكنه شعر بأن هذا لا يمكن أن يغيّر شيئاً في علاقتهما وخططهما للزواج.

وكانت مفاجأة النتيجة أن سامر قد أحرز جيد جدًا، وقد سرّرت لذلك غاية السرور، وهنّأته من صميم قلبي، وكنتُ صادقاً في ذلك؛ إذ كنتُ أعلم حق العلم مدى ثقافته ورحابة معلوماته وقراءاته؛ وكان يزورني في شقة محمد شكري كل يوم تقريباً في السنتين الأخيرتين. وانشغلنا طوال أغسطس وسبتمبر في التقديم للوظائف وإجراء الاختبارات والمقابلات. ولم يكن نظام التوظيف للقوى العاملة قد صدر بعدُ، فكان علينا الاعتماد، وحسب، على إعلانات الوظائف. وتركّزت تقديماتي في الجهات التالية: مترجم بالمصانع الحربية؛ مضيف أرضي بشركة مصر للطيران؛ عضو فني بوزارة التربية والتعليم المركزية بالقاهرة. وقد تقدّمتُ أيضاً للعمل مدرساً ثانوياً في وزارة التربية والتعليم على أمل أن يجيء تعييني في القاهرة أو الجيزة، ولكن جاء التعيين في مدينة دمنهور فصرفتُ النظر عنها.

وذهبتُ لاختبار المقابلة لوظيفة مصر للطيران مع صديقي إبراهيم، وكان המתحنون من الضباط الذين انقلبوا مدنيين. وملأنا استمارات المعلومات الخاصة، بما فيها أسماء الأقارب، فكتبْتُ أسماء أقاربي وجلّهم من الضباط؛ إما في البوليس أو الجيش. واصطفّفنا أمام اللجنة لتختار على أساس الهيئة أولاً، ورأيتُ رئيس اللجنة يتجاوزني ببصره إلى مَنْ بعدي، ولكن بعد أن وصل إلى آخر المصطفّين، عاد ببصره واختارني. وفي المقابلة سألوني بعض الأسئلة عن معلوماتي عن عمل المضيف الأرضي، وكنتُ قد عرفتُ طرفاً منها من صديقي حلمي جرجس، الذي انتقل للعمل في البنك الأهلي فرع المطار. وكانت استثمارتي أمام أعضاء اللجنة، ولا بُد أنهم رأوا الأسماء التي دوّنتها فيها؛ فقد وجدتُ آخر الأمر أنني ضمن عددٍ قليل ممن نجحوا في الاختبار، وتم اختيارهم للالتحاق بالوظيفة. وقد مضيتُ قدماً في إكمال تلك الإجراءات رغم عدم اقتناعي بتناسُب هذا العمل معي؛ فقد كان بنظام النوبات shifts وسيكون صعباً معه أن أواصل أيّ دراسات عليا. وفي انتظار نتيجة الوزارة المركزية، أدّيتُ الكشف الطبي لوظيفة الطيران، ودفعتُ تأميناً مطلوباً قدره خمسون جنيهاً، ولكن حين حان الوقت لتفصيل زي العمل، اليونيفورم، تهرّبتُ

من ذلك، وما ظلت فيه حتى لا أضطرّ بعد ذلك إلى دفع ثمن البذلة لو أنني اعتذرتُ عن عدم قبول الوظيفة. وظهر بعد ذلك أن وظيفة المصانع الحربية — رغم مرتبها الكبير — ليست ثابتة، فاستبعدتها هي الأخرى. وفي يوم فُوجئتُ بأحد السعاة يطرق باب المنزل ومعه خطابٌ بقبولي في وظيفة العضو الفني بوزارة التربية والتعليم المركزية. ونزل ذلك بردًا وسلامًا على قلبي؛ فقد كان مقرّها في وسط القاهرة، وهو ما يناسبني تمامًا. وكنتُ قد خلّصتُ إلى أن أكثر ما يناسبني هو وظيفةٌ مكتبية وإن في الكادر الجامعي، يكون عملها من الثامنة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر، وهو ما يُتيح لي وقتًا مناسبًا بعد ذلك للدراسة والقراءة والكتابة، ناهجًا في ذلك نهج ت. س. إليوت حين التحق بوظيفة كتابية في أحد البنوك، بينما كان يعمل في تدبيج قصائده العظيمة. وكذلك مثال أستاذنا نجيب محفوظ الذي كتب رواياته وهو موظّف في وزارة الأوقاف.

ولما كنتُ قد استقررتُ على اتخاذ الفن والثقافة والكتابة حياةً لي، فقد سألتُ يومًا محمد عناني عن السبيل إلى إتقان اللغة العربية إتقانًا تامًا؛ حيث إنها ستكون الوسيط الذي نستخدمه دومًا، سواء في الكتابة أو الترجمة أو في المقارنات الأدبية، وكان جواب عناني قاطعًا: القرآن الكريم. ووعيتُ هذه النصيحة جيدًا؛ فقد كنتُ أعرف مدى تضلّعه في اللغة العربية واستشهاده دائماً بآياتٍ من القرآن الكريم. وكان عناني قد بدأ يُترجم كتبًا للنشر؛ فقد تعاقدوا معه على ترجمة عددٍ كامل من سلسلة «على مائدة المعرفة» التي كانت تصدر آنذاك. كما تعاوّن مع الدكتور مجدي وهبة في ترجمة كتاب «درايدن والشعر المسرحي». وبدأ في ذلك العهد خروجي معه كثيرًا، وجلوسنا في الكازينوهات النهرية الهادئة؛ حيث كان أحيانًا يعكّف على الترجمة بينما أنا أقرأ أحد الكتب، أو كان يُملي عليّ ترجمته الفورية وأنا أكتبها. وكنتُ أشعرُ بسعادةٍ بالغة في تلك اللقاءات بما كنتُ أستمع به من المناقشات معه في شتى المواضيع، ومن إعجابي بجمال اللغة التي يستخدمها في ترجمته، والتي كنتُ أستفيد منها أشد استفادة.

وشرعتُ في إتمام أوراقِي للالتحاق بعمل الوزارة، فبدأتُ بسحب أوراقِي ومبلغ التأمين من شركة مصر للطيران، وقد لاقيتُ صعوبةً شديدة في ذلك نتيجة الروتين والزحام في مقر الشركة. وكتبْتُ طلب الاستقالة بسبب رغبتِي في الالتحاق بالدراسات العليا، وهو ما لا يتفق مع مواعيد العمل بالشركة. وأخيرًا، أفلحتُ في الحصول على الموافقة على الاستقالة، وعلى استرداد أوراقِي ومبلغ التأمين. وفي نفس الوقت، أدّيتُ الكشف الطبي اللازم لوظيفة الوزارة المركزية، وبقيتُ في انتظار إتمام أوراقِي هناك لبدء العمل.

الوظيفة

أتممت أوراقى اللازمة للوزارة، وطاردتُ ورقةَ نتيجة الكشف الطبي التي تاهت في أروقة وزارة التربية والتعليم، وحين سلّمتُها أخيراً إلى إدارة شئون العاملين في الوزارة المركزية، وجّهتني الموظفة إلى الذهاب لاستلام عملي بالدور السابع في إدارة العلاقات الثقافية الخارجية. وكان ذلك يوم ١٦ أكتوبر ١٩٦١م.

كنا ما نزال في أعقاب مأساة انفصال سوريا عن الوحدة مع مصر، وكانت مصر تُحاول التعايش مع الواقع الجديد، وكانت تلك الواقعة ذات أثرٍ شديدٍ في النفوس؛ فقد كانت أول مرة يلقى نظام عبد الناصر مثل هذا التمرّد عليه وعلى سياساته. وخرج الرئيس في التلفزيون بعد تسليمه بالانفصال يُحاول حصر الضرر بأن أعلن في جديّة صارمة: «لقد دقّت ساعة العمل الثوري»، حتى إن والدتي قد فوجئت بهذه النبذة، وظنّت أن شيئاً خطيراً قد وقع، وأبدت خشيتَها أن تكون هناك حربٌ وشيكة! وتلقّفت آلاتُ الإعلام ذلك البيان، وعمَلت كل ما يمكن حتى يعود الحال كما كان عليه قبل ذلك التمرّد الخطير، كأنما لم يكن هناك سببٌ له أو للتذمّر والشكوى. أما أنا، فلما كنتُ قد ركّزتُ حياتي في أمور الفكر والأدب والفن، فإنني لم أنخرط في الحياة السياسية بأي شكل رسمي، بل اقتصر الأمر معي ومعها أن أكون شاهداً على ما يحدث، وأن أحصل على أكبر قدر من المعلومات عن كل ما يحدث كيما أستطيع أن أحكم حكماً صحيحاً على ما يمر بنا من وقائع وأحداث.

وكانت الوظيفة التي قبلتها مناسبةً تماماً لما كنتُ أريد. وقد جرى قبول المتقدمين لهذه الوظيفة بطريقةٍ أعتقد أنها لم تحدث من قبل ولا من بعد؛ إذ تم الاختيار بين المتقدمين من واقع مجموع درجاتهم في شهادة الليسانس؛ ولهذا وجدتُ نفسي في وسط دفعةٍ من المقبولين معظمهم حائز على درجة جيد جداً. وكانت وزارة التربية والتعليم

المركزية قد تغيّرت بعد الانفصال السوري، وأصبحت وزارة التعليم العالي المصرية. وحين ذهبتُ إلى الإدارة التي عيّنوني بها، وجدتُ مكاناً أنيقاً نظيفاً، وأدخلوني إلى غرفة مدير الإدارة، الأستاذ عبد المجيد مصطفى، فرحّب بي وسألني عن مؤهلاتي، وقال لي إنني سألتحق بقسم «أوروبا وأمريكا والمهجر» بالإدارة. وجاء رئيس القسم، «الدكتور» عبد الكريم أحمد، واصطحبني معه إلى القسم. وكانت هناك غرفةً مستقلة لرئيس القسم، وإلى جوارها غرفة الأعضاء، وبها الأستاذ علي فهمي، واتخذتُ أنا أحد المكتبين الخاليين بالغرفة.

وكان العمل كما كنتُ أرغب وأتمنى؛ فمواقفته من الثامنة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر، وبعد ذلك يصبح اليوم لي. ومن حسن الحظ أن جاء العمل في الحقل الثقافي أيضاً، ويتمثل في الإشراف على علاقات مصر الثقافية بدول العالم. والإدارة مقسّمة حسب قطاعات الدول المختلفة؛ قسم الوطن العربي، قسم آسيا، قسم أفريقيا، قسم أوروبا وأمريكا والمهجر، وقسم لأعمال السكرتارية. وكنا نقوم بإعداد ملف عن كل دولة، يحتوي على جميع المعلومات عنها، وعن حجم علاقاتنا الثقافية بها. وكنا نتراسل أيضاً مع مكاتبنا ومراكزنا الثقافية في الخارج، والتي كانت في أوج ازدهارها في ذلك الوقت. وكان علي فهمي دارساً للغة الفرنسية ويُشرف على دول أوروبا، وأسندوا لي دول أمريكا الشمالية ودول أوروبا الناطقة بالإنجليزية. وبعد أيام وصل الموظف الجديد، «الدكتور» إبراهيم شحاتة، خريج قسم التاريخ، جامعة الإسكندرية، بتقدير جيد جداً، وأشرف على دول أمريكا اللاتينية، وهي ما كانوا يقصدونه بمصطلح «المهجر».

ومن بين من التحق بالإدارة معنا من الموظّفين الجُدّد، عصمت عبد المطلب، خريج الألسن، قسم اللغة الإسبانية، الذي توجّه لأداء الخدمة العسكرية فور تعيينه؛ و«الدكتور» السعيد بدوي، خريج قسم جغرافيا، الذي التحق بقسم أفريقيا. وكان من الطبيعي أن تنشأ صداقةً وثيقة بيني وبين إبراهيم شحاتة والسعيد بدوي.

كانت الأمور ما تزال على نضارتها في القاهرة، رغم نكسة الانفصال السوري. كانت الطرق نظيفة، والخدمات العامة معقولة باستثناء المواصلات العامة، والآمال معقودة على المشروع القومي الذي تقدّمه الثورة في صورة جمال عبد الناصر. وكان العمل الحكومي جاداً، والمبنى الذي نعمل فيه نظيفاً مهندياً، وكل من فيه يعرف دوره بالتحديد. وانتظمت حياتي كما كنت أرسم لها؛ أخرج من المنزل حوالي الساعة صباحاً، وأبحث عن أوتوبيس يحملني إلى أقرب نقطة من شارع المبتديان. وقبل دخولي إلى مبنى الوزارة، أشترى ما

أريد من الدوريات من بائع صحفٍ قريب، بالإضافة إلى الأهرام، وكان سعره قرش صاغ واحدًا. وعند الدخول إلى الوزارة، أنْتَظَم في طابور الموظَّفين لأستقل المصعد الكهربائي، وأتوجَّه إلى مكنتي. وبعد التحية والأحاديث المعتادة، أطلع الأهرام بسرعةٍ تاركًا قراءته الكاملة واستعراض ما ابتعته من كتبٍ دوريةٍ إلى حين العودة إلى المنزل. وبدأ العمل، مع تناول شاي الصباح أو قهوتي، وما تيسَّر من مشروباتٍ بعد ذلك، ونستقبل من يزورنا من زملاء العمل في الأقسام الأخرى. وفي الثانية بعد الظهر، ينتهي موعد الدوام، ونخرج. وتراوح ما أفعل بعد الخروج من الوزارة، ما بين المشي إلى وسط البلد؛ حيث أتناول بعض الساندويتشات أو وجبةً غداءٍ في مقهى «ريش» أو غيره، ثم أجلس في جروبي سليمان. وبعدها أتوجَّه إلى سور الأزيكية للاطلاع وشراء ما أجدُه نافعًا لي، ثم أستقل الأوتوبيس من العتبة إلى العجوزة. وأحيانًا أخرى، أذهب لحضور فيلم في السينما في حفلة ٣-٦. وأحيانًا يكون عندي موعد مع صديق أو أكثر، فنأكل في أحد المطاعم الرخيصة، ونقضي بقية اليوم في كافيتيريا، أو نذهب إلى السينما. كان الزمان رخيا؛ فرغم بدء مرتبي بمبلغ ١٢ جنيهاً لمدة ثلاثة أشهر، زاد بعدها إلى حوالي ١٦ جنيهاً، كانت المصروفات محدودة، والكتب الدورية تبدأ من قرشين (المكتبة الثقافية) إلى عشرة قروش. وكنتُ أمر على سور الأزيكية كل يوم تقريباً، وقد عرَفني الباعة هناك منذ أيام الدراسة، فأحمل منه ما أجدُه مناسباً لقراءتي التي أخذت تتوسع منذ هذه الفترة، وتأخذ منحي متنوعاً جديداً. بدأتُ أركِّز على إجادة اللغة العربية، نحوًا وبلاغَةً وفهمًا، فطالعتُ نسخة القرآن الكريم الموجودة بالمنزل، ولكنها لم تشفِ غليلي في التفسير، فاشتريتُ مجلِّد «المصحف المفسر» لفريد وجدي من دار الشعب، وتفسير الجلالين من مكتبات الأزهر. وبدأتُ بمعاني الكلمات التي لا أعرفها، ثم الشرح الميسر الرائع لفريد وجدي. وأحسستُ أنني أمضي قدماً في فهم القرآن وبلاغته وصوره ومعانيه، ثم حقَّقتُ أمنيَّةً كانت تراودني منذ درسنا الشعر العربي في الكلية، فاشتريتُ ديوان المتنبي كاملاً في أربعة أجزاءٍ كبيرة بشرح العُكْبَرِي، وقرَّرتُ دراسته وليس مجرد قراءته؛ فالشرح كان يحتوي على الإعراب والمعاني وكل شيء. وبدأتُ في تنفيذ الخطة التي أسميتها «خطة إليوت» بأن أخصَّص جانباً من عملي للقراءة، ولم أجد في ذلك ما يجعله «سرقة لوقت الحكومة»؛ فقد كنتُ أحرص على أداء عملي بدقة وسرعةٍ جعلت حصيلته ما أقوم به أكثر بكثير مما هو مطلوب، أو مما يقوم به الآخرون. كما أنني كنتُ أقرأ ما يفيد عملي في كتابة التقارير الثقافية بلغةٍ عربيةٍ سليمة دون أخطاء، وذلك بدلاً من قضاء الوقت في الدردشة والضحك وتناقل الأخبار.

وتوثقت علاقتي بإبراهيم شحاتة والسعيد بدوي، وكنتُ أحياناً أخرج مع السعيد في الإجازات. أما إبراهيم فكان يقضي أي إجازة في الإسكندرية. كان جو العمل رائعاً؛ وسرعان ما أدركتُ الهدف الأسمى لكل من يعمل في هذه الإدارة، وهو الانتداب للعمل في المراكز والمكاتب الثقافية لمصر في الخارج، وهي تتبّع وزارتنا، بما يعنيه ذلك من مزايا عديدة أهمُّها المرتَّب الضخم. وكانت العقبة هي أن الانتداب للعمل بالخارج لا يتم إلا عبْر «واسطة» من الحجم الكبير، بغض النظر عن مؤهلات الموظف وعمله، وكثيراً ما كان يسافر للعمل هناك موظفون من وزاراتٍ أخرى غير التعليم العالي.

ومنذ البداية، كان ملجئي في حياة الأدب والفن هو حبل النجاة من الانغماس في «حياة القطيع» كما كنتُ أسميها أنا وجماعة أصدقائي. وبالفعل، اعتبرتُ نفسي فيما يشبه جبل الأولب، أطل من علٍ على صراعات الثراء والجاه، لا يعنيني منها شيء، ولا أطمع في أي جانبٍ منها، ولا يهمني من يحرز شيئاً من هذا المتاع المبتذل، ووضعتُ تحت زجاج مكتبي ورقةً دوّنتُ فيها ما ذكره توفيق الحكيم في نهاية كتابه الأسر «زهرة العمر» الذي وقعتُ تحت سطوته منذ ذلك الوقت وحتى الآن. وكانت الفقرة التي تقع تحت بصري دائماً تقول:

«إني أومن بأبولون ... أومن بأبولون إله الفن الذي عفرتُ جبيني أعواماً في تراب هيكله ... إنه ليعلم كم جاهدتُ من أجله وكم كافحتُ وناضلتُ وكددتُ باسمه أخوض المعركة الكبرى وأنازل كل مجتمع، وكل حياة، وكل عقبة تحول بيني وبين فني الذي منحته زهرة أيامي التي لن تعود ...»

وفي الجهة المقابلة، وضعتُ الأوتوجراف الذي كتبه لي الدكتور رشاد رشدي وبه:

Be true to yourself, always

كان همي كله هو الابتعاد عن «التقليدية» في كل أشكالها، وأن أخطُ لنفسي حياةً مختلفة عن حياة «القطيع»، فإذا كانت آمال الجميع تتركز في المال والوجاهة الاجتماعية، فأنا لا أسعى إلى أي شيءٍ من هذا، بل إن مسعاي هو المعرفة والفن، وتحصيل ذلك بكل وسعي. وقد انتقيتُ وظيفةً متواضعةً محدّدة الوقت والجهد، كما فعل ت. س. إليوت ونجيب محفوظ من قبل، حتى أفرغَ للقراءة والكتابة. ولم أكن أحسد أي شخصٍ نال وجاهة أو مالاً، ولا ألقىتُ بالاً لمقارناتٍ أسمعها بيني وبين غيري؛ فلم يكن يخطرُ على بالي أصلاً أيُّ من هاته الأمور. وكنتُ أأخذُ لنفسي مقياساً حاداً بالاً أخون مبادئني بأي شكلٍ

من الأشكال ولا بأي ثمن، وأن أقف إلى جانب الحق في أي صورة من صورهِ، وإلى جانب المظلوم، ومساندة الأضعف ما دام على حق. وقد التزمتُ بذلك في كل الظروف والأحوال، مما عرّضني لكثيرٍ من الأزمات والمخاطر التي نالت أحياناً من حقوقي وإن لم تنل من عزمي.

وتنوّعت قراءاتي في تلك الفترة، وامتدّت لتعبرُ مجال الأدب لتشمل الدراسات التاريخية والفلسفية والفكرية. وكان من أسهم في إدخال هذا التنوع في كتبي التي أقرؤها هو أحمد السودة، الذي كان يحب تلك الموضوعات، ولا يقرأ القصة والرواية إلا نادراً. كنتُ أعتبر نفسي أديباً يقرأ عن الأدب ويكتب عن الأدب، فتغيّرتُ فكري تماماً، ووجدتُ أن الثقافة الكلية تتطلب الإحاطة بأنواع الفكر المختلفة. وجذبني ما كان يقرؤه أحمد السودة، وكانت لنا جولاتٌ عديدة في مكتبات القاهرة، خاصة مكتبة النهضة ومكتبة الأنجلو. واشتريتُ قصة الفلسفة اليونانية في مجلد، وقصة الفلسفة الحديثة في مجلدين، وهي عبارة عن تعريبٍ لكتاب ويل ديورانت عن قصة الفلسفة. وأقبلتُ على الكتب الثلاثة أستوعبها، وأعلّق في هوامشها. وأعجبني هيجل، رغم صعوبته، وشغفتُ ببركلي وإنكاره كل ما يخرج عن دائرة الحواس. أما شوبنهاور فقد كان مثلاً يُحتذى لي بدعوته إلى نبذ الرغبات؛ ولذلك اقتنيتُ كتاب عبد الرحمن بدوي عن شوبنهاور وفهمتُ منه ما فهمتُ، تماماً مثل كتاب بدوي «الزمان الوجودي»، وملزمة «هل يمكن قيام أخلاق وجودية؟». بيد أن عبد الرحمن بدوي بدا لي في ضوءٍ مختلف في كتابه البديع «الحر والنور» الذي قرأته مراراً، وطفّتُ معه فيه في مغاني لبنان وفرنسا وألمانيا وإسبانيا، ومثّل لي الكتاب في صورة النثر الشعري ما مثّلته لي قصائد علي محمود طه الرومانسية وبعض مقدّماتها الحاملة، وكنتُ قد اشتريتُ أعماله الكاملة التي صدرت في لبنان، واستمتعتُ بها وبقراءتها مع أحمد السودة.

وبدأتُ أيضاً في دراسة التاريخ. وردّدتُ مع العقاد قوله:

ومن وعى التاريخ في سرِّهِ أضاف أعماراً إلى عُمرهِ

واهتديتُ إلى موجز تاريخ العالم من تأليف هـ. ج. ويلز، ثم اشتريتُ ترجمة جاويد الرائعة لموجز تاريخ الإنسانية في أربعة أجزاء لنفس المؤلف. وكان كل ذلك مقدمةً لقراءة السّفر الكبير تاريخ الحضارة لـ «ويل ديورانت»، وكانت ترجمته العربية قد بدأت تباعاً

صادرةً عن دار النهضة المصرية بأقلام جهابذة المترجمين. ولكن الترجمة لم تكتمل إلا في أواخر التسعينيات، بعد أن قرأتُ السفر كاملاً بالإنجليزية في مقامي بالعالم الجديد! وتوسَّعت دائرة أصدقائي الدائمين، كان هناك محمد عناني وأحمد السودة وعبد الفتاح العدوي في مجموعة، ثم إبراهيم محمد وعاطف مرسى، ثم الجماعة التي انتظمتنا وأطلقنا عليها جماعة «العُجول» (العُقُول)، وهي نبيل راغب ووهيب يوسف وحلمي جرجس وأنا. وكنا نجتمع عادةً مرة في الأسبوع مساءً في إحدى الكافيتيريات؛ حيث نأكل هناك شيئاً. ومع زيادة أوزان البعض، انطبق لقب العُجول خير انطباق!

كان عبد الفتاح العدوي يعمل بالإذاعة، ويكتب تعليقاتٍ سياسية رائعة لصوت العرب، وكان قارئاً ممتازاً كذلك، ومجاله الفكر السياسي أساساً، وقد كتب بعد ذلك عدة كتب في ذلك الموضوع. وكنتُ عادةً أجتمع معه وأحمد السودة ومحمد عناني في بهو فندق شبرد الفخيم أيام الجمعة؛ حيث نحتسي القهوة باللبن، وأحدنا يقرأ لنا المقالات الأدبية في أهرام الجمعة، ومنها مقالة الدكتور لويس عوض. وكان لويس عوض من أقرب الكُتَّاب إلى نفسي، وكنتُ أطلع أي كتابٍ جديد يظهر له بشغف، وأحضُر المحاضرات التي يُلقِيها في نادي الخريجين وغيره، وأُعجِب بلغته المميَّزة وطريقة عرضه وسعة ثقافته. وقد التقيتُ بالدكتور عوض حين طلب مني عبد الكريم أحمد رئيس القسم أن أكتب مذكرةً عن مسرحية «الراهب»، التي صدرت حديثاً للدكتور عوض، باقتراح إرسال نُسخٍ منها إلى مكتبات مراكزنا ومكاتبنا الثقافية بالخارج. وكنتُ قد ابتعتُ المسرحية فور صدورها وقرأتها، فكتبْتُ مذكرةً هي أقرب للمقالة النقدية الأدبية، وفوجئتُ بالمديح الجزيل الذي نلتهُ عليها من عبد الكريم أحمد، الذي أصبح هو الآخر من أكبر المعلِّمين لي بثقافته وطريقة سلوكه ومعيشته البعيدة عن نمط الموظَّفين التقليديين. وبعدها بأيام، طلبني الدكتور عبد الكريم إلى غرفته، فوجدتُ عنده الدكتور لويس عوض، الذي أراد أن يشكرني بنفسه على المذكرة التي أعددتُها عن مسرحيته.

وكان عام ١٩٦٢م حافلاً ثقافياً. كان المسرح أيامها هو «ديوان العرب»؛ فمسرحيات الحكيم ونعمان عاشور ويوسف إدريس وعبد الرحمن الشراقوي ورشاد رشدي تغزو المسارح. وأصدر الدكتور رشدي مجلة المسرح، وعمل فيها معه محمد عناني وسمير سرحان. وقد اجتذَبَ سمير عناني إليه، وجعلنا يكتبان معاً مسرحياتٍ للإذاعة والمسرح. وكتب عبد العزيز حمودة مسرحية بعنوان «البرواز الفاضي» وقرأتها في شقَّتِه بالجيزة وأعجبتُ بها. وكتب محمد عناني مسرحية «البر الغربي» وقُدِّمتُ فعلاً على مسرح الحكيم،

وحضرناها أكثر من مرة. وأصدر توفيق الحكيم مسرحيته «يا طالع الشجرة» ففجّر بها مسألة الحداثة واللامعقول في الأدب العربي. وحضرت ندوات عديدة لمناقشتها، إحداها في «نادي الخريجين» بوسط البلد. وكان الجو الثقافي يضجُّ بالتجديد والحداثة، فتم إنشاء مسرح الجيب ليقدّم المسرحيات الطليعية، واشتركتُ فيه، وشاهدتُ مسرحيات صمويل بيكيت وبريشت، ومنها المسرحية الشهيرة «في انتظار جودو» التي قرأتها وأعجبتُ بها كثيرًا. كانت حركة «الشبان الغاضبون» في أوجها أيضًا، بمسرحيات «جون أوزبورن» التي بدأها بمسرحيته «انظر وراءك في غضب». غير أنني لم أجد في المسرح ما يشفي غليلي من العمق التحليلي للعمل الفني، برغم متابعتي كلِّ ما كان يقدمه من أعمالٍ تجريبيةٍ حديثة، ومنها مسرحيات ألبير كامي وجان بول سارتر.

وتابعتُ بصورةٍ أكبر كتب كولن ويلسون التي تلت كتابه اللامنتمي؛ «سقوط الحضارة» — الذي تضمن مختصرًا لحياة المؤلف وجدتُ فيه تجربةً فريدةً في حياة من يبتغي الكتابة — و«الشعر والصوفية». وقد اكتشفتُ فيما بعدُ أن العناوين الأصلية لبعض تلك الكتب مختلفةٌ عن العناوين التي صدرت بها بالعربية. وقرأنا أيضًا ترجمات ثلاثية «دروب الحرية» لسارتر، وروايته القيّمة «الغثيان»، ورواية «لوليتا» لنابوكوف التي وجدناها يومًا لدى مكتبة مدبولي.

نابوكوف

ونابوكوف لا بد أن يُقرأ بالإنجليزية، لأن جَوْدَةَ أعماله تقوم — كما عرفتُ بعد ذلك — على أسلوبه النثري الإنجليزي، برغم أصله الروسي.

وقد وُلد فلاديمير نابوكوف في سان بطرسبرج في ٢٢ أبريل ١٨٩٩م، وعاش مع أسرته الميسورة الحال في روسيا حتى عام ١٩١٩م. واشترك والده في الحكومة التي تألّفت في بداية الثورة برئاسة كيرنسكي، ولكن بعد استيلاء السوفييت على السلطة، غادرت الأسرة البلاد إلى المنفى الأوروبي. ويحكي نابوكوف عن حياته في سان بطرسبرج، في مذكراته التي كتبها بعنوان «تكملي يا ذاكرتي» وصدرت عام ١٩٥١م، ثم صدرت طبعاتها المزيدة عام ١٩٦٧م؛ فقد توجّه نابوكوف بعد الرحيل من روسيا إلى إنجلترا؛ حيث التحق بجامعة كامبردج ليدرس بها الآداب الفرنسية والروسية، وتخرّج فيها عام ١٩٢٣م. وانضم بعد ذلك إلى أسرته في برلين التي كان بها جاليةً روسيةً كبيرة، وبدأ يكتب دراساتٍ أدبية تحت اسم «سيرين». وتزوَّج عام ١٩٢٥م من فيرا، وأنجبا ابنًا وحيدًا هو ديمتري. وقد

اضطُر نابوكوف وأسرته إلى الرحيل من ألمانيا بعد سيطرة النازيين على البلاد، فتوجَّهوا إلى باريس؛ حيث كتب أول رواية له باللغة الإنجليزية مباشرة، بعنوان «الحياة الحقيقية لسبستيان نايت». وقد شجَّع اختيار الكاتب للإنجليزية لغةً لإنتاجه المقبل على هجرته بعد ذلك إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٠م، في أعقاب سقوط فرنسا تحت الاحتلال النازي. وفي أمريكا، عمل مدرساً للأدب الروسي في كلية «ولزلي» بولاية ماساشوستس، ثم أستاذاً للآداب الروسية والأوروبية بجامعة كورنيل بنيويورك. واقتَرَن عمله الأكاديمي بنشاط أدبي واسع من التأليف والترجمة.

وأشهر أعمال نابوكوف روايته «لوليتا»، التي أدخلته إلى عالم الأضواء والثراء. وحين أنمَّها المؤلف عام ١٩٥٤م، لم يجد من ينشرها إلا مطبعة أولومبيا بباريس، فوافق دون أن يعلم أن تلك المطبعة متخصصة في نشر المطبوعات الإبروسية، وإن كانت معظم إصداراتها قد أصبحت الآن من الكلاسيكيات الأدبية. وقد قُوبِل صدورُها بالصمت، إلى أن ذكر الكاتب «جراهام جرين» أنها واحدة من أفضل ثلاث روايات لعام ١٩٥٦م، مما جعلها تقفز إلى مصافِّ الكتب الأكثر رواجاً، مما جعل نابوكوف يقرِّر الاستقالة من عمله بالجامعة والتفرُّغ للكتابة في مدينة مونترو بسويسرا. ومن أشهر أعماله الأخرى «بنين» و«نيران ذابلة» و«آدا» و«ضحك في الظلام». وقد تضمَّنت قائمة أفضل مائة رواية انتشاراً رواية «لوليتا» في المركز الرابع، ورواية «نيران ذابلة» في المركز الثالث والخمسين.

وأهم ما يركِّز عليه النقاد الجادُّون في رواية «لوليتا» لدفع اتهامها بصفة الإباحية، هو الأسلوب اللغوي الرفيع الذي كتَب به نابوكوف روايته، وامتلاؤها بالعديد من الإشارات والإحالات الأدبية والتاريخية، والبراعة الفنية التي رسَم بها شخصيتي همبرت ولوليتا بطلي الرواية، بالإضافة إلى العُور النفسي العميق الذي صوَّر به خواطر وأحلام وهواجس هاتين الشخصيتين الفريدتين.

ومن ناحية دراساتي الأكاديمية، تقدَّمت لدراسة الماجستير في قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة؛ حيث تخرَّجت، ودرستُ السنة التمهيديَّة في محاضرات للدكتور رشاد رشدي والدكتور أمين روفائيل. وكان معنا بالطبع الحاصلون على تقديرِي ممتاز وجيد جداً، ومنهم سمير سرحان الذي أصبح مُقرَّباً جداً من رئيس القسم، فتم انتدابه آخر الأمر معيَّداً بالقسم. وقد وجدتُ أنه لا أمل على الإطلاق في إمكانية الحصول على الماجستير لمن لم يُتَدَبَّوا للعمل بالقسم؛ لذلك لم أستكمل الدراسة هناك، وعزمتُ أن أتقدم لهذه الدراسة

في قسم اللغة الإنجليزية بأداب عين شمس، لعلّ وعسى. وقمتُ بذلك بالفعل، ووصلتُ إلى حد النجاح في السنة التمهيدية للماجستير، وبقي الأمر حول تسجيل رسالة مع أحد أساتذة القسم، وهو ما لم يكن إليه من سبيل كذلك.

وفي تلك الأثناء، قامت إدارتنا — العلاقات الثقافية الخارجية — بتنظيم الأعمال الإدارية لمؤتمر اللجنة الثقافية المنبثقة عن مؤتمر الدار البيضاء، وهو مؤتمر دولي لعدة دول أفريقية جرى الإعداد له بصورة لائقة مشرفة. وعملتُ أنا مع الأستاذ عبد الحكيم في لجنة الكتب والصحافة، وذهبتُ إلى المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون (أيامها) بالزمالك؛ حيث قابلتُ أحد المسؤولين الكبار من زملاء يوسف السباعي، فأذن لنا بعدد كبير من كُتب المجلس لتوزيعها على أعضاء المؤتمر. وأعدنا لفائف عديدة بالكتب التي تسلمناها، وكانت سعادة أعضاء الوفود بها عظيمة. وأذكر أنه كان من بين تلك الكُتب ترجمة كتاب قرية ظالمه للدكتور محمد كامل حسين بالإنجليزية، وترجمة رواية الرجل الذي فقد ظلّه لفتحي غانم.

وعُهد إلى الإدارة بعد ذلك بالإشراف على مؤتمر آخر عُقد في القاهرة، ولكنني كنتُ قد بدأتُ دراساتي المسائية في الماجستير وفي اللغة الإسبانية، فاعتذرتُ عن عدم المشاركة فيه رغم العائد المادي المجزي الذي نتلقاه مقابل ذلك. وجاءت دراستي للغة الإسبانية بعد انتقال زميلي إبراهيم شحاتة من الإدارة، وتسلمي الإشراف على دول أمريكا اللاتينية أيضًا. وكنتُ قد قرأتُ إعلانًا بطلب معيدين في تخصص التاريخ لجامعة القاهرة فرع الخرطوم، ووجدتُ تردّدًا من إبراهيم للتقدم للوظيفة، بتصوره أنها مهياةٌ لشخص بعينه، ولكنني خالفته في الرأي باعتبار أنه لن يخسر شيئاً من التقدم لها، وابتعتُ له «عرضحال الدمغة» وظللتُ معه حتى كتب الطلب وأرسله. وكانت المفاجأة أن تم قبوله للوظيفة، وانتقل من الوزارة إليها. وأذكر أنه في أول إجازة له بعد ذلك في مصر، زارني وأهداني قلم حبرٍ فاخرًا هديةً لي من الخارج.

وترتّب على عملي في دول أمريكا اللاتينية أفضلية دراستي للغة الإسبانية، فالتحقْتُ بالمركز الثقافي الإسباني بالقاهرة، وكان مقره آنذاك في ممر كوداك بوسط البلد. وأقبلتُ على الدراسة بهمة ونشاط. واللغة الإسبانية لغةٌ ثريةٌ رائعة، سهلة، وهي نافذةٌ فتحت لي أدبًا وثقافةً وفناً جديدًا زاخرًا بكل ثمينٍ وجميل. وبدأتُ أقتني كتبًا لتعليم الإسبانية، وبعض الكتب المبسطة للقراءة. وكان مركزانا الثقافيّان في إسبانيا وفي الأرجنتين يُرسلان لنا أحيانًا بعض المطبوعات الإسبانية، فتوفّر لديّ ترجماتٌ للأيام لطفه حسين، وقرية

ظالمة، وعدد من مسرحيات توفيق الحكيم. ووجدتُ على سور الأزبكية ترجمةً إسبانية لكليلة ودمنة، وكتابًا به مقتطفات من أعمال جبران خليل جبران. وقد طُفقتُ أَدْرَبُ في هذه الكتب على القراءة بالإسبانية بالاستعانة بالأصول العربية لها.

واتخذتُ عادة المشي إلى العمل في الصباح الباكر بعد أن ازدادت صعوبة المواصلات؛ فكنتُ أخرج من شارع الدري (الفردوس) بالعجوزة إلى شارع النيل العريض، وأعبرُ كوبري الجلاء، فكوبري قصر النيل، وأسير محاذيًا فندق شبرد فجاردن سيتي ومنها إلى شارع القصر العيني فالمبتديان حيث مبنى الوزارة، وقد تعودتُ تدريجيًا على أن أستذكر تصريف الأفعال الإسبانية في أثناء السير، وكذلك حفظ بعض الفقرات التي تُساعد على تنمية المعرفة باللغة.

وفي تلك المسيرات الصباحية، كنتُ أرى أحيانًا أستاذنا نجيب محفوظ يسير على مبعدة، وأحيانًا يدلفُ إلى إحدى العوامات الراسية في شارع النيل. وبدأتُ من هنا تردُّدي مع بعض الأصدقاء على ندوات الأستاذ التي كان يعقدها في المقهى بميدان الأوبرا، وإن كنتُ أبقي بعيدًا أسمع وأرى دون أن أختلط بأحدٍ من رواد الندوة، وكان معظمهم من أفراد الجيل الرائع، مستمتعًا بالنقاش وبحديث نجيب محفوظ الطلي. ونبعتُ في ذهني من هذه الظروف فكرة أول مقالٍ نقدي أكتبه، عن شخصية كمال عبد الجواد في الثلاثية المحفوظية، وتحليلها على ضوء نظرية كولن ولسون عن اللانتمية. وتبلورتُ الفكرة في أثناء عُطلة قضيتها مع نبيل ووهيب في الإسكندرية؛ حيث بلغتُ عدوى نجيب محفوظ إلى نبيل، فبدأ هو الآخر في تأليف كتابٍ كامل عنه. وكنا نلتقي بعد ذلك فنتبادل أخبار القراءة والتأليف والكتابة، وكان نبيل يحكي لنا في كل لقاءٍ عن الفصل الذي يكتب فيه، حتى اكتمل الكتاب ونجح في نشره بمثابرتة وجده وصبره العجيب، في عام ١٩٦٧م، عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر (آنذاك). وقد أصبح كتابه «قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ» من المراجع الأساسية المهمة عن أدب أستاذنا العظيم.

أما مقالِي فقد حَبَّرْتُهُ وأرسلتُ به إلى الدكتور سهيل إدريس لمجلة الآداب البيروتية التي يُصدرها؛ إذ وجدتُ أن النشر في المجلات المصرية يخضع للمعرفة والاتصالات، ولم أكن أحب أن أطلب شيئًا يتعلق بالنشر ممن أعرفهم، بل فضلتُ دائمًا — وحتى الآن — أن أرسل أعمالي بالبريد حتى يكون للمجلة أو الدار الحرية الكاملة في نشرها من عدمه. ونشرتُ الآداب مقالِي في عدد يونيو ١٩٦٣م، بعنوان «كمال عبد الجواد اللانتمية»، وكان أول عملٍ أدبي يُنشر لي. وملأتني سعادة غامرة بنشره، خاصة في تلك المجلة الرفيعة

المستوى، ومن دون سابق معرفة لي بالمشرفين عليها. وقد أرسل لي الدكتور سهيل إدريس رسالة قصيرة يُرَحَّب فيها بمقالاتي، ومعها عددٌ من رواياته بإهداءٍ منه لي. وكانت هذه أولى خطواتي في عالم الكتابة الرحيب الخلاق. وابتعثت عدة أعدادٍ من المجلة التي بها مقالِي، أهديتُ بعضًا منها لأصدقائي، وعرضتُ المقال على البعض الآخر.

وأنتقل من حديث الأدب والنشر للحديث عن مجالٍ مختلف كان له أثرٌ أساسي على أبناء جيلي، وهي مشكلة الجنس والكبت الجنسي، فأقول إن العاطفة والمشاعر الحسية والعلاقات مع الفتيات كانت شاغلنا جميعًا، وكانت مشكلة الجنس هي أكبر مشاكلنا، وكل واحدٍ منا يلتمس حلولًا لها حسبما تتيح له ظروفه، وهي متعددةٌ بتعدد الخيال وقدراته. ومع كل هذا، ظل هذا الهاجس هو المسيطر علينا جميعًا بنسبٍ متفاوتة. كان البعض قد وجد حلولًا فردية لها، والآخر حلّها عن طريق صداقاتٍ مع وافدين عرب لهم شقتهم الخاصة التي يتردّد عليها أمثال «راء» وشوشو وغيرهما! أما الكثرة الغالبة منا فكانت في التماس معرفة أي دارٍ للبقاء يُمكن التردّد عليها في أمن وسلامة. أما صديقي إبراهيم فقد كانت له شقته بمصر الجديدة، التي كان يتردّد عليها بعضٌ من بائعات الهوى. وقد حاولنا مرة أن نستلقط صيدًا من حديقة الأزبكية، فقابلنا أحد الشبان الذي أقنعنا أنه يعمل في تلك «المهنة»، وأن لديه ما نطلب. وذهبنا معه في سيارة أجرة إلى العباسية، وطلب منا أن ننتظره في الشارع الرئيسي كي يذهب لإحضار الفتاة بعد أن حصل على خمسة جنيهات، ولكن إبراهيم أصر على الذهاب معه. وبقيتُ وحدي أتشغل بمشاهدة المحلات والمارة. ومضى وقتٌ طويل، إلى أن رأيت إبراهيم عائدًا، متهدّل الأذنين، وحده، متجهّمًا، فعرفت على الفور أنها كانت خدعةٌ وقعنا فيها. وشرح لي صديقي أن الرجل قاده وسط حوارٍ وأزقة، ثم أفلتت منه مارقًا يجري، ولما جرى إبراهيم وراءه هدّده بأنه سيُثير أهل الحطة ضده، ثم جرى واختفى تمامًا عنه. وهَوَّنتُ على إبراهيم الأمر، وأدركتُ كيف تَعْمَى البصيرة والعقل عن إدراك أوضاع الأمور حين تغلب الرغبة وتشتعل الغرائز؛ فقد كان كل شيءٍ في ذلك الرجل وما يقوله يشي بالخداع والمخاطلة حتى للأغبياء ومتوسّطي الذكاء، ولكنه خال علينا أنا وإبراهيم!

وهكذا كانت حدة المشكلة الجنسية بين أبناء جيلي. وتحضّرني إحدى الصور البشعة لأحد الأصدقاء، اعتاد التردّد على منزل بغيٍّ في حيٍّ شعبي، وكانت مشكلته معها هي الرائحة التي لا يتحمّلها لجسدها، حتى إنه فكّر في حلٍّ فريد، هو أن يضع في فتحتي أنفه قطنًا مُبلّلًا بماء الكولونيا أو العطر وهو معها! وقد انعكس هذا الحرمان العاطفي

والكبت الجنسي لدى جيلي بأكمله في ذلك الهوس بالجنس الذي نراه في كثير من كتابات أفرادها، على نحو أوضح بكثير مما نجده في كتابات الأجيال السابقة.

وأعود من هذا الحديث إلى حديث العمل في إدارتنا للعلاقات الثقافية، فأذكر أنه مرَّ بها شخصان متميزان، واحدٌ بعد الآخر؛ إذ كانا يقضيان فترة انتقال معنا إلى حين انتقالهما إلى الجامعة، بعد أن حصلنا على درجة الدكتوراه من إسبانيا؛ فأولاً، وفد إلينا الدكتور أحمد شعراوي، المتخصص في التاريخ، وهو شخصية مثقفة جذابة، هادئ الطبع، طليُّ الحديث، واسع المعرفة، وكان متزوجاً من ألمانية تخصصت في الدراسات العربية في إسبانيا؛ حيث التقاها هناك، وحضرت معه إلى القاهرة بعد انتهاء بعثته. ولما كنت أدرس الإسبانية، فقد وجدت فيه مَعِيناً لا ينضب من العون في المحادثة بتلك اللغة، والمعرفة بالأدب والحياة في إسبانيا. وكان هو أول من عرفت منه الشاعر الإسباني الرومانسي «جوستافو أدولفو بكر» الذي سيكون بعد ذلك أحد الشعراء المقربين إلى قلبي. وبعد تعيين الدكتور شعراوي في كلية البنات عين شمس، استمرت علاقتنا ولقاءاتنا، ولم تنقطع صلّتنا حتى عهد مَهْجَرِي النيويوركي.

والشخصية الثانية هي الدكتور الطاهر مكي، وكان عائداً أيضاً من إسبانيا بعد حصوله على الدكتوراه في الأدب، وكان صعيدياً صاحب نكتة وعارفاً بالأصول، وهو أكاديميٌّ بارع، انتدب بعد ذلك للعمل في بوجوتا عاصمة كولومبيا، ولكنه لم يسترح هناك، وعاد إلى مكانه في كلية دار العلوم التي تخرّج فيها. وكانت صلّتنا رقيقةً إلى أن انتدبت للعمل في إسبانيا، فتجددت علاقتنا؛ إذ كان يزور إسبانيا كثيراً إبّان عمله بعد ذلك في الجزائر، وكان صاحب فضلٍ في انتدابي لتدريس اللغة الإنجليزية في كلية دار العلوم، في الفترة التي عُدت فيها من إسبانيا.

وهكذا كانت صداقتي الأساسية عشية معرفتي بنشوى في عام ١٩٦٤م: محمد عناني، أحمد السودة، عبد الفتاح العدوي، أحمد البكري، أحمد ساهر، توفيق عبد الرحمن، إبراهيم محمد، علي كمال، عبادة كحيلة، ماهر شفيق، عاطف مرسي، أحمد شعراوي، نبيل راغب، وهيب يوسف، حلمي جرجس، السعيد بدوي. ولتوضيح بعض الأمور أذكر أنني تعرّفت على ساهر من بعض الأصدقاء المشتركين، وكان يدرّس في القسم ولكن بعدي بسنتين، وهو عرّفني بأحمد البكري زميله، الذي سافر بعد تخرّجه إلى العراق وعاد بعد سنة واحدة ومعه مسجّل صغير استمتعنا به في سماع تسجيلات فيروز وأم كلثوم وعبد الوهاب. وفي أحد الأيام، زارني أحمد البكري ولم يجدني، فترك

لي ورقة كتب فيها: «حضرتُ ولم أجِدك وكان معي علي صاحب لورانس.» وكانت بداية معرفتي بعلي كمال، تلك المعرفة التي فاقت بعد ذلك صِلتي بساهر وأحمد البكري نتيجة ظروف سفرهما. وعلي خريج قسمنا أيضًا ومن المهتمين بالكتب والقراءة والكتابة، ونَشَر مراجعاتٍ في مجلة «المجلة» وترجماتٍ كثيرةً في صحفٍ أخرى. وقد تخصصَّ في د. هـ. لورانس وأفكاره وكُتبه. وكان من المهتمين بالأغاني العربية والأجنبية، وحاز الكثير من الأسطوانات التي كانت نادرةً في تلك الأيام. وقد سافر علي عام ١٩٧٢م، معارًا إلى إذاعة اليابان في طوكيو، وأقام ما بين طوكيو والقاهرة حتى الآن، وهو مرجعٌ ثقة في أمور الترجمة، وتخصص أيضًا في متابعة الأفلام.

وكان علي كمال هو الذي عرّفني على ماهر شفيق فريد؛ إذ اصطحبه معه يومًا لزيارتي في غرفتي بشارع محمد شكري، وامتزجت كيميائياتنا على الفور، وتحدّثنا في أمور الأدب، وكان مُتخصّصًا في ت. س. إليوت، وامتدّت صِلتنا متينةً حتى الآن.

وزارةٌ جديدةٌ وعلاقةٌ عاصفة

في عام ١٩٦٤م، ذهبتُ في مهمة عمل إلى مجلس الأمة (مجلس الشعب فيما بعد)، حاملاً معي ملفاً عن علاقاتنا الثقافية مع الأرجنتين؛ حيث كان هناك وفدٌ برلماني من ذلك البلد يزور المجلس. ودخلتُ إلى حرم مجلس الأمة بصعوبةٍ شديدة بعد اتصالاتٍ عديدة، وتوجَّهتُ إلى إدارة العلاقات الخارجية به، فوجدتُ عدة مكاتب، واستقبلتني موظفةٌ كان يبدو أنها تنتظرني، فقدمتُ نفسي وأعطيتها الملف فأخذته شاكرة. وسألتها عن موعد الانتهاء منه، وأعطيتها اسمي وتليفون الإدارة كي تُبلغني متى يمكن أن آتي لتسلمه، ولكنها قالت إنه بما أنني قد حضرتُ لتسليمه لها، فإنها سوف تُعيده لي بنفسها بعد الانتهاء منه، خاصةً وأن الوزارة على بُعد خطواتٍ من مجلس الأمة. وتركتُ لها رقم غرفتي بالوزارة، وخرجتُ وقد تركتُ الفتاة أثراً عميقاً في نفسي. كانت تتمتع بجمالٍ فائقٍ هادئ، ذات بشرةٍ بيضاء تشوبها حمرةٌ رقيقة، وشعرها قصيرٌ عصريٌّ جميل، وأناقتها تتبدى في حسن الذوق في اختيار الألوان الجميلة. أما الرقة في الكلام والمعاملة فحدثٌ ولا حرج. وحتى اسمها موسيقيٌّ جميل، نشوى فريد، اسم قابل للشهرة!

وحملتُ طيفها وصوتها معي طوال أيام، إلى أن طلبتني يوماً بالتليفون لنتفق على موعدٍ تحضر فيه لتُعيد لي الملف. وحين جاءت، استضيفتها وطلبتُ لها مشروباً، فكان لا بد وأن نتجاذب أطراف الحديث كما يقولون. وعرفتُ أنها خريجة قسم اللغة الإنجليزية مثلي، ولكن من جامعة عين شمس دفعة ١٩٦٣م، وأنها تعمل بصورةٍ مؤقتة في مجلس الشعب؛ حيث إنه من المفروض أن تنتقل للعمل بالتلفزيون متى انتهت إجراءات نقلها. وجرتنا الكلام إلى القراءة والكتب، فعرفتُ أنها تُحب قراءة الروايات، فعرضتُ عليها أن أعيرها بعض روايات همنجواي، ولم تكن قد درسته في الكلية. وكنتُ أنا قد جمعتُ معظم أعماله بوصفه من أحب الكُتَّاب لي. وذكرتُ لها قصة العجوز والبحر، واتفقنا على أن

أحضرها لها في الأسبوع التالي، على أن نلتقي عند الخروج من العمل أمام مجلس الأمة، في الساعة الثانية وعشر دقائق.

هكذا بدأ موضوع نشوى. وبالطبع، تطوّر اللقاء إلى دعوة لتناول مشروب في شرفة فندق سميراميس القريب. وتكرّرت اللقاءات، وبدأت تطول، ويتطور الحديث إلى الأمور الحياتية الخاصة، فالأمور الشخصية. ووجدت نفسي بالتدريج واقعةً في حبها. ورغم أنها كانت تتواصل معي، لم أكن واثقاً هل تُبادلني مشاعري أم لا.

وجاءت هذه العلاقة مواكبةً للأنشطة العديدة التي أقوم بها في ذلك الوقت. كنتُ أطلع ديوان المتنبي في المكتب، وأحضر دروس اللغة الإسبانية بالمركز الإسباني، وأقرأ في المصحف الميسر لفريد وجدي في المنزل ليلاً. عرفتُ معاني الكثير من الكلمات القرآنية التي كنتُ أجهلها؛ وكان مقصدي الأساسي هو ارتشاف البلاغة العربية التي يحتويها القرآن؛ لذلك كان طبيعياً أن تكون الصور البديعية الحية هي أول ما يلفت نظري: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَّطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾. أو الصور الدرامية المسرحية، مثلما جاء في شأن أصحاب الجنة: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَنْتُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ * وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾. صدق الله العظيم. وذهلتُ من هذا الأسلوب المُعْجِز في البيان، وفي التصوير، وفي الإيجاز في التعبير، والتنقل السريع بين المشاهد. وتعوّدتُ أن أكتب بعض الآيات في ورقٍ صغير، وأحفظها عن ظهر قلب، غالباً وأنا ذاهب إلى العمل سيراً في الصباح الباكر.

ورآني الدكتور شعراوي أطلع في المصحف، ففتحه على سورة يوسف وقرأ لي بعض آياتها، وطفقنا نتعجب من روعة الوصف واللغة المُعْجِزِينَ. ومن ناحيةٍ أخرى، كان الدكتور شعراوي أكثر من يحدّثني عن حياته في إسبانيا أيام دراسته هناك، ويحاول أن يجعلني أحادثه ببعض العبارات الإسبانية المتداولة، تدريباً لي على الحديث بالإسبانية. وكان هو أول من سمعتُ منه — كما ذكرتُ سابقاً — عن الشاعر الإسباني جوستافو أدولفو بَكر، وكان معجباً بشعره الرومانسي الجميل. وكانت نتيجة حديثه لي عن إسبانيا أن جعلني في شوق لزيارة تلك البلاد الجميلة المليئة بالآثار العربية الإسلامية. وكنتُ

قد ضُمَّتُ الشاعر الإسباني غرسيه لوركا ضمن المؤلفين الذين يشكّلون دائرة اهتمامي الأولى، وكان قد اشتهر في العالم العربي بعد مصرعه غداة الحرب الأهلية الإسبانية، وبسبب الموضوعات الأندلسية في شعره ومسرحياته، ولكن كان من الصعب جدًّا العثور على أي كتاب له أو عنه في مصر.

وفي خُصْم هذا النشاط الثقافي والفني والعاطفي، حدث أمرٌ قلب حياتنا العملية رأسًا على عقب؛ ففي خريف عام ١٩٦٤م، جاءت وزارة جديدة برئاسة علي صبري، وأنشأت وزارة جديدة مستقلة باسم «وزارة العلاقات الثقافية الخارجية»، وتم تعيين الدكتور حسين خلاف، أستاذ المالية العامة، وزيرًا لها. وبالطبع اغتَبَطْنَا جدًّا؛ فقد كان ذلك اعترافًا وتتويجًا لجهودنا ونشاطنا في مجال العلاقات الثقافية مع مختلف دول العالم، وكانت إدارتنا هي نواة الوزارة الجديدة. وبدأت الصراعات والاتصالات العلنية والخفية تعمل عملها لتُحدّد من سيذهب إلى الوزارة الجديدة التي كان الكل يريدها، ومن سيبقى في وزارة التعليم العالي. وظهّر منذ البداية أن رئيس قسمنا عبد الكريم أحمد هو صاحب النفوذ في ذلك الموضوع، ربما لصلته بالدكتور خلاف؛ ولهذا كنْتُ مطمئنًا إلى أنني سأكون معه إن هنا أو هناك؛ فقد كانت علاقتنا قد توثّقت إلى حدٍّ عميق، بما بدا له من اهتماماتي الثقافية واللغوية. وبدأت الاستعدادات لنقل إدارتنا إلى الوزارة الجديدة، مع استبعاد موظّفين بعينهم، منهم زميلنا «محسن نبيل» الذي توسّط لدى من يعرفهم ونُقل إلى الوزارة وإن لم يلتحق بإدارتنا، وسيكون له دورٌ لاحقٌ في إقامة امتحان للعاملين الثقافيين بالخارج بعد ذلك. وكان أهم حدثٍ في ذلك الأمر، استبعاد وكيل الوزارة لشؤون العلاقات الثقافية الخارجية من الانتقال إلى الوزارة الجديدة. ولا عَجَب؛ فهو كان دومًا على علاقة سيئة بعبد الكريم أحمد. ورغم كل التفاؤل الذي صاحب إنشاء الوزارة الجديدة، وأحاديث منح الصفة الدبلوماسية للعاملين بها، فقد واکب ذلك إجراءً يتناقض كل التناقض مع إنشاء الوزارة، هو قرار رئيس الوزراء الجديد إلغاء مكاتبنا ومراكزنا الثقافية بالخارج لتوفير النفقات! وكان هذا يمثل صورةً واضحة لتضارب القرارات في ذلك الوقت نتيجة لتعدّد مراكز القوة والصراعات بينها، وهو ما أدّى بعد قليل إلى كارثة ١٩٦٧م.

ولم نبدأ في نقل المكاتب والأثاث والملفات إلا في ديسمبر ١٩٦٤م. وكانت أيام النقل «فوضوية»؛ فنحن نتنقل ما بين الوزارتين (وكانت الوزارة الجديدة في الدقي بالقرب من كوبري الجلاء) ونرى مكاتبنا على ظهور الحمالين، ثم ننتظرها في المبنى الجديد لنطمئن على وصولها سالمة. ومَرَّت أيام قضيناها في عُرف ومكاتب متفرقة، نُنجز العاجل

من الأعمال والمذكرات الضرورية، إلى أن وضحت خريطة الغرف، ووجدت نفسي في قسم التخطيط، أقوم تقريباً بنفس العمل الذي كنت أقوم به، من تخطيط العلاقات الثقافية مع دول أمريكا اللاتينية وإسبانيا والبرتغال. وكانت النية تتجه إلى تدعيم العلاقات مع تلك الدول، خاصة بعد عودة الدكتور محمود مكي، وكيل المعهد المصري بمدير، إلى مصر، وإشرافه العام على تلك العلاقات. ووجدت مكتبي في حُجرة صغيرة مع زميلي محمد وصلاح، برئاسة علي فهمي، الذي كان ملحقاً ثقافياً في اليونان، وعاد بعد قرار إغلاق المكاتب والمراكز الثقافية بالخارج. وبعد فترة التحقت بقسمنا إحدى خريجات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وعملت معي في نطاق أمريكا اللاتينية. وكان المطلوب منا إعداد «خطة خمسية» للعلاقات الثقافية مع كل دولة من دول العالم، كل قسم فيما يخصه. وكان العمل جاداً، نقوم به ليل نهار، رغم أنني أعددت مذكرة مُسَهبة لإعفائي من العمل المسائي بسبب الدراسات التي أقوم بها. وكنت قد التحقت بمعهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية، في قسم الدراسات الفلسطينية، وكان ذلك — بالإضافة إلى دراسة اللغة الإسبانية — مما يفيد العمل الذي أقوم به في الوزارة. ورغم التشديد الكامل بضرورة الوجود للعمل المسائي بالنسبة لكل الموظفين، تمكّن عبد الكريم أحمد من الحصول على موافقة وكيل الوزارة على هذا الاستثناء بالنسبة لي.

كانت دراستي بالمركز الإسباني قليلة الناتج؛ فالمدرسون في تلك الحقبة لم يكونوا متخصصين، معظمهم من موظفي السفارة الإداريين ومن الإسبان المقيمين في القاهرة، ويستخدمون إنجليزية سقيمة لنقل أفكارهم إلينا؛ ولذلك فقد اعتمدت على نفسي في تطوير دراستي للإسبانية. وكان من أهم الكتب التي وجدتُها في مكتبة شادي كتاب بنجوين الجميل، الذي يحتوي على قصائد مختارة للشاعر لوركا، النص الإسباني وبجواره الترجمة الإنجليزية. وكِدْتُ أحفظ معظم هذه القصائد في نصها الأصلي الإسباني من فُرط تكرار قراءتي لها، وكان منها قصائد القيثارة وأحبك يا أخضر والحرس المدني ومرثية مصارع الثيران سانشز مخيّاس. وبدأتُ في مخطّط ترجمة بعض هذه القصائد إلى العربية.

أما دراستي في معهد الدراسات العربية العالية فكانت مزدهرة. كانت الدراسة لمدة سنتين، يحصل الدارس بعدها على دبلوم عالٍ يساوي الماجستير مالياً. وكان يُدرّس لنا مجموعة رائعة من الأساتذة، بعضهم من الأقطار العربية الأخرى، وكنا ندرّس تاريخ القضية الفلسطينية، والأحزاب الإسرائيلية، والحضارة العربية، وعلاقات إسرائيل بأفريقيا؛ علاوةً على اللغتين الإنجليزية والعبرية. وكانت الدكتورة بثينة عبد الحميد هي من تُدرّسنا

الإنجليزية. وفي السنة الثانية، سألت عني؛ فقد كنتُ الحاصل على أعلى درجة في مادتها في السنة الأولى. وكنتُ قد حصلتُ على تقدير عام جيد جدًا في تلك السنة، ورجوتُ أن أستمِر على ذلك المستوى في العام الثاني والأخير. وكانت هناك شبه منافسة بيني وبين أحد زملاء الفلسطينيين العاملين بالإذاعة. ولمَّا عُرِف أنه قد حصل على ١٩ من ٢٠ في مادة القانون الدستوري الإسرائيلي التي كان يُدرّسها لنا الدكتور عبد الحميد متولي، لم يبقَ هناك شكٌّ في تفوّقه عليّ في تلك المادة، ولكن ... جاءت المفاجأة، وهي حصولي على ١٩ ونصف درجة فيها!

كانت أيامًا حافلةً بالعمل والدراسة والقراءة والحب والصدقة والنشاط الذي لا يَكل، والطموح الذي لا تحدّه حدود.

وقد أسهمتُ بمجهود أيضًا في دراسة اللغة العبرية بالمعهد، وتعاونتُ مع الأستاذ النجار الذي كان يُدرّس لنا هذه المادة؛ فقد كان معظم الزملاء يتشاغلون عن دراستها ويسخّرون منها، بينما وجدتها فرصةً لبدء دراسة هذه اللغة القريبة من اللغة العربية، وابتعتُ كتابًا لتعليمها، وقاموسًا عبريًا إنجليزيًا وبالعكس. وفي السنة الأولى، فاجأتُ الأستاذ النجار بأنّي قد ترجمتُ الفقرة التي أعطاهَا لنا، وعملتُ معه في تحليل القطع التي يعطيها لنا مستعينًا بالقاموس. وبدأتُ في حفظ الأفعال العبرية وتصريفاتها، واشتريتُ التوراة باللغة العبرية، وبدأتُ أفكّ طلاسمها بمعونة القاموس والترجمات العربية والإنجليزية للكتاب المقدّس.

وفي تلك الفترة، اقتنيتُ أحد أهم الكتب قاطبة؛ الغصن الذهبي لجيمس فريزر، في جزأين من الخط الصغير، وهو موجزٌ وافٍ للكتاب الأصلي الضخم المكوّن من ثلاثة عشر جزءًا. وقد أدخلني هذا الكتاب إلى عالم الأساطير والطقوس البدائية المُوغلة في القدم، وما لها من أهمية بالنسبة للوعي الإنساني، وتأثيرها العميق في الأعمال الأدبية والفنية. ودفعني ذلك إلى قراءة كتاب جوزيف كامبل «البطل ذو الألف وجه» قراءةً متأنيةً فاحصة، ونقلتُ منه فقراتٍ كثيرة ملأتُ بها كرّاسًا كبيرًا. وهداني ذلك إلى كتاب الدكتور شكري عياد الثمين «البطل في الأساطير»، الذي كان، كما أعتقد، رسالته للماجستير.

وكانت كل هذه القراءات والأعمال في الوزارة على خلفية عاصفة عاطفية كنتُ أعيش فيها مع نشوى؛ ذلك أن تلك العلاقة، التي بدأت حبًّا جميلًا هادئًا، يُلهم الجمال والسكينة، لم يلبث أن تطوّر إلى ما يشبه الاستحواذ من جانبي، وذلك بعد قليل من انتقال نشوى للعمل بالتليفزيون. وبدأتُ ألاحظ تعليقات نشوى على زملائها، وعلى الفنانين الذين تراهم

بحكم عملها. وزاد على ذلك ما كنا نقرأ عن الجو المحيط بالممثلين والممثلات، والأفلام والبرامج، مما أدخل في نفسي بطريقة تدريجية غريبة، غيرةً مَرَضِيَّةً شديدة على نشوى، وندمتُ على تشجيعي السابق لها للانتقال للعمل بالتليفزيون. وبدأتُ أسألها عن علاقاتها بزملائها في العمل، ثم الملابس التي ترتديها هناك، ثم بدأتُ أطلب منها مطالب تتعلق بعلاقاتها بزملائها. وحاولتُ جهدها أن تبين لي أنها لا تهتم بأحدٍ غيري، وأن عملها يقتضيها أن تظهر بمظهرٍ لائقٍ مناسب، وأن تتعامل مع الكثير من الناس والزملاء، ولكن ذلك كان يهدئ من ثورتي أحياناً وإن لم يُطْفئ ما بداخلي من قلقٍ وشكوك. وتطوّر الأمر تدريجياً، وتداعت أفكار الغيرة والاستحواذ من مرحلةٍ إلى أخرى، وصلتُ إلى تقديس الذكريات، مما دفعني إلى العمل على أن يرتبط كل شيء في ذهن نشوى بي، فكنتُ أوعدها للقاء في أماكن مختلفة، مصمماً على أن نجلس معاً في كل كافيتيريا موجودة بالقاهرة، حتى تتذكّرني إذا ذهبتُ إلى أيٍّ منها بعد ذلك. وكنا في البداية نلتقي مرةً في الأسبوع، ولكن، كلما زادت شكوكي وتساؤلاتي، زادت مرّات اللقاء. وأصبحتُ العلاقة عبئاً وألماً أكثر منها حباً ولذةً، وجاء ذلك في الوقت الذي كنتُ مستغرقاً فيه في أكثر من دراسة، وعملٍ مستمر، وقراءات وكتاباتٍ متصلة. ولا أعرف كيف كنتُ أتحمّل كل ذلك. كنتُ أشعر أنني على شفا جُزْفٍ هار، وأصارع كل يوم كي لا أسقط. ولا أدري كيف أمكنني أن أحرز نجاحاً في كل ما كنتُ أفعله وأنا في مثل هذه الدوامة الرهيبة، ولكن، هل كنتُ ناجحاً أيضاً في علاقتي بنشوى؟ من وجهة نظري المتسلطة يمكن الإجابة بنعم متحفظة. كنتُ أضغط عليها كي لا تخالط زملاءها في العمل، وكي لا ترتدي تلك الفساتين «الجابونيز» التي يمكن لمن يجلس إلى جوارها أن يرى جسدها من خلالها، أو التاثيرات الضيقة والقصيرة. وكانت نشوى منساقةً معي بفضل بدايات علاقتنا؛ حيث كنتُ جاداً وطبيعياً، ولكنها أيضاً لم تكن تُوافق على مطالبي إلا بعد معاركٍ مستمرة. وفي أيام الصفاء، كنا نفوز بسويغاتٍ رائعة، في حديقة الأسماك، وحديقة الحيوانات، والقناطر الخيرية، ودور السينما؛ حيث كنا نتبادل القبلات والأحضان واللمسات. وقد شاهدنا الفيلم الهندي «سانجام» في سينما روكسي بمصر الجديدة مراتٍ عديدة، كانت شاهدةً على عواطفنا الجامحة واستكشافاتنا للألعاب المحرّمة! وانتهى الأمر بأن أصبحتُ أقابلها كل يوم تقريباً. وكانت أماكنُ لقائنا معروفة؛ شرفة سميراميس، والنايت آند داي، وهارون الرشيد، وكازينور وسان سوسي والحمام في الجيزة، بالإضافة إلى مطاعم الهرم، وفوق كل شيء كازينو عوامة الزمالك الذي يُتيح لنا حريةً كبيرة.

وكنْتُ أَسْتَجِوبُهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ عَمَّا حَدَثَ فِي الْعَمَلِ، وَمَعَ مِنْ تَحَادُّثٍ، وَفِي أَيْ شَأْنٍ. كَانَتْ لِحَظَاتٍ مُؤَلِّمَةً لِي وَلَهَا؛ وَلِذَلِكَ كَانَتِ الْأَيَّامُ الَّتِي لَا تَذْهَبُ فِيهَا إِلَى الْعَمَلِ مَرِيحَةً لَنَا؛ فَقَدْ كُنْتُ أَقْضِيهَا دُونَ قَلْقٍ، وَفِي صَحْبَةِ أَصْدِقَائِي. وَحَدَّثَ ذَاتَ مَرَّةٍ أَنَّ قَالَتْ لِي إِنَّهَا لَنْ تَذْهَبَ إِلَى الْعَمَلِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي؛ وَلِهَذَا خَرَجْتُ فِي صَحْبَةِ صَدِيقِي إِبْرَاهِيمَ، وَكُنَّا نَرْكَبُ تَاكْسِيًّا مِنْ عِنْدِ مَبْنَى وَزَارَتِنَا إِلَى مِصْرَ الْجَدِيدَةِ، حِينَ رَأَيْتُ نَشْوَى تَخْرُجَ مِنْ مَبْنَى التَّلِفِيزِيُونِ. وَلَمْ يَنْسَ إِبْرَاهِيمَ حَتَّى الْيَوْمِ مَا انْتَابَنِي مِنْ هِيَاجٍ وَثُورَةٍ لِأَوْقِفِ التَّاكْسِي وَأَقُولَ لَهُ إِنَّنِي سَأَقَابِلُهُ فِي شَقَّتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ. وَجَرِيتُ عَبْرًا شَارِعَ الْكُورْنِيشِ دُونَ أَنْ أَشْعُرَ بِمَا أَفْعَلُ، وَجَرِيتُ حَتَّى لَحَقْتُ بِنَشْوَى وَأَمْسَكْتُهَا مِنْ ذِرَاعِهَا بِعَنْفٍ شَدِيدٍ. وَبُهِتَتْ نَشْوَى بِالطَّبْعِ، وَحَاوَلَتْ أَنْ تَتَمَلَّصَ مِنْ قَبْضَتِي دُونَ جَدْوَى، فَسَارَتْ مَعِي بَعِيدًا عَنِ الْمَبْنَى وَأَنَا فِي حَالَةٍ عَصَبِيَّةٍ شَدِيدَةٍ. وَقُلْتُ لَهَا هَا أَنَا أَرَى أَنَّهَا تَكْذِبُ عَلَيَّ، فَكَيْفَ أَصْدُقُ أَيَّ كَلَامٍ تَقُولُهُ لِي بَعْدَ ذَلِكَ؟! وَثَارَتْ هِيَ الْأُخْرَى وَقَالَتْ إِنَّهَا حُرَّةٌ، وَإِنَّهَا ضَاقَتْ بِمَا أَفْرِضُهُ عَلَيْهَا مِنْ قَيُودٍ تَضْطَرُّهَا إِلَى الْكُذْبِ عَلَيَّ. وَأَضَافَتْ أَنَّهَا مِنْذُ الْآنَ سَتَفْعَلُ كُلَّ مَا تَرِيدُهُ. فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ هَذَا مَجْرَدُ أَوْهَامٍ، وَلَا بَدَأَ أَنْ تَأْتِيَ مَعِيَ الْآنَ حَتَّى نُصَفِّي هَذَا الْمَوْضُوعَ. وَرَفَضَتْ الزَّهَابَ مَعِيَ إِلَى الْكَافِيتِيرِيَا، وَلَكِنِّي أَمْسَكْتُ بِمَعْصَمِهَا لِأَجْرُهَا، وَعِنْدَهَا مَالَتْ بِوَجْهِهَا إِلَى يَدِي وَعَضَّتْنِي فِيهَا عَضَّةً شَدِيدَةً. وَلَمْ أَحْرُكْ سَاكِنًا، وَإِنْ بَدَأَ بَعْضُ الْمَارَةِ يَرُونَ مَا يَحْدُثُ وَيَضْحَكُونَ. وَلَمْ تَهْتَزْ مِنْ شِعْرَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى مِنْ عَضَّتِهَا الْأَلِيمَةِ وَمِنْ سُخْرِيَةِ النَّاسِ وَأَنَا الْأَشَدَّ كَرَاهًا لِمِثْلِ هَذِهِ الاسْتِعْرَاضَاتِ الْعَاطِفِيَّةِ. وَأَخِيرًا، رَضَخْتُ لَطْلَبِي وَتَوَجَّهْنَا إِلَى كَازِينُو قَرِيبٍ؛ حَيْثُ قَضَيْنَا سَاعَةً كَامِلَةً، شَرَحْتُ لِي فِيهَا أَنَّ ذَلِكَ مُحَاوَلَةٌ مِنْهَا لِلتَّخَفُّفِ مِنْ قَيُودِي عَلَيْهَا، وَلِإِثْبَاتِ شَخْصِيَّتِهَا الْمُسْتَقْلَةِ. وَجَعَلْتُهَا تُقَسِّمُ عَلَى الْمَصْحَفِ الشَّرِيفِ أَنَّهَا لَنْ تَقُومَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْكُذْبَةِ مَرَّةً أُخْرَى. وَكَانَ وَاضِحًا أَنَّ حُبَّنَا لَا يَسِيرُ مَسَارَهُ الْمَعْتَادَ، وَأَنَّ هُنَاكَ شَرُوحًا قَدْ حَدَّثَتْ بَيْنَنَا وَلَا يُمَكِّنُ إِصْلَاحَهَا. وَتَبَدَّى ذَلِكَ خِلَالِ مَقَابِلَاتِنَا التَّالِيَةِ؛ حَيْثُ انْحَصَرَتِ الْعِلَاقَةُ فِي طَلْبِي مِنْهَا أَنْ تَنْتَقِلَ مِنْ عَمَلِهَا بِالتَّلِفِيزِيُونِ إِلَى عَمَلٍ آخَرَ، وَقَوْلِهَا هِيَ إِنَّهَا تُحَاوِلُ ذَلِكَ. كَانَ وَاضِحًا أَنَّ الْعِلَاقَةَ تُحْتَضَرُ، وَكُنَّا نَلْتَمِسُ لَنَا مَخْرَجًا نَسْلُكُهُ.

وَفِي الْوَقْتُ نَفْسِهِ، كَانَ عَمَلِي فِي الْوِزَارَةِ الْجَدِيدَةِ فِي ازْدِهَارٍ؛ فَقَدْ مَضِيَتْ قُدَمًا فِي إِعْدَادِ الْخُطَّةِ الْخَمْسِيَّةِ لِعِلَاقَاتِنَا الثَّقَافِيَّةِ مَعَ أَمْرِيكََا اللَّاتِينِيَّةِ، مِنْ إِنْشَاءِ الْمَرَاكِزِ الثَّقَافِيَّةِ، إِلَى إِرْسَالِ وَفُودٍ، وَتَخْصِيصِ مَنْحٍ دَرَاسِيَّةٍ لِلطُّلَبَةِ هُنَاكَ، لِلْحُضُورِ لِدَرَاسَةِ اللُّغَةِ وَالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ فِي مِصْرَ. وَكَانَ مَدِيرِنَا عَبْدُ الْكَرِيمِ أَحْمَدُ دَائِمًا يُشِيدُ بِي وَبِنَشَاطِي وَبِالْمَذْكَرَاتِ

التي أكتبها. وفي مارس ٦٥، نشرت لي مجلة الثقافة، التي يرأس تحريرها محمد فريد أبو حديد، عرضاً لكتاب «آمال جديدة في عالم متغير»، لبرتراند راسل، من ترجمة عبد الكريم أحمد. وكانت فرحةً كبرى لي أن يظهر اسمي مقترناً باسم أستاذي ومديري في العمل، وقدّمتُ له نسخةً من المجلة، فاغتبط بالمقال وإن اختلف معي في بعض تعليقاتي. وأذكر أنني تقاضيتُ سبعة جنيهاً مكافأةً عن ذلك المقال، بزيادة جنيهين عما تدفعه المجلات الأخرى. كنتُ قد نشرتُ أيضاً عدة مقالات في مجلة الآداب البيروتية، بالمجان طبعا، بالإضافة إلى مقالٍ مُترجمٍ عن كافكا في مجلة «القصة» المصرية، وترجمة قصيدة سفينة الموت لـ د. هـ. لورانس، في مجلة الشعر، التي كان يُشرف عليها غالي شكري. وأذكر أنه أبدى إعجابه الشديد بترجمتي، وذكر ذلك لمحمد عناني، الذي نقل لي إعجابه (وقد ذكر لي بعد ذلك الدكتور محمود صبح في مدريد أن غالي شكري كتب في أحد مقالاته أن أفضل مُترجمي الشعر هما صلاح عبد الصبور وماهر البطوطي — مما رفع من شأنِي لدى أوساط المثقفين العرب في مدريد). وقد كان ذلك التقدير عاملاً حاسماً لدفعي إلى ترجمة المزيد من الشعر الأجنبي طوال مسيرتي الثقافية.

وجاءت لي الأنباء بنجاحي في السنة التمهيدية للماجستير بجامعة عين شمس، ونجاحي بتقدير جيد جداً في دبلوم معهد الدراسات العربية العالية، وهو أمر لم أكن أتوقعه نظراً للحالة العصبية التي كنتُ عليها وأنا أؤدي الامتحان. كما أتممتُ أيضاً كورس دراسة اللغة الإسبانية المكوّن من ثلاث سنوات، وحصلتُ على شهادة المركز الإسباني بالقاهرة. وركّزتُ طموحي بعد ذلك في إعداد رسالة للماجستير في معهد الدراسات العربية، نظراً لحصولي على دُبلومه بمرتبة متميزة. ولما كانت دراستي في قسم الدراسات الفلسطينية، كان أول مَنْ فكرتُ فيه عميد الأكاديميين الفلسطينيين بالقاهرة، الأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسيني، وكان أيامها أستاذاً بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. وحصلتُ على موعد معه؛ حيث قابلته في مكتبه الفاخر هناك في أجواء الجامعة المزهرة، وبحث معي خططي لإعداد رسالة الماجستير في موضوع «الاسامية». وقد شرح لي الأستاذ مدى ما لديه من الارتباطات، من تدريس ومحاضرات وسفرات، تجعل من إشرافه على الرسالة شيئاً غاية في الصعوبة، وقد بُعِثَ سِرّها. وقد ذكر لي أن أفضل مَنْ يُمكنه الإشراف على مثل هذه الرسالة هو الدكتور حسن ظاظا، الذي كان يُدرّس لنا في المعهد أيضاً. وكتب لي الدكتور الحسيني رسالةً قصيرةً رقيقةً يوصي بي فيها لدى الدكتور ظاظا.

وكان الدكتور ظاها أستاذًا بجامعة الإسكندرية، ولكنه يُنتدب يومًا لإلقاء محاضرات في كليات القاهرة ومعاهدها، فارتقبتُه في معهد الدراسات العربية يومًا وسألتُه إن كان لديه وقتٌ لأحادثه، فجلس معي بكرمه المعهود، ووافق على الإشراف على رسالتي، بعد أن أطلعتُه على سجل دراستي بالمعهد، ولكنه طلب تغيير عنوان الرسالة من اللاسامية — وهي من الترجمات الحرفية التي شاعت أيامها — إلى عنوان «مناهضة اليهود». وأضاف أنه يريد أيضًا إدخال تعديلات على فصول الرسالة، فأجبتُه بأن ذلك متروكٌ له. وكان الدكتور ظاها قد انتدب للعمل أستاذًا في جامعة بيروت العربية، فترك لي عنوانه هناك، ووعد بأن نراسل حتى تكتمل فصول الرسالة على النحو المرجو. ومن المناسب أن أكمل هنا تنمة الأحداث التي مرّت بموضوع الرسالة بعد ذلك، حتى تكتمل قصتها في ذهن القارئ، بدلًا من الانتظار إلى زمن وقوعها: تراسلتُ كثيرًا مع الدكتور ظاها في بيروت، ومنحني بكرمه الكثير من وقته وجهده حتى اكتملت فصول الرسالة، وأرسل لي مذكرةً لتقديمها للمعهد تُفيد قبوله الإشراف على الرسالة. وكان ذلك في الربع الأول من عام ١٩٦٧م. وتقدّمتُ بطلب التسجيل بالفعل إلى معهد الدراسات العربية، ثم جاءت كارثة حرب يونيو في أعقاب ذلك، ولم يُعد أحد يفكر في دراسات عن فلسطين واليهود، فلم أسأل عما حدّث لطلبي تسجيل الرسالة، كما لم يُعد الدكتور ظاها إلى الحديث عنها هو الآخر. وانتهى الأمر عند هذا الحد (وقد علمتُ بعد ذلك أن مجلس إدارة المعهد لم يُوافق على تسجيل الرسالة نظرًا لحساسية موضوعها!).

أعود إلى عام ١٩٦٦م، فأقول إنه كان عامًا مزدهرًا في نصفه الأول، عدا طبعًا علاقتي بنشوى التي ظلّت في توتُّرها المعتاد. وفي مجال الكتابة والنشر، واصلتُ موافاة مجلة الآداب البيروتية بمقالاتي المؤلفة والمترجمة، فنشرتُ فيها مقالًا شاملًا عن جيمس جويس من تألّيفي، ثم حلقتين من يوميات ألبير كامي، وترجمةً لقصة «حاضرة الدنيا» لهنجواي. وكنتُ قد ركّزتُ اهتمامي الشديد على هنجواي وجويس، فقرأتُ كل ما وجدته عن الأول، ومنه «صورة لهنجواي» أفادني كثيرًا في الاستفادة من خصال الكاتب الجبّارة، من أنه كان بوسعه عمل أشياء عدّة في نفس الوقت، والاستماع إلى حديث الآخرين بينما ذهنه يعمل في مجالٍ آخر. واشتريتُ رواية جويس الأساسية «عوليس»، وبدأتُ في قراءتها، إلى جوار الشرح الذي كتبه لها ستيوارت جلبرت. وكان أكبر أحلامي هو ترجمة رواية جويس الأولى «صورة الفنان في شبابه»، فبدأتُ أعدُّ العدة لذلك.

واستمّرتُ مقابلاتي العديدة لجماعة العجول، وانضمّ إلينا علي كمال الذي كان قد نشر عدة مراجعاتٍ أدبية في مجلة المجلة، وكان يترجم إحدى روايات هنري ميلر. وكان

يخطط لكتابة رواية على نسق ثلاثية الصُّلب الوردي لذلك المؤلف، وأعطى لها عنواناً مؤقتاً «الدخول، المكوث، الخروج». وفي هذه الفترة، وقعتُ على رواية هائلة شكَّلت نقلةً كبيرة في شعوري الأدبي، وهي «رباعية الإسكندرية» للورانس داريل. وابتعتُ طبعة فابر آند فابر الورقية من مكتبة شادي، وعكفتُ على قراءتها باستمتاعٍ شديد، خاصة وأنني شغوف بطريقة تقديم الأحداث من منظوراتٍ أو وجهاتٍ نظرٍ مختلفة. وفي حالة هذه الرباعية، كانت الأحداث تكتمل في دائرةٍ مع كل كتابٍ منها. وقد قرأ جيلي هذه الرواية وتأثَّر بها، خاصةً من طريقة السرد. وقد كتب فتحي غانم رواية «الرجل الذي فقد ظله» بسرديّة أربع وجهات نظر. كذلك فعل محمود دياب في روايته «الظلال في الجانب الآخر»، التي صدرت عن الكتاب الماسي، والتي أحببتها كثيراً.

وفي رباعية الإسكندرية، شكَّلت المبالغة في تصوير بعض الأحداث مثل كرنفال مدينة الإسكندرية، نوعاً من الواقعية السحرية، قبل أن نعرف هذا الاصطلاح، وكان أول من عرّفنا من أدباء هذا النوع من الكتابة التشيكي فرانز كافكا. وقد فُتنتُ بكافكا من أول قراءتي له، فاقتنيتُ كل كتبه، وفكرتُ في ترجمة أجزاءٍ من يومياته، كما فعلتُ مع ألبير كامو. وسُررتُ إذ وجدته يسجِّل جانباً من أحلامه؛ فقد كنتُ قد بدأتُ أفعل ذلك منذ عام ١٩٥٨م.

وفي أواخر عام ٦٦، حدث شيء وقع علينا وقع الصاعقة الحقيقية. كنا نعمل بهمةٍ وجدٍ في وزارة العلاقات الثقافية الخارجية، لدرجة توقُّعنا معها إنشاء كادرٍ خاص لموظّفي الوزارة أسوةً بوزارة الخارجية، ولكن إذا بوزارة علي صبري تستقيل، ويُشكَّل زكريا محيي الدين وزارةً جديدة ألغيت منها وزارة العلاقات الثقافية الخارجية! هكذا — كما ذكرت سابقاً — كان التخبُّط في اتخاذ القرارات دون تخطيط أو دراسات جدوى مسبقة. وأصبحنا كلنا في دوامةٍ من القلق والإحباط لا نعرف ما سيكون عليه مصيرنا. وكان عبد الكريم أحمد أشد المتأثرين بذلك؛ فقد انهارت مشروعاته في إقرار العلاقات الثقافية بوصفها مدخلاً وأساساً يرفد العلاقات الأخرى بين مصر ودول العالم، واعتكف في غرفته. أما أنا فقد اعتكفتُ كذلك، ولكن مع القراءة والكتابة؛ حيث تركونا لشأننا دون إشرافٍ من أي أحدٍ لفترةٍ طويلة، وأتاحت لي هذه الحرية الزمنية البدء في حلمي الكبير بترجمة «صورة الفنان» لجويس، ومضيتُ فيها بهمةٍ وعزمٍ أملًا أن أرسلها للدكتور سهيل إدريس لنشرها عن داره في بيروت.

وَشَهِدَتْ علاقتي بنشوى تصاعداً جديداً مع حرية التنقل طوال اليوم بعد إلغاء الوزارة، وصرتُ أبحثُ عن أماكن جديدةٍ نلتقي فيها؛ حيث يمكننا العراك والتصافي وتبادل العناق وما هو أكثر من ذلك دون رُقباء.

وصدر قرارٌ جمهوري بتعيين الدكتور خلاف مندوباً دائماً للجمهورية العربية المتحدة في جنيف، ولكن، ماذا عنا نحن بقيّة الموظّفين؟ كان كل موظّف يعرف أحداً في مركز المسؤولية ينجح في نقله إلى وظيفة جيدة. وكنتُ أنتظر ما سيفعله عبد الكريم أحمد؛ حيث إن مساري الوظيفي كان دائماً مرتبطاً به. وقد عُرض علينا الانتقال إلى وزارة الخارجية للعمل هناك كإداريين وليس دبلوماسيين، وقبل عددٍ كبير من زملائنا ذلك، ولكني لم أقبل، مُفضّلاً الانتظار. وكنا نسمع أننا سنعود إلى وزارة التعليم العالي، بالعلاقات الثقافية الخارجية، كما كنا من قبل. وكان وكيل الوزارة المشرف على ذلك القطاع هو الدكتور مصطفى كمال طلبة، بعد انتداب الوكيل السابق إلى جامعة بيروت العربية. وكانت مديرة مكتب الدكتور طلبة هي السيدة سعاد بدير، التي سبق أن قضت معنا عدة أشهر في إدارة العلاقات الثقافية بالتعليم العالي، قبل أن تذهب للعمل بقطاع البحث العلمي. وكنتُ قد احتفيتُ بها إبّان إقامتها القصيرة معنا، فقد أعجبتُ بنشاطها ومشروعاتها الثقافية والعلمية، وكانت هي مندهشةً من أفكارِ الطليعية وحبّي للأدب والفن.

وبقينا زهاء تسعة أشهر في الوزارة المُلغاة دون عمل أو توجيه، في انتظار النقل. وكان هناك على الأقل وكيل وزارة إنساني النزعة في زمنٍ عزّت فيه هذه الصفة، عمل جاهداً على تنفيذ حركة ترقّياتٍ كانت مُعدّة قبل إلغاء الوزارة، وتم ذلك فعلاً، ونالني منها نصيب؛ إذ رُقّيت إلى الدرجة السادسة، مما كان له أثرٌ في رفع معنوياتي. وقد استغلّلتُ شهور البطالة أفضل استغلال؛ فقد أخذتُ أقرأ في الفترة التي أقضيها في المكتب — وكنت مواظباً على الذهاب كل يوم مرتبطاً بالعادة وبالإحساس بالمسؤولية — كتاب «الصور الشعرية عند شكسبير ودلالاتها» لكارولين سبيرجن، وقد عرفته عن طريق محمد عناني؛ وكنت أحلم بتطبيق منهجها البحثي الفريد ذاك على الصور الشعرية عند المتنبي أو أحمد شوقي؛ لذلك قرأتُ الكتاب بتأناً شديداً وتمعّناً، حتى أخرج منه بأكبر قدرٍ من الفائدة.

وكنت في المنزل أقرأ القرآن الكريم أيضاً قراءةً متأنيةً فاحصة متفهّمة، بعد أن أكملتُ قراءته من قبل عدة مرات. كنتُ أبدأ القراءة في المساء، وأكشف عن معنى أي كلمة لا تكون واضحةً في ذهني، وأحفظها، وأقرأ أسباب نزول الآية، وكانت عندي في كتابٍ مستقل، ثم أطلع التفسير العام لفريد وجدي، وشيئاً فشيئاً، شعرتُ أن كلمات القرآن ومعانيه

قد أخذت تتخلَّل مساميَّ العقلية والروحية. وأحسستُ أن لغة القرآن لا يمكن أن تكون صادرةً عن بشر. ما هذا قول البشر. ودلفتُ مع منظومة تركيبات لغة القرآن المسبوكة على نحوٍ مُعْجَز، منطلقاً من سورة إلى أخرى، وفي كل مرة أفهم شيئاً لم أكن قد أدركته من قبلُ في القراءة السابقة. ثم عمَدت بعض الآيات إلى الأخذ بمجامعي كلية، وكنتُ أحياناً أصحو فأجد نفسي أردد آياتٍ بعينها. وانتابتنِي حالةٌ من الترقُّب شملتُ كياني كله. ثم انتالت لديَّ الليالي الغريبة. وفي ليلة، وأنا أقرأ في سورة النور، أحسستُ وكأن غاشيةً قد غشيتني. أو كأنني غفوتُ وأنا أقرأ، وإن كنتُ أشعر بكل ما يحدث لي. أحسستُ كأنني أطيّر في سماء لا ملامح لها ولا حدود، صاعداً إلى أعلى، وثمة شعورٌ داخلي ينبئني بأنني ذاهب إلى لقاء والدي في السماء. وشاهدتني أمرق مخترقاً الأجواء وجسمي يرقُّ حتى لم أعد أشعر بنفسي وأنا أدخل إلى ساحاتٍ واسعة تتخطَّفها الأضواء من كل جانب. وخيل لي أنني أرى أشخاصاً أعرفهم بسيماهم، ولكن إدراكي ومنطقي كانا معطلَّين فلا أعرف هل ما أرى حقيقة أم خيال. وعبرتُ سماءاتٍ وسماءات، حتى أبصرتُ الأرض وقد أصبحت كرةً صغيرة أسفل مني، وإذ عيني تنصبُّ على بقعةٍ معينة من الأرض التي هي خارج الزمان والمكان، وأجد نفسي منجذباً إلى تلك البقعة، في مركز الكرة الأرضية، وأطيّر إليها في لحظة عين. أجد نفسي أعرابياً رقيق الحال، يرافقونه كيما يعلن إسلامه، وأنا منذهل من كوني سارياً رسولاً مبعوثاً من لدن رب العالمين، وأشعرُ برجفةٍ تشمل جسمي من جِراء ذلك. ومع اقترابنا، أشعرُ بالنور من حولي، والصفاء الروحاني يُحيط بكل شيء، وأسمع كلماتٍ نورانيةٍ تطمئنني: لا عليك يا أخا العرب، فما أنا إلا ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد. وما عتمتُ أن رفعتُ عيني إلى مصدر الضياء فشملني سلامٌ وصفاءٌ لا يمكن وصفهما، ونطقتُ بالشهادتين في صوتٍ هادئٍ بينما نفسي يغمرها الإشراق والنور والإيمان. وشملني نورٌ من كل الأنحاء وأنا في نشوةٍ وتجلٍّ عميقين.

وظل الحال على هذا المنوال عدة ساعات، شعرتُ بنفسي بعدها مُقعياً في وسط سريري، وقد غمرَ النور المصحف الذي أقرأ منه. وتطلَّعتُ إلى ذلك النور الغريب، فأجده يتحرَّك في كتلةٍ كهربائيةٍ سائلة ويتجه إلى داخل جوفي ويستقر فيه، ولم يغادرني منذ ذلك أبداً.

ولم تعد لي تلك الرؤيا إلا بعد استيقاظي في الصباح، ووجود المصحف إلى جوارِي عادت تفاصيل كل ما جرى لي إلى ذهني، في وضوحٍ ساطع لا شية فيه. ومنذ ذلك الحدث، لم يهتزَّ إيماني بعد ذلك لحظةً واحدة.

من حالٍ إلى حال

منذ تلك الليلة المشهودة أصبحتُ من أشد المؤمنين بالله ورسله وكتبه، وأصبح القرآن الكريم هو أول وأهم كتابٍ أعتدُّ به وسط كل الكتب التي تأثرتُ بها. وبدأتُ في شراء الكتب الدينية الأساسية، إلى جوار الكتب الجديدة التي كانت تجتهد في تجديد النظرة إلى الدين على نحوٍ مستنير. وقرأتُ كتاب أحمد أمين المتعدد الأجزاء عن فجر الإسلام وما تبعه من مجلدات، وأخذتُ فكرةً شاملة عن حال الخطاب الديني عبر الدول التي سادت الأمة الإسلامية، من الدولة الأموية حتى الدولة العثمانية. ورنّت في أذني إلى اليوم ما ذكره عن أنه بسيطرة آل عثمان على الأمة الإسلامية، تم إغلاق باب الاجتهاد في الدين.

ولم يغيّر هذا الانقلاب الإيماناني من مظهري ومسلكي؛ فقد كان إشراقاً داخلياً جعل من القرآن الكريم كلمةً إلهية لا شك فيها، فإذا كان الأمر كذلك، فكل ما جاء به القرآن حقٌّ لا جدال فيه، وكل ما ثبت عن الرسول كذلك، ومن الواجب التوفّر على دراسة القرآن والتعمّق فيه لأنه يحوي كل حقائق الوجود، ولا بد من الوصول منه إلى أغوارٍ لا تنفسح للإنسان إلا بالاستغراق الكامل في دراسته، بالاستعانة أيضاً بالبصائر اللدنية، والشطحات الصوفية، والإشراقات الحسّية.

ولم أبدل من مسلّكي ولا عاداتي ولا ما درجتُ عليه من أمور؛ فقد انتظرتُ أن يأتي ذلك في موعده كما جاء الإيمان الصلّد في ميعاده. ولكنني بدأتُ في المطالعة في مصحفٍ صغير وأنا ذاهبٌ كل صباحٍ سيراً إلى العمل، وكانت متعةً ما بعدها متعة؛ الإحساس بروعة الكلمات والمعاني في انفتاح الذهن والمشاعر في باكورة الصباح.

كنا قد انتقلنا بعد إلغاء الوزارة بحوالي تسعة أشهر إلى مكتب الدكتور مصطفى طلبة، وكيل وزارة التعليم العالي للشئون الثقافية، وبقينا فترةً قصيرة في مبنى المبتديان،

قبل أن ينتقل الوكيل وكل مكتبه إلى مبنى جاردن سيتي مقر الوزير. وتقلّصت حريتي في لقاء نشوى بعد العودة إلى الدوام الوظيفي المعتاد، غير أنني لم أفوت فرصة للقائها المعتاد، وإن تواصل الشد والجذب معها كي تترك عملها بالتلفزيون وتنتقل إلى عملٍ آخر.

ومضيتُ قدماً في ترجمة رواية جويس، واستعنتُ في فقراتها الغامضة بترجمة فرنسية لها وجدتها على سور الأزبكية، وقد نُشرت تحت عنوان «ديدالوس». وعملتُ فترةً طويلة في تنقيح الترجمة، وإن كان قد حيرني كثيراً الاقتباس الذي وضعه جويس في مقدمة الرواية من كتاب التحوّلات لأوفيد. وكان البيان يشير إلى أنه مأخوذ من الفصل الثامن، السطر ١٨. وحين رجعتُ إلى الترجمة الإنجليزية للتحوّلات، وبحثُ في المكان المذكور، وجدته يتناول شيئاً مختلفاً تماماً عما هو موجود في اقتباس الرواية، مما اضطررتُ معه إلى ترجمة الاقتباس بمعرفتي بالاستعانة بالقاموس اللاتيني (عرفتُ بعد ذلك من محاضرات جوزيف كامبل عن جويس أن السطر الصحيح هو ١٨٨ وليس ١٨، وأن أحداً لم ينتبه لذلك الخطأ إلا بعد عشرات الطبعات التي حملت الرقم الخطأ). وبدأتُ في كتابة نسخة نظيفة من الترجمة بخطّ واضح على صفحات الفولسكاب المسطرة، وساعدني صديقي إبراهيم في العثور على زجاجة حبر «كوينك» الذي شحّ وجوده آنذاك، والذي كنتُ لا أحبُّ الكتابة إلا به. وأرسلتُ المخطوط على عنوان دار الآداب حوالي يناير ١٩٦٧م.

وتبع انتهائي من ترجمة وإرسال رواية جيمس جويس دفقةً وهاجةً من الأعمال الأدبية، فبدأتُ مقالاً عن العجوز والبحر لهنجواي بنية إرساله إلى مجلة تراث الإنسانية؛ وترجمتُ عدة قصائد للوركا وأرسلتها إلى مجلة الهلال القاهرية. وكنتُ دائماً أرسل أعمالي بالبريد، تاركاً الفرصة للمشرفين على التحرير لنشرها من عدمه. وواصلتُ سياستي هذه حتى الآن، إلا في أحوالٍ قليلة ستذكر في حينها. وكان هدفي هو تنويع مصادر النشر، بغزو تلك المجلات الثقافية الشامخة والعمل على نشر أعمالي بها. وقد قمتُ بكل ذلك وسط كل أنواع الفوران العاطفي مع نشوى، وفي خضمّ النزاعات والشقاق معها. ومن يدرى؟ فلربما كان هذا الجو دافعاً إلى العمل والإبداع عندي، للتعويض عما يحدث، أو أن هذا هو ما يهيئ بعض الكتّاب للعمل بعد إفراغ شحناته العصبية والعاطفية، فيصبح مستعداً للكتابة والإبداع! من يدرى؟!

وعُدتُ يوماً في المساء إلى المنزل، فوجدتُ خطاباً من سهيل إدريس يُخبرني فيه أنه تلقى ترجمتي لرواية جويس، وأنه سينظر في أمر نشرها، ولكنه يطلب مني الآن أن أقوم

بترجمة كتابٍ أمريكي ظهر حديثاً بعنوان «بابا همنجواي» وأحدث ضجّة؛ لأن مؤلّفه يؤكّد للمرة الأولى أن همنجواي قد انتحر عام ٦١ مع سبق الإصرار والترصد، ولم يكن موته حادثً بندقية كما أشاعوا وقتها. وكان قد ثار لغطٌ شديد حول ذلك الأمر عند وقوعه دون قطعٍ جازم فيه. وكان الدكتور إدريس يرغب في نشر الترجمة العربية سريعاً لمواكبة الشهرة التي نالها الكتاب. وقد طلب مني أن أحصل بنفسي على الأصل الإنجليزي، وأبدأ في ترجمته على الفور، وأحاول إنجاز الترجمة في أسرع وقت.

وقد سَعِدْتُ جدّاً بهذا التكليف، وإن كنتُ عَجِبْتُ لأنه كَلَّفَنِي العثور على النسخة الإنجليزية للكتاب، وهو أمرٌ مستحيل في القاهرة، بينما هو متيسّر جدّاً أيامها في بيروت. ولكنني تحرّكتُ بسرعة، وأرسلتُ خطاباً عاجلاً إلى محمد عناني في لندن أطلبُ منه نسخةً من الكتاب. ولم يخيب الأستاذ الصديق ظني؛ فقد أرسل لي الكتاب على الفور، رغم ثمنه الغالي بأسعار ذلك الزمان، وضعف مرتّبات أعضاء البعثات. ومن حُسن الحظ أن وصل الكتاب سالماً دون التعرُّر في أبواب جمارك أو رقابة، وتسلّمته حوالي فبراير ٦٧. وبدأتُ بأن قرأته قراءةً عامة في يومين، ثم قَطَعْتُهُ أجزاءً منفصلة حتى يُمْكِنَنِي العملُ في أكثر من جزءٍ حسب الزمان والمكان اللذين أكون فيهما. وحين حادثتُ علي كمال في ذلك الموضوع، عرضتُ عليه أن يساعدني بترجمة فصلين من الكتاب، فرحّب بذلك مشكوراً. وأوضحتُ له صراحةً أنه لن تكون هناك إمكانيةً لذكر اسمه في الترجمة، وأنني سوف أراجع ما ترجمه وأغيّره حسبما أرى، كيما يتسق مع لغة الترجمة لبقية الكتاب، وأنني سأعطيهِ نسبةً من الأجر الذي سأحصل عليه، إن كان هناك أجرٌ على الإطلاق. وقد قمتُ بنفس الاتفاق مع صديقي عاطف مرسى. وقد وافق الصديقان على ذلك.

وكانت فترة العمل في ترجمة الكتاب مزيّجاً من المتعة والعذاب؛ المتعة بترجمة كتابٍ جميل موضوعه من موضوعاتي المحبّبة، حياة همنجواي، مع إدراك أن الكتاب مُتَّفَق عليه للنشر. والعذاب في مجاهدة الوقت والزمن للانتهاء منه في أقرب وقتٍ ممكن. وكنا نتحدث بالهاتف أنا وعلي كمال، فيناديني همنج وأناديه هوتش، كما كان يفعل مؤلّف الكتاب — هوتشنر — مع همنجواي، بعد أن كسب صداقته، وأصبح من خلصائه ومريديه.

كانت فترةً محمومة، وخَفَّفَ انشغالي بالكتاب من إحكام قبضتي على نشوى، فاستمتعتُ هي الأخرى بسلامٍ نسبي في تلك الفترة. وكنتُ أشعرُ بأنها سعيدةٌ بحق بأنني سأُنشر أول كتابٍ باسمي.

وانتهيتُ من الترجمة ومراجعة الفصول التي ترجمها صديقاى حوالي شهر أبريل — وهو وقتٌ قصيرٌ بالفعل تسبَّب في وجود بضعة أخطاء في الترجمة — ونسختُ الترجمة الكاملة في خطٍّ واضح، وأرسلتها بالبريد المسجل إلى دار الآداب ببيروت. وفي نفس الشهر، أبريل، اتصل بي الدكتور سهيل إدريس من القاهرة، وطلب أن أقبله صباح اليوم التالي في مقر إقامته بفندق أطلس بالقاهرة، ووافيتُهُ في الموعد المضروب، وكان يتناول إفطاره، فرحَّب بي، وكانت أول مرة أراه فيها، وسألني إن كنتُ قد «تروَّقت»؛ أي أفطرت، فأجبته شاكرًا بالإيجاب، وطلبتُ مشروبًا. وأثنى الدكتور إدريس على مقالاتي وترجماتي، وسألني عن مخطوط كتاب همنجواي، ولما عرف أنني أرسلته بالبريد، ذكر أنه كان بإمكانني أن أسلمه إلى وكيله بالقاهرة. ثم كتب عقدًا قصيرًا بيني وبينه بشأن ترجمة الكتاب، وحدد لي أجرًا قدره مائة جنيه مصري؛ وأعطاني ورقةً موجهة لوكيله بالقاهرة ليُعطيني مكافأة الترجمة. وكان لقاءً ودودًا، بدا فيه الدكتور إدريس في أبهى حالاته، وتوافد زوَّار على مائدته، ومنهم مرسى سعد الدين الذي قام بالتدريس لنا فترةً من الوقت في قسم اللغة الإنجليزية. وقد أخبرني الدكتور إدريس أنه قد حصل على حقِّ نشر رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ في لبنان، وهي الرواية الممنوعة من النشر في مصر، وأنه سيُصدرها قريبًا من دار الآداب، وطلب مني أن أكتب مقالًا نقديًّا عن الرواية يواكب النشر، ووعدته بذلك. وقد ذكر لي أيضًا أنه ما زال يدرُس نشر رواية صورة الفنان لجويس عن الدار.

واستأذنتُ من الحضور، ورُحْتُ من فوري إلى وكيل دار الآداب؛ حيث قدَّمتُ له ورقة الدكتور إدريس، وأعطاني مائة جنيه. وكنتُ سعيدًا جدًّا بهذه الصفقة، رغم إدراكي قلة المكافأة التي حصلتُ عليها، ولكنني كنتُ أنظر إلى الإنجاز الأدبي بنشر أول كتاب لي. وأمضيتُ وقتًا رائعًا في انتظار صدور الكتاب، وراقنتني متابعة الإعلانات عنه في مجلة الآداب مقرونًا باسمي، وأخذتُ أرْتب، فيمَ أصرف المائة جنيه؟ وكنتُ قد أعطيتُ خمسة جنيهات لكلٍّ من علي وعاطف لمعاونتهما لي. وفكرتُ في شراء رفوفٍ للكتب لترتيب حجرتي، وشراء ملابسٍ جديدة. ورسمتُ مشاريع عريضة جميلة، أعادت إلى ذاكرتي ما فعله ستيفن ديدالوس حين ربح، وهو تلميذ، أول جائزة مالية له، وطريقة صرفه لها، وسرعان ما تبخَّرت المائة جنيه.

وأطبقتُ علينا الأحداث السياسية في منتصف مايو من ذلك العام، بالتعبئة الحربية والتوجُّه إلى سيناء في مظاهرة عسكرية، بعد أن تواترت الأنباء بحشود إسرائيلية على حدود سوريا، ثم طلبتُ مصر سحب القوات الدولية من مضائق تيران؛ حيث علم المصريون،

آنذاك فحسب، أن السفن الإسرائيلية كانت تمر في المضائق، طبقاً لاتفاق السلام عام ١٩٥٧م، بعد العدوان الثلاثي على مصر، ولكن القوات الدولية انسحبت من سيناء كلها، تاركةً إسرائيل أمام مصر، مع إغلاق مصر لمضائق تيران أمام إسرائيل.

وكنا نناقش في لقاءاتنا هذا الوضع الخطير، ولم يكن أحدٌ يتوقع أن تنشب الحرب؛ حيث كانت المفاوضات ما تزال على قدمٍ وساقٍ لحل المشاكل التي ترتبت على هذا الوضع. وتأزمت الأمور، وعقد جمال عبد الناصر مؤتمره الصحفي الشهير الذي تحدى فيه الجميع، وأعلن عدم التراجع عن أي قرارٍ تم اتخاذه. وقد أثار عجبي المستوى الضعيف الذي ظهر به المسئول عن تلقي الأسئلة والتنسيق بينها، وقلة محصوله من إجابة الحديث والترجمة. وأصبح الوضع العسكري الخطير حديث الجميع. وأذكر في جلسةٍ جمعتني مع عدد من الأصدقاء في جروبي سليمان، أن ذكر أحد الأصدقاء العارفين أن هناك مائة غواصةٍ نوويةٍ روسيةٍ قد وصلت إلى البحر الأبيض! عندها قلنا إنه لو صَحَّ هذا الحديث، فهي نهاية إسرائيل قد حانت أخيراً، بعد كل الوعود التي سمعناها من قادتنا. وأصبحنا في انتظارٍ مترقبٍ لنصرٍ سريع.

واستعدت البلاد للحرب، وبدأ طلاء النوافذ باللون الأزرق، وإجراء تجارب الغارات الجوية لقياس استعدادات الدفاع المدني. وفي أحد الأيام، في الثامنة والنصف صباحاً، أعلنوا عن تجربة غارةٍ في مقر وزارة التعليم العالي في جاردن سيتي حيث نعمل. ونزلنا جميعاً إلى قاعة المسجد في أسفل المبنى بوصفها المخبأ، وكان معنا وكيل الوزارة وكبار الموظفين. وجلسنا جنباً إلى جنب نتحدث، بينما الفتيات والسيدات يتصاحكن فيما بينهن. وسمعنا صوت انفجاراتٍ بعيدةٍ مكتومة، فتصورنا أنها جزءٌ من تدريبات الغارات الوهمية في جهاتٍ أخرى من القاهرة ... ولكن ... كان اليوم هو ٥ يونيو ١٩٦٧م. وحين بدأ الهمس بين الموجودين بأن هناك غاراتٍ حقيقية، وأن الحرب قد بدأت، أسرع كل واحدٍ إلى الخروج عائداً إلى مكتبه.

وجلسْتُ إلى مكتبي وحوالي زملائي نترقب الأنباء. وكنتُ أتوقُّ إلى لحظةٍ أكون فيها وحدي كي أتصل بنشوى. وفي أول فرصةٍ اتصلتُ بها، وكانت في صدمةٍ مما حدث، وذكرت أنه من المستحيل اللقاء اليوم أو الأيام التالية حتى ينجلي الموقف، وأنهم في عملٍ دائمٍ في الإذاعة والتليفزيون. وتقبلتُ ذلك في هدوء؛ فالظروف طارئةٌ وصعبة، ولا نعرف ما ستكون عليه الأمور. وأخذ بعض الزملاء يصيحون بما يسمعون من الراديو: «أسقطنا عشرين طائرة. حررنا جبل المكبر داخل الأرض المحتلة». وخرج زميلٌ لنا معروف بصمته

ورزاقته إلى الشرفة المطلّة على الطريق وصاح: «النصر لنا.» وجلستُ أرقبُ ما يحدث من حولي. وأخذ الموظفون يُلمِّمون حاجياتهم ويخرجون عائدين إلى منازلهم ليطمئنوا على أسرهم. وبعد قليل، خرجتُ أنا أيضًا. ولم أجد جديدًا في الطريق سوى بعض الشبان الذين يوقفون السيارات ويَطْلُون مصابيحها باللون الأزرق من جرادلٍ يحملونها. وعُدْتُ سائرًا إلى المنزل وأنا أسمع دوي انفجاراتٍ بعيدة. ووجدتُ والدتي يملؤها القلق، فذكرتُها أنها حرب، ولكنني طمأننتها بأننا بعيدون عن مراكز العمليات، وأن الحرب حربٌ ولا بد من احتمالها. ولم أتمكن من سماع محطاتٍ أجنبية، فظللْتُ مع التهليل لانتصاراتنا التي كانت إزاعاتنا تُبشِّر بها. ورجوتُ أن يكون ذلك حقيقيًا.

وظل الحال مستمرًا كذلك طوال اليومين التاليين، وإن كان البعض قد بدأ يتهامس بما سمعه من المحطات الأجنبية، بأنه قد تم تدمير الطيران المصري بكامله في الساعات الأولى للحرب، وأن إسرائيل تتقدّم على جبهة سيناء بينما الجيش المصري ينسحب. بيد أنني كنتُ في عالمٍ آخر. في يوم ٦ يونيو، ذهبْتُ إلى وسط البلد وشاهدتُ بعض الغوغاء يقودون رجلًا يقولون إنه جاسوس. وكنتُ على موعد لإجراء بروفة للبدلة الجديدة. وكان الترتيبي باديء القلق، ويتمتّم بآياتٍ قرآنية وهو مغموم، بينما أنا أنبّهه إلى تقصير هنا وتطويل هناك. ولا بد أنه تعجّب من برودي وعدم اكتراثي. كنتُ أركّز على البدلة، متخيلاً ما ستقوله نشوى حين تراها.

ثم بدأتُ التقارير العسكرية التي تُصدّرها القيادة تتناقض في مضامينها ومع ما كانت تذكره من انتصارات. وأذكرُ أنني كنتُ في وسط البلد أيضًا، حين رأيتُ الناس ملتفين حول الراديو في الطريق وهو يعلن عن دوران المعارك في خط الانسحاب الثاني. وكان الناس مذهولين، ثم سمعنا أن مصر قد وافقت على وقف إطلاق النار الفوري دون شروط. وأخيرًا، سمعنا أن القوات الإسرائيلية في طريقها إلى الضفة الغربية من قناة السويس، وأنها تُطارِد الجنود المصريين أمامها. وتم الإعلان عن خطابٍ مهمٍّ سيُلقيه الرئيس جمال عبد الناصر مساء يوم ٩ يونيو. وكانت والدتي عند الجيران حين جلستُ أستمع للخطاب في التلفزيون. وهالني ما سمعتُ. وعجبتُ أن يظهر ليقول ما يقول وهو في كامل أناقته، بالياقة والأساور المنشأة، ويعلن في أتم هدوء هزيمتنا في الحرب؛ لأنه كان يتوقّع هجوم إسرائيل من الشرق، ولكنها هجّمت من الغرب. وأضاف تحمُّله للمسئولية كاملة، وتنحّيه عن الحكم ليخلفه زكريا محيي الدين في الرئاسة.

وحالما انتهى خطاب الرئيس، فوجئنا بانفجاراتٍ مدوية تهز القاهرة وترجُّها رجًّا. وأقبلتْ والدتي عبْرَ الشارع وهي تبكي، ولكنني وجدتُ كثيرًا من سكان الحي وقد خرجوا من تلقاء أنفسهم يهتفون لعبد الناصر ويتجهون لمنزله لمطالبته بعدم التنحي. وهذه شهادةٌ أقدمها من واقع ما عشتُه ورأيته بنفسِي. قد تكون بعض التنظيمات قد حشدت رجالها بعد ذلك لهذا الغرض، ولكن سبق كل ذلك الانطلاقة التلقائية الفورية لأفراد الشعب العاديين بعواطفهم الجياشة لمساندة رئيسهم في محنته.

وكان اليوم التالي يوم فوزى عارمة في القاهرة كلها. ومشيتُ كالعادة إلى العمل، ورأيْتُ ميدان التحرير يُموج بالجنود الهائمين على وجوههم، وبالجماهير الزاحفة إلى مجلس الأمة للمطالبة ببقاء عبد الناصر. وفوجئتُ بشارع القصر العيني ممتلئًا بالجماهير المتلاطمة، وأخذتُ الهستيريا تُسيطر عليهم، حتى إن رجال الأمن اضطُرُّوا إلى إلقاء الغازات المسيلة للدموع في محاولةٍ لتفريقهم. وقد أصابَتْني تلك الغازات وشعرتُ بأثرها الحارق في عيني وتنفُّسي، وأسرعتُ مع آخرين إلى الدخول إلى إحدى عمارات الشارع نحتمي داخلها من تلك الغازات. ووضعتُ منديلي فوق أنفي. وكانت تجربةٌ مريرة.

وفي المكتب، اتصلتُ بنشوى وأصررتُ على لقاءها، وتقابلنا في محطة باص بالمنيل؛ حيث توجَّهنا إلى كازينو هناك على النيل اعتدنا أن نلتقي فيه. لم يكن هناك أحد، نظرًا للظروف التي تمرُّ بها البلاد، ولكنني كنتُ أركِّزُ على لقاءٍ بنشوى بعد مُدةٍ لم أرها فيها. وحدَّثتُني عن أثر النكبة العسكرية في الوسط الإعلامي، فسألتُها عن أخبار انتقالها من التليفزيون فأجابت أن كل هذه الأمور الإدارية متوقفة الآن. وزاد هذا من انشغال بالي وعصبيتي. وكنا أحيانًا نتبادل القبلات في ذلك المكان المُستتر، ولما حاولتُ ذلك صدَّتني في حدة، مما زاد من إصراري حتى تمكَّنتُ من تقبيلها، وكنتُ أعلم أنها تذوب من قبلاتي وما زاد قليلًا عن القبلات، ولين عنادها، بعد أن تستعيد أيامنا الجميلة قبل أن تعصفَ بها الشكوك والمشاكل. وحدَّثتُها عن قرب ظهور كتابي المترجم عن همنجواي، وأنني سأهديها نسخةً منه. وبعد أن تمازحنا قليلًا على طريقتنا، وعدتني أنها سوف تتابع طلبَ نقلها وتُحاول تحريكه. كما ذكرتُ لي أنها تنوي التقدُّم لامتحان وزارة الخارجية الذي سيُعقد في الخريف لاختيار دبلوماسيين جُدد. وقمنا ونحن متصافيان، على وعدٍ بالاتصال لتحديد موعد لقائنا القادم.

وتوجَّهتُ بعد ذلك بصعوبةٍ إلى وسط البلد للقاء أصدقائي، وجلستُ في إيزافيتش بميدان التحرير، وكان معي الصديق الذي ذكر واقعة المائة غواصة نووية. وشاهدنا

أعدادًا من الجنود يهيمون دونما وجهة، بينما أفراد البوليس الحربي يفحصون أوراقهم. وقال الصديق نفسه إن هذا هو يوم سقوط عبد الناصر، وإن عليه أن يرحل ويُسَلَّم المسؤولية إلى آخرين. وابتسمتُ حين سمعتُ ما يقوله؛ فهو ينقل أخبارًا مختلفة كل يوم، ويبدو أنه يعني بالآخرين الشيوعيين. وسرعان ما جاءنا من راديو المحل نبأ موافقة الرئيس على البقاء تحت ضغط الطلب الشعبي، وذلك للعمل على إزالة آثار هذا العدوان. وقد تلا ذلك ما هو معروف من عدم عودة عبد الحكيم عامر، وبدء إعداد البلاد كيلا يعلو أيُّ صوتٍ فوق صوت المعركة.

عامان من الكارثة

١٩٦٧-١٩٦٩ م

انتظمت الحياة مرة أخرى في القاهرة، ولكن بشكلٍ مختلف عما كان سائداً من قبل؛ فقد ساد الجميع شعورٌ بسقوط المشروع القومي، وبالهُوان من وجود العدو على بُعدٍ قليل من العاصمة، ولكن ساد الجميع أيضاً الشعور بوجود البلاد في حالة حرب. وتم بناءً سواترٍ من الطوب أمام مدخل كل عمارة، وانتشرت أكياس الرمال في الأماكن الحساسة، وران اللون الأزرق على كل نوافذ العاصمة. بيد أنه قابل هذا موجةٌ من الأفلام الإباحية انتشرت في سينمات القاهرة العامة، فلفت ذلك الأنظارَ كمحاولةٍ لإلهاء الناس عن التفكير بما حدث.

وفي مقر عملنا، كان علينا التناوب في السهر طوال الليل في مبنى الوزارة، كنوعٍ من الحراسة المدنية. وكنت أرى نفسي بعيداً عن كل هذه الإجراءات المظهرية، وأسخر من هذه الأعمال الشكلية، ولكنها كانت تُطبّق بجدية بمنطق المساهمة بشكلٍ ما في إزالة آثار العدوان.

وعُدت أتابع قراءاتي وكتاباتي مرةً أخرى على نحوٍ طبيعي. وفي يوليو ٦٧ ظهر عددٌ مزدوج من مجلة الآداب اللبنانية وبه مقالي عن «أولاد حارتنا ومشكلة الشر»، وهو مقالٌ طويل أوردت فيه مقارناتٍ عديدة بين أعمالٍ أدبيةٍ مختلفة وبين أولاد حارتنا، ولكن العدد صُودر في مصر، للأسف، بسبب احتوائه على قصيدة نزار قباني الشهيرة «هوامش على دفتر النكسة». ولحسن الحظ، تحصلت على نسخةٍ من المجلة ما زلتُ أحتفظ بها إلى الآن. وقد أعجبتُ جداً بقصيدة نزار، وكِدْتُ أحفظها عن ظهر قلب، ورددتُ مقاطع منها

على مسامحِ نشوى حتى كادت تملُّ منها. وفي أغسطس ظهَرت ترجمتي لعددٍ من قصائد لوركا في مجلة الهلال القاهرية، ومنها قصيدته المشهورة في مَرثِيَّةِ مُصارع الثيران. وكان نجاحي في النشر في الهلال يُمثِّل لي اختراقًا هائلًا، وترك في نفسي أثرًا عميقًا؛ فقد كنا نقرأ الهلال منذ صبانا، ولم أكن أحلم أن أكون يومًا من بين من يكتبون فيه، فكانت خطوة واسعة وإنجازًا كبيرًا.

وتلا ذلك صدور ترجمتي لكتاب «بابا همنجواي»، تأليف صديقه هوتشنر، ووصلت الترجمة إلى مكتبة مدبولي بالقاهرة، في أغسطس ٦٧ أيضًا. واشتريت أربع نُسخ؛ نسخة لي، ونسخة لنشوى، ونسخة لأستاذي عبد الكريم أحمد، ونسخة لفتاة كنتُ أعطيها دروسًا في اللغة الإنجليزية آنذاك. وكان همنجواي قد أصبح الآن مركز اهتمامي وقرءاتي، حتى كنتُ أحاول معرفة كل دقائق أدبه وحياته.

إرنست همنجواي

وُلد إرنست ميلر همنجواي في ٢١ يوليو ١٨٩٩م، في مدينة «أوك بارك» من ضواحي شيكاغو، لأُمٍّ متديّنة ووالدٍ طبيب يهوى صيد البر والبحر، نقل هوايته إلى ابنه، وعلمه فنون الرماية منذ صباه. وترك إرنست المدرسة بعد حصوله على الثانوية، وتطوع في الجيش وسط الحرب العالمية الأولى؛ حيث عمل كسائقٍ لعربة إسعاف. وأصيب بشظايا قنبلة في رأسه وساقه، فدخل إلى مستشفى إيطالي في «ميلانو» وتعرّف فيه إلى ممرضة إنجليزية ألهمته فيما بعدُ حبكة روايته «وداعًا للسلاح». وبعد الحرب تزوّج همنجواي من الأمريكية «هادلي ريتشاردسون»، وسافر معها إلى باريس؛ حيث تعرّف على نجوم الأدب والفن الذين عاشوا هناك في فترة ما بين الحربين. وأوفدته الصحيفة التي كان يُراسلها إلى القسطنطينية كي يُغطّي أحداث الحرب التركية اليونانية، وبعدها إلى ألمانيا ليكتب عن عودة القوات الألمانية إلى إقليم «الروهر». وبدأ همنجواي كتاباته القصصية والروائية في باريس، فأخرج كتابه الأول بعنوان «ثلاث قصصٍ قصيرة وعشر قصائد». وبعدها تفرّغ للكتابة وتعرّف على جيمس جويس وجرتروود شتاين وسيلفيا بيتش ومكتبتها الشهيرة «شكسبير وشركاه». وتتابعَت أعمال همنجواي: «في أيامنا»، «وتشرق الشمس ثانية»، «سيول الربيع».

ويتخذ همنجواي زوجةً جديدة هي «بولين بفيغر» ويعود معها إلى الولايات المتحدة لتلكِ هناك ابنهما «باتريك» بعمليةٍ قيصرية. وينشر همنجواي «وداعًا للسلاح» و«موت

في الأصل»، علاوةً على الكثير من القصص القصيرة. ويقوم المؤلف بأولى رحلاته إلى أفريقيا عام ١٩٣٣م، كتب عنها في «تلال أفريقيا الخضراء». وحين تتفجر الحرب الأهلية الإسبانية بين الجمهوريين والملكيين، يبذل همنجواي جهوده لنصرة الجمهوريين، وسافر إلى مدريد ليُغطّي أنباء الحرب، وليكون إلى جوار أصدقائه هناك، ومن نيران تلك الحرب، خرج همنجواي برأئته «لن تدق الأجراس؟»، وبزوجة جديدة التقاها في أثناء الحرب هي المراسلة الصحفية «مارتا جلهورن». وبعد انتهاء الحرب الأهلية بانتصار الملكيين بقيادة الجنرال فرانكو، ثم نشوب الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩م، يطير همنجواي مع زوجته الجديدة كي يُغطّي معاً أنباء الحرب اليابانية الصينية. وبعد أربعة أشهر في الصين يعود الزوجان إلى كوبا؛ حيث كان همنجواي قد اشترى هناك ضيعةً بالقرب من العاصمة، هافانا، أطلق عليها اسم «فينكا فيخيا»، ويختاً كبيراً أسماه «البيلار».

وكالعادة، طار همنجواي إلى أوروبا ليؤافي مجلة «كولير» بتطورات الحرب، وكالعادة أيضاً تعرّف على مراسلةٍ أخرى هي «ماري ولش» أصبحت زوجته الجديدة. وأصدر همنجواي بعد الحرب كتابه «عبر النهر وبين الأشجار»، الذي هاجمه النقاد بعنف، بيد أنهم رحّبوا بكتابه التالي وهو «العجوز والبحر». وقام المؤلف كذلك برحلته الثانية إلى أفريقيا مع زوجته ماري، ولكن الطائفة سقطت بهما مرتين، ساد الاعتقاد بعد أولاهما بأن همنجواي قد لقي حتفه، بيد أن الكاتب وزوجته عادا إلى ضيعة كوبا للاستجمام؛ حيث تلقى نبأ حصوله على جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٥٥م. وعاد همنجواي لزيارة إسبانيا عام ١٩٥٩م، لأول مرة بعد هزيمة الجمهوريين، ليشهد مباريات مصارعة الثيران، وليُصدر بعدها كتاب الصيف الخطير عن تلك المباريات. وفي أواخر عام ١٩٦٠م يُصاب همنجواي باكتئابٍ حاد يفشل معه العلاج، فيُقدّم على الانتحار بطلقة بندقية في منزله بولاية إيداهو في يوليو ١٩٦١م. وقد صدر له بعد وفاته عددٌ من الكتب أشهرها «عيدٌ متنقل» و«جنة عدن». كما صدر عن أدبه وحياته مئات الكتب في أنحاء العالم.

وقد حظي همنجواي بشهرةٍ واسعة لكتبه وحياته، وكان له أثره الكبير في أفراد الجيل الرائع، وفي كُتّاب العالم أجمع. وقد ابتكر همنجواي أسلوباً فريداً في الكتابة يعتمد على التخلّص من المحسنات البديعية والتزيينات اللفظية والإطناب، ويتجه إلى الاقتصاد في التعبير understatement والأسلوب البرقي الذي يحاول إيصال التجربة إلى القارئ عن طريق التركيز على الفعل والحدث. وبالإضافة إلى طريقة همنجواي هذه في بناء لغته وبناء رواياته، فإن له رؤيةً خاصة في الحياة والفن، اجتهد أن ينقلها إلى القارئ من خلال قصصه ورواياته.

وكان صدور ترجمتي لكتاب «بابا همنجواي» حدثاً كبيراً؛ فهو أول كتاب لي، صادر باسمي كمترجمه. وقد تأثرت نشوى كثيراً حين رأيت الكتاب واسمي عليه، بالإضافة إلى إهداء كُتِبَتْ لها بقلمِي. وبعد فترة، أوعزتُ إلى علي كمال أن يسأل مدبولي عن حال مبيعات الكتاب، فأجابه «ماشي زي الحلاوة». وفي سبتمبر، نشرتُ لي تراث الإنسانية مقالي عن العجوز والبحر. وفي حديث مع «الدكتور» عبادة كحيلة، الذي كان يعمل في هيئة التأليف والنشر، ذكر لي أن مكافأة المقال في تلك المجلة يصل إلى أربعين جنيهاً؛ ذلك أن عباس العقاد هو الذي أشرف على إنشائها، وأراد لها أن تكون على مستوى رفيع، وفوجئتُ بذلك؛ فقد كانت مكافأة المجلات الأخرى لا تزيد على خمسة إلى سبعة جنيهات. ولما قلتُ ذلك لعبد الفتاح العدوي، نصحتني بنصب سرير في مقر الهيئة، وعدم مغادرتها إلى أن يدفعوا لي المكافأة المقررة!

وعبادة كحيلة أحد نجوم الجيل الرائع، وقد أصدر كتابه الرائد «صقر قريش» في سلسلة أعلام العرب عام ١٩٦٨م، وحصل على الدكتوراه في التاريخ، وعمل أستاذاً بأداب القاهرة. وقد أصدر عبادة كثيراً من الكتب، وهو نشط في الدفاع عن آرائه وقضاياه. وكان هو الذي يَسِّر لي حضور مجلس «الأستاذ» (أي نجيب محفوظ)، في شقة الدكتور الرخاوي بالمقطم، وهو مجلس يقتصر على القليل من الزوار.

وهكذا كان النشر بالنسبة لي في ذلك العام المشثوم مزدهراً، بعكس حالة الوطن التي كنا نشعرُ بألمها ومرارتها حتى النخاع. ومضى كل واحدٍ يلتمس خلاصه في أشيائه الخاصة وطموحاته الشخصية، بعد أن رأينا كل الآمال والأحلام تتحطم على فجيرة الواقع. وشهدنا كل ما تلا ذلك، من حرب الاستنزاف، وتعرُّض مدن القناة للقصف والتدمير وتهجير سكانها. وكان ذلك بدايةً تغييرٍ هائل لبنية المجتمع المصري ونفسيته وأخلاقياته، وما زال يُلقِي بظلاله حتى اليوم.

وفي بداية عام ٦٨، بدأ الشعب المصري يتساءل عن المسؤولية عما حدث في الحرب، وانطلقت المظاهرات تندد بالعقوبات الخفيفة التي تلقاها عددٌ من المسؤولين العسكريين، التي لا تتناسب مع ضياع وطن بكامله. وعمد النظام إلى أساليبه المعتادة؛ فكما صدر الميثاق بعد مأساة الانفصال السوري، أصدرُوا ما سموه «بيان مارس»، مع قرار إعادة محاكمة من اختاروهم كبشٍ فداءٍ للهزيمة. وغني عن الذكر أن كل تلك المواثيق والبيانات لم تلقَ في النهاية سوى النسيان.

وشهدت هذه الفترة تطوراً خطيراً في علاقتي بنشوى، أدَّى في نهاية الأمر إلى فراقنا. كنتُ قد طلبتُ منها ألا ترتدي فستاناً معيناً في العمل، وهو رداءٌ أبيض، جابونيز، ميني

جيب، يُبديها في شكلٍ مُغرٍ جدًّا. وقبلت هي ذلك بعد أن شددت عليها بأني لا يمكن أن أسمح لها بارتداء مثل هذا الفستان في العمل. وفي يومٍ لم نكن سنلتقي فيه لأنني كنتُ مشغولاً بشراء بعض الكتب لمكتبة الوزارة، أنهيتُ مهمتي مبكراً، ففكرتُ أن أذهب للقاء نشوى عند خروجها من العمل. وانتظرتها بعيداً أمام مبنى التلفزيون، ولكنني صُدمتُ إذ رأيتها ترتدي الرداء الأبيض الذي اتفقنا ألا ترتديه أبداً في العمل. ومن فرطِ ذهولي، واتقاءً لمُشاهدةٍ رهيبة يمكن أن تقع أمام زملائها، وإدراكاً مني أن شيئاً كهذا الذي فعلته لا يمكن تعويضه، أثرتُ أن أنصرف قبل أن تلحظ هي وجودي. وحادثتها في التلفزيون في اليوم التالي مبكراً، وصارحتها بأني قد رأيتها بالأمس وهي ترتدي الرداء العاري. وكان ردُّ فعلها على ذلك هو الشيء الذي فصم العلاقة بلا أمل في عودة؛ فقد حاولتُ أن تقنعني أنها لم تكن ترتدي ذلك الرداء بالأمس، وأن التي رأيتها لا بد وأن تكون فتاةً أخرى غيرها! وكان ذلك استخفافاً بي وبعقلي، وضرباً من اللامعقول؛ فلم يكن عندي أدنى شك أن من رأيتها هي نشوى، وأنا الذي يُمكنني أن أُميّزها من أقلِّ لمحّةٍ من جسدها. ثم سطع في فكري أنها إذا كانت تحاول خداعي الآن بهذه الطريقة الملتوية الغريبة، فلا بد أن كل ما كانت تقصّه عليّ من تحفُّظها في الحديث مع زملائها وعن عدم وجود صلاتٍ بينها وبين أحد، كل ذلك يمكن أن يصبُ في خانة الكذب، تماماً مثلما هي تحاول الآن أن تُقنعني أنني لم أرها بالأمس. وعندها أيقنتُ أنني لن أستطيع الاستمرار في هذه العلاقة بعد هذا الخداع الغريب. وقلتُ لنشوى إنني أشعرُ أنني لستُ على ما يُرام؛ ولذلك فسوف أستأذن من العمل وأعود إلى المنزل. وفي اليوم التالي، اتصلتُ هي بي، وأوعزتُ إلى أحد زملائي في العمل أن يرُدَّ عليها ويخبرها أنني لم أحضر اليوم نتيجة مرضي. وبعد ذلك، انتظرتُ هي أن أتصل بها عند عودتي للعمل، ولكنني لم أفعل. كنتُ قد وصلتُ لقناعة عدم وجود أي قاعدةٍ لإعادة الثقة بيننا، وعدم استطاعتي أن أصدّق أي كلمةٍ تقولها لي بعد ذلك. ويبدو أنها لم تقوَ على أن تتصل بي ثانيةً إذا لم أتصل أنا بها. وهكذا تزعزعتِ العلاقة، وكان لا بد لها من أن تنهار.

وتبع ذلك شهوْرٌ قاسية، أحاول فيها اقتلاع نشوى من كياني كله؛ حيث تغلّغت في كل جزءٍ منه، فكان ذلك أشبه باقتلاع القلب النابض من بين الضلوع. وشغلتُ نفسي بكثيرٍ من الأشياء، وحتى البدء في علاقاتٍ جديدة. ولم يكن ذلك مفيداً في شيءٍ سوى زيادة الألم والشجن. وتركتُ الأمر للزمن.

وأعلنتُ الوزارة في ذلك الوقت عن عقد اختبار لموظفيها الذين يرغبون في العمل بالمكاتب والمراكز الثقافية بالخارج. وكان ذلك مبعث دهشةٍ للجميع؛ فلم يحدث أن قامت

الوزارة بذلك من قبل، بل كان الأمر يتم عن طريق الاختيار ممن يزكّيهم أهل الثقة والمراكز العليا، ثم علمتُ بعد ذلك بسر ذلك الإجراء الجديد. كانت الوزارة قد أرسلت قائمة ترشيحاتها للماء المناصب الشاغرة بالخارج إلى رئاسة الجمهورية لاعتمادها. وقد علم زميلنا المخضرم محسن نبيل بذلك، وأنه ليس ضمن المرشحين رغم سعيه الدءوب لدى الكبار من أجل ترشيحه، فكان أن أرسل خطاباً إلى رئاسة الجمهورية يشكو فيه من أسلوب اختيار الموظّفين المنتدّبين للعمل بالمراكز والمكاتب الثقافية بالخارج. ومن الغريب أن الرئاسة قد تجاوبت مع هذه الشكوى، وأعادت قائمة المرشحين إلى وزارة التعليم العالي، طالبة إجراء اختبار لاختيار أفضل العناصر بالوزارة للترشيح لتلك الوظائف، وبذلك لم يعد أمام الوزارة من مفرّ إلا إجراء هذا الاختبار. ورغم أن السفر لم يكن من ضمن خطّطي للمستقبل أو طموحي في ذلك الوقت، فإن وجود امتحان كهذا كان إغراءً كافياً للتقدّم له، من باب التجربة، والانغماس فيما يُلْهيني عن نشوى. وهكذا تقدّمتُ بأوراعي، وحثّنتُ زملائي على التقديم، فكانوا يؤكّدون أنه لا فائدة من ذلك؛ لأن الأماكن محفوظة مسبقاً لأهل الثقة، فكنتُ أرُدُّ بأنه حتى لو أن الأمر كذلك فلن نخسر شيئاً من التقديم واختبار قدراتنا. وكانت مواد الاختبار مألوفة؛ تاريخ مصر، اللغة الإنجليزية، الميثاق، الأعمال الإدارية والمالية. وقد تطوَّع أحد الزملاء العاملين في الحسابات والميزانية بأن يشرح لي كل ما يتصل بميزانية المراكز الثقافية وموازنتها وأساسيات أعمالها المالية. ودخلتُ الامتحان مع عددٍ كبير من الموظفين، وكان سهلاً فمضى في سلام، وبقينا ننتظر ما سيحدث بعد ذلك.

وانضم إلى القسم الذي أشرف عليه موظّفان جديدان من تعيينات القوى العاملة. وكانت إضافةً موفقة. كان كلاهما من خريجي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وكانا يحملان من الذكاء والطموح والنشاط قدراً كبيراً. كان «حسن» من النوع العملي، يأخذ من الحياة ما تقدّمه له من فرص، وطموحاته وظيفية ومادية أكثر منها ثقافية وعلمية. أما «عبد الله» فقد كان فلتة من فلتات الحياة. كان شاباً ريفياً بسيطاً، لا يعرف من الحياة إلا جوانبها الأساسية، ولكنه كان ذا ذكاءٍ حاد، ويتمتع بذاكرةٍ خارقة للعادة؛ إن يمكنه حفظ صفحات كاملة من قراءةٍ واحدة لها. وكان محبّاً للقراءة والكتب والمعرفة بصفة عامة؛ ولهذا كان من الطبيعي أن نتقارب معاً، وأصبحنا نناقش دوماً في أمور الثقافة والتاريخ. وكنتُ مهتماً أيامها بالثورة المكسيكية، فإذا بعبد الله يعرف كل شيء عنها. واكتشفنا أيضاً حبنا المشترك لقراءة القرآن الكريم وتعلّمه، فكنا نطالع معاً فيه ونناقش ما نقرؤه. كان

ذلك في وقتٍ كان التدبُّن العلني فيه مثار شكوك؛ فلم يطل الوقت حتى جاءتني زميلة تُزجي لي النصح بتجنُّب المطالعات القرآنية والمناقشات الدينية في العلن. وكانت النتيجة طبعاً أن ضحكْتُ في سري، وواصلتُ ما أقوم به دون أدنى تغيير. وكنتُ معتاداً على ذلك؛ فقد نصحوني من قبلُ بضرورة الانضمام إلى منظمة الشباب، فحملتُ عليها، ووصفتُها بأنها لا نفع فيها، وأنني لا أقبل المضي مع القطيع لمجرد النفعية والانتهازية، كما أن من طبعي عدم الانضمام لأيٍّ من التنظيمات الجماعية. وواصلتُ صداقتي مع عبد الله إلى أن تقدَّم لامتحان الدبلوماسيين بوزارة الخارجية، وتم تعيينه ملحَقاً دبلوماسياً. وقد تدرَّج في الوظائف حتى وصل إلى منصب مساعد وزير الخارجية. ولما كان من مُحبي الحق والعدل، فقد انتهى به الأمل إلى تقديم استقالته قبل أن يصل إلى سن التقاعد.

ونشرتُ في يوليو ٦٨ مقالاً عن هنري ميلر، من تأليف فيليب راف، في مجلة الآداب البيروتية. وكانت مجلة جيلي، «جاليري ٦٨» قد صدرت وأحدثت دويّاً كبيراً في الأوساط الثقافية. وكنتُ أعرف من يُصدِّرونها من جلوسي معهم في مقهى ريش. بيد أنني — بطبعي المنعزل — لم أكن متداخلاً مع أيٍّ منهم تقريباً. وذات يوم قابلت توفيق عبد الرحمن، وكان صديقاً وزميلًا لكل جماعة الجاليري، وأخبرني أنه حدَّثهم عني وأنهم يُرحِّبون بكتابتي في المجلة، وطلب مني عملاً لنشره بها. ولم يكن عندي جاهزاً سوى ترجمة عن الفرنسية لمسرحية طليعية للكاتبة مرجريت ديراس، عنوانها «الأنهار والغابات»، فأعطيْتُها له. وقد نُشرت المسرحية بالفعل في عدد جاليري لفرابر ٦٩، واحتلت مساحةً كبيرة من المجلة. وبهذا دخلتُ إلى زُمرة مجلة جاليري ٦٨، بعد وجودي وسطهم كل يومٍ في مقهى ريش.

وفي سبتمبر ٦٨، بدأتُ مشروعاً كنتُ أفكَّر فيه من زمن؛ فرغم معرفتي العامة باللغة الفرنسية، فإنني رغبتُ في دراستها دراسةً منهجيةً منتظمة، فالتحقتُ بالمركز الثقافي الفرنسي بالمنيرة، وطلبتُ أن أبدأ في أول مرحلة بدلاً من دخولي اختبار الإلحاق الذي كان يمكن أن يؤقِّر لي عدة مراحل من الدراسة. وكان محمد، صديق علي كمال، قد ألهم خيالنا بحديثه عن باريس ومفاتيح باريس، بعد أن ذهب هناك للعمل في اليونسكو بصورة مؤقتة. وصرنا نحلم بزيارة باريس ورؤية متاحفها وآثارها الغنية.

وفي صيف ٦٨، كنتُ ألتقي كثيراً بعلي كمال، وكنا نذهب كثيراً لزيارة محمد، الذي كان يستأجر غرفة في بنسيون بشارع الأنتيكخانة القريب من ميدان سليمان؛ حيث نتحدث ونأكل ونشرب. وكنتُ معجباً بطريقة محمد المستقلة في المعيشة وحيثه في

إقامته بوسط البلد. وكان كثيرًا ما يستقبل هو وأصدقاؤه زائراتٍ أجنبياتٍ ممن عرّفهن في رحلاته، فكان بهذا يعيش كأنه أوروبي في مصر.

وعُرض في مصر آنذاك فيلم Blow Up ونال شهرةً واسعة بسبب ما تناقله الناس عن وجود مناظرٍ عاريةٍ فيه، وقد ظلّمت هذه الإشاعة هذا الفيلم الجميل؛ فكل ما فيه من إثارة فتاةٌ تخلع بلوزتها، والبطل وهو يلعب فتاتين ترغبان في العمل معه كموديل. وكل هذا ليس فيه من إثارةٍ إلا لمن استحوذ عليه الكبت، فأصبح يرى في أقل القليل أكثر الكثير. وأنا لا أبرئ نفسي، ولكنني وجدتُ في الفيلم نواحيه الجمالية والفنية، خاصة المشهد الأخير الذي يختلط فيه الواقع بالخيال، وهو ما أوحى لي — في لحظاتٍ خاطفة بعد ذلك — بهيكل الرواية التي كنتُ أفكرُ في كتابتها. وقد كتبتُ هيكل الرواية بالفعل في الحال قبل أن يغيب عن ذهني، وبدأتُ في كتابة الرواية في كازينو على شاطئ النيل، ولكنني لم أتمّها إلا بعد ذلك بسنواتٍ طويلة.

وأعلن أحمد الحصري عن إنشاء نادٍ للسينما، لعرض الأفلام الطليعية غير التجارية للمهتمين بالفن السابع، وكنت من أول المشتركين في النادي مع بعض الأصدقاء، وشاهدنا أفلامًا جميلة في النادي، بدأت بفيلم «القناع» السويدي. وكانت الأفلام تُعرض كاملةً دون حذف؛ لذلك شاهدنا الكثير من المشاهد الإيروسية العارية، مما أثلج صدورنا وصدر صديقي العزيز الذي كان يطارد مثل هذه المشاهد! بيد أن استمتاعنا بالتنوع العالية للصناعة السينمائية لتلك الأفلام كان عظيمًا. وأذكرُ في هذه المناسبة كيف تدافع الشبان لمشاهدة الفيلم التشيكي «قطارات مخفورة جيدًا» بالمركز الثقافي التشيكوسلوفاكي بالقاهرة، وهو فيلمٌ رائع حاز أوسكار الأفلام الأجنبية سنة عَرْضه؛ ولكن ما أغرى الناس بالذهاب لمشاهدته مشهدٌ إيروسى يطبع فيه البطل الشاب خاتمَ عمله في مكتب البريد على أرذاف صبيةٍ يُحبها!

وبدأت الدراسة في المركز الثقافي الفرنسي في أواخر سبتمبر، وكان مقره بديعًا حسن التنسيق، ويوحي بالجمال والنظافة في كل شيء. وبدأتُ من ألف باء اللغة، فكان طبيعيًا أن أكون من بين المتفوقين في الفصل. وكان كثيرٌ من الدارسين من طلبة الثانوية الذين أرسلهم أهلهم للتقوية في اللغة، وعدد من الموظفين مثلي ممن يريدون معرفة اللغة تدعيمًا لوظائفهم، وبضعة طلبةٍ أفريقيين يجيدون الحديث الدارج بالفرنسية ولكنهم لا يعرفون قواعدها ولا كتابتها. ولم تكن هناك فتياتٌ يجذبن الاهتمام، إلى أن كنتُ داخلًا يومًا إلى المركز، وفي وسط حديقته الأمامية، إذا بفتاةٍ تصيح بي وأنا أمرُ إلى جوارها

«وعليكم السلام» وهي تضحك، ووجدتُ أنها الصغيرة «امتثال» تقف مع بعض زملاء الفصل، فالتحقتُ بهم وسلّمتُ عليهم. وقالت امتثال: «لماذا تُصرّ على أن تكون وحدك دائماً؟ نحن هنا.» فضحكتُ وقلتُ إنني مسرورٌ بمعرفتها. ووقفنا نتحدث وهي ترمقني بنظراتٍ فاحصة وتساألني عن عملي ودراساتي. كانت في حوالي السادسة عشرة، جميلة، يشع الذكاء والنشاط من عينيها. وبعد الدرس، سارت معي خارج المركز نتحدث. وبعد ذلك، أصبحت امتثال لا تفارقني ونحن في المركز، وكان الجميع يلاحظون تعلقها بي. ويبدو أن ما لفت نظرها فيّ هو اسمي، فقد كان اسمها امتثال ماهر وكانت تُحب والدها حباً شديداً رغم انفصاله عن أمها التي تعيش معها. وكانت لديها بعض المشاكل مع أمها، وهو شيءٌ طبيعي في تلك السن، فكنتُ أسدي لها النصح وأخفف عنها. وأعطيتها رقم تليفوني إذا ما احتاجت شيئاً، وحادثتني أحياناً. وفي يوم عيد ميلادي، دعوتها قبل الدرس هي وصديقتها نجلاء لتناول مشروب المانجو، وخرجنا سوياً إلى شارع القصر العيني، واحتفلنا بشرب العصير، ثم عُدنا إلى المركز بعد أن كان الدرس قد بدأ. وأرّتني امتثال بعض الشعر الذي تكتبه، وأعجبني جداً بخلاف بعض الأخطاء النحوية. وكانت هي تريد مساعدتي في أن أكتب للإذاعة؛ إذ كانت تعرف الناس هناك عن طريق والدها. كانت امتثال تعيش مع والدتها الطيبة، وعلاقتهم تتراوح بين الشد والجذب، ولكنها كانت شديدة الإعجاب بها. وذات مساء، اتصلتُ بي وكانت مكتئبة، وطلبتُ أن أقابلها. وتقابلنا في وسط البلد، واصطحبتُها إلى شرفة سميراميس حيث فضفضتُ لي بهمومها ومشاكلها. وفي يومٍ آخر، ذهبنا إلى سينما ريفولي، وكانت سعيدة وهي تحتضني هناك. ومع انتهاء التيرم الأول في الدروس الفرنسية، لم تُسجّل للتيرم التالي، وبذلك لم نُعد نتقابل في المركز. وقابلتها بالخارج بعد ذلك مرةً واحدة، ثم اختفت تماماً من حياتي. كانت كالطيف الوردي الجميل الذي عبّر حياتي وترك وراءه أثراً طيباً شجياً ما زالت ذكراه في خاطري.

وفي نوفمبر ٦٨، بدأت الأنباء تتّرى عن نجاح عددٍ ضئيل جداً في اختبار الموفّدين إلى الخارج. ولم أكن أفكر في أن أكون ضمن الناجحين، لمعرفتي بالإجراءات التي تُصاحب التصحيح وإعلان الأسماء الناجحة في مثل تلك الاختبارات الداخلية. وقلت لمديرتنا مرةً إنني لا أعتقد أنني من بين الناجحين، فضحكت وبرّقت عيناها. وجاءت الأنباء بعد ذلك بما أُلثج صدري وجعلني معروفاً في الوزارة؛ فقد ثبت أنني قد نجحتُ في الاختبار وترتيبي الثاني. وبدأتُ أتلقي التهاني من الزملاء مع احتجاجي بأن لا شيء رسمياً قد أُعلن بعدُ.

وكانت المفاجأة أن الأول في الاختبار هو محسن، الذي كان قد أرسل الشكوى أصلاً إلى رئاسة الجمهورية. وكانت المشكلة أمام الوزارة هي قلة عدد الناجحين، ولكن ذلك أيضاً كان الثغرة التي فتحت الباب لضم أصحاب الثقة إلى الناجحين؛ إذ تفتق ذهن المسؤولين إلى خفض النسبة المطلوبة للنجاح — وهي التي قررها الأساتذة الجامعيون الذين أشرفوا على التصحيح — من ٧٥٪ إلى ٥٥٪، وهو ما قفز بعدد الناجحين إلى ٨٢، شملوا فيما يبدو كل من كانوا يريدون ترشيحه.

واستدعينا للاختبار الشفوي في فبراير ٦٩. وتأكد ترتيبنا بأن كنتُ ومحسن من بين أول المستدعين للمثول أمام اللجنة التي تشكّلت من ثلاثة من وكلاء الوزارة. وكان الثالث هو جلال الذي عمل في إدارة العلاقات الثقافية في أول عهدها. وأجلستنا اللجنة في ترتيب خاص بأولوياتنا. وكان السؤال العام هو عن الدولة التي يرغب الشخص في الذهاب إليها. وبدعوا بمحسن الذي اختار دولةً أفريقية بحكم تخصصه، وعمله سابقاً في دولة غانا، وله باعٌ طويل في الدراسات الأفريقية. ثم سألتني اللجنة السؤال نفسه فاخترتُ إسبانيا. وفتح ذلك شهية السادة الوكلاء، فأطروني بالأسئلة عن تاريخ العرب في إسبانيا، والكلمات العربية في اللغة الإسبانية وما إلى ذلك. إلى أن وقعت الواقعة! سألني الوكيل للشئون المالية عن نظام الحكم في إسبانيا، ووجدتني أندفع بلا تفكير قائلاً: نظام فاشستي طبعاً. وكأنما حط الطير على رءوس الجميع؛ فقد ساد صمتٌ عميق للحظات، قال لي بعده الدكتور طلبة: لا يا ماهر، السيد الوكيل يقصد هل إسبانيا مع الغرب أم مع الاتحاد السوفييتي. وعندها طفقتُ أشرح مركز إسبانيا الفريد؛ فقد ثار الجنرال فرانكو لإرجاع الملكية، ولكنه الآن رئيس الدولة، ومن المفروض أن تعود الملكية من بعده. وبعد أسئلة عن بعض الجُزُر التابعة لإسبانيا، توجّهت اللجنة بأسئلتها إلى جلال، الثالث في الترتيب، الذي اختار أيضاً دولة أفريقية.

وخرجنا ونحن سعداء بعد تأكدنا من ترتيبنا في المقدمة، ولكنني كنتُ أشع قلقاً من تعرّضي لموضوع الفاشستية، للإيحاءات التي يمكن أن تلقّيها تلك الكلمة. وزاد من قلقي ذلك الصمتُ المريبُ الذي أعقب حديثي عنها، ولكن، ما قيل قد قيل، ولا يمكن العودة إلى الوراء. ولم أصارح أحداً بمخاوفي بل احتفظتُ بها لنفسي. وبعد ذلك الامتحان الشفوي، ازدادت الشائعات بمن سوف يُرشح والأماكن الخالية للترشيح. وظللتُ محتفظاً بعدم اكتراثي بتلك الصراعات الوظيفية، وبدأتُ في مشروع ضخم لقراءة الملاحم العربية القديمة؛ فقد وجدتُ في فترينة إحدى مكتبات شارع القصر العيني طبعاتٍ شعبية لمجلّدات

سيف بن ذي يزن، فدخلتُ واشتريتها. وفي الداخل وجدتُ مجموعاتٍ أخرى منها الأميرة ذات الهمّة، في مجلّداتٍ عديدة، فعقدتُ العزم على شرائها في الشهر التالي. وكان مشروع دراسة تلك الملاحم يلح عليّ منذ قراءتي للغصن الذهبي والأساطير القديمة، مع ما يمكن أن يكون لها من أثر في الأدب المقارن؛ أي بالملاحم القديمة الأخرى. وبدأتُ أقرأ في سيف بن ذي يزن، وكنتُ قد شرعتُ في كتابة روايتي «عزلة النسر»، فوجدتُ بعضَ أبياتٍ من الملحمة طريقها إلى الرواية.

وفي إحدى الأمسيات زارني محسن نبيل وهو في حالة هياجٍ عصبي، ولما تحدّثنا أبلغني أنه قد علم أن هناك محاولاتٍ لإقصائه من الترشيح للعمل بالخارج، فقلتُ له إن ذلك مستحيل لأن ترتيبه الأول في الاختبار التحريري الذي أجرته الوزارة ذاتها، وهذا شيءٌ لا يمكن لهم أن يتجاهلوه، فذكر لي أنهم قد عرفوا أنه هو الذي تقدّم بالشكوى إلى رئاسة الجمهورية، كما أن كل أصحاب النفوذ في الوزارة يقفون ضده. وقد حاولتُ تهدئته، ونصحتُه أن يتصل بمن يعرف من كبار المسؤولين كيما يتدخّلوا لصالحه.

وقد أغضبني موقف المسؤولين من محسن؛ فهو قد أثبت كفاءته، وهم يحاولون الآن حرمانه من حقه وإعطاء ذلك الحق لأحد معارفهم. وبدأتُ أثّرثر بغضبي هذا في الوزارة، وتلميحي بالتلاعب في نتيجة الاختبار كي يُرشّحوا للسفر من أرادوه منذ البداية. وكنتُ أعتمد في كلامي هذا على حالة محسن وحالة أسماءٍ مقرّبة من المسؤولين بدأت تظهر مرشحةً لأفضل الأماكن. ويبدو أن تلك الثروة قد وصلت إلى مسامع من يهّمهم الدس لدى المسؤولين، وأحسستُ بذلك بوضوح. وحتى أريح نفسي، وطّنتُ النفس على أنني لن أرشّح ضمن المنتدبين إلى الخارج، وواسيتُ نفسي بأنني أصلاً لم أكن أرغب في السفر، بل كنتُ أفضل البقاء في مصر وأواصل القراءة والكتابة والنشر. وكنتُ أواظب على متابعة كل جديد يُنشر، خاصة في السلاسل القيّمة، مثل كتاب الهلال والمكتبة الثقافية وقرأتُ منها ابن الرومي للعقاد، وشخصية مصر لجمال حمدان، ورامبو لصدقي إسماعيل، ودراسات في النظم والمذاهب والبحث عن شكسبير للويس عوض — وقد صدّرت في كتاب الهلال — ومن المكتبة الثقافية كتب قصة الورق لأثور عبد الواحد، ونافذة على الكون لإمام أحمد، والقاهرة القديمة وأحيائها لسعاد ماهر، واللغة العربية عبّر القرون لمحمود حجازي. وهذا مجرد غيضٍ من فيضٍ مما أسعدني قراءته من السلاسل القيّمة في تلك الفترة.

وكان حسن زميلي الذي يعمل في مكتب وكيل الوزارة يزودني أولاً بأول بأنباء حركة الترشيحات. وعرفتُ أن هناك مرشحين لمكاتب لندن وباريس وواشنطن، وشعرتُ بالغبن؛ فلم أكن أعرف أن هناك أماكن شاذة هناك وإلا كنتُ قد اخترتُ دولةً لغتها الإنجليزية؛ حيث إن تخصصي الأساسي هو في تلك اللغة، وهناك حيث يُمكن — كما تصوّرتُ قبل أن أعرف ظروف العمل هناك — أن أكمل دراساتي العليا للحصول على الدكتوراه، وهو الهدف الذي كان يسعى إليه كل مثقّف في ذلك الوقت.

وتعطّل إعلان النتيجة عدة مرات، إلى أن جاء أوائل الصيف. وأخيراً ظهرت «الحركة» ووجدتُ اسمي بحمد الله مُنتدباً للعمل في المعهد المصري بمدرّيد. وشملت الحركة أماكن في لندن وواشنطن، ولكنني قنعتُ بما جاءني بعد أن علمتُ أن اسمي كان مستبعداً من الحركة، ولكن تدخل عبد الكريم أحمد غيّر الموقف. وقد حاولوا إقناعه بأنني سأشرح في الدفعة القادمة إلى مكتب في أوروبا، ولكنه ضغط حتى أدرجوا اسمي إلى إسبانيا، وقال لي إنهم بعثوا له بمنشور الحركة، واطمأن على وجودي فيها. وقد أعدوا للمنتدبين دورة تدريبية، حضرنا فيها عددٌ من المسؤولين، كما شملت زياراتٍ لمشروعاتٍ صناعية وسياحية بالقاهرة. وبالفعل، لم تشمل الحركة زميلنا محسن، رغم كل ما بذله من مساعٍ في ذلك الشأن.

وأعقب ذلك الاستعداد للسفر. وقضيتُ أوقاتاً طويلة مع الدكتور شعراوي في جروبي سليمان، أمطره بالأسئلة عن مدرّيد وأحوال المعيشة فيها، واطمأننتُ إلى أنها تحوز الركائز الأساسية للمدن الأوروبية الحديثة، بعكس ما كان يُشاع عنها أنها «ريف أوروبا». وأصبحت متحمساً للذهاب هناك، وإتقان اللغة الإسبانية، ودراسة الحضارة الأندلسية، وفتّح نافذة عريضة أطل منها على الآداب الثرية لإسبانيا وأمريكا اللاتينية.

واختلف ردُّ فعل أصدقائي تجاه تلك السفارة؛ نبيل شعر بالحنين من تفرُّق الأصدقاء، بعد أن ذهب وهيب من قبلُ للعمل مدرّساً بالسودان؛ وصديق آخر رأى أنني بهذه السفارة قد حلّكتُ المشكلة الجنسية من أساسها، ولكن البقية كانوا يرون أنها الحل الأمثل للخروج من الأوضاع المغلقة في مصر. وكان أحد هؤلاء الأصدقاء يقول إنه مُستعد للعمل في أي شيءٍ بالخارج حتى لو كانت وظيفة من يتلقى النقود على باب المراحيض العمومية!

واشتريتُ بعد لأيٍ حقيبتين كبيرتين من القماش الأزرق، اخترتُهما كذلك حتى لا يكون وزنهما كبيراً، بالنظر إلى أن معظم ما سوف أحمله معي هو الكتب والكراسات والمجلات والقواميس. وكان شهرا يونيو ويوليو محمّلين بالآمال الكبار؛ إذ كنتُ أمني

نفسى بسفرةٍ طويلةٍ أَتَشَرَّبَ فيها ما يُمَكِّنني من الاستمرار في الإنتاج الأدبي براحة وثقة. ويُذَكِّرني هذان الشهران بالفترة التي كان ستيفن ديدالوس يستعدُّ فيها — في رواية صورة للفنان في شبابه — لمغادرة دبلن إلى باريس. وكنت أسعى للتعرفُ قبل سفري على أحدث الإصدارات كي أحمل منها زادًا للقراءة هناك. وقد حدَّثني علي كمال — وهو المطلع على كل جديد — عن قصةٍ أعجَبَتْه عنوانُها أوراقُ شابٍّ عاش من ألف عام، فأعجَبَنِي مما ذَكَرَه طَريقَةُ السرد فيها. وقد أهداني علي تلك القصة، وكذلك رباعية المركيز دي ساد التي وجدها في مكتبة شادي. ووضعتُ كل هذا في الحقيبتَين، تأهُّبًا لشد الرحال إلى الأندلس الجديدة.

في ربوع الأندلس

كان سفري يوم ١٢ أغسطس ١٩٦٩ م. وصباح ذلك اليوم، كنتُ قد جَهَّزْتُ كل شيء. وعانقتُ والدتي مودعًا، بينما اصطحبني أخوأي في التاكسي إلى المطار. وخالجَني مشاعرُ عديدة؛ فها أنا — دون قصد — أذهب للعمل في المعهد المصري في إسبانيا، الذي يتصارع الكثيرون على الانتداب للعمل فيه. وكنتُ متهيِّبًا الموقف؛ فهذه أول مرة أخرج فيها للعمل خارج القاهرة، وأول مرة أقيم بمفردي. كما أنني كنتُ سأعمل مع مديرٍ جديد، وسنتسَلَّم المعهد من المدير السابق ومساعدته بعد أن قضيا سنواتٍ عديدةً في العمل هناك، مما سيجعل مهمَّتنا أكثر صعوبة. ورغم أن المدير المعين أستاذٌ مشهور في الفنون الجميلة، فهو سيخلفُ أستاذًا متخصصًا في التاريخ الإسلامي والأندلسي، ولا ندري كيف سيكون عمل المدير الجديد. ولكنني طرحْتُ التفكير في هذه المشاكل جانبًا حتى حين.

بدا المطار مهجورًا، ومعظم المسافرين من الأجانب. وتوجَّهنا إلى مكتب الجوازات حيث أنهيتُ فحص الأوراق وختم الجواز، ثم إلى مكتب شركة مصر للطيران التي كانت تقوم بتسفير كل موظَّفِي الحكومة أيامها. وكان خط سَيرِي هو القاهرة — روما على مصر للطيران، ثم روما — مدريد على خطوط إيبيريا الإسبانية. وشحنَ العمال حقيبتَيَّ، ولم يكن معي نقودٌ مصرية لإعطائهم أيَّ بقشيش؛ وحملتُ حقيبة اليد الفرعونية معي إلى صالة الانتظار. ومع قلقي وخشيتي من ركوب الطائرة، رأيتُ أن أحسن حل للتغلب على ذلك هو الاستغراق في قراءة كتابٍ شيق؛ لذلك رجعتُ إلى أصولي وحملتُ معي روايةً بالإنجليزية لم أكن قد قرأتها لأجاثا كريستي، ثم اصطَفَفتنا في نوعٍ من الفوضى لركوب الباص الذي سيحملنا إلى الطائرة، وأظن أنها كانت من نوع الكوميت. وصعدنا سُلَّم الطائرة في هَرولة، وفي الداخل كان المسافرون يجلسون كيفما اتفق، فحرصْتُ على أن

أجلس في مقعدٍ بعيدٍ عن النافذة. ولَفَت نظري عدم الاكتراث الذي يبدو من المضيفات، بينما أحد المضيفين الشبان يصيح بلهجةٍ مضحكةٍ لا معنى لها Welcome, Welcome. وتحركت الطائرة، ومع ارتفاعها حاولتُ أن أتشغل بالقراءة، ولكنني كنتُ أشعر برهبةٍ شديدة. وبعد أن اتخذتُ الطائرة مسارها ورُفِعَت القيود وسُمح بالتدخين، ظلتُ متصلبًا في مقعدي لا ألتفتُ يمينًا ولا شمالًا، وأقرأ أحيانًا، ولكن، حين أعلن قائد الطائرة بعد قليل أننا نطير فوق الإسكندرية، لم أستطع أن أمنع نفسي من الالتفات تلقائيًا نحو النافذة. ورأيتُ ما ظننتُه الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية، طريقًا رماديًا من الأسفلت الأملس. وهدأت نفسي، وأخذتُ أتطلعُ إلى مَنْ حولي من الركاب. ومع تدقيق النظر مراتٍ عديدة إلى ما ظننتُه الطريق الصحراوي، اكتشفتُ أنني ما كنتُ أنظر إلا إلى جناح الطائرة!

ومع مرور الوقت، وتوزيع المشروبات والطعام، أصبحتُ مشاعري طبيعية، وتبادلْتُ مع الركاب الجالس إلى جوارِي إلى جانب النافذة بعض الحديث بالإنجليزية، وكان إيطاليًا عائدًا إلى بلاده. وحين هبطتُ الطائرة بسلام في مطار روما، حمدتُ الله، وشعرتُ بسعادةٍ غامرة؛ لأنني أطأ لأول مرة أرضًا أوروبية. واحتملتُ حقيقة اليد، وتتبعْتُ الأسهم والياطات التي تقود إلى مكان ركاب الترانزيت حتى وصلتُ إليه. وكان منظرًا مدهشًا، مغايرًا تمامًا لصالات الانتظار في مطار القاهرة، وكأني قد انتقلتُ نقلةً محبوب عبد الدايم في القاهرة ٣٠ حين دخل إلى محفل الأثرياء! كل شيء يبرق، والناس يروحون ويجيئون في نشاط وحبور، والشباب يتعانقون في حرية ولا أحد يكاد يلتفت لهم، والكل حر فيما يلبس ويفعل في حدود شخصه. وتجوَّلتُ في أنحاء الصالة أبحث عن مكتب إيبيريا لتأكيد الحجز. ووقع بصري في هذه الأثناء على مكتب شركة العمال الإسرائيلية إلى جوار مكاتب الشركات الأخرى، فانتابنني رعدة؛ فقد كانت أول مرة أرى شيئًا إسرائيليًا، وحاولتُ الابتعاد عنه تلقائيًا، بينما أنا أرمقه بطرف عيني لأرى هذا الشيء الذي شكَّل لنا نحن العرب هذا القدر من الغرابة والكرامية. وتقدَّمتُ إلى مكتب إيبيريا، وأكَّدتُ تذكرتي إلى مدريد. وكانت طائرتي ستُقلع بعد حوالي ساعتين، فانتهزتها فرصةً لمشاهدة كل ما حولي؛ فأنا في روما بعد كل شيء! وتطلَّعتُ إلى ساحات الانتظار في الخارج، وكلها مكتظة بسيارات الفيات الصغيرة جدًّا، وطفْتُ بالمحلات التي في الصالة، وشاهدتُ السلع المغرية الجميلة دون أن أجروُ على شراء شيء؛ فقد خرجتُ من مصر وليس معي سوى عشرين دولارًا فقط، حسب اللوائح المالية، فكنتُ حريصًا على الإبقاء عليها للطوارئ إلى حين وصولي إلى مقر عملي.

ومن المناظر التي تركت عندي انطباعاً كرمزٍ للغرب الذي سأعيش فيه زمناً، فاتنةٌ في ثوبٍ أصفرٍ قصيرٍ جداً، وهي تصعدُ على السلم الكهربائي إلى الطابق الأعلى من الصالة. وتذكرتُ كيف عاد أحد أصدقائي في القاهرة أدراجه ونحن نسير في شارع قصر النيل ليرى فتاةً أجنبية ترتدي الميكروجيب!

ونادت الميكروفونات على ركاب الطائرة الإسبانية، فدخلتُ مع الداخلين، وفي هذه المرة أجلسَتنِي المضيفة حسب رقم مقعدي. ووجدتُ الطائرة صغيرة الحجم، أظن أنها من طراز دي سي ٩؛ فقد كانت المسافة قصيرة بين إيطاليا وإسبانيا، ولكنها كانت ممثلةً بالسائحين، ومن تفحصهم أدركتُ أن معظمهم من أهل شمال أوروبا، الذين يُهرعون إلى إسبانيا طلباً للشمس التي تمنحهم بشرةً برونزية على الشواطئ الإسبانية، التي عرف الإسبان كيف يُسوّقونها ويُعلنون عنها، حتى أصبحت إسبانيا تتنافس مع فرنسا على المرتبة الأولى في عدد السياح. وساعد إسبانيا في ذلك رخص الأسعار النسبي الذي كانت إسبانيا ما تزال تتميز به عن بقية دول أوروبا.

وفي تلك المرة، بعد أن تعودتُ على الطيران (!)، لم أشعرُ بالرهبة التي شعرتُ بها سابقاً، خاصةً وأنني كنت وسط آياتٍ ساطعات من الجمال الباهر الذي شغلني عن التفكير في الإقلاع والهبوط. ورغم أن الهبوط كان مزعجاً حين لامست عجلات الطائرة الأرض، فقد انتهى الأمر على خير، وخرجتُ مع الخارجين إلى مكان استلام الحقائب. وفوجئتُ عند دخولي ردهة الصالة بوجود مدير المعهد المصري — الذي كنتُ أعرفه بسيماه — في انتظاري مع مساعده الأستاذ سويسبي. وقد تأثرتُ بذلك جداً، وقدمتُ له نفسي، ذاكراً أنه ما كان له أن يُزعج نفسه بالقدوم بنفسه لاستقبالي. واصطحباني إلى حيث تناولتُ حقيبتني، وخرجنا من الجمرک في لحظات. وركبنا عربة الأستاذ سويسبي، وانطلقنا إلى الفندق الذي حجز لي فيه.

وكان أول ما لفت نظري بعد أن تجاوزنا طريق المطار هو أن الطرق التي أراها هي نفس الطرق، والمباني هي نفس المباني. أهذه هي أوروبا إذن؟! وطبعاً كان هذا رد فعلٍ صبيانياً أولياً؛ فما كان لي أن أتوقع مباني وطرقاً مختلفة؛ فالاختلاف هو في الحضارة والثقافة، إلى جانب التقدم العلمي طبعاً. وتبادلْتُ بعض الحديث مع المدير ومساعدته، الذي ذكر أنه قد حجز لي غرفةً في فندق «إمبراثيرث» (الإمبراطورة)، فقال المدير إنه فندقٌ غالٍ، ويجب ألا أمكث فيه طويلاً، وطلب من السويسبي أن يجد لي «بنسيونا» إلى أن أعثر على شقة مناسبة. ووصلنا إلى الفندق، في شارع أنيق هادئ، وأوصلني السويسبي إلى

حجرتي مع عامل الفندق، وذكر لي أنه سيُمر عليّ غدًا في التاسعة صباحًا بعربته أمام الفندق، ويصطحبني إلى المعهد لأتسلم عملي. وشكرته كثيرًا على كل ما فعله.

وحين أصبحت وحدي، أخرجتُ بعض الملابس وعلقتها في الدولاب، ثم غسلت وجهي في الحمام الملحق بالغرفة وتمددت للراحة بعض الوقت. وبعد قليل، غيّرتُ ملابسِي، ونزلتُ إلى بهو الفندق، وطلبتُ تغيير عشرة دولارات إلى البيزيتة (البسيطة) الإسبانية. وبعد أن أتممتُ المبادلة، خرجتُ من الفندق لأرى مدريد. وكانت معي خريطة صغيرة لمدير وجدتها في حجرتي، فاخترتُ نفس الشارع الذي يقع الفندق فيه لأسير عبره حتى أصل إلى الميدان الرئيسي في مدريد المسمى «باب الشمس»، ثم أعود من الشارع نفسه، حتى لا أضلّ الطريق. وأعجبتني النظافة التي تبدّيت في كل شيء من حولي، والمحلات الصغيرة الأنيقة، كما سعدتُ بمروري على عدة نوافذ للشباب — دسكوتيك — تنبعث منها الموسيقى الصاخبة، والتي ذكّرتني بكهوف الوجوديين التي وصفها أنيس منصور في كتاباته. وواصلتُ السير وأنا في نشوة غامرة؛ فلأول مرة أشعر بأنني حرٌّ طليق من أي قيد، وأنني وحدي، مستقل بنفسِي، ليس من أحدٍ يتابع تصرفاتي أو ينتقد أفعالي.

وعبرتُ في طريقي عددًا من الكافيتيريات الصغيرة التي تضع بعض الموائد والمقاعد أمامها في الخارج، وكلها تمّوج بالشباب والفتيات الذين يتحدثون ويشربون في مرجٍ وانطلاق. وواصلتُ السير حتى وصلتُ إلى شارعٍ رئيسي فيما يشبه وسط البلد، يزخر بدور السينما والمطاعم والمشارب، كله شُعلاتٌ مضيئة من النور الساطع، ويموج بالخلق من كل نوعٍ وصنف. واجتزته محافظًا على طريقي إلى أن بلغتُ الميدان الرئيسي؛ باب الشمس، قلب مدريد. وتطلّعتُ إلى الشوارع المتفرّعة منه دون أن أدلف إلى أيٍّ منها، وشاهدتُ في أحد هذه الشوارع مبنىً ضخماً عليه لافتة El Corte Inglés أي «الطراز الإنجليزي»، ففرحتُ جدًّا إذ ظننتُ أنه مركزٌ لبيع البضائع الإنجليزية، بما فيها الكتب! ثم عدتُ أدراجي من نفس الشارع الذي جئتُ منه إلى أن وصلتُ بسلام إلى الفندق، فصعدتُ إلى غرفتي، وأكلتُ بعض البسكويت الذي كنتُ قد ملأْتُ به حقيبة يدي، ثم تهيّأتُ للنوم. وفي الصباح؛ أول صباح لي في مدريد، استمتعتُ بوحدي في السكن، فاستحمتُ وحلقتُ ذقني في استرخاء، وارتديتُ ملابسِي وخرجتُ أنتظر السويسي أمام الفندق. ولم يطلُ بي الوقت؛ فقد سمعتُ من ينادي باسمي، فوجدته في عربته على مبعدة، فهرعتُ إليه، وركبتُ إلى جواره وأنا أحياه تحية الصباح. وخرج بالعربة إلى شارعٍ رئيسيٍّ فسيح ذكر لي أنه شارع «الكاستيَّانا» الذي يتفرّع منه شارع لا هافانا، وعلى ناصيته معهدنا العتيق.

وفي دقائق كُنا أمام مبنًى ذي طرازٍ عربي جميل، فعرفتُ أننا قد وصلنا. ودخلتُ مع السويسي، الذي قدَّمني إلى البواب «فكتور» بوصفي الموظف الجديد، فحيَّته بالإسبانية، وصعدنا إلى الطابق الثاني الذي يضم المكاتب. ويتكوّن المعهد من أربعة طوابق، وبدروم كبير يسكن فيه البواب. والطابق الأول هو ردهة الاستقبال، بينما الثاني لمكاتب الموظفين، والثالث للمكتبة وقاعة المطالعة، والرابع لمسكن المدير. وكان هناك مبنًى للمطبعة في الطابق الأول منفصلاً عن مبنى المعهد، وتحيط بالمبنى حديقة صغيرة.

وصعدنا إلى طابق المكاتب، وبدأنا بغرفة المدير، وكان جالساً إلى مكتبه تحيط به الكتب من كل جانب، والغرفة كلها محاطة برفوف مصطفة بالكتب. ورحب بي المدير، واستفسر عن أحوالي، فذكرتُ له أنني من تلاميذه لأني تربيتُ على قراءة كتبه، فقال لي إن هذا هو ما يسعدُه أكثر من أي شيء؛ فلا المال ولا الوظائف تُعادلُ عنده أن يستفيد الناس من كتبه. وتركنّا السويسي وحدنا، فسألني المدير كيف تم انتدابي هنا، فقصصتُ عليه قصة الاختبار ونجاحي فيه، فقال إن هذا هو الأصح، بدلاً من أن يقذفوا إلى المعهد أناساً بالواسطة، وهو ما حدث منذ أشهر حين فوجئ بانتداب مدرس ثانوي إلى المعهد، وهو العضو الثقافي الآخر معي في المعهد، وإنه لا يصلح لعمل أي شيء، وإنه جاء إلى مدريد لأنه من أقرباء أحد المسؤولين الكبار، الذي حصل من رئاسة الجمهورية على الموافقة على الانتداب، وإنه هنا بحُجة علاج ابنه من الحول في عينه، بينما المقصد الأساسي هو أن «يعالج جيبه»! وضحكتُ من نكتة المدير ولم أعلّق. وعندها همس لي: ولماذا لم يأت المدير الجديد؟ فأجبتُ بأنه على وشك الحضور. فقال المدير: «لا أظن ذلك؛ فقد أرسلتُ طلباً منذ فترة إلى الوزير لبقائي ستة أشهر إضافية لمسائل شخصية، ثم أشفعتُ ذلك بطلبٍ مماثل إلى أحد المسؤولين الكبار (عرفتُ فيما بعد أنه محمد حسنين هيكل) كي يُقيمَ عمامتي». وهذا التعبيرُ كان يُستخدم أيام الدولة العربية والولاة. فسألته لماذا لم يطلب المد لفترة أطول، فأجاب ضاحكاً: «ما هي دي البداية، شوية شوية».

وحضر الأستاذ السويسي كي يصحبني في جولة تعريفية، فأراني حجرة مكتبه وهي تلي مكتب المدير مباشرة، ثم حجرة السكرتيرة الإسبانية، مرسيدس، وكنتُ قد سمعتُ عنها من الدكتور شعراوي، فقدّمتُ لها نفسي متحدثاً بالإسبانية، فدهشتُ وقالت لي إني أول موظفٍ جديد يأتي عارفاً اللغة، فأجبتُ أنني أعرف القليل من الإسبانية المحكية وأمل أن أتقدّم فيها بوجودي في مدريد، ثم دخلنا إلى آخر غرفة في الصف، وبها عدة مكاتب؛ أحدها يشغله الأستاذ حسيب الذي جاء كي «يعالج جيبه»، فتعرّفتُ عليه ووجدته

إنساناً هادئاً طيباً في حاله. وجلستُ إلى مكتب بالحجرة، وجدتُ عليه بعض الكتب، منها كتاب بالإنجليزية عن شكسبير فأخذتُ أتصفّحه في سرور. ودخل المدير فأرأيته الكتاب وأثنيتُ عليه، ثم جاء السويسي وعرض عليّ إكمال جولة التعرّف على بقية أنحاء المعهد، فصعدتُ معه إلى الطابق الثالث، وتعرفتُ على أمينة المكتبة، وهي إسبانيةٌ تُجيد الإنجليزية، وشاهدتُ قاعة المطالعة، خالية، ودخلتُ إلى أبهاء المكتبة وسُررتُ كثيراً إذ وجدتُها عامرة بالكتب العربية، ثم هبطنا إلى الطابق الأرضي وخرجنا إلى الحديقة لندخل مبنى مطبعة المعهد، ويعمل فيها اثنان من العرب المغاربة وأحد الإسبان. وشعرتُ بالغبطة من وجود مثل هذه المطبعة، ومنيتُ نفسي بالغوص في المكتبة والمطبعة كلما سنحت لي الفرصة لذلك.

وعُدنا إلى مكتب الأستاذ سويسي، وكان البواب — المراسلة، فيكتور — قد عاد من البنك، فسلم لي السويسي مقدّم مرتّبي، وكان ٢٥ ألف بيزيتة، وأمضيتُ وصلاً بالاستلام. وذكر لي السويسي أنه يجب أن أفتح حساباً لي في البنك، وأنه سوف يذهب معي لذلك الشأن حين أكون مستعداً. أما وقد حان موعد الغداء، فقد اصطحبني إلى الخارج لتناول الطعام بدعوةٍ منه. وتوجّهنا إلى كافيتيريا قريبة، وتعلّمتُ منه كيف أقرأ «المينو» وكيف أختار الطعام. وقال لي إن أفضل شيءٍ للأكل في خارج المنزل هو في مثل هذه الكافيتيريات التي تقدّم الإفطار والغداء، وإن هناك ما يُسمّى «الأطباق المُشكّلة» platos combinados هي الأحسن والأرخص. وطلبتُ طبقاً من هذه وكان جيداً، وطفّقنا نتكلم على الأكل. شرحتُ للسويسي ظروف انتدابي، وأني جنّت عن طريق امتحان بدون واسطة، وأني كنتُ أريد الذهاب إلى لندن أو واشنطن حيث لغتي الأولى. وكنتُ أذكر ذلك بصفة اعتذارية من أننا سوف نأخذ المعهد منهما، وكان واضحاً أنهما — هو والمدير — في غاية الحزن من انتهاء ندبهما إلى إسبانيا، ولكن السويسي قال لي إنني سوف أحب إسبانيا جداً، وإنها أفضل لي من أي بلدٍ آخر. وقد تألفنا أنا والسويسي من اللحظة الأولى، وقضينا أوقاتاً طيبة إلى أن غادر مدريد إلى القاهرة.

وسألتُ السويسي عن المواصلات القريبة، فشرح لي موقف الباص ٧ القريب من المعهد، والذي يصل إلى شارع خوسيه أنطونيو في وسط البلد قريباً من باب الشمس، ولكنه قال لي إنه يأخذ الأستاذ حسيب معه عند انتهاء العمل لأنه يسكن قريباً منه، وإنه سيأخذني اليوم معه ويتركني في وسط البلد. وعُدنا إلى المعهد، ولاحظتُ أن كتاب شكسبير قد اختفى من على المكتب الذي جلستُ عليه، وكان هذا بداية معرفتي بالوجه الآخر لمدير المعهد!

وركبتُ مع السويسي وحسيب العربة التي انطلقت بنا في طرق مدريد الجميلة، وكنتُ أتطلعُ إلى كل شيء محاولاً احتفاره في داخلي بطزاجته قبل أن أتعودَ عليه. وقال لي السويسي إنه سيتركني في ميدان ألكالا (القلعة) وهو على مسيرة دقائق من باب الشمس، وكانت معي الخريطة فوافقتُه. ووقفتُ في الميدان الفسيح مهوراً بمنظره؛ ففيه تمثال الدُّب رمز مدريد في دائرة تخرج منها نافورة جميلة. ولما كان مركز البريد الرئيسي في هذا الميدان، قرَّرتُ زيارته، وهناك اشتريتُ بعض البطاقات السياحية البريدية، وكتبتُ أولها إلى والدي أطمئنها عليّ، وأرسلتها بعد أن سألتُ عن الطوابع المطلوبة لمصر، ثم نظرتُ في خريطتي، وتوجَّهتُ إلى باب الشمس. وهناك، طُفْتُ على الميدان كله، أتطلعُ إلى المحلات والناس، إلى أن رأيتُ أول مكتبة في طريقي. ورُحْتُ أتطلعُ إلى العناوين الموضوعة في الفترينة. كلها بالإسبانية. كتبُ مشهورة مترجمة إلى الإسبانية. التحدي الأمريكي. قرأته بالعربية. ونظرتُ إلى داخل المكتبة. وجدتُ الزائرين يطوفون بالكتب المعروضة دون أن يعترضهم أحدُ بالسؤال كما يحدثُ في مصر. فتشجَّعتُ ودخلتُ إلى المكتبة ووقفتُ أطلع عناوين الكتب في أول طاولة. كانت الإصدارات الحديثة. كل طاولة عليها بطاقة تحدّد نوع الكتب التي عليها. وبدأتُ بالكتب المترجمة لأنني أعرفها، ووجدتُ أن الإسبان يتابعون كل الكتب الأجنبية المهمة بترجمتها إلى لغتهم على الفور، فرأيتُ ترجماتٍ إسبانية لمعظم الروايات المشهورة والحديثة كذلك. وتهلَّكتُ نفسي؛ إذ وجدتُ ترجمةً إسبانية لمسرحية هملت، وكنتُ قد حملتُ النسخة الإنجليزية معي، فقرَّرتُ شراء الترجمة الإسبانية لأتمرّن فيها على اللغة المكتوبة؛ حيث إنني كنتُ أكاد أحفظ المسرحية الأصلية. وتعجَّبتُ أنني لم أجد كتباً للوركا أو نيرودا، وهو ما كنتُ أحلم به من وجودي بإسبانيا، فلما تقدَّمتُ لدفع ثمن هملت سألتُ البائع عن كتبهما. وقد راعني ردُّه مع التعبير الذي اكتسب وجهه، إذ قال باقتضاب: «سنيور، نحن لا نبيع مثل تلك الكتب.» وبُهِتُ من ردِّه الذي لا أعرف له سبباً، ولكنني حملتُ هملت وخرجتُ متعجباً.

ودلَّفتُ إلى الشارع المتفرَّع من الميدان الذي رأيتُ فيه المبنى الإنجليزي، ولكنني ضحكْتُ طويلاً حين وصلتُ إليه؛ فلم يكن سوى محلٌّ هائلٌ متعدد البضائع من تسعة أدوار، فدخلته وتجوَّلتُ فيه ورأيتُ من الأصناف ما ملأ خيالي بالمتعة والترقُّب، ولكنني أجَلْتُ شراء أي شيء حتى أستقر في سَكْنٍ دائم. وعُدتُ أدراجي إلى الفندق متتبِّعاً طريق الأمس. وهناك وجدتُ ورقةً بأن الأستاذ السويسي اتصل بي وسيعاود الاتصال ثانية. وحمِدْتُ له ذلك؛ فلم أكن أعرف بعدُ كيف أتصل بتليفونات مدريد. وانتظرتُ مرتدياً

ملابسي علّه يريد لقائي، ولكن حين جاءت مكالمتُهُ قال لي إنه عَثَر على بنسيونٍ مناسب لي في وسط البلد، وأرخص من الفندق، فإذا لم يكن عندي مانعُ فإنه سيمُر عليّ صباح غدٍ للانتقال إلى المكان الجديد. ووافقتُ بالطبع، ثم قضيتُ وقتًا ممتعًا في مقارنة هملت بالإسبانية بأصلها، وطبعًا لم يكن هناك مجالٌ للمقارنة، ولكنني استفدتُ كلماتٍ إسبانيةً جديدة، وهو المطلوب. وخبأتُ مرتبتي الكبير إلا قليلًا مما أريده للصرف اليومي، بين صفحات هملت الإسبانية!

واستيقظتُ مبكرًا وأعددتُ نفسي، ثم وضعتُ ملابسِي وحاجياتي ثانيةً في الحقيبتين، بينما أبقيتُ حقيبة اليد للأشياء المهمة، ومنها النقود. واتصل بي السويسي من بهُو الفندق، وبعث لي بعاملٍ يحمل الحقائب إلى أسفل. وهناك دفعتُ فاتورة الفندق، وأعطيتُ العامل إكراميته بعد أن حمل الحقيبتين إلى سيارة السويسي. واتجهنا إلى البنسيون في خمس دقائق، وقضيتُ الإجراءات اللازمة، ودفعتُ نفقات أسبوعٍ مقدّمًا، للإقامة والعشاء، وكانت فعلاً أرخص بكثيرٍ من الفندق. وكما قال السويسي لي إن البنسيون أفضل لأنه سيُعرفني على أحوال الإسبان ويجمعني بهم. ووضعتُ حقائبي في غرفتي المتواضعة، ونزلنا متجهين إلى المعهد. وهناك وجدتُ المدير المنقول في انتظارٍ لأقوم بأول عملٍ لي؛ إذ قال لي إن أحد الدارسين المصريين قد اتصل بالمعهد يسأل عن أوراقه، وهل وصلت من إدارة البعثات أم لا، وطلب مني أن أتصل به وأبلغه أن الأوراق لم تصل، وأنا سوف نُرسل استعجالاً لها. وعجبتُ لماذا لم يكلمه هو. كان مشهورًا عن ذلك المدير أنه لا يُرحّب بإيفاد مبعوثين مصريين للدراسة في إسبانيا، مفضلاً عمل المعهد بالدراسات الأكاديمية والأندلسية، ولم يزد عدد الدارسين في عهده على أفرادٍ معدودين.

وكان الدارس هو «الدكتور» أحمد يونس، ابن الدكتور عبد الحميد يونس أستاذ الأدب الشعبي الذي قرأنا له وتلمذنا عليه. وسعدتُ بأنني سأحدث إلى الابن، فطلبتُهُ وقدمتُ له نفسي فرحّب بي، ولكنه فقد صبره من تأخّر إدارة البعثات في البتّ في طلبه أن يُوضَعَ تحت الإشراف العلمي لمكتب البعثات في مدريد، وهو جزء من المعهد ذاته، ولكنني طمأننته بأنني سأتولى هذا الموضوع بنفسِي، ووعدته بالاتصال به حال وجود أي جديد في موضوعه.

وتبادلْتُ بعض الحديث مع مرسيدس، سكرتيرة المعهد، وسألْتُها أين أجد مؤلفات لوركا ونيرودا، وضحكت حين قصصتُ عليها الرد الجافي في المكتبة بالأمس، فشرحت لي أن المكتبات — كما الناس في إسبانيا — منقسمون إلى فريقين عامين؛ المحافظون

الذين يناصرون فرانكو والكنيسة، وهؤلاء يُبعدون من مكاتبهم أيّ مؤلفاتٍ فيها شبهة الليبرالية، ناهيك عن الاشتراكية والشيوعية. والفريق الثاني هم الليبراليون مناصرو الجمهورية، ومكتبات هؤلاء فيها الكتب المتحرّرة. ومع بعض الانفتاح في نظام فرانكو سُمح بدخول وبيع كتب الفريق المعارض لمن يريد. وأحياناً تجري مهاجمة تلك المكتبات الليبرالية وتخريبها. وقالت مرسيديس إنني سأجد ما أريد من مؤلفات لوركا ونيرودا في تلك المكتبات، وأشارت عليّ بالتوجّه إلى شارع سان برناردو المتفرع من جادة خوسيه أنطونيو؛ ففيه معظم مكتبات وسط البلد. وشكرتُها وتذكّرتُ شارع الفجالة في القاهرة. وما إن انتهى وقت العمل حتى أخذتُ الباص ٧ إلى وسط البلد، وسرتُ قليلاً لأبلغ شارع الكتب. وبالفعل كان مليئاً بالمكتبات، وكنتُ حذراً هذه المرة؛ فلم أدخل مكتبةً إلا بعد أن وجدتُ في نافذتها بعض كتب نيرودا. وحين دلفْتُ إلى الداخل انفتحت لي مرةً أخرى كنوز علي بابا الثقافية. وجدتُ كثيراً من كتب لوركا ونيرودا مطبوعةً في سلسلة لوسادا بالأرجنتين، وتعرّفتُ على كُتب لويس ثرنودا ورفاييل ألبرتي وخورخي جيين، وكنتُ أعرفهم بالاسم، وابتهجتُ لرؤية كتب خوان رامون خيمينيث الذي عرفناه بكتاب حماري وأنا، وأونامونو الذي قدّمه لنا الدكتور عبد الرحمن بدوي كفيلسوفٍ وجودي. ثم رأيتُ عشراتٍ من الكُتب والمؤلّفين الذين لم أسمع بهم من قبل؛ ولهذا فقد بحثتُ عن كتابٍ مختصرٍ عن تاريخ الأدب الإسباني حتى أيامنا هذه؛ فقد تعلّمتُ أن معرفة الإطار العام لأدب لغةٍ ما مهم جداً في وضع خطة التعرّف على ذلك الأدب وقراءة ما هو أساسيٌّ فيه. ووجدتُ هذا الكتاب فاشتريته مع كتابٍ يحتوي على مختاراتٍ شعريةٍ للوركا، وآخر لنيرودا عنوانه «عشرون قصيدة حب وأغنية يأس». وخرجتُ سعيداً بحملي واكتشافي هذه المكتبات وهذا الشارع «الفجالي».

وعُدتُ إلى بنسيوني الصغير لأتعرّش وأستكشف الكتب التي معي. وكانت الحجرة قد رُتبتُ وبدت جميلة، ولكنني لاحظتُ أن بيجامتي التي تركتها على السرير في الصباح غير موجودة. وتحركتُ داخلي أوهام المصريين البسطاء، وقلْتُ في نفسي أهكذا يسرقونني من أول يوم، وخرجتُ أنادي صائحاً على الشغالة ومنادياً: أين ملابسِي؟ وجاءت فتاة تعمل في البنسيون تسأل ما الأمر، فقلْتُ لها إنني لا أجد بيجامتي، ويبدو أنها قد سُرقت، فضحكت الفتاة وأخذتني معها إلى الغرفة ورفعت مخدات السرير، فإذا بيجامتي مطويةً مهنّمة تحتها! وتضرّج وجهي خجلاً واعتذرتُ للفتاة بأنني حديثُ عهدٍ بأعرافهم وعاداتهم، فقالت لا عليك، ودعّنتي للنزول لتناول العشاء، وهو داخل في أجر البنسيون الذي دفعته.

وتعجبتُ من اختلاف العادات بين الأمم، وكيف للغريب أن يعرف ذلك، ولكنها سنة الحياة أن نمتزج وندرُس ونعرف الآخرين، وهذا ما كنتُ أبدؤه بالفعل.

واتخذتُ حياتي في مدريد نوعاً من الإيقاع؛ الإفطار في الكافيتيريا القريبة من المعهد، وسعادتي بتعرفُ الجرسونات هناك عليّ وتحيّتهم لي بحفاوة، مما أشعُرني بأني في الطريق إلى أن أصبحَ مدريدياً أصيلاً! وبدأتُ البحث عن شقة مناسبة حتى أتخلص من العيش الجماعي الذي كان يمثلُه لي البنسيون. وفي صباح أحد الأيام بعد انقضاء عشرة أيام على مجيئي، جاء إلى المعهد «الدكتور» صلاح فضل، المبعوث للحصول على الدكتوراه. وفي الحال امتدّت عُرَى الودِّ بيني وبينه؛ فهو مثقّف وإعٍ واسع المعرفة، وأحسستُ على الفور أنه من ذلك النوع من المصريين الأصلاء الذين يقدّمون العون دون انتظارٍ لعائد أو مردود. وطفّقنا نتناقش في أمور الأدب، وسعدتُ بإعجابه بلوركا، ودلّني على قصيدة محمود درويش عنه. ولمّا علم أنني أبحث عن مسكن وعدّني بمساعدتي في ذلك.

وكنتُ في تلك الأيام الأولى أستكشف وسط البلد المديدي، وأتحسّس طريق التعرف على الإسبانيات اللاتي أراهن رائحاتٍ غادياتٍ في صورة من الفتنة والجمال لم أرها من قبل. وتذكّرتُ قول الدكتور بدوي في كتابه «الحر والنور» الذي أصطحبه معي حتى الآن أينما رحلت: «وأشهد.. لقد طوّفتُ ما طوّفتُ في مغاني الجمال فما عثرتُ على مثل هذا القدر المتجمّع من الجمال والإغراء. كم تأملتُ مواكب العابرين في الشانزليزيه وجادّة الكابوسين بباريس، وفي كورسو أمبرتو وفي ناتسيونالي بروما، وميدان أوديون ومكسميليان بميونخ، والطرق المزدحمة في برن أو على سواحل بحيرات جنيف ولوتسرن، فلم أجد فيها كلها من الجمال عُشر معشار ما شاهدتُ في جادّة خوسيه أنطونيو (جران فيا) أو ميدان باب الشمس Puerta del Sol بمدريد.» أما أنا فقد قضيتُ الأصائل والأمسيات الأولى أذرع الجران فيها جيئةً وذهاباً أتطلع إلى أسراب الجمال المتجمّع فيها، وأجلس بين الفينة والفينة في الكافيتيريات المتناثرة خارجياً على الأرصفة، وكنْتُ لا أزال أشعر أنني غريب عن المدينة، فكنتُ أسمح لنفسي بالحديث إلى من أحب من الفتيات حين يَكُنُّ إلى جوارِي، وكانت مدريد في ذلك الصيف من آخر سنة في الستينيات، محتفظةً بطابعها الأصيل، ولم تَطعَ عليها المسحة الأمريكية التي بدأت تزحف عليها مع بداية السبعينيات. ووجدتُ كافيتيريا جميلة في وسط شارع خوسيه أنطونيو اسمها «موريسون» فاتخذتها مقاماً مماثلاً لجروبي في القاهرة، فكنتُ أجلس فيها، وأراقب ما حولي ومَن حولي في فورة من التوقّد والنشاط الذهني الجمالي والحسي. وقد حدث بعد ذلك أن تكلمتُ مع فتاة شابة

جميلة في الطريق وبادلتني الحديث، وسرتُ معها إلى أن تأهبت لأخذ الباص، فاقتحرتُ عليها أن نتقابل يوم الأحد للذهاب إلى السينما فوافقت. وودعتها وأنا أكاد أطير فرحاً؛ ففي يوم الأحد بمدريد يخرج كل واحدٍ مصطحباً فتاته حيث يستمتعان بالأكل والشرب والرقص أو التردد على السينما أو المسرح. وقد قرأتُ أن أسوأ ما يمكن أن يحدث لشاب أو فتاة في مدريد أن يكون وحيداً يوم الأحد!

وأستبق الأحداث لأكمل قصة هذه الفتاة؛ فقد وفّت بوعدها، وتقابلنا في الساعة الموعدة، وكنتُ قد حجزتُ تذكرتين في أفضل مكانٍ في سينما بالجران فيا التي تعرض فيلماً لجيرالدين شابلن. وتحادثنا كثيراً عن عملها وعلمي، وكان اسمها ماري كروث — اسم إسباني أصيل — وتعمل بائعة في محلٍّ تجاري. وفي السينما، وضعتُ ذراعي حول كتفها، ولكنها أزاحتها بلطف. وبعد فترة أعدتُ المحاولة، فتركتني. وخرجنا نتناقش في الفيلم والتمثيل، ودعوتهُ إلى مقهى العزيز موريسون. وصحبتهُ إلى الطابق العلوي حتى يمكننا تناول طبق الفطائر المحلاة بالعسل، وهو ما كنتُ أرجو أن يعجبها. وبالفعل، كانت جلسةً ممتعة، ذكرتُ لها فيها أنني أقيم بمفردي، وأني أدعوها لترى شقتي في الوليك إند القادم، فأجابت بأنها ستفكر في ذلك. وافترقنا على وعد باللقاء في وسط البلد يوم الأحد القادم، على أن نذهب كيما ترى المكان الذي أعيش فيه. وفي اليوم الموعد، لم تأت. ولم أرها بعد ذلك.

وفي تلك الأيام، عثر لي صلاح فضل على استوديو جميل في طرَف المدينة، وزرتهُ معه وأعجبني، ما عدا أنه كان بلا تدفئةٍ مركزية. ولما كنا ما نزال في الصيف فقد نقلتُ حاجياتي إلى الاستوديو، ووقعتُ عقداً شهرياً مع مندوب المالك. وقد شعرتُ شعوراً جديداً عليّ للمرة من معيشتي وحدي لأول مرة، وامتلاكي مفتاحاً لشقةٍ هي لي أعيش فيها بملء حرיתי، وأدعو فيها من أشاء من أصدقاء وصديقات، في بلد يحترم الحرية الشخصية، وأناس لا يدسُّون أنفهم في شئون الآخرين. وبدأتُ أعودُ على خدمة نفسي بنفسي، وعمل بعض المأكولات الخفيفة كالبيض والأرز وما شابه ذلك، ولكني واصلتُ الأكل في الخارج بصفةٍ عامة.

ودخلتُ في عالم أدب اللغة الإسبانية بشوقٍ عارم وفرحةٍ طاغية. ولزمني قاموس إسباني-إنجليزي وإسباني-إسباني، ولم يكن قد صدر بعدُ قاموس إسباني-عربي. وما إن بدأتُ أقرأ ديوان شعر نيرودا حتى راعتني أشعاره؛ فقد وجدتها تلمسُ الوجدان والخيال والفكر كما يفعل الشعر العربي الجيد، وكنتُ قد خبرتُ الشعر الإنجليزي ولم

أجد فيه — عمومًا — ذلك الدفء والعاطفة الوجدانية التي في الشعر العربي، وأجدها الآن في الشعر الإسباني. وسرعان ما برزت القصائد التي لفتت نظري من ديوانه عشرون قصيدة حب، وكان إحساسي بها يتغير بمعاودة القراءة وعلى حسب الزمن، ولكن القصيدة رقم ٢٠ كانت هي التي رددتها أول الأمر، ربما لرننتها الحزينة، في وقت كان الحزن والشجن والتشاؤم ما تزال في نسيجي الفني. كانت القصيدة تبدأ بسطور تشد القارئ إليها:

أستطيع أن أكتب أشد الأشعار حزنًا هذه الليلة.
أكتب مثلًا: لقد ترصع الليل بالنجوم،
وارتعدت الكواكب الزرق على البعد.
رياح الليل تئن وتدور في السماء،
وتغني.

وتمضي القصيدة تصوّر لوعة الشاعر لفراقه عن حبيبته التي يتذكّرها تلك الليلة بآلم وشجن. ثم توالى استكشاف قصائد الديوان الصغير بالقصيدة رقم ١٤، وفيها:

كلماتي تسقط رذاذًا عليك،
وتُهددك بين قطراتها.
لكم أحببتُ جسدك اللؤلؤي المضيء،
فحسبتُك سيدة هذا الكون.
سأهديك ورويًا بهيجة،
من وراء الجبال،
وزنابق فضية،
وبندقًا مسحورًا،
وسلًا برية من القبلات.
آه!

أشتهي أن أفعل بك
ما يفعل الربيع بأشجار الكرز.

ودفعني ذلك إلى القراءة عن حياة نيرودا ونقد شعره، وكان «أما دو ألونسو» قد أصدر كتابًا يعلّق على أشعار نيرودا فابتهته، واستفدت منه كثيرًا، وواصلت شراء دواوين

نيرودا بالتدريج، على حسب ما كنتُ أجده منها في المكتبات. واتخذ نيرودا مكانه وسط الكُتّاب المفضّلين عندي.

بابلو نيرودا

وكان مولد نيرودا في ١٩٠٤م، ونشأ في «تيموكو» جنوب شيلي، واسمه الحقيقي «نفتالي ريبس». وقد بدأ الكتابة منذ صباه، وحصلت قصائده على جوائز عدة، فكتب بعد ذلك تحت اسم مستعار هو بابلو نيرودا حتى لا يعرف والده بنشاطه الأدبي. وبعد حصوله على ما يعادل الثانوية العامة، يذهب إلى العاصمة سنتياجو ليدرس اللغة والأدب الفرنسيين. وفي ١٩٢٣م يصدر أول دواوينه «شفقيات»، وفي العام التالي «عشرون قصيدة حب وأغنية يأس» الذي يلقي من فوره نجاحًا هائلًا. وبعد أن يكتب أشعارًا جديدة كثيرة، يقبل العمل قنصلًا فخريًا لشيلي في بعض بلاد آسيا القصية؛ بورما، سيلان، جاوة. وفي تلك المدينة الأخيرة يقابل ويتزوج الهولندية «ماري أنطوانيت أجينار». ويعود إلى شيلي في ١٩٣٢م حيث تصدر طبعات عدة من ديوانه «عشرون قصيدة حب»، وديوانه الجديد الرئيسي «إقامة في الأرض». وفي ١٩٣٥م يُعين قنصلًا في مدريد حيث يباشر نشاطًا أدبيًا ضخمًا، ويتعرف على أئمة الفكر والأدب والفن الإسباني وقتذاك، ويجدد صداقته لغرسيه لوركا الذي كان قد التقاه قبل ذلك في الأرجنتين. وأصبح منزله، المسمى «بيت الورد»، قبلة المثقفين والأدباء من كل الأنحاء، وعلى رأسهم لوركا، وميجيل إرناندث الذي كان نيرودا يعامله كابن له. وتنشب الحرب الأهلية الإسبانية فتدمر كل هذا، ويلقى لوركا مصرعه في غرناطة بعد شهر من بدء الحرب، بينما ينحاز نيرودا ورفاقه إلى الجمهوريين. ويكتب درة أعماله إبان تلك الحرب المدمرة: «إسبانيا في القلب» وهي التي بدأ بها قصائده التي تُمجّد الشعوب، وفيها يقول:

لسوف تتساءلون

لماذا لا تحدّثنا أشعاره

عن الأحلام، عن أوراق الشجر،

عن البراكين الفخيمة في أرض موطنه؟

تعالوا لتروا الدماء تُغطي الطرقات.

تعالوا لتروا الدماء

تغطي الطرقات.

وقد حمل فيها بعنف على أثرياء إسبانيا الذين عضدوا فرانكو، وعلى الجنرالات الذين قاموا بالحرب، ونعتهم بأبشع الأوصاف. ولمَّا تنتهي الحرب بانتصار الملكيين، يعمل نيرودا على الدفاع عن الأدباء الجمهوريين الذين بقوا في مدريد، وينجح في تهجير الكثير منهم إلى شيلي وغيرها من بلدان أمريكا اللاتينية. وفي هذه الأثناء ينفصل عن زوجته الهولندية ويتزوج «ماريا دل كارَّيل»، ويشعر في كتابة ملحمة العظيمة «النشيد الشامل». وفي الحرب العالمية الثانية، يقف ضد الفاشية والفاشين، ويتغنى بأمجاد المقاومة، خاصة في الاتحاد السوفييتي. وفي ١٩٤٧م، يختلف نيرودا مع رئيس الجمهورية في شيلي الذي يعمل على اعتقاله، فيختفي الشاعر حتى ينجح في عبور سلاسل جبال الأنديز الوعرة، ويتنقل بعد ذلك في أوروبا ودول المشرق. وفي ١٩٥٠م يصدر ديوانه «النشيد الشامل» وتتعدّد طبعاته نظرًا للإقبال الشديد عليه. وتتوالى دواوين الشاعر غزيرة، ويعود إلى بلاده بعد إلغاء الأمر بالقبض عليه، ويحتفل في عام ٦١ بصدر النسخة الإسبانية رقم مليون من «عشرون قصيدة حب». وفي ٦٩ يتم ترشيحه لرئاسة الجمهورية، ولكنه يتنازل عنها لصالح «سلفادور أليندي» الذي يفوز بالرئاسة، ويذهب نيرودا سفيرًا لبلاده في باريس. ويفوز الشاعر بجائزة نوبل للأدب عام ٧١. وفي العام التالي يترك فرنسا ويعود إلى شيلي، حيث يوجّه نداء في ٧٣ إلى مفكري العالم لتجنب بلاده خطر الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي، ولكن يقع الانقلاب العسكري في ١١ سبتمبر ١٩٧٣م الذي يؤدي إلى مصرع أليندي، ويلحق به الشاعر العظيم في ٢٣ سبتمبر متأثرًا بمرض السرطان الذي أصيب به سابقًا.

وقصتي مع نيرودا قصةٌ حافلة. وقد أرسلت إليه غداة فوزه بجائزة نوبل برقية تهنئة أرجو أن تكون ما تزال بين أوراقه في المتحف الذي خُصّص له بعد ذلك. وفي زيارة لي لباريس، مكثتُ واقفًا أمام سفارة شيلي هناك حتى رأيتُ الشاعر العظيم رأي العين يهبط ليستقل سيارته. وكنتُ ما أزال في إسبانيا عند موته، وشاهدتُ تغطية الأنباء والصحف لذلك الحدث. أما عن كتاباته، فقد قرأتُ كل كُتبه على مراحل، وتأثرتُ بأسلوبه الشعري وصوره البلاغية الغريبة وأشعاره الغرامية. وفيما بعدُ، نشرتُ ترجماتٍ عديدة لقصائده في المجلات، ثم أصدرتُ من دواوينه: عشرون قصيدة حب وأغنية بأس (في طبعَتين)، غزليات نيرودا (وهو ترجمةٌ كاملة لديوانه أشعار القبطان)، إسبانيا في القلب (وهو مجموعة من قصائده، ومحاضراته عند تسلُّم جائزة نوبل، ومقابلة أجراها معه صحفيٌّ فرنسي). وما زال عشقي له مستمرًّا! ويُمكِن للقارئ الاطلاع على كتاب الدكتور الطاهر مكي «بابلو نيرودا شاعر الحب والنضال» لمعرفة المزيد عنه.

أما لوركا فله نفس المنزلة عندي كنيرودا، كما أن معرفتي به أسبق؛ فقد نشرتُ ترجماتٍ لشعره في الهلال في ١٩٦٧م. ولما كان لوركا إسبانياً غرناطياً، فقد أمضيتُ أوقاتي كلها مشبعاً بقصائد لوركا وحياته الأسطورية. وقد عزمْتُ على إعداد كتابٍ عن حياته، مطعماً بأشعاره، بدأته بكلمة واحدة هي: غرناطة. بيد أن الكتاب لم يخرج إلى الوجود إلا بعد ذلك بسنواتٍ طويلة بعد أن ذهبتُ للعمل في نيويورك. وكانت حكومة فرانكو قد خففت من الحظر المفروض على الشاعر وأعماله، فأمكنني أن أشتري الأعمال الكاملة له، التي أصدرتها دار أجيلار للنشر، وأن أشاهد بين الحين والآخر إحدى مسرحياته على خشبة مسارح مدريد. وكانت أولى رحلاتي داخل إسبانيا إلى مدينة غرناطة، أتلّمس فيها الآثار العربية الإسلامية، وكذلك سيراً على خطى لوركا. ويمكن للقارئ الاطلاع على كتابي «لوركا شاعر الأندلس» لمعرفة المزيد عنه.

ويتوالى تعرُّفي على الأدب الإسباني، فبدأتُ أقرأ دُرره وروائعه، الكلاسيكية منها والحديثة، مما تطلب وقتاً وجهداً كبيرين. ولم أهمل الفنون الأخرى؛ ففي أول أحدٍ لي في مدريد، خصصته لمتحف البرادو، المعادل لمتحف اللوفر الفرنسي، ودخلتُ متسلحاً بدليلٍ عن محتوياته وشرحٍ لها. ولن أنسى مشاعري المضطربة الجامعة حين وقفتُ أمام لوحتي جويا «الحسنة العارية» و«الحسنة الكاسية»؛ فقد كنا نقرأ عنهما وعن لوحاته الأخرى، وها أنا أمام أعماله أنشربها في نفسي، واعتدتُ بعد ذلك على زيارة المتحف مرةً كل أسبوعين تقريباً، مخصصاً كل زيارة لرسام معين أو لجانب من المتحف. كما أنني استكشفتُ الموسيقى والأغاني الإسبانية، ووجدتُ مؤلفات الموسيقار العالمي مانويل دي فاي، فاشتريتها، وأدمنتُ سماعها. وكانت أجهزة الكاسيت في بدء ظهورها، فابتعتُ واحداً منها نظراً لسهولة استخدامه وحمله، بالنسبة إلى أجهزة «بيك أب» الأسطوانات، وعرفتُ تدريجياً «ألبانيز» و«رودريجو» وغيرهما من الموسيقيين الكلاسيكيين الإسبان، أما الأغاني فكانت من النوع الراقص ذي الإيقاع السريع، فكنتُ أسمعها للتسلية وللتدريب على سماع الإسبانية المحكية. وفيما بعدُ، أصبحتُ أحب الأغاني المأخوذة من الشعر، حين تغنى المغنون بقصائد لوركا وماتشادو وميجيل إرناندث.

وتعددتُ جولاتي في أنحاء مدريد، فرحْتُ أذرع طرقاتها وجاداتها كلها للتعرف عليها، فلم يبقَ حيٌّ لم أزره. وكانت الشوارع تحمل أسماءً بعينها، منهم العسكريون رفاق فرانكو، ولكن أكثرها يحمل أسماء الفنانين والأدباء، منهم جويا وفيلاسكث وموريلو

وثورباران وسرفانتس ولوبي دي فيجا وغيرهم، ولكن أطرف اسم وجدته هو «شارع المكتبيين» في جنوب مدريد، فتعوّدتُ التردّد عليه كلما انتابني ضيق أو كآبة!

نعود برهةً إلى أحوال المعهد، فنجد أن مساعي المدير المنقول للبقاء قد باءت بالفشل؛ إذ وصل المدير الجديد الأستاذ في كلية الفنون الجميلة، واستلم إدارة المعهد والمكتب الثقافي في مواجهة باردة مع المدير المنقول حاولتُ تخفيفها بقدر الإمكان. وبدأ المدير السابق في إخلاء مكتبه وغرفته وكُتبه، وكذلك مسكنه الحكومي فوق المعهد، وأسّر إليّ أنه سوف يطلبُ الإحالة إلى المعاش ويذهب للعمل أستاذًا في جامعة الكويت. وكانت عملية التسليم والتسلم محرّجة وشاقة، ولكن سرعتها خفّفت من ذلك. وسافر المدير السابق والأستاذ سويسري وأنا على أفضل علاقةٍ بهما، بعكس المدير الجديد الذي بدأ عمله بالبحث عن أي أخطاءٍ أو مخالفاتٍ للمدير السابق. وقد تماشيتُ على أحسن حالٍ مع المدير الجديد؛ فقد كان فنانًا، وأصبحنا نعمل معًا في كل شيء؛ فقد انتقلت الإدارة إلينا، وأصبح صرف شيكات المعهد بتوقيعينَا نحن الاثنين. ولما كان المدير الجديد قد أتى وحده أولاً دون أسرته، فقد كان يُمضي معظم الوقت معي؛ حيث نذهب للغداء في مطعمٍ قريب ثم نعود إلى المعهد. بيد أنه كان غريب الأطوار نوعًا ما، وقد كنتُ أفهم ذلك؛ فمعظم الفنانين بهم شيء من الغرابة، وبدأ بمعركة مع السفارة، وكان السفير وقتها عسكريًا سابقًا من زملاء جمال عبد الناصر؛ فقد رفض المدير إقامة صلاة العيد بالمعهد، بحجة أنه معهدٌ تعليميٌّ ثقافي وليس دينيًّا، ولكن السفير أصر على ذلك؛ فقد جرت العادة في السنوات السابقة على الاحتفال بالعيدين سنويًا بالمعهد، واشتكى إلى وزارة التعليم العالي التي نتبعها، فتلقينا برقيةً تطلب من المعهد الاستمرار في ذلك التقليد بإقامة صلاة العيد كما هو المألوف. وعندها اتخذ المدير ذلك الطلب ذريعةً لإقامة احتفالٍ باذخ بعد الصلاة للمدعوّين، مدّت فيه الموائد بما لذ وطاب، وتكلّف المعهد مبالغ كثيرةً في ذلك السبيل. وقد تولى إقامة شعائر الصلاة وخطبة العيد أحد المبعوثين من خريجي الأزهر فأداها بنجاح. ويبدو أن ذلك الجانب من الاحتفال هو ما كان يثير قلق المدير؛ فقد كان المدير السابق هو من يقوم بتلك الشعائر، بينما لم يكن ذلك في اختصاص المدير الجديد، الذي كان مجاله الرسم والتصوير والفنون.

وأخذتُ أستعد لبداية العام الدراسي، فقرّرتُ أن ألتحق بمدرسة اللغات التابعة لجامعة مدريد، لدراسة اللغة الإسبانية، وبالمركز الفرنسي في مدريد لمواصلة دراستي للفرنسية التي بدأتها في مركز القاهرة. ومن مميزات المعاهد الفرنسية المنتشرة في البلاد

الأخرى أنها متكاملة، ومناهجها واحدة؛ ولهذا تم قبول شهادتي من مركز القاهرة بسهولة في مركز مدريد لمواصلة دراسة اللغة الفرنسية. واشترتُ أشرطة الكاسيت لمنهج تعليم الفرنسية بطريقة Assimil وأصبحتُ أستمع إليها ليلَ نهار. كنتُ مصممًا على إتقان اللغتين الفرنسية والإسبانية بكل السبل المتاحة، حتى أثبتُ لنفسي وللغير أن عدم ابتعاشي إلى لندن أو باريس أو واشنطن لم يثنِ عزمي عن متابعة الدراسة والمعرفة. ومن هنا أيضًا رافقتُ خطى زملائنا من المبعوثين لمعادلة اليسانس الذي حصلنا عليه بليسانس الجامعات الإسبانية، حتى نتمكّن من إعداد درجتَي الماجستير والدكتوراه. وقد قابلتُ في المعهد الدكتور الفلسطيني محمود صبح، الذي رحّب بي، وقال إنه يعرفني من مقالاتي في مجلة الآداب البيروتية، وأضاف أنه قرأ لغالي شكري أن من بين أفضل مترجمي الشعر صلاح عبد الصبور وماهر البطوطي. وقد أسعدتني هذه الأقوال، وتذكّرتُ إعجاب شكري بترجمتي لقصيدة سفينة الموت للورانس. وكان للدكتور صبح نشاطٌ كثيف في المحاضرات والتأليف والترجمة ما بين العربية والإسبانية، وشارك في كثيرٍ من أنشطة المعهد. وممن سَعِدْتُ بلقائهم أيضًا في تلك الفترة الدكتور عبد الرحمن بدوي، الذي زار المعهد لأخذ نسخة من مجلة المعهد، ومكافأته عن المقال الذي نشره فيها. وقد نقلتُ إليه إعجابي بكتبه، خاصة الحور والنور، وترجمته الفائقة لدون كيشوت؛ مما أزال بعض التحفظ الذي اعتاد عليه الدكتور بدوي مع الأغراب، وشرح لي كيف رجع إلى عدة طبعاتٍ إسبانية لدون كيشوت لمقارنة النص، وكيف غاص في تاريخ المفردات الإسبانية في عصر سرفانتس حتى يقدّم الكلمة الصحيحة لما كتبه. وقد بقيتُ كلمات الدكتور بدوي في ذاكرتي تجعلني أضحك ساخرًا حين يطلع أحدهم بزعم أن الدكتور بدوي ترجم دون كيشوت عن لغةٍ أخرى غير اللغة الإسبانية الأصلية! كذلك شرفتُ بمعرفة الأستاذ العلامة عبد الله عنان، الذي كان يتردّد على مكتبة المعهد لمواصلة أبحاثه القيّمة عن التاريخ الأندلسي.

وحين بدأ العام الدراسي وجدتُ أن المدير الجديد لن يقوم بتدريس منهج اللغة العربية للإسبان، الذي يقدّمه المعهد على مستويين دراسيين، فكان عليّ أن أقوم أنا بذلك. وساعدني في هذا النسخة التي كان المدير السابق يستخدمها في التدريس، وهي من وضعه وتأليفه. ورغم ضيقي بعبء التدريس الإضافي، فقد استفدتُ منه في آخر الأمر فائدةً كبيرة، في طرق تعليم العربية للأجانب، وفي الحديث بالإسبانية كذلك، ووجدتُ أن كتب تعليم العربية لم تستفد من الوسائل الحديثة في تعليم اللغات، فاختمّرتُ في ذهني فكرة إدخال الوسائل السمعية والبصرية في تعليم العربية، وبدأتُ في إعداد منهج لهذا الأمر، ولكنه

للأسف لم يكتمل بسبب ضغوط العمل وتغيّر إدارة المعهد كما سيَرِدُ بيانه. وفي أكتوبر أصيب الأستاذ حسيب، زميلي في المعهد، بنوبة قلبية، ولزم منزله في إجازة مَرَضِيَّة، فكان عليّ أن أقوم بكل أعمال المعهد؛ الإشراف على أعمال المطبعة ومراجعة بروفات الطباعة، تدريس اللغة العربية، الإشراف على المكتبة وتزويدها بالجديد من الكتب والدوريات، القيام بالأعمال الإدارية والمالية، متابعة المبعوثين وحل مشاكلهم. ورغم ضيقي بكل هذه المسؤوليات فقد استفدتُ منها فائدةً كبرى، خاصة بحصولي على شهادة خبرة في تدريس العربية للأجانب، وأخرى في تصحيح تجارب الطباعة، التي مكّنتني من دخول امتحان الأمم المتحدة لتلك الوظائف فيما بعد.

وكنْتُ قد ذهبت مع المدير الجديد بعد فترةٍ من وصوله إلى فرع البنك الإسباني الذي نُودِعَ أموال المعهد فيه، وأخذنا قرضًا شخصيًا لكلِّ منا، فاقترضتُ ما يعادل ستمائة دولار، بينما اقترضَ المدير ما يعادل عشرين ألف دولار، وذلك لشراء سيارة. وحين اشتد البرد، لم تُفْلِح المدفأة في الاستوديو الذي استأجرته في إشاعة الدفء الذي أريد، فانتقلتُ إلى شقّةٍ أخرى واسعة، تُواجه شقة صديقٍ لبناني وأسرتِه، هو الرسام المشهور حسن جوني، وكان يدرُس في كلية سان فرناندو للفنون الجميلة. واستخدمتُ مبلغ القرض لشراء الحاجيات الضرورية للمعيشة، من معطفٍ ثقيل، وملابسٍ مناسبةٍ للشتاء، وحقيبة سامسونات، وما إلى ذلك من حاجيات. وقد انتهتْ أمرُ هذين القرضين نهايةً سيئةً؛ فبينما كنتُ أدفع أقساطي بانتظامٍ للبنك، تأخَّرَ المدير في دَفْع بعض الأقساط، مما دَفَعَ البنك إلى استرداد مستحقّاته كاملة، ولكن من الأموال الخاصة بالمعهد، مما شكّل لنا كارثةً كبرى. وقد تدخلَ المستشار التجاري المصري بمديري، ونقّل حسابات المعهد لفرع البنك الذي تتعامل معه السفارة، وتمّت تسوية الأمر وإعادة أموال المعهد بالكامل. وكان ذلك بداية احتكاكاتٍ بيني وبين المدير؛ إذ كنتُ أجد في بعض تصرفاته مبالغاةً كبيرة.

وتابعتُ حضور حصص اللغة الإسبانية واللغة الفرنسية بانتظام، وكانت دروس الإسبانية في جوٍّ شبه دولي؛ فقد كان الدارسون جميعاً من جنسياتٍ متعددة، وفيهن فتياتٌ بارعات الجمال، سرعان ما أخذ الشبان في التودّد إليهن. وفي هدوء، تعرّفتُ على فتاةً فرنسية اسمها ماري كلود وصديقة لها إنجليزية تُدعى شستر، وأصبحنا نخرج معاً لشرب البيرة والقهوة والنقاش في كل الأمور. وحاولتُ التودّد إلى ماري كلود، وزرّتها في شقتها الصغيرة، وذهبتُ إلى السينما ومقهى موريسون مراراً عديدة. ولكنها اختفت فجأةً ولا أدري أين ذهبت؛ فالحب في هذا الزمان — كما يقول حسب الشيخ جعفر — مسافر، يأتي ويذهب عنا فجأةً ولا ندري لأين!

كنتُ أحضرُ دروسَ الإسبانية مساءً، ودروسَ الفرنسية عصرًا، فأخرج من المعهد حوالي الثانية فأغدّى بسرعة، ثم أهرع إلى مقهى «ريوفريو» المجاور للمركز الفرنسي، فأحتسي فنجان القهوة باللبن الذي ينشطني، وأدلف إلى درس الفرنسية وسط فتياتٍ في عمر الزهور جنن للاستزادة من تعلّم الفرنسية التي يدرّسها في المدرسة أو الجامعة. ولفت نظري واحدة من هؤلاء الفتيات، ناضرة، فائقة الحسن، أندلسية، غزلانية العينين، ذات شعرٍ فاحمٍ ناعم، فاخترتها كي أحاول الفوز بصداقتها. وكنت كلما تبادلتُ معها حديثًا أعجب من سطحيّتها الشديدة، ولا غرو فقلما يصاحب الجمال الذكاء، علاوةً على صغر سنّها. وكان الجميع فرحين بوجودي معهم، وإن نظروا لي بوصفي «أعجوبة» قادمة من بلادٍ بعيدة! وقد ظل الأمر على هذا المنوال حتى قرب نهاية العام الدراسي. وكان في هذه الفترة تنفيذ مشروعني الفرنسي الكبير بقراءة «البحث عن الزمن الضائع» لبروست في أصلها الفرنسي، بعد أن قرأتها في مصر في ترجمتها الإنجليزية الرائعة. واقتنيتُ الأجزاء السبعة للرواية في طبعة الفوليو الفرنسية، واشتريتُ في الوقت نفسه الترجمة الإسبانية للرواية في سبعة أجزاء أيضًا، والترجمة الإنجليزية الشهيرة لمونكريف. وعكفتُ كل ليلة على قراءة النص بالفرنسية، فإن غمض عليّ المعنى أو المفردات، استعنتُ بالترجمة الإنجليزية أو الإسبانية، ثم بالقواميس إذا دعت الضرورة. ويا لها من متعة! ويا لها من مشقة! تفكيك لغة وعبارات هذا الساحر الفرنسي واستيعابها في نفسي. كم شاقني القراءة عن سوان وغيرته الجنونية على فتاته، ما أعاد إلى ذهني علاقتي الغريبة مع نشوى، والتي بدت أقلّ غرابة إذ أجد لها موازيًا مثل الذي في رواية بروست. وقد قرأتُ الرواية بهدوء وصبرٍ إلى أن أنهيتها في خلال عام.

وما إن أהלّ ديسمبر حتى بدأت البلاد تستعد للكريسماس واحتفالاته. وفي البداية كانت تحيّرني البوسترات التي تقول Feliz Navidad Y Reyes أي عيد ميلاد وملوك سعيد! وكنتُ أظن أنهم يعنون تعيين الأمير خوان كارلوس ملكًا مستقبلاً للبلاد، ولكن اتضح أن إسبانيا تحتفل في السادس من شهر يناير من كل عام بزيارة ملوك الشرق الثلاثة للسيد المسيح في مهده؛ حيث قدّموا له الهدايا الثمينة، وفي ذلك اليوم يتهادى الإسبان فيما بينهم، لا في الكريسماس ولا عيد رأس السنة. وكان كل احتفال من هذه الثلاثة فريدًا في نوعه؛ ففي الكريسماس تنتشر الزينات وتتردّد أغاني يسمونها Villancicos (التي هي بالإنجليزية Christmas Carlos) تتغنّى بالسيد المسيح ومولده، وتنتشر البهجة في كل الأنحاء. أما رأس السنة، فيحتفلون به في ميدان باب الشمس، في رقص وأهازيج، وحين

يحين منتصف الليل على الدنو، يتناول الناس اثنتي عشرة حبة من العنب؛ حبة مع كل دقة، تنتهي بالدقة التي تُعلن مولد العام الجديد، ويتفاعل الإسبان بهذه العادة، ويتمنون في أثنائها ما يرجون من السنة الجديدة. أما يوم الملوك، فتظل المحلات مفتوحة إلى ما بعد منتصف الليل، حتى يشتري كل واحد الهدايا التي يعتزم تقديمها لمحبيه وأصدقائه. وفي كل تلك المناسبات وغيرها، تتبدى روح المرح والبهجة التي تسود الإسبان، وتدفعهم إلى انتهاز أي فرصة للترويح عن أنفسهم كما يريدون.

وبعد أن درست تلك الاحتفالات عن قرب وشاركتُ فيها، انتهزتُ فرصة الإجازات في مطلع العام الجديد لشد الرحال إلى مهد شاعري المفضل؛ لوركا. وكنتُ في الشهور الماضية قد زرتُ كل الأماكن السياحية المحيطة بمديريد، عن طريق شركة «بولمان تور» للرحلات المنظمة، فزرتُ طليطلة وأرانخويت ووادي ضحايا الحرب الأهلية، وغيرها. وحان الوقت الآن للخروج من مديريد، وكان من الطبيعي أن تكون أول سفريه لي إلى غرناطة. وأخذتُ القطار من مديريد، الذي قطع المسافة في ساعاتٍ طويلة، وسط حقول قشتالة الجرداء، ولكنني كنتُ أنشرب كل ما أرى وأسمع. وحين وصلتُ غرناطة، وجدتُ أنني أخطأتُ بعدم حجز فندقٍ مقدّمًا، ووجدتُ كل الفنادق المتوسطة بل والفاخرة مشغولة، وأخيرًا وجدتُ «هوستال» (نوع من الفنادق الرخيصة)، فحمتُ الله، وألقيتُ بحقيبتَي في الغرفة، ونزلتُ أسعى في مدينة أحلامي.

كان الليل قد أسدل أستاره، فلم يتبقَّ وقتٌ في اليوم لبدء زيارة الآثار العربية أو المتاحف، فقصدتُ وسط البلد أتعرفُ إلى روح المدينة. وكانت مدينةً عاديةً إقليمية، تبدو عليها مَسحة من الفقر، وإن كانت نظيفة. عندها فهمتُ أكثر قول لوركا في حديثٍ له عن بلده حين سُئل عن سقوط الحكم العربي لغرناطة: «لقد كان يومًا أسود، رغم أنهم يذكرون لنا عكس ذلك في الكتب المدرسية. لقد ضاعت حضارة مدهشة، وشعر، وفلك، ومعمار، ورقّة لا مثيل لها في العالم، وحلت محلها مدينة فقيرة، خائفة، تزخر بطالبي الصدقات، وحيث توجد الآن أسوأ طبقةٍ برجوازية في إسبانيا.»

وتعشّيتُ في إحدى الكافيتيريات عشاءً شهياً، وتوجّهتُ بعدها إلى فندقي للنوم استعدادًا للغد. وخرجتُ مبكرًا، متسلحًا بكتاب دليل غرناطة وكاميرتي المتواضعة، وقصدتُ أهم معالم المدينة؛ قصر الحمراء وحدائق جنة العريف. ومضيتُ مُصعِدًا في طريق وارف الشجر، أفضى بي إلى ساحة الدخول إلى قصر الحمراء وملحقاته. كان هناك عددٌ كبير في انتظار بدء الزيارة؛ فقد كان الوقت ما يزال مبكرًا. وبعدها، اشتريتُ تذكرةً شاملة لكل

الآثار والمتاحف بالمنطقة، صالحة لمدة أسبوع. ودخلتُ من البوابة الرئيسية فوجدتُ نفسي وسط فردوسٍ من الجمال المعماري والتشكيلي الفخم، وتَنَقَّلْتُ ما بين بهو الرياحين، وبهو الأخوات، وبهو السفراء، وقاعة بني سراج، حتى دُرَّةَ الحمراء وهو بهو السباع. وبهو السباع عبارة عن نافورةٍ يحيط بها ١٢ أسداً تنبعث من أفواهها المياه، وسط ساحةٍ شاسعة تتعدّد المداخل إليها. وقضيتُ طول النهار داخل الحمراء؛ إذ إنه قصورٌ متعددة يفضي الواحد منها إلى الآخر، وفيها من الآيات القرآنية وأبيات الشعر وعبرة «لا غالب إلا الله» ما يجعل المرء يعودُ بذهنه إلى الأمجاد العربية والإسلامية في تلك البلاد. وفيه كذلك من النقوش والمقرنصات والدلايات ما هو مُعْجَزٌ بكل الأوصاف. وأثار انتباهي وجود عدد من زخرفات النجمة السداسية على الجدران، وتذكّرتُ ما يُقال إن العرب كانوا يعتبرونها خاتم سليمان الذي استخدمه في ختم القماقم التي حبس بها الشياطين. وفي قاعة السفراء تخيلتُ سلاطين بني الأحمر يستقبلون سفراء الدول الأخرى فيها، وفي بهو بني سراج استعدتُ وقائع المذبحة الدامية التي انتهوا إليها على يد بني الأحمر.

وفي الأصيل توجّهتُ إلى «جنة العريف» وهي كانت أصلاً كرمة من كرمات الأمراء، أمامها حديقةٌ مستطيلةٌ كبيرة، تتوسّطها بركة ونوافير، وكلها فعلاً تماثل جنةً أرضية. وجلستُ على أريكةٍ مقابلة للحديقة وغرقتُ في سكونيةٍ وراحةٍ قلما شعرتُ بهما. وبعد فترةٍ طويلة، شعرتُ بشابٍّ يجلس إلى جوارِي، وحين تطلّعتُ إليه حيّاني بالإسبانية. وتعارفنا، فإذا هو أرجنتيني أنهى دراسته الجامعية في المحاماة، ويقوم الآن بجولة في أوروبا قبل أن يعود إلى بلاده ليبدأ حياته العملية. ولما عرف أنني مصري، ذكر لي أن له خطيبةً في بوينوس آيرس وهي من أصلٍ لبناني. وتبادلنا بعض الأحاديث العامة، والمناقشات الفنية والأدبية، مما قرّب فيما بيننا. واتفقنا على أن نتقابل في الغد ونزور معاً متحف الموسيقى مانويل دي فايّا. وخرجتُ متشبعاً بجو الحمراء وجنة العريف وأمجاد العرب والمسلمين. وعدتُ مساءً إلى وسط المدينة، وجُلْتُ فيها جيئةً وذهاباً، بحثاً عن أي رحلاتٍ معلنة لبلدة لوركا أو إلى منطقة «فيزنار» التي لقي فيها مصرعه، ولكن لم يكن هناك أي شيءٍ من هذا القبيل. ولم يكن هناك أحدٌ يحب الحديث عن لوركا مع الأجانب، من كثرة الصحفيين والأدباء الذين كانوا يهبطون إلى المدينة وراء أخبار الشاعر وأسرار مصرعه.

وفي الغد، قابلتُ «كارلوس»، الصديق الأرجنتيني، وصعدنا معاً مرةً أخرى في طريق أشجار السرو إلى كرمة «دون مانويل» كما يُسمّى الغرناطيون ابن بلدهم مانويل دي فايّا. وكلمة «كرمة» العربية؛ أي الفيلا الصغيرة المحاطة بحديقة (كما نقول الآن كرمة

ابن هانئ) انتقلت إلى الإسبانية واتخذت شكل carmen، تلك الكلمة التي كنتُ أعتقد قديماً أنها أكثر الكلمات إسبانية؛ إذ إنها من أكثر الأسماء شيوعاً في فتيات إسبانيا. واستمتعتنا بمشاهدة الآثار التي خلفها الموسيقار الأندلسي، والبيانو الخاص به، ونواته الموسيقية. وجلسنا في أحد أركان الاستماع، نُصِت خلال السماعات إلى موسيقى الحب الساحر، وهي أجمل ما أحب لفايا، ورغم استماعي لها كثيراً في المنزل، فإن تجربة سماعها في مَهَبٍ وحي الموسيقار لها متعة لا يمكن وصفها.

وانطلقنا عائدين إلى المدينة، فتغدينا في شرفة أحد الفنادق، وقرّرنا أن نزور حي «ساكرمنتو» في المساء، وهو حي الغجر الغرناطيين، وهو معلّم من معالم المدينة. وبعد أن استراح كل واحد منا في فندقه، التقينا واتجهنا إلى موقع كهوف الغجر، مخترقين حي «البيازين» العربي، إلى أن وصلنا إلى سلسلة من البيوت المنخفضة؛ الكهوف، رأينا في بعضها سياحاً يتفرّجون على عروض رقص وغناء الغجر ولكننا لم نكن نرغب في شيء سياحي، إنما نبحث عن بعض الأصالة. والتقينا فلاحاً عجرياً مسناً، أوصانا بكهف معيّن نجد فيه مرادنا. واتفقتُ مع كارلوس ألا نبدو كالسياح، وأن نتحدث الإسبانية، هو أكثر وأنا أقل، حتى لا يخدعنا أهل الدار ويكلفونا ما هو أكثر من المتعارف عليه. وهناك، طرّقنا الباب ففتحت لنا صبيةً حسناء، ذكر لها كارلوس ما نريد، فنادت على أمها التي جاءت ورحّبت بنا وأدخلتنا. وكانت القاعة غريبة الشكل؛ كهفٌ حقيقي، وعلى الجدران والسقف أدوات منزلية من النحاس اللامع، وحُزِم من الثوم والبصل، ومقنناتٌ أخرى. وجاء رجل وامرأتان والشابة الصغيرة. وبدأ الرجل يدندن على جيتاره أنغاماً حلوة، وبعد قليل بدأت النسوة يصفقن ويغنين أغاني باللهجة الجنوبية العجرية. وما إن حمي المشهد، إلا وقامت الفتاة الشابة ترقص وتغني. وكان معها ما يشبه الإيثارب الطويل ترقص به، ثم ألقتة على عنق كارلوس كدعوة لمشاركتها في الرقص، بيد أنه اعتذر، فمالت نحوي وألقتة حول عنقي، فنهضت من فوري ورقصت معها كيفما اتفق، وشعرتُ بسعادة بالغة؛ فقد كانت الفتاة تشبه المصريات السمرات. وفي غناء العجريتَيْن، أخذتا تُنشدان بعض قصائد لوركا وأغانيه، فطفقتُ أغني معهما، مما أثار فيهما الدهشة. ولا بد أن كل هذا فعل فعله حين جاء وقت الحساب؛ فقد طلبتا ٤٠٠ بيزيتة من كل واحد منا، مما اعتبرناه ثمناً معقولاً، فدفعنا مع بقشيش مناسب، وغادرنا ونحن في سعادة وحبور.

وفي اليوم التالي، أعدتُ زيارة قصر الحمراء وحدائق جنة العريف، وابتعتُ من إحدى مكتبات غرناطة بعض الكتب الجديدة وجدتها هناك، ثم أخذتُ القطار عائداً إلى مدريد، مستقبلاً العام الجديد.

١٩٧١-١٩٧٢م

عُدْتُ إلى المعهد والمنزل ودروس الفرنسية والإسبانية وقراءة بروست بالفرنسية. كان لتغيير إدارة المعهد أثرٌ في زيادة عدد المبعوثين المصريين للدراسة في إسبانيا، ووَقَدَ إلينا ثلاثة من خريجي الفنون الجميلة للدراسة في كلية سان فرناندو بمدريد. وكان منهم «الدكتور» أحمد نوار، الذي نشأت بيني وبينه صداقةٌ أساسُها حب الفن والنقاش في أموره.

وقد لَفَتَ نظري أنني لم أكتب شيئاً طوال الفترة الماضية. وكان الدكتور سهيل إدريس قد طلب مني كتابةً مقدّمةً لرواية «صورة الفنان في شبابه»، وقبل أن أشرع فيها أخبرني بخطابٍ آخر أنه قرّر عدم نشر الرواية نظراً لغرابة بنائها وصعوبتها، مما سيجعل من نشرها خسارةً مادية. ولم أهتمّ بذلك حينها؛ فقد كنتُ في عالمٍ آخر في مدريد (وقد نشر إدريس الرواية بعد ذلك في ١٩٧٣م، ونجحتْ بدليل أنه نشر منها طبعةً ثانية فيما بعد!). وواصلتُ الاطلاع الحميم على الأدب الإسباني وأدب أمريكا الإسبانية، فيما وراء لوركا ونيرودا، فتعرّفتُ — من الشعراء — على أعمال أنطونيو مانشادو، ليون فيليب، جوستافو بركر، لويس ثرنودا، رافاييل ألبرتي، ومن الروائيين بيو باروخا، بدرو ألكون، جالدوس، وبالطبع «دون كيشوت دي لا مانتشا» التي قرأتها بالإسبانية القديمة ثم الحديثة، بالاستعانة بترجمة الدكتور بدوي. ولم أهمل قراءتي بالإنجليزية؛ فكنتُ أقرأ تاريخ أمريكا اللاتينية في كتاب بليكان، وأستمع بروايات جورج إليوت التي لم أقرأها بعد، فضلاً عن متابعة إنتاج كولن ويلسون صاحب «اللامنتمي»، رغم أن كُتبه اللاحقة لم تكن بجودة كُتبه الأولى.

وقد لَفَتَ نظري الإشارات العربية العديدة في رواية دون كيشوت، وقرأتُ سيرة حياة مؤلفها سرفانتس، ووجدتُ أنه قضى خمس سنواتٍ أسيراً في الجزائر؛ حيث لا بد أنه

أحاط بالكثير من العادات العربية، واستمع إلى القصص والحكايات التي يتناقلها الناس هناك، وقد تعلّم بعض العربية مقابل تعليمه مَنْ يحيطون به اللغة الإسبانية. ووجدتُ في هذا وفي غيره مجالاً خصباً للدراسات المقارنة، فأخذتُ أدون نقاطاً ورعوسَ مواضيعٍ لعليّ أعود إليها حين يسمح الوقت.

وقد وجدتُ في مكتبة المعهد وفي المكتبة القومية بمديرية ما أحتاج إليه لتكملة قراءاتي في التراث العربي. وكنتُ قد اشتريتُ وأنا في القاهرة الطبعة الرخيصة التي صدرت لكتب الأغاني للأصفهاني ونهاية الأرب للنويري وصُبح الأعشى للقلقشندي وطالعتها. وفي مدريد، أتيتُ لي مطالعة نُفح الطيب للمقرري والإحاطة في أخبار غرناطة، ورحلة ابن بطوطة ورحلة ابن جبير ورسالة الغفران ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي، والعديد من الدواوين الشعرية التي كان من الصعب الحصول عليها في القاهرة. وكانت أيضاً فرصة لقراءة عدد من كتب التراث الدينية وتفسير القرآن الكريم.

وفي أثناء النصف الأول من عام ٧٠، تعرّفتُ في المركز الفرنسي على فتاة تدرس معنا اسمها خوليا، وهي غير الأندلسية التي رغبتُ في صداقتها. وقد داومت على التقرب مني، فكنا نجلس بعضنا إلى جوار بعض ونتحدث في شتى الأمور. وما إن لاحظتُ الفتيات الأخريات أن خوليا أصبحت صديقتي، حتى تركن لها الطريق وابتعدن عني، ويبدو أن هذا من التقاليد التي كانت الفتيات الإسبانيات يتقيّدن بها حتى تلك الآونة؛ ذلك أنني بدأتُ ألاحظ تغييراً تدريجياً في الحياة الإسبانية بدءاً من عام ٧٠، آخذةً في الاتجاه نحو الصبغة الأمريكية شيئاً فشيئاً، بما في ذلك معدلات الجريمة وعدم الأمن، ولكن ذلك لم يأخذ أبعداه الشاملة إلا بعد زوال حكم فرانكو. وتطوّرت علاقتي بخوليا تدريجياً؛ فبينما كنا نتناقش حول العروض الغنائية، والمغنين الإسبان الذين كنتُ أعرفهم بالكاد، ذكرتُ لي أن أفضلهم هو «خوان مانويل سيرات». لم أكن أعرفه، ولكنني قلتُ لها إنني أودُّ سماعه، وخرجنا ذات أصيلٍ بعد الدروس الفرنسية لحجز تذكّرتين لسماعه شخصياً. ووجدنا أن كل التذاكر قد بيعت. وعرفتُ من خوليا أن هناك أمكنةً للحصول على التذاكر بمبالغ أكبر، ولكنها نصحتني بعدم اللجوء إلى ذلك؛ فهي كانت ذات ميولٍ اشتراكية وتكره الغنى والأغنياء، ولكنني كنتُ أريد أن أكسب ودَّ خوليا، فابتعتُ تذكّرتين في أفضل مكانٍ في قاعة الريسيتال.

وأحسستُ بالأثر الذي تركه ذلك على خوليا، رغم احتجاجها، وقد كنتُ أنا الداعي على كل حال. وفي الحفل، غنّى سيرات قصائد أنطونيو ماتشادو بتلحينه، وكنتُ أعرف

بعضها، فجعله ذلك يدخل إلى قلبي مرةً واحدة، وشكرتُ خوليا على أنها عرّفتني على هذا المغني الرائع، واشتريتُ الأسطوانة وعليها كلمات القصائد والأغاني التي سمعتها. واشتريتُ أيضًا شرائط كاسيت لأغنياته السابقة. وأعانتني خوليا على فهم بعض معاني الأغاني؛ ففيها الكثير من التعبيرات الشعبية المتداولة، وأحببتُ أغانيه الغرامية، وكان يكتبها بنفسه، وفيها دائماً شيءٌ جديد يبعث على التفكير.

بدأنا نخرج معاً، وندخلُ السينما، ونحضرُ الدروس معاً. كنا نتبادل القبلات والأحضان، وأدعوها إلى منزلي فتقول فيما بعد. وذهبتُ معها في رحلةٍ نظمتها الشركة التي تعمل فيها كسكرتيرةٍ تنفيذية، إلى منطقة جليقية في الشمال الغربي. كانت رحلة أسطورية؛ فجمال تلك المنطقة الطبيعي جمالاً فائق، وتعرّفتُ على مدنٍ رائعة الجمال؛ بلد الوليد، ليون، سوريا، وغطيتُ بذلك تلك المنطقة من إسبانيا؛ فقد كان مطعمي أن زور كل منطقة ومدينة في إسبانيا. وكانت نقطة الأساس في الرحلة مدينة سنتياجو دي كومبوستيلا التي كانت مقصد الحجاج الكاثوليك من كل بلاد أوروبا سيراً على الأقدام؛ حيث هناك قبر القديس سنتياجو (يعقوب)، وهي مدينة رائعة الجمال بمبانيها القوطية المتناسقة والكاتدرائية السامقة ومبنى سان ماركوس الذي تحوّل إلى فندقٍ ممتاز تناولنا فيه أنا وخوليا طعام الغداء تذكّاراً للمناسبة.

وكانت العودة من هذه الرحلة بداية العلاقة الجادة مع خوليا؛ فقد رافقتني إلى شقتي الصغيرة؛ حيث استرحنا وشاهدنا التلفيزيون، ثم بدأتُ التودّد إليها. وصُغتُ حين خلعتُ عنها ملابسها وهي في سريرتي الصغير، لأجد حوريةً ناصعة البياض كما أشتهي، ومتناسقة، فبدتُ كأنها فينوس ميلو، كاملة الأعضاء. وكنتُ أنظر إليها غير مصدّق: ها هي فاتنة إسبانية في العشرين من عمرها تعطيك كل شيء. وتذكّرتُ الفتيات المصريات اللاتي كان من الصعب حتى بعد شهور أن تُعطيك إحداهن يدها لتُمسك بها. ولماذا يستمتع الناس هنا بحياتهم ونحن لا؟ إن الفتيان في مصر يحصلون على ما يريدون — برغم الشعور الديني القوي — ولكن بعد مناوراتٍ وأخاديع هم في غنى عنها. أما ما حدث مع خوليا فأحسنُ ما يعبرُ عنه قصيدة لوركا التي يقول فيها عن أحد فتيان العجر مع حبيبته:

عند المنعطفات الأخيرة،
لمستُ نهدَيها النائمين،
فانفتحا لي على الفور،

كأنهما عيدانُ السنابل.

ورنّت في مسامعي

ثنياتٌ قميصها المنشئ الناصع،

كأنه قطعة حرير،

تحكّها عشرات السكاكين.

...

وفيما وراء شجيرات التوت البري،

وخلف الحشائش والأشواك،

افترشت لها مكاناً على الأرض،

تحت خصلات شعرها.

وخلعتُ رباط عنقي،

وخلعتُ هي رداءها،

وطرحتُ حزامي ومسدسي،

وخلعتُ هي صداراتها الأربعة.

كانت بشرتها

أرقّ من الياسمين ومن العبير.

ولم تكن للمرآيا البلورية

سطوعُ طلعتها البهية.

وأقلت فخذها مني،

كالسمكة المذعورة؛

نصفها يضطرم بالنيران،

ونصفها الآخر بالبرودة.

في تلك الليلة

سرتُ في أفضل الدروب،

وامتطيتُ أجمل الأمهار،

دونما لجام أو سروج.

وأنا رجل.

ولن أقص عليكم

ما أسمعْتنيه من كلمات.
لقد غمَرني نورُ العرفان،
فأحالني رجلاً وديعاً.
وحملتُها بعيداً عن النهر،
وقد غطَّتْها الرمال والقُبلات.

وكانت استجابة خوليا أكثر من ذلك، وعرفتُ دروب السعادة الحسية والروحية معاً معها؛ فقد منحْتني كل ما أحلم به، وعرفتُ كيف تكون المرأة الحقة مع من تُحبه، بعكس ما رأيته حتى الآن؛ فالمرأة الإسبانية تقدّس حبيبها، وتفعل كل ما يريد ويشتهي، وتكون ملك طوعه ويمينه، كالجارية التي يتخيّلها الشاب المصري. وهي بهذا تفعل معه ما لم يكن يحلم به، حتى إنها لتقبّل يديه وقدميه في سَورة حُبها له.

وقد منحْتني خوليا كل هذا وأكثر، وتعلّمتُ منها الكثير من أسرار اللغة والحياة الإسبانية، ومنحْتني حياتي التي استمرّت معها ما يقرب العام ونصف العام، إجادتي للغة الإسبانية في صورتها المنطوقة؛ فلا يمكن للمرء أن يتقن الكلام بلغة ما، ما لم يعيش بين أهلها عيشةً كاملةً مستمرة. وكانت علاقتي بخوليا جميلةً ومثمرة ... ولكن ... آه من ولكن هذه، كما يقول توفيق الحكيم. كانت الإسبانيات يقَدِّمن لحبيبهن كل ما يحلم به، ولكنهن يُردن أيضاً أن يكرّس الشاب كل نفسه لهن! لم تكن خوليا تطيق مني أن أنظر لفتاةٍ أخرى وأنا معها، مجرّد نظر. وكانت تقاليد الفروسية ما زالت مطبّقة في إسبانيا؛ فعلى الحبيب أن يُرافق حبيبته بعد نهاية السهرة حتى منزلها، وإن كانت تسكُن في أقصى بقاع مدريد. وكان ذلك في البداية محتملاً، ولكن مع مرور الأيام لم يعد كذلك.

ومع علاقتي بخوليا، أصبحتُ أكثر تركيزاً على قراءاتي ودراساتي. كنتُ أريد أن أعادل شهادتي كي أحضّر الماجستير والدكتوراه خلال سنواتي هنا. واتبعتُ خطوات الدارسين المصريين الذين بدّءوا يتوافدون على مدريد مع تغيير إدارة المعهد؛ فقد عملنا على الحصول على أكبر عدد من المنح من وزارة الخارجية الإسبانية، وجاء عليها العديد من الدارسين، من كل التخصصات؛ خريجو الألسن، خريجو الفنون الجميلة، والفنون التطبيقية، خريجو دار العلوم وقسم اللغة العربية بكلّيات الآداب، بل وجاءنا أحد المتخصصين في اللغة العبرية، ولكن تم تحويله بعد ذلك للدراسة في إنجلترا. وفكّرتُ في الموضوع الذي يمكن أن أدُرّسه للدكتوراه؛ فالماجستير كان عبارةً عن أبحاثٍ قصيرة يتم الامتحان فيها. وقد ناقشتُ ذلك مرّةً مع الدكتور الفلسطيني الأصل محمود صبح

— وكان يعرف خلفياتي الأدبية — فقال إن بإمكانني إجراء دراسة مقارنة بين لوركا وجويس وهمنجواي. وأثار اقتراحه دهشتي الشديدة؛ فلم أكن أعرف كيف يمكن المقارنة بين هؤلاء الثلاثة، وأعتقد أن معرفة الدكتور صبح باهتمامي بهم من مقالاتي بمجلة الآداب هو ما جعله يخرج بمثل هذا الاقتراح الغريب، ولكنني كنت أفكر في موضوع الأثر الذي تركه جويس في الروائيين الذين جاءوا من بعده. وقد فتر حماسي شيئاً ما حين علمت أن اللوائح الإسبانية تحتم أن يكون نص الرسائل الجامعية باللغة الإسبانية، حتى في موضوعات الأدب الإنجليزي الذي أزمع الكتابة فيه، وأدركت أننا في مصر أحسن حالاً (أو أسوأ!)؛ لأننا نتقدم برسائنا في قسم اللغة الإنجليزية بالإنجليزية وليس العربية. بيد أن ما صرفني نهائياً عن الدكتوراه وبريقها كان شيئاً آخر مختلفاً تماماً.

كان هناك مدرس مصري للتاريخ يعمل في المغرب، وكان طموحاً يريد أن يكمل دراساته، فانتهاز فرصة قربيه من إسبانيا لعمل دراساته العليا في جامعة غرناطة، القريبة من العدو المغربية. وطبعاً، لاقى صعوبات جمّة، وتكدت تكاليف كثيرة في مسعاه ذاك، ولكنه كان صبوراً مثابراً، وأنفق كثيراً من الجهد والمال متنقلاً من المغرب إلى غرناطة لاستكمال رسالته. وبعد أن حصل على الدكتوراه وعاد إلى مصر، بدأ رحلة شاقة للتعين في الجامعة؛ فقد كان معروفاً أن الكليات تفضل من يتعين بها معيذاً منذ البداية، ولا ترحب بمن يأتي من الخارج. ولكن إصرار ذلك الزميل وجهاده في سبيل الحصول على حقوقه أثمرت — بعد سنوات وقضايا كثيرة — في أن يحصل على وظيفة المدرس بآداب عين شمس. وبعد شهرين فحسب من هذا الانتصار، توفى ذلك الزميل بنوبة قلبية.

أثرت في تلك الواقعة تأثيراً لا حد له، وباتت في فكري ليل نهار، وانتهى بي الأمر إلى ترك الدراسات العليا، ولو إلى حين. وساعدني في اتخاذ ذلك القرار أن المضي في دراسات الماجستير والدكتوراه كان سيأخذ كل وقتي — إلى جانب العمل الذي كثرت مشاكله مع تزايد عدد المبعوثين — وأنا كنت أحب القراءة الحرة، خاصة الآن وأمامي أربع لغات أقرأ بهن. وهكذا عدت إلى كتبي وقراءاتي بعد أن كدت أن أنقيد بموضوعات الماجستير والدكتوراه!

وبعد أن انفسح المجال أمامي للقراءات الحرة، طفقت أقرأ قراءة منتظمة في الأدب الإسباني بجميع مراحل. وقرأت الأعمال التي تأثرت بالثقافة العربية، مثل «الكونت لوكانور» الذي يحتوي على أمثولات وقصص أشبه بقصص كليلة ودمنة. وبدأت قراءة السّفر الكبير «كتاب الحب المحمود» لخوان رويث، كبير أساقفة بلدة «هيتا»، الذي تأثر فيه بابن حزم وقصص الحب العربية، ولكنني لم أكمله إلا بعد ذلك.

و ذات ليلة، دخلتُ إلى شقّتي وفتحتُ الراديو كعادتي، وكانت الأخبار، وأولها أن جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ... قد توفّي إثر نوبةٍ قلبية مفاجئة. ودارت بي الأرض. لم أدِرَ ما أفعل. وخرجتُ مرة ثانية، واتصلتُ من الطريق بزميلي في المعهد وكان قد علِمَ بالخبر، واتفقنا أن نتوجّه للسفارة المصرية لنرى ما يمكن أن نفعل، وكانت السفارة على قدم وساق، وأعدتْ بهواً لاستقبال المعزّين، ودفترًا لمن يرغب في تسجيل عزائه. وأشهد أنني رأيتُ أفرادًا عاديّين من الإسبان يدخلون ويكتبون في الدفتر عبارات الحزن. وعُدنا في صباح اليوم التالي، ورأينا وزير خارجية إسبانيا آنذاك، السنيور لوبيث برافو، يحضّر إلى السفارة ليقدمَ عزاءه إلى سفيرنا، الذي كان زميلًا لعبد الناصر. وكان لوبيث برافو قد أثار الإعجاب بناصر حين التقاه قبلًا في القاهرة، وعاد ليقول إن الزعيم المصري له هَيبةٌ كاريزمية ونظراتُ عينيه عميقةٌ مؤثرةٌ تنفذُ إلى أعماق محدّته. وهذا صحيحٌ يشهد عليه كاتب هذه السطور كما وردَ سابقًا، ولكن لا أحد ينسى أيضًا أن السياسة الناصرية انتهت بوصول إسرائيل إلى قناة السويس.

وشَهِدنا بعد ذلك في التلفزيون والصحف ظروفَ تشييع جنازة الزعيم، وما صاحبها من حزنٍ مهولٍ دفعَ صحيفةً إسبانية بالخروج بمناشيت يقول «هستيريا جماعية». وكان كل ذلك يَعْصِرُ قلوبنا بالألم على مصير بلادنا المجرّوحة من كل جانب، ولكن الحياة تمضي في مسارها، ومضى أنور السادات يُكافِحُ في سبيل استعادة ما فقدناه من أرض الوطن وكرامته. ومضت الأمور بنا أيضًا في مدريد لتسير إلى مجراها السابق في تسيير أمور العمل والحياة.

وفي كريسماس ٧٠، قرّرتُ الخروج إلى أولى زيارتي خارج إسبانيا، وأن أقضي العطلات في زيارة باريس. وتطلّب الأمر مشقةً كبرى لإقناع خوليا بعدم إمكان أن تُرافقني هناك، متعللاً بأنني سأقوم بالاتصال بالمركز الثقافي المصري في باريس، لإنجاز بعض أعمال التعاون بيننا وبينهم فيما يخص الزيارات الطلابية.

ولما كانت هذه أول زيارةٍ لي لباريس — وسأزورها كثيرًا فيما بعدُ — فقد كان من الأفضل أن أذهب في رحلةٍ منظّمة، فحجزتُ مع «بولمان تور» للذهاب والإياب بالأتوتوكار، لما في ذلك من متعة زيارة المدن التي نمرُ عليها، والاستمتاع بمشاهد الطبيعة في الطريق. وهكذا خرجنا بالباص من مدريد في الساعة السابعة صباحًا، ومعنا مرشدة سياحية شابة جميلة تتحدث الفرنسية جيدًا، وسائقٌ ماهر أوصلنا إلى مدينة بوردو الفرنسية في الواحدة صباحًا من اليوم التالي. واستمتعتُ بالطريق وبالمدينة والقرى التي مررنا عليها في الطريق،

وهذه ميزة السفر بالسيارة حين لا يكون المرء متعجلاً. زرنا مدينة «بورجوس» (برغش) وكاتدرائيتها الفخيمة، وهي المدينة التي يُقال إنها تتحدث أصفى لغة قشتالية. وزرنا «فيتوريا»، ثم الثغر المشهور «سان سباستيان» التي تجوّلت فيها ليلاً وأعجبتني. وقد بقيتُ ساهراً كيما أرقُب دخولنا إلى الحدود الفرنسية، وقد استوقفتهم جنسيتي المصرية، وأرادوا أن يعرفوا ماذا أفعل في فرنسا، فقلتُ لهم إنها زيارة سياحية ليس إلا. ولاحظتُ أنهم يخاطبونني بلقب السيد البروفيسور، وأرجعتُ ذلك لعملي المذكور في جواز السفر أنه في المعهد المصري في مدريد. وعلى الجانب الآخر من الحدود، على الأرض الفرنسية، دخلتُ صيدليّة هناك وابتعتُ بعض الأوبتاليدون للصّداق، ولكي أتحدّث الفرنسية كذلك! وفي الصباح، قمنا بزيارة سريعة في بوردو، ثم انطلقنا نحو عاصمة النور. وبدا لي كل شيء مختلفاً ونحن في طُرق فرنسا. وممرّنا بمدن مهمة مثل أورليان ثم شارتر؛ حيث زرنا كاتدرائيتيّهما الفخيمتين. وحين انطلقنا إلى باريس أعلنتُ المرشدة أن أول من يلّمح برج إيفل على البُعد له جائزة، مما جعل الجميع وأولهم أنا نشتل حماساً لرؤية هذا الرمز الباريسي. وبعد فترةٍ صاحت إحدى الركابت: ها هو! ودقّقنا النظر، فرأينا فعلاً السارية العليا للبرج، وهللّ الجميع، وأعطتُ المرشدةُ الجائزةَ للفتاة، وكانت عبارةً عن سلسلة مفاتيح فضية على شكل برج إيفل. وبدأ الأوتوكار ينساب في مداخل باريس، في طرقٍ واسعة ملتقّة تجري فيها السيارات من كل جانب، وكل شيءٍ منظمٌ ولامع. واقترب منظر البرج، وحين رأيته كاملاً كانت لحظةً لا تُنسى؛ إذ أحسستُ بقلبي ينبض عالياً ويخفق بشدّة وأنا يكاد يُغمى عليّ؛ فها أنا في باريس وأمام برج إيفل، وهو ما كان حلمًا من أحلام الصّبا والشباب.

وهدأتُ تدريجيّاً، مع مرور الباص إلى جوار علاماتٍ باريسيةٍ بارزة؛ متحف اللوفر، شارع ريفولي، تمثال جان دارك، ميدان الكونكورد، المسلة المصرية، شارع الشانزليزيه، ثم دلف الباص إلى الفندق الذي سننزل فيه، وكان فندقاً متواضعاً، يديره شابٌّ عرب من شمال أفريقيا. وما إن أعطوني غرفتي الصغيرة جدّاً، حتى اغتسلتُ — فقد كنتُ دائماً أطلب غرفةً مستقلة بحمّام — وغيّرتُ ملابسِي، وانطلقتُ أكتشف عاصمة النور، وأنا أردّد مع علي محمود طه: كان حلمًا أن نرى اللوفر وأن نشهد صوره (سطر طه يقول: كان حلمًا أن نرى الراين وأن نشربَ خمرة).

وقضيتُ ذلك الأسبوع الباريسي في نشوةٍ وانطلاقٍ لا يعرفان حدوداً. وكانت الرحلة تشمل الإفطار في الفندق، وهو إفطارٌ أوروبيٌّ شهّي برغم تواضع الفندق، فكنتُ

أَتَنَاوَلَهُ مَبَكْرًا جَدًّا، ثُمَّ أَخْرَجَ وَلَا أَعُودَ لِلْفَنْدَقِ إِلَّا مَعَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ. وَكُنْتُ أَقْضِي الْيَوْمَ مَبْهُورَ الْأَنْفَاسِ، أَتَنَقَّلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرٍ كَأَنَّمَا الْيَوْمَ سَيْطِيرٌ، مَمْسِكًا بِخَرِيطَةٍ مَفْصَلَةٍ لِبَارِيْسَ وَلِخُطُوطِ الْمَتْرُو الْأَرْضِي، الَّذِي وَجَدْتُهُ أَسْهَلَ وَسِيلَةً لِلتَّنَقُّلِ بِسُرْعَةٍ فِي الْعَاصِمَةِ. وَخَصَّصْتُ الصَّبَاحَاتِ لِلْمَتَاحِفِ وَالْآثَارِ وَالْمَقَاهِي الشَّهِيرَةِ، وَاللَّيْلِ لِلْمَسْرَحِ وَالسِّيْنَمَا وَبِيْجَالِ الْإِيْرُوسِيَّاتِ الَّتِي لَا تُوجَدُ فِي إِسْبَانِيَا. وَهَكَذَا بَدَأْتُ بِزِيَارَةِ مُتَحَفِ «جِي دِي بَوْم» وَهُوَ مُتَحَفُ الْفَنِّ الْحَدِيثِ فِي نَاصِيَةِ مِيْدَانِ الْكُونْكَورْد؛ حَيْثُ طَالَعْتُ لُوحَاتِ فَنِّ جُوجِ وَمُونِيَّةِ وَسِيْزَانَ وَمَآنِيَّةِ وَجُوجَانَ وَتُولُوزَ لُوتْرِيْكَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْمُحَدِّثِيْنَ نَسْبِيًّا. وَكَانَ الزَّحَامُ شَدِيْدًا وَالْقَاعَاتُ ضَيْقَةً، وَهَذَا مَا حَدَا بِأُولِي الْأَمْرِ نَقْلَ هَذَا الْمُتَحَفِ إِلَى مُتَحَفِ «دُورْسَاي» الضَّخْمِ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَوَاتٍ. وَمِنْ هُنَاكَ انْطَلَقْتُ إِلَى بَرَجِ إِيْفَلْ، وَتَجَوَّلْتُ حَوْلَهُ، وَصَبَرْتُ فِي الصَّفِّ الطَوِيلِ لِلصُّعُودِ دَاخِلَهُ؛ حَيْثُ وَصَلْتُ إِلَى طَابَقِ الْكَافِيْتِيْرِيَا، وَفِيهَا تَنَاوَلْتُ الْغَدَاءَ، ثُمَّ هَبْتُ عَلَى قَدَمِي، وَزَهَبْتُ إِلَى سَاحَةِ التُّرُوكَادِيْرُو لِأَخْذِ بَعْضِ الصُّوْرِ لِي وَوَرَائِي الْبَرَجَ الشَّهِيْرَ، عَنْ طَرِيقِ «التَّرِيْبُود» الَّتِي تَحْمِلُ آلَةَ التَّصْوِيرِ، الَّتِي بَدَوْرَهَا تَلْتَقِطُ الصُّوْرَةَ أَلَيًّا بَعْدَ عِدَّةِ لَحْظَاتٍ. وَهَكَذَا، مِنَ الْبَرَجِ إِلَى حَيِّ بِيْجَالِ الشَّهِيْرِ فِي الْمَسَاءِ، وَمَحَلَّاتِ الْجَنْسِ الَّتِي أَرَاهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، فَأَذْهَلْتَنِي بِمَا فِيهَا مِنْ مَجَلَّاتٍ وَصُورٍ وَأَدَوَاتٍ. وَهُنَاكَ وَجَدْتُ مَسْرَحًا بِهِ الْعَرْضُ الشَّهِيْرُ «أُوِهْ كَلْكُوتَا» فَدَخَلْتُ أَشَآهَدَهُ، وَكَانَ كُلُّ مِمْتَلِيَّةٍ وَمِمْتَلَاثَةٍ غُرَاءَ تَمَامًا، يَقْدَمُونَ اسْتِعْرَاضَاتٍ فَكَاهِيَّةٍ، وَلَمْ يُعْجِبْنِي وَإِنْ كُنْتُ سُرِرْتُ بِمَشَاهِدَتِهِ لِكثَرَةٍ مَا كُتِبَ عَنْهُ. وَفِي أَغْوَارِ اللَّيْلِ وَجَدْتُ فَتَيَاتِ الْمَتْعَةِ رَائِحَاتٍ غَادِيَّاتٍ، يَبْتَاسِمْنَ لِلزَّبَائِنِ الْمُحْتَمَلِينَ، وَلَكِنِّي خَشِيْتُ مِمَّا كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ خِدَاعٍ وَسُرْقَةٍ، فَتَغَافَلْتُ عَنْهُنَّ إِلَى حَيْنٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ الرِّغْبَةَ الْحَسِيَّةَ فِي تِلْكَ السَّنِ تَدْعُو إِلَى التَّنْفِيْسِ عَنْهَا وَإِلَّا غَطَّتْ عَلَى أَيِّ اسْتِمْتَاعٍ فَنِي وَرُوحِي بِسَحَائِبِهَا الدِّكْنَاءَ الرَّهِيْبَةَ. وَقَدْ تَمَثَّلَتْ لِي تِلْكَ الْمَشْكَلَةُ فِي كُلِّ رَحْلَةٍ طَوِيلَةٍ أَقُومُ بِهَا.

وَعَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ قَضَيْتُ رَحْلَتِي الْبَارِيْسِيَّةَ الْأُولَى (ذَلِكَ أَنَّ بَارِيْسَ قَدْ قَبِضَ لَهَا أَنْ تَكُونَ أَكْثَرَ مَا زَرْتُ مِنَ الْمَدَنِ الْأَجْنَبِيَّةِ، كَمَا سَيَبِيْنُ)، فَزُرْتُ قَوْسَ النُّصْرِ، وَصَعِدْتُ إِلَى سَطْحِهِ، وَأَخَذْتُ صُورًا مِنْ هُنَاكَ، وَقَبْرَ نَابِلْيُونِ فِي الْإِنْفَالِيْدِ، وَمُتَحَفَ الْلُوفْرِ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُ يَوْمًا بِحَالِهِ، وَحَدَّثَ لِي عِنْدَ مَرَأَى «الْمُونَالِيْزَا» لِدَافَنْشِي مَا شَعَرْتُ بِهِ عِنْدَ مَرَأَى بَرَجِ إِيْفَلْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ. وَرَأَيْتُ فِي الْمَتَحَفِ الْقَاعَةَ الْمَصْرِيَّةَ، وَتَعْجَّبْتُ كَيْفَ أَمَكَّنَهُمْ نَقْلَ بَعْضِ هَذِهِ الْآثَارِ الْهَائِلَةِ الْحَجْمِ، وَفِيهِ آثَارٌ مِنْ كُلِّ الْحَضَارَاتِ. لَقَدْ كَانَتِ الزِّيَارَةُ وَجِبَةً ثَقَافِيَّةً، وَإِنْ كَانَ الْمُتَحَفُ يَحْتَاجُ إِلَى زِيَارَاتٍ عَدِيْدَةٍ وَأَيَّامٍ أَكْثَرَ.

ثم كانت زياراتٌ للأوبرا ومونمارتر ومونبارناس، مع ذكريات الفنانين الذين عاشوا في تلك الأحياء، والحي اللاتيني حيث اشتريتُ الكثير من الكتب والأسطوانات، وزرتُ المركز الثقافي المصري لمقابلة صديقي وزميلي حسن عبد الحليم، الذي قدّمني إلى زميله (الوزير الفنان) فاروق حسني.

وجاءت ليلة رأس السنة، ويُسمونها هناك «سان سلفستر»، وكانت ليلة لا تُنسى، قضيتها في أنحاءٍ متفرقةٍ في باريس لأرى كيف يحتفلون بها. وطبعًا كان الكل يرقص ويُغني ويشرب، وحين جاءت لحظة العام الجديد، أخذ الناس يُقبلون بعضهم بعضًا، فظفرتُ بقبلاتٍ من الفتيات الفاتنات! بيد أن الشيء المزعج في عادات الفرنسيين في تلك الليلة هو قذف المارّة بالزجاجات من البيوت، وإطلاق الصواريخ النارية بين أرجل المارّة. ولم تنقُص الرحلة حتى كنتُ قد زرتُ ما رغبتُ في مشاهدته في العاصمة الفرنسية. وحين ذكرتُ لمدرس اللغة الفرنسية أنني رأيتُ باريس كلها، ضحك صائحًا: أنت رأيتها في أسبوع، وأنا الذي عشتُ فيها عشر سنواتٍ لم أرَ كل ما فيها!

وفكرتُ في جمع دروسي للغة العربية التي ألقيتها في المعهد في كتاب، أستفيد فيه من كُتب تعليم الفرنسية والإسبانية للأجانب. وكان مدير المعهد السابق قد أعدَّ كتابًا في هذا الموضوع، ورغب أن تصفّه مطبعة المعهد له بالأجر، وكتب لي في ذلك، ولكن المدير الحالي رفض، وطلب مني عدم بحث ذلك الموضوع مع المدير السابق، مما وضعني في موقفٍ محرجٍ معه. وقد زاد في الحرج أن ذلك المدير السابق طلب مني أن أشتري سيارة ابنه المستعملة لأنه سيعود إلى القاهرة. وكيف لي ذلك وأنا لا أسوق أصلاً؟! وقد قابلتُ الابن سابقًا ووجدته مثلاً للشباب المثقف، وسهّلْتُ له ما يطلب من أوراق من المعهد وكُتب، غير أنني لم أستطع إجابة رغبة الأب أن أشتري السيارة. ويبدو أن كل ذلك قد تجمّع في صدر الأستاذ الكبير، وظهر بعد ذلك حين عاد إلى القاهرة، في الغمز واللمز، مستخدمًا لقبي في مقالاته الفكاهية. ويبدو أن ذلك دأبه؛ فبعد أن تنعم في خيرات عهد عبد الناصر وصداقته لرئيس تحرير الأهرام، عاد وكتب أبشع هجومٍ على عهد عبد الناصر، واختص بهجومه من ساعده من قبل وهو رئيس تحرير الأهرام السابق؛ حيث أطلق عليه صفة «الصحفي الأوحده». ولم أرَ من قبلُ أستاذًا بلغ الذرى في البحث العلمي له مثل هذا الوجه المختلف في التعامل مع الناس.

أما عن المدير الجديد، وهو أصلاً أستاذ في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، فكان أيضًا له أطواره الغريبة كفنان، وإن كان معتزًا بنفسه وبفنه. وتكرّر صدامه بالسفير،

حتى وصل إلى حد القطيعة في ربيع عام ٧١، فكان أن ذهب السفير لمقابلة وزير التعليم العالي، وطلب إعادة مدير المعهد إلى القاهرة. وبالفعل، جرى إنهاء انتداب المدير، ولم تُفْلَح جهوده في البقاء إلا لمدة ثلاثة أشهر فقط. وتم انتداب مديرٍ جديد هو الأستاذ الدكتور مختار العبادي، أستاذ التاريخ بجامعة الإسكندرية، ولكنه لم يتسلَّم عمله إلا حوالي شهر سبتمبر، بعد أن عُدتُ أنا من إجازة للوطن.

وكانت إجازتي للوطن في شهر يوليو ٧١، واضطُرتُّ إلى تحمُّل نفقات السفر نظراً لضغط الميزانية لمواجهة ظروف الحرب، فحجَزْتُ تذكرة ذهاب وعودة في الدرجة السياحية على الباخرة التركية، وهي الوحيدة التي تصل ما بين برشلونة والإسكندرية. وقد أكَّد لي زميلي في المعهد أنها مريحة، ولكنها للأسف لم تكن كذلك بالمرة. وسافرتُ إلى برشلونة قبل الموعد بأيام لزيارة المدينة، وقد أعجبتني كثيراً؛ فهي تجمع ما بين مدريد وباريس بطرقاتها الواسعة الفخمة، وآثارها الجميلة، وحديقة الحيوان ذات الشهرة العالمية، ومرتفعات «مونتويج» التي يُطل المرء منها على المدينة كلها. ويوم السفر كان أشبه بسفرٍ من مصر؛ فالكل يتسابق على دخول الباخرة، وطاقم السفينة يؤدون عملهم بروتينية شديدة، ولا يكادون يردُّون على أسئلة المسافرين، وتندلع شجارات بين مسافرين والحمالين الذين يريدون أتعاباً أكبر.

ولما كنتُ في الدرجة السياحية، كانت قمرتي بها أربعة أسرَّة، ولكنها لم تُشغَل بالكامل إلا في مرسيليا، وكانت معاملة الموظفين الأتراك للركاب سيئة على وجه العموم. وتشاجرتُ مع ضابط الباخرة حين رست في مرسيليا، ورفض أن يغادر السفينة لزيارة المدينة إلا مَنْ قد تطعَّموا ضد الكوليرا. وبعد أن غادر الجميع البوابة، هبطتُ إلى المدينة خلصةً وقضيتُ بها عدة ساعات ثم عُدتُ للباخرة بسلام! وأعجبتني ما رأيته من مرسيليا، وتفكرتُ في أن الإسكندرية كان يمكن أن تكون مثلاً أو أفضل لو سارت الأمور كما ينبغي أن تسير عليه، ثم توقفتُ الباخرة في جنوة ثم نابولي، وزرتُ المدينتين وابتعتُ منهما بعض التذكارات السياحية، ثم قضينا يومين في عرض البحر الأبيض، تعرَّضنا فيهما لدوار البحر والغثيان، إلى أن لاحت أخيراً أمام الأعين ملامحُ مدينة الإسكندرية. وطبعاً، حدث الهَرْج والمَرْج المعهودان وقت الخروج، ووجدتُ والدتي في انتظارِي، وابن خالتي الضابط بالبحرية يُسهِّل لي إجراءات الخروج. وبعد زيارة بعض الأقارب بالإسكندرية نزولاً على رغبة والدتي، سافرنا أخيراً إلى القاهرة، ووجدتُ غرفتي كما عهدتها، والتقيتُ ثانياً بحاجياتي وكتبي فيها.

وقضيتُ شهرًا جميلًا في القاهرة، بصحبة أصدقائي، وكنا نلتقي كل يوم تقريبًا، فأحدثهم عن حياتي في الخارج، وإسبانيا وباريس، ويحدثونني عما استجد في الساحة الثقافية التي غبتُ عنها سنتين. وتردّدنا على مقهى ريش؛ حيث عادتني الإنصات إلى الجميع دون مشاركة، وكان الحديث الآن أكثر صراحةً بعد حركة السادات «التصحيحية» وما راود الكل من تطلّعات الديمقراطية وحرية الرأي والتعبير. وتردّدتُ على المكتبات أبتاعُ ما يهمني من الكتب التي صدرت في خلال العامين، كما حصلتُ على معلوماتٍ عن الجديد في المجال الثقافي من أصدقائي. وكانت زيارةً مثمرةً جميلة، زادها جمالاً إحساسي بالعودة إلى ربوع الأندلس، وإصراري على الاستفادة من وجودي بإسبانيا بكل الطرق الممكنة، فإذا كنت قد سافرتُ نتيجة نجاحي في الاختبار دون رغبةٍ مسبقة في السفر، فالآن وضّح أمامي أن الوجود في الخارج ضرورةٌ ملحة من أجل الحياة بشكلٍ واعٍ حر. وحين عدتُ إلى مدريد أصبحتُ واعيًا بالميزة التي عندي بالإقامة في هذه المدينة الجميلة، والتمتّع بكل ما فيها من فن وأدب وآثار ولغة وجمال.

وقد قابلتُ معظم أصدقائي في تلك الإجازة، علي كمال وأحمد السودة ونبيل ووهيب ومصطفى وحلمي وإبراهيم، وسعدتُ بصحبتهم.

وفي رحلة العودة، كنتُ قد استعددتُ للمعاملة الرديئة في المركب التركي، وصرفتُ انتباهي للتمتّع بالبحر والمدن التي نمرُ عليها. وقد شاهدتُ في الطريق إلى نابولي أفخم منظرٍ جغرافي في حياتي، وهو عبور مضيق ماسينا، الذي بقي في ذاكرتي حتى الآن. وفي نابولي ومرسليا ابتعتُ بعض الكتب والمجلات التي لا نجدها في إسبانيا، وتجوّلْتُ في المدينتين، وزرتُ ما لم أزره في رحلة الذهاب. والغريب أنه ما إن رسّت الباخرة في برشلونة حتى أحسستُ أنني عدتُ إلى منزلي، أتحدث لغتي، وأسحب نقودًا من حسابي بالبنك!

وكانت خوليا في انتظاري بمحطة القطار في مدريد، فتعانقنا طويلاً وتحادثنا في طريقنا إلى شقتي في شارع رافايلا بونيّا، التي اشتقتُ إليها اشتياقي إلى خوليا. وقضينا وقتًا ممتعًا استمعنا خلاله لدقات الساعة المجاورة تدق ثلاث مرات. وكانت خوليا قد أعدتُ لانجيري جديدًا من الألوان التي أحبها، فرددتُ لها الجميل مراتٍ عديدة. وتبادلنا الهدايا، فأعطيتها بعض الحلي الفرعونية، وأعطتني ديوان نيرودا «الإقامة الثالثة»، الذي كنتُ أبحث عنه، والذي يحتوي على قصيدته الشهيرة «إسبانيا في القلب» التي يصف فيها مأساة الحرب الأهلية الإسبانية، ويهيئ الشتائم البذيئة على الجنرال فرانكو ورفاقه من

الجنرالات. وتعجبت من سماح نظام فرانكو بتداول هذا الكتاب وغيره في إسبانيا، وبدا كأن هناك انفتاحاً فكرياً إلى حد ما في البلاد.

وبعد أن التحقتُ بعملٍ بالمعهد ثانية، وصل ظافر، موظف جديد، وبعدها بمدة عاد مدير المعهد إلى مصر، وبقينا في انتظار المدير الجديد، الدكتور مختار العبادي، الذي وصل مع أسرته بالباخرة إلى برشلونة، ووصل إلى المعهد بمدريد بعدها بأيام.

وكانت ولاية الدكتور العبادي كمدير للمعهد ومستشار ثقافي فترة مثمرة، عاد العمل فيها متناسقاً بين المعهد والسفارة. وانتظم العمل في مجلة المعهد وفصوله العربية، التي تقاسمتُ تدريسها مع الدكتور العبادي، بينما تولّى ظافر الشؤون الإدارية والمالية للمعهد. وكانت علاقتي بالدكتور العبادي علاقة ودّ وتعاون بين أستاذ كبير وبينني الذي أريد أن أتعلم منه؛ فقد كان حُجّة في التاريخ الأندلسي، كما كان مثلاً للتواضع ودمائة الخلق، فجمع بين العلم والأخلاق. وقد أوكل لي المدير السفر إلى بعض المدن الإسبانية للتعرف على أحوال الطلاب والدراسة هناك، أو لزيارة معرض للرسوم اشترك فيه رسّامونا المصريون، وبهذا زرتُ مدن بلنسية وسرقسطة ولباوا. كما أنني واصلتُ زيارة المدن الأخرى في الإجازات، ومنها مدن الأندلس؛ إشبيلية وقرطبة وغرناطة (مرة أخرى) وقادس ومالقة، وكنتُ على وشك عبور العُدوة من مالقة إلى المغرب لولا أنني وجدتُ العبّارات شديدة الازدحام بالعمال المغاربة المتجهين لزيارة بلدهم.

وكان محور زيارة إشبيلية هو برج الخيرالدا العربي، إلى جوار كاتدرائية إشبيلية الضخمة، ومتحف المدينة الذي يضم بعضاً من مشاهير اللوحات، وقد زرتُه مع أحد الأصدقاء الفنانين، وابتسمتُ حين قال لي إن الكثير من اللوحات هنا من رسم «أنونيمو»، ويبدو أنه فنان مشهور عندهم، ولكنني أوضحتُ له معنى الكلمة، وهي أن اللوحة لرسم مجهول الاسم.

وفي قرطبة، رأيتُ أشجار البرتقال في كل مكان، وطفّت بأرجاء جامع قرطبة الذي تحوّل إلى كنيسة (هدية السيد للسيد)، وظللتُ أتجوّل فيه حتى خفتُ الحركة، فانزويْتُ وراء بعض الأعمدة، وأذيتُ الصلاة فيه، وكانت تجربةً ومشاعر لا تُنسى!

وأعدتُ زيارة قصر الحمراء وجنة العريف في غرناطة، واشتريتُ في هذه المرة الأعمال الكاملة للوركا من مكتبة غرناطية، باعتبارها مدينة الشاعر والمسرحي والرسّام الذي راح ضحية الحسد والانتقام غداة الحرب الأهلية.

وأعجبتني المدن الأخرى التي زرتها، وتعرّفتُ على أهم ملامحها، وهي قادس ومالقة وتوريمولينوس. وكنتُ على مرمى حجر من جبل طارق، ولكن السياسة الإسبانية آنذاك

كانت تمنع الانتقال من إسبانيا إليه احتجاجاً على استمرار سيطرة بريطانيا عليه، فكان يجب الذهاب إلى المغرب ومنه إلى جبل طارق والعودة إلى المغرب، وهو ما لم يتيسر لي في تلك الرحلة.

وحين بدأت الدراسة مرةً أخرى في مدرسة اللغات، وكنتُ في السنة الثالثة النهائية، وفي بدايتها تعرّفتُ على فتاة ألمانية ليس لها من الألمانية إلا الجنسية؛ فقد كانت سمراء صغيرة الحجم، قدّمتني بعد ذلك إلى زميلة لنا فرنسية شقراء، أصبحنا بعد ذلك نشكّل ثلاثياً حين نلتقي في المدرسة، وأحياناً نخرج سوياً فأدعوها إلى شربٍ في كافيتيريا قريبة تُسمّى «منشن»؛ أي ميونخ. وكانت مارجريتا الألمانية هي التي تذهب معي أكثر؛ لأنّ آن ماري الفرنسية ترتبط بمواعيد العشاء مع الأسرة الإسبانية التي تعيش معها. وكان معنا في الفصل عددٌ من الشبان الذين أخذوا يحومون حول الفتاتين، ولكن دون نتيجة واضحة. وكنتُ أذهب إلى مدرسة اللغات مبكراً بعد درس اللغة الفرنسية، فأجد أنّ ماري، فأدعوها إلى كافيتيريا المدرسة على قهوة وإحدى الفطائر. ورغم أنّي كنتُ أركّز صلتني بمارجريتا، فقد كنتُ أفكرُ في أنّ ماري كفتاةٍ أضحى لها السنيما والمسرح والمطاعم كي أباهي الناس بوجودها معي، وكي أريها جانباً من الحياة ربما لا تسمح لها إمكاناتها برؤيته.

واكتشفتُ في تلك الفترة تسجيلاتٍ لأشعار لوركا ونيرودا وبكر، بعضها مغناة، والأخرى تلاوة، ولكن الأهم منها ما يُتلى بصوت الشاعر أو الشاعرة. واقتنيتُ أسطوانة نيرودا التي يتلو فيها بصوته «عشرون قصيدة حب وأغنية يأس»، ولأول مرة أسمع صوت الشاعر الكبير فاستغرب نبرته في البداية، ثم اعتاده وأشتاق إلى سماعه. ووجدتُ هذه القصائد نفسها يتلوها تلاوةً جميلة «خوليان ماتيسوس» بصوتٍ رائع، فاقتنيتُ أيضاً تلاوته لبعض قصائد أدولفو بكر. وذهبتُ مع خوليا لسماع خوان مانويل سيرات في حفلٍ غنى فيه قصائد الشاعر ميغيل إرناندث، فأبدع في الغناء والإنشاد، وكان من بين الحضور ابن الشاعر. وابتعتُ أسطوانته مع غيرها من القصائد. واشتريتُ أدوات الفن السماعي، من جهازٍ لسماع الأسطوانات، وجهازٍ آخر للتسجيل بطريقة الشرائط الكبيرة الحجم. واستعرتُ من المعهد أسطوانات المصحف المرتل بقراءة الشيخ الحصري، وسجلتها على عدة شرائط، وكان أول مصحفٍ مرتلٍ يظهر في الأسواق. والحقُّ أنّ سماع القرآن الكريم منطوقاً قد صحّح لي كثيراً من الكلمات التي كنتُ أنطقها بطريقة خاطئة.

١٩٧٢-١٩٧٤م

وبدأ العام الجديد بعد احتفالات رأس السنة التقليدية، التي قضيتها مع خوليا، ولكن علاقتنا أخذت تتوتر عندما ذكرتُ لها أن فترة عملي في إسبانيا تنتهي في وسط العام القادم، فقالت إنه يمكنني البقاء بعد ذلك والعمل لحسابي في إسبانيا. وذكرتُ لها أن ذلك شبه مستحيل؛ فقد كان هناك الكثير من العرب المتزوجين بإسبانيات ولا يجدون أي عمل. ولم تكن تقتنع بمثل هذه البراهين. وأحياناً تطلب مني أن تذهب معي إلى مصر، ولا تتفهم عدم استعدادي لذلك الآن، فقالت لي إنها لن تنتظر حتى أسافر إلى مصر وأتركها؛ فهي تفضل أن ننفصل قبل ذلك، ثم جاءت الضربة القاضية حين بدأتُ ثانيةً زيارة باريس وحدي، فغضبت وقطعتُ علاقتها بي. وبعد عودتي، حاولتُ الاتصال بها، ولكنها امتنعت عن استقبال مكالماتي، فعرفتُ أنها نهاية العلاقة، كما قال جراهام جرين في روايته بذلك العنوان.

وتأثرتُ طبعاً بفقدان خوليا، فطفقتُ أبحث عن صديقةٍ أخرى. ولما لم أكن أحسن التعرف على الفتيات في الطريق أو الكافيتريات، فلم يكن هناك سوى مدرسة اللغات والمعهد الفرنسي. كانت خوليا قد تركت دراسة الفرنسية منذ فترة، وصادقتُ عدة فتيات في التيرم الحالي، ولكن دون التركيز على واحدةٍ معينة. وفي مدرسة اللغات، خرجتُ عدة مراتٍ مع مارجريتا، وقبلتها، وزارتنني في شقتي كي تنقل بعض تسجيلاتها إلى شرائط باستخدام الأجهزة التي عندي، ولكن لم تتطور علاقتنا أبعد من ذلك. أما آن ماري فكانت محادثاتي معها أدبيةً وفنية؛ فهي تُحب إسبانيا واللغة الإسبانية، وتعشق لوركا وأشعاره ومسرحياته.

وكان عام ٧٢ عامًا مثمراً في العمل والقراءة؛ فقد ساعدني الاستقرار في إدارة المعهد وأعماله على الدراسة الجدية للغتين الفرنسية والإسبانية، وكنتُ قد انتهيتُ من قراءة

البحث عن الزمن المفقود لبروست بالفرنسية، مستعيناً بالترجمتين الإنجليزية والإسبانية، وبدأت تُساوِرنِي فكرة نقلها إلى العربية. واشتركتُ باسم المعهد في مهرجانٍ أدبيٍّ إسباني احتفالاً بكتاب الحب المحمود من تأليف خوان رويث، رئيس أساقفة هيتا، الذي يرجع إلى القرن الرابع عشر. واستمعنا إلى الكثير من الأبحاث عن ذلك الكتاب ومؤلفه من أساتذة متخصصين من مختلف البلدان، ثم حضرنا في الختام ليلة «قروسطية» شَهِدنا فيها مسرحيةً للوبي دي فيجا، وتناولنا عشاءً على العُشب!

ودَهِبْتُ لأداء الامتحان النهائي في الإسبانية بمدرسة اللغات. ولمَّا كان ذلك هو اليوم الأخير لنا في المدرسة، فقد صمَّمتُ على أن أتقرب من آن ماري كي نتقابل بعد ذلك. وقضينا وقتاً طويلاً في المدرسة، وكان الامتحان شفوياً، وانتهيتُ منه قبل أن تنتهي آن؛ ولذلك بقيتُ في انتظارها. ولاحظتُ أن هناك زميلاً من السنغال يحوم حولها أيضاً، وكان ينتظر أيضاً بعد أن انتهى من امتحانه. وحين انتهت آن ماري من امتحانها وخرجت، جاءت إلينا، فسالناها ماذا فعلت، فأبدت ارتياحاً لأدائها. وعند ذاك قلتُ إنه يجب أن نحتفل بالانتهاء من الدراسة، ودعوتهُ لتناول مشروب في المقهى المقابل للمدرسة. ولمَّا كان بيبير معنا أيضاً ومنظرًا فقد دعوته هو الآخر، فقبلنا، وخرجنا كلنا معاً.

وفي المقهى تحدثنا عن الامتحان وعن المدرسة، وحين فرغنا من شرب القهوة باللبن، سألتُهما أن يطلبنا مشروباً آخر. وكان بيبير يظن أننا سنغادر المقهى بعد القهوة باللبن، فاضطرَّ إلى الاستئذان؛ لأن لديه موعداً ولا بد أن يذهب الآن. وتنفَّستُ الصُّعداء. وسَلَّم علينا وذهب. وتحدثتُ مع آن عن كثير من الأشياء، وحين قمنا قلتُ لها إنني سأسير إلى المنزل فقالت إنها ستسير معي. وخلال سيرنا نجحتُ في أن نتبادل رقمي تليفونينا، كما دعوتُها إلى لقاء آخر بوسط البلد قبل أن أسافر في رحلتي الصيفية، فقبلت الدعوة. وحين تقابلنا أمام إحدى دور السينما، كما اتفقنا، فوجئتُ بها في رونقٍ جميل غير الذي تتبدَّى فيه في أيام العمل، فاصطحبتها إلى إحدى الكافيتيريات الفاخرة، وطلبتُ لها أفضل أصناف الشراب والأطعمة الخفيفة. وتناقشنا عما سنفعل في الصيف؛ فهي ستذهب لزيارة أسرتها في نورماندي بشمال فرنسا، بينما قلتُ لها إنني ذاهب للجري أمام الثيران في مهرجان بمبلونة؛ ولهذا، فحين ودَّعْتُها ذلك المساء هتفتُ بي ضاحكة: احترس من الثيران! وعندها علمتُ أن آن قد دلفت إلى قلبي لكي تستقر فيه.

وعندما حلَّ الصيف كانت إجازتي السنوية، فعزمتُ قضاءها في الترحال لرؤية أماكن وتجاربٍ جديدة، بدأتها بالذهاب في رحلةٍ منظَّمة لمدة أسبوع لحضور مهرجان سان

فرمين في بمبلونة، كما ذكرتُ لأن ماري. وقد عرفتُ تفاصيل هذا المهرجان من رواية همنجواي «وتشرق الشمس ثانية» حيث أجاد في وصف تفاصيله على نحوٍ مثير للإعجاب. وبالفعل، لا يمكن استيعابُ ما يحدث في ذلك المهرجان إلا بحضوره كاملاً. وهو يبدأ في السادس من يوليو من كل عام، ويستمر عدة أيام كلها موسيقى ورقص وشراب وجري أمام الثيران، ومشاهدة المصارعة كلَّ أصيل. وقضيتُ ذلك الأسبوع وأنا أتابع كل ذلك، وارتديتُ الإشارب الأحمر حول العنق والبيرييه الأحمر كما يفعل الجميع. وفي أول يوم لانطلاق الثيران من حظيرتها إلى ساحة المصارعة في الصباح الباكر، ارتديتُ ملابس خفيفة استعداداً للجري أمام الثيران. وحين وصلتُ إلى المكان، راعني وجود الكثير من عربات الإسعاف على جانبي الطريق الذي تحدّد لجري الثيران بحواجز خشبية. وقد أثر في ذلك وأجلتُ فكرة الجري أمام الثيران لليوم التالي كي أرى كيف يكون الحال. وكان همنجواي يجري مع «الشجعان»؛ أي في مواجهة الثيران، بينما يطلق على الذين تفصلهم مسافة كبيرة عن الثيران الهائجة وصف «الجبناء».

وانطلقتُ الثيران، وجريتُ معها ولكن من الخارج إلى أن وصلنا إلى حلبة المصارعة. ورأيتُ العديد من الشبان الشجعان مطعونين بقرون الثيران يحملهم رجال الإسعاف، فزاد ذلك من شكوكي في المشاركة في الجري. وفي الحلبة، أطلق المسئولون أبقاراً وثيراناً وديعة، أخذنا نلاغياها كأنما هي مصارعة ثيران حقيقية. وبعدها خرجتُ إلى الميدان المواجه للحلبة، وبه تمثال لإرنست همنجواي تقديراً له من مدينة بمبلونة وأهلها، وأخذتُ لي عدة صور إلى جوار التمثال. وبعد تناول إفطاراً شهياً من الكرواسان والقهوة باللبن، ظللتُ أجوب الطرقات مع أفواج المَعَنين والراقصين، يصدّحون بأغاني المهرجان التقليدية. وقد تكرّر كل هذا طوال الأيام الأربعة التي استغرقها المهرجان، ولم أكن أنام في تلك الأيام سوى أربع ساعات فقط.

وبعد العودة من بمبلونة، استعددتُ لرحلة العمر الكبرى؛ فقد كنتُ قد حجزتُ مكاناً في رحلة — منظمة وبالأوتوكار أيضاً — من مدريد إلى فيينا والعودة، مروراً بدول ومدن عديدة. ووجدتُ نفسي في أفضل مكان في الأوتوكار، في المقدمة حيث أرى كل شيء بانورامياً واضحاً. ولما كنتُ مسافراً وحدي، فقد وجدتُ إلى جوارني فتاةً وحدها كذلك. وطبعاً تبادلنا التحية والحديث للتعارف؛ فسوف نكون رفيقي سفر لمدة طويلة، فعرفتُ أنها تعمل في مكتب رئيس وزراء إسبانيا — كاريرو بلانكو — وذكّرتُ لها عملي واهتماماتي الأدبية. وكان حديثها يبين عن ذكاءٍ حاد، وإن كانت للأسف خالية من الجمال. وسرعان ما

عاملتني بوصفي من المثقفين، بينما نظر لنا رفاق الرحلة على أننا عاشقان محتملان؛ ففي الإفطار والعشاء كنا نجلس إلى نفس المائدة، والجميع يترك لي مكاناً معها دائماً. وكانت مجموعة الرحلة متنوعة؛ ففيها فتاتان إسبانيتان في غاية الجمال، وأربعة برتغاليين — زوجان وزوجتهما — واثنان من القسس الإسبان، وغيرهم. وتوقفنا في برشلونة، واستعدتُ ذكرياتي فيها، وكنتُ أحرص كعادتي على الخروج والتجوال وحدي، إلا إذا كانت هناك زيارة منظّمة داخلية في برنامج الرحلة.

ومررنا على مونبلييه وشامبيري في فرنسا، وعرفتُ أن الفتاتين تُجيدان التحدث بالفرنسية، وكنتُ موزّعاً بين رفقتي مع الحرمان من حريتي في الزيارات الحرة، وبين انطلاقي وحدي لأرى ما أحب رؤيته، بإيقاعي الخاص، الذي لا يتفق مع اصطحاب آخرين وخاصةً من الفتيات. وأعجبتني مونبلييه، واعتزمتُ أن أزورها ثانيةً وحدي للتعرف على الجامعة التي درّس فيها طه حسين.

وحين دلفنا إلى سويسرا لفنت نظري الخصرة الشاسعة على الجانبين، واختلاف الطبيعة عن المشاهد التي رأيناها في حقول فرنسا؛ حيث تغلب فيها حقول القمح الصفراء. وأخذتُ «كونصوليو» — جارتني في الأوتوكار — تشرح لي خصائص سويسرا وشعبها؛ فقد زارتها من قبل. وتجوّلتُ في جنيف وحدي، وشاهدتُ كيف تنام المدينة في الثامنة مساءً، ودخلتُ «السكس شوب» ورأيتُ فيه ما لا يرى في إسبانيا، كما شاهدتُ أحد أفلام البورنو، ولاحظتُ أنها من النوع «السوفت»؛ أي الذي لا يعرض الجنس الكامل، وقد جاء ذلك تدريجياً إلى الغرب. وأعجبتني زيوريخ أكثر من جنيف رغم لغتها الألمانية؛ فالحياة فيها أكثر تنوعاً، وقد زرتُ هناك قبر جيمس جويس بعد بحثٍ شاق عن مقبرته. ومزّرنا على إمارة لختنشتاين، في طريقنا إلى إنسبروك بالنمسا، وهي تُشتهر بألعاب الجليد، ومحاطة بالبال.

وكيما يذهب الأوتوكار من إنسبروك إلى سالزبورج — وكلتاها في النمسا — لا بد أن يعبرُ أراضيَ ألمانيةً تابعة لميونخ. وللأسف لم يذكروا لنا ذلك من قبل، فلم أحصل على فيزا دخول ألمانيا، وكان موقفاً محرّجاً بالنسبة لي؛ فالإسبان غير مطالبين بفيزا حين يمرون بألمانيا، ولكن كانت هناك عربةٌ مخصصة تحمل من ليس لديهم فيزات من إنسبروك إلى سالزبورج دون توقّف. وكان معنا سيّدةٌ جنسيّتها كوبية نزلت لركوب تلك العربة، وصعد موظّف الحدود إلى باصنا، وقال: الباقي كلهم أوروبيون؟ فقال المشرف المرافق لنا: نعم. وغمّز لي بعينه! وانطلق الأوتوكار بنا إلى ألمانيا وأنا فيه دون أن يكون مسموحاً لي بذلك.

ومكثنا يومين في سالزبورج نستمتع بالموسيقى وبمتحف موزار وبالقلعة التي هناك وتُشرف على المدينة كلها، ثم انطلق الباص بنا إلى العاصمة الخالدة فيينا. وفي الطريق، مررنا على أجمل المشاهد الطبيعية قاطبة؛ جبال التيرول وأشجارها الفخيمة التي سحرت أبصارنا وعقولنا، وكانت أشبه بالأحلام. وبعدها بدأنا نطرق أبواب فيينا، كما كانت تطرقها الدولة العثمانية قبل قرون. وراعني جمال المدينة ونظافتها الفائقة. وزرت الأماكن المدرجة مع رفاق الرحلة، ومنها عرضٌ موسيقي لألحان شتراوس وراقصات للفالس يدعون من يرغب في الرقص لدقائق، تبدت لي وقتها أسمهان وهي تغني ليالي الأس في فيينا؛ وزيارة لكاتدرائية سان اسطفان، والعجلة الدوارة التي أصابنتني بدوار الأماكن المرتفعة حين بلغت القمة، ثم قمنا بزيارتين مشهودتين في ضواحي فيينا؛ الأولى لقصر «مايرلنج» التاريخي، الذي شهد واقعة انتحار الأمير رودلف وماريا فتسيرا، والتي أبدع في تمثيلها عمر الشريف في الفيلم المأخوذ عن هذه الواقعة، وقد وجدت في تلك البلدة مكتبة بها كتبٌ إنجليزية ابتعت منها رواية سالنجر «الحارس في الحقول». وزرنا ليلة أخرى ضاحية «جرينزنج» المشهورة ببنبيذها، وقضينا وقتاً في إحدى حاناتها المشهورة؛ حيث النادلات فيها يرتدين الثياب النمساوية التقليدية، وتبرز منها صدورهن الناهدة التي تبدو كالضياء وهن يرحن ويجنن بالمشروبات، مما جعل أحد الرفاق البرتغاليين يغمز لي بعينه حين انحنت إحدى هاته الحوريات لتصب لنا الشراب فيتبدى لنا نهداها النافران. وما كان يجروء على الإفصاح بأكثر من تلك الغمزة؛ إذ كانت زوجته تجلس إلى جواره!

وباستثناء هذه الزيارات، انطلقت وحدي أرى ما أريد رؤيته في هذه المدينة الفريدة. زرت دار الأوبرا المشهورة زيارة مشروحة طفنا فيها بكل أنحاءها، ثم حجزت فيها لمشاهدة أوبرا «الأرملة الطروب»، وهي الوحيدة التي وجدت فيها أماكن غير محجوزة، وكان عرضها جميلاً يأخذ بالآلباب. وحضرت عرضاً مسرحياً باللغة الإنجليزية في أحد المقاهي المخصصة لذلك، وكان نصاً خاصاً لم أعرفه من قبل، ولكن التجربة كانت جديدة ومفيدة.

ولم أغفل عن مطالب الحس؛ ففي الأمسيات المتأخرة كنت أعبر الشارع الرئيسي في فيينا؛ ماريا هفلر، فأرى فانتات حسناً ينتظرن من يصطحبهن من الزبائن. وورغبت في ذلك لولا عدم معرفتي باللغة، مما قد يؤدي إلى عدم التفاهم والخداع. وقد حدث أن دخلت من قبل محلاً للأكل ذاتي الخدمة، وتناولت صينية، وعند أول أصناف الأكل كلمتني إحدى

النادات بالألمانية، فأجبتُ بالإنجليزية، ولكن لم يكن التفاهم ممكناً، فأعدتُ الصينية إلى مكانها وخرَجْتُ؛ ولذلك عدَلْتُ عن هذه المتعة الجمالية والحسية المتاحة، ولكن منظر أولئك الحوريات النمساويات لا يمكن أن تمحوه الذاكرة!

ومن النمسا عَبرنا إلى إيطاليا، متوقفين عند مدن «أودين» و«فينيسيا» و«ميلانو» و«جنوة». وكانت فينيسيا حُلماً تحقَّق، بركوب الجندول والتغني وأنا فيه بأغنية عبد الوهاب وقصائد علي محمود طه. وتمثَّلتُ أخيراً كيف تكون المدينة يحوطها الماء ويتخلل ثنائياها، وتعمل القوارب والفايورتو مكان العربات وسيارات الأجرة. وسَهرنا في ميدان سان ماركوس على أنغام البيانو الساحرة، وزُرنا قصور الحكام، وجسر التَنهُدات الذي لا علاقة له بتنهُدات الحب، بل تنهُدات الحسرة لدى عبور الجسر لدخول السجن. وفي ميلانو زُرنا الكاتدرائية ومسرح سكالا الذي تُعرض فيه أشهر الأوبرات.

ومن إيطاليا اتجهنا مرةً أخرى إلى فرنسا، إلى منطقة الريفييرا هذه المرة، في نيس و«كان»؛ حيث الحسان على الشواطئ يختلن شبه عاريات. ولاحظتُ النظافة الشديدة في كان، وشاهدتُ مبنى المهرجان السينمائي الشهير هناك. وفي إمارة موناكو استمتَعنا بالهدوء الجمالي، ودخلنا الكازينو الشهير؛ حيث لعبنا كرمز لزيارتنا تلك الإمارة الصغيرة. وعُدنا إلى أفينيون وزُرنا مقر البابوات. وكانت المدينة عامرةً بالمهرجان المسرحي السنوي الذي يُقام بها، فشاهدتُ بعض العروض الشبابية التجريبية. وكان الشباب ينامون في الحدايق والأركان، كلُّ في أحضان صاحبتِه أو صاحبه.

وكانت الرحلة قد وصلتُ إلى منتهاها، وبلغ بنا الإرهاق مبلغه، وازدحم القلب والعقل بما شاهدنا؛ ولذلك فحين بلغنا برشلونة في طريق العودة، سَعَدنا بالحديث بالإسبانية ثانية، وبالطعام الإسباني، وكل ما تَعَوَّدنا عليه. وكانت خاتمة المطاف في مدريد؛ حيث تبادلْتُ مع كونسويلو أرقام التليفون، وتواعدنا على اللقاء.

ولكن أفكارِي كانت مع آن ماري. وزادها ذلك أن وجدتُ في انتظاري بالمعهد خطاباً منها به بطاقةٌ تتمنّى لي فيها صيفاً سعيداً. وعليه فقد اتصلتُ بها تليفونياً، وتحدَّثنا، وعرفتُ أنها قد عادت لتوها من فرنسا، فقلتُ لها أن تتصل بي حالما تستقر من الرحلة كيما نتقابل. وبعد أسبوعين من الانتظار، اتصلتُ بي، وتواعدنا على اللقاء عصر السبت لمشاهدة أحد الأفلام. وهكذا بدأتُ علاقتي بآن ماري؛ زوجتي.

وران على أفكارِي منذ ذلك الحين قربُ انتهاء انتدابي؛ فهو ينتهي في أغسطس ٧٣. كان عليَّ أن أشتري كل ما يجب أن أعود به إلى مصر، كما يفعل الجميع، ولكني لم

أنسَق وراء الأحلام البرجوازية الضيقة؛ فمثلاً لم أكن أفكر في اصطحاب سيارة، وهي حُلْم كل مصري بالخارج، ولكنني أريد العودة بالجرامافون الستيريو، والمُسجَل السوني، وكل ما أريد من الأسطوانات. كذلك لا بد من تكملة الكتب التي أريدها، ما تبقى من دواوين نيرودا، وكُتُب تاريخ الأدب الإسباني، والكتب التي تعرض كُتَّاباً بعينهم مثل خيمينيث، ولكن ذلك لن يمنع أن أعود بأدوات منزلية مطلوبة، مثل ثلاجة وبوتاجاز وغسَّالة وسخَّان، وهو ما قمتُ بشرائه في الأشهر التالية.

وقابلت آن ماري «في الساعة الخامسة في كاياو»، وهي العبارة التي أصبحت عادةً بيننا على موعد اللقاءات (وكاياو هو اسم ميدان صغير متفرع من خوسيه أنطونيو). وكنتُ أرغب في إبهارها، فذهبتُ أولاً لشراء عدسة مكبرة لكاميرتي، ثم عرَّضتُ عليها أن نرى فيلم «الموت في فينيسيا» فوافقت. وكان اختياراً موفقاً؛ فالفيلم رائع، مأخوذ من رواية توماس مان المعروفة، بتمثيل رائع وموسيقى مبدعة من السيمفونية الخامسة للموسيقار النمساوي جوستاف مالر. وخرجنا نتناقش في الفيلم، واصطحبْتُها إلى موريسون حيث تناولنا الفطائر بالعسل التي أعجبتُها جداً. وحين خرجنا كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة، فقررتُ مرافقتها حتى باب منزلها. وهناك قبلْتُها قبلةً سريعة ومشيتُ على موعد للقاء السبت التالي.

وهكذا تطوَّرت علاقتي بآن ماري إلى أن أصبحنا نُمضي عطلة السبت والأحد معاً. وأصبحتُ هي تُعرب عن قلقها من اقتراب عودتي إلى مصر، ولكنني كنتُ أضحك وأنصَحُها بنسيان ذلك، ولكن مع مُضي الوقت بدأتُ أنا أيضاً أشعر بالقلق، وأدركتُ مغزى ما فعلته خولياً بالابتعاد قبل أن أرحل عن إسبانيا، ولكن الحياة تسير، وقصينا الشهور المتبقية في أسعد حال ما بين المتاحف والأفلام والشعر والفن والكتب. كما أننا زرنا مدينة شلمنقة سوياً. وفي أعياد الميلاد والملوك أهدتني صندوقاً جميلاً لحفظ الأسطوانات.

ومضت الأيام ما بين العمل واللهو، وعاد إلى تفكيرتي أنني لم أكتب شيئاً طوال فترة إقامتي في إسبانيا، ولكنني عزيتُ نفسي بأنني أستجمع قواي وأخزن تجاربي حتى أعود فأعاود الكتابة والنشر من جديد. وفي يونيو جاء ما يفيد إنهاء ندي، وعودتي في أغسطس. وأرسل مدير المعهد يطلب مد فترة انتدابي عاماً آخر. وبعد فترة جاء ما يفيد الموافقة على المد لفترة ثلاثة أشهر. وقررتُ قضاء تلك الأشهر بتركيز شديد والاستعداد للعودة. وكانت المشكلة في آن ماري؛ فقد نمت العلاقة بيننا، وأصبحنا لا نستغني عن بعض. وكانت فكرة ذهابها معي إلى مصر مستحيلة، وشرحتُ لها ذلك، كما أن بقائي في إسبانيا بعد انتهاء

الندب غير عملي؛ إذ كان هناك الكثير من العرب لا يجدون عملاً فيها، ويعيشون إما عائلة على زوجاتهم أو في بؤس مادي.

وانتهزت فترة المد، وسفر آن ماري إلى أهلها في فرنسا، وحجزت في رحلة إلى لندن؛ فلم يكن من المعقول أن أعود إلى مصر دون زيارة إنجلترا، خاصة أن محمد عناني كان ما يزال هناك. وعليه، ففي أغسطس ركبنا الطائرة الشارتر «سبانلاكس» التي هبطت بنا في مطار هيثرو. وأخذنا «باص» إلى وسط البلد. وبدأ الطريق ساحراً، ورأيتُ الريف الإنجليزي في روعته كأنما هو لوحة من لوحات الرسامين الرومانسيين، أو مجسمات الحكايات الخيالية. وحين دخلنا إلى أطراف العاصمة، تغيرت الصورة إلى ما هو معهود في المدن الضخمة، مع المزيد من عدم الترتيب والنظافة. ومَررنا على مبنى البرلمان وساعة بج بن وكاتدرائية القديس بول، فهالَتني المسحة السوداء التي تغطي هذه المباني الجميلة التشكيل.

وحين وصلنا إلى الفندق الذي اختاروه لنا وجدته على النظام الفكتوري الجميل، ووجدتُ غرفتي صغيرة وإنما أنيقة. وحين فتحتُ الراديو العام الذي بالغرفة، تعجبتُ من طريقة الكلام وإذاعة الأخبار؛ فقد كانت مختلفة عما تعودتُ سماعه في مدريد، ومنها الإعلان عن درجات الحرارة؛ فهم يذكرونها بالفهرنهايت، بعكس إسبانيا التي تعتمد السنتيجراد. ولسوف أرى بعد ذلك الكثير من الاختلافات بين البلدين، هي في الواقع الاختلاف بين الأنجلو سكسون واللاتين. وقد اتضحت لي تلك النظرة أكثر حين عشتُ في نيويورك بعد ذلك.

وخرجتُ من فوري أستكشف تلك المدينة التي سيطرت في زمنٍ على نصف العالم. وكما حدث عند رؤيتي مدريد لأول مرة، لم أعثرُ مما رأيتُ من مبانٍ وأناسٍ على أي تميز، وطبعاً كان التميز في التخطيط والإدارة، وقبل كل شيء العسْف والجور والاستعلاء على باقي الأمم. وكان معي كالعادة خريطة مفصلة للندن مكنتني من التحرك بسرعة وحرية، فوقفْتُ في وسط «بيكاديلي سيركس» متفكراً في أحلام الصبا حين كنا ننحِل زيارتنا لهذا الميدان وغيره من معالم أوروبا البارزة. وطبعاً، كتذكارة للزيارة، أطحمتُ الحمام المتجمع في الميدان بحبوب اشتريتها لذلك الغرض. وزرتُ المحلات المجاورة للميدان، ورأيتُ محلاً للجنس فدخلتُ أتفرج، وتعجبتُ من أن الباعة كلهن من الفتيات، يشرحن للزبائن ما يريدون الاستفسار عنه دون حرج أو حياء، وكان معظم الزبائن من الإسبان والعرب. ودخلتُ مطعمًا هنديًا لتناول العشاء، وكانت طريقة الطلب والحساب والدفع مختلفة، مما تسبَّب في بعض المواقف الطريفة.

وفي اليوم التالي كان إفطار الفندق شهياً وفيراً، فيه الأصناف الإنجليزية كالبيض، والكونتيننتال؛ أي مما يُستخدم في باقي أوروبا. وخرجتُ عازماً الاتصال بمحمد عناني في مدينة «ريدنج» حيث يقيم حتى ألقاه وأراه بعد كل هذه السنوات. وتجوّلتُ سائراً في الطرقات، وتعجّبتُ من أكياس القمامة السوداء الملقاة على الأرصفة أمام البيوت والمحلات في انتظار عربات القمامة، وهو ما لم أَره أبداً في إسبانيا. وبدأتُ بمشاهدة الآثار السياحية الهامة، مثل برج لندن، وجواهر الملكة، وتغيير الحرس أمام قصر بكنجهام، ثم توجّهتُ إلى كشك تليفوني من تلك الأكشاك الحمراء الجميلة، وقرأتُ طريقة الاتصال، وطلبتُ نمرّة محمد عناني، وسرعان ما جاءني صوته المألوف الضاحك مستغرباً من وجودي في لندن، وأعطاني موعداً في المساء ليلقاني أمام أحد المحلات الشهيرة. وإلى أن يحين موعد اللقاء، زرتُ شارع بيكر موطن شرلوك هولمز، ثم متحف الشمع الشهير. وتجوّلتُ في منتزه هايد بارك الشهير حيث الخضرة والماء والوجوه والأجساد الحسنة.

وحين رأيتُ عناني مقبلاً نحوي، عادت لي كل ذكريات القاهرة والجامعة وكازينور والطواجن المعمرة ... ورَحَّب بي هاشاً باشاً، وقال إنني سبقته في الزيارة؛ فقد كان يخطط دائماً لزيارتي في مدريد. وطفق يحدثني باستفاضة عن دراسته والرسالة التي يُعدها للدكتوراه، والترجمات التي يستعين بأجرها على استكمال نفقات المعيشة. وذهبنا إلى مقهى من نوع الـ PUB الإنجليزي الصميم، وطلبنا كوبين من البيرة الإنجليزية. ولم تُعجبني المقاهي الإنجليزية؛ فقد كانت تفتقد تلك الحميمية واللفظ اللذين تتميز بهما المقاهي الإسبانية، كما أن معاملة الناس بها شيءٌ من الخشونة. وعرفت منه أنه يكوّن مكتبةً ثمينة من الكتب والمراجع الأساسية، بالإضافة إلى الأسطوانات والتسجيلات للموسيقى الكلاسيكية ومسرحيات شكسبير. وكان لقاءً ممتعاً، خرجنا بعده للسير في طرقات لندن كأننا في مسيراتنا المشهورة بالقاهرة، ومال إلى أحد المحلات الباكستانية لشراء بعض اللوازم، واتفقنا على أن أزوره في ريدنج بعد يومين، بعد أن شرح لي جيداً، عدة مرات، كيفية الذهاب إلى هناك بالقطار.

وقد حَزَتْ في الرحلة زيارتين مهمتين؛ الأولى لبلدة شكسبير ستراتفورد أبون إيفون، والثانية إلى جامعة أكسفورد. وكانت الزيارة الشكسبيرية وليمةً دسمة، طافت بنا في الأماكن التي عاش فيها الشاعر العظيم، واستعدتُ في أثنائها ما درّسته وقرأته له، واشتريتُ من هناك نسخةً جديدة من مسرحية هملت تذكّاراً لهذه الزيارة. أما رحلة أكسفورد فقد أفادتني في التعرف على أجواء جامعتها العريقة التي درّس بها الكثير من

المصريين، وحكى عنها الدكتور لويس عوض في كتابه «مذكرات طالب بعثة»، كما أعجبتُ جداً بالمدينة؛ فقد كانت نظيفةً أنيقةً تُناسب الجو العلمي الذي يرتبط باسمها. وقضيتُ يوماً جميلاً في بلدة ريدينج بمنزل محمد عناني. كان يقطن منزلاً صغيراً من دورين تابعا للجامعة، ورأيتُ الكتب في كل مكان، وإن كان أيضاً طباحاً ماهراً، أمسك بالمعرفة يُحرِّك بها ما في الآنية الضخمة على الموقد، وطبخ لنا أكلةً مصريةً شهية. وتكلمنا في كل شيء، وعن الآمال والأحلام بعد العودة إلى مصر؛ فقد كان يخطط لغزو ثقافي يجدد الحياة الأدبية في مصر، ولديه أفكارٌ عديدة لمسرحيات ومترجمات؛ فقد كان يرى أن الكثير من الكلاسيات الإنجليزية لم تُترجم بعدُ إلى العربية، وأهمها «الفردوس المفقود» لجون ملتون. كما أنه لم يكن راضياً عن ترجمات شكسبير العربية، ويرغب في ترجمة روائعه الدرامية ترجمةً لائقة. وجعلتني هذه الأحاديث أتوق للعمل الأدبي، وإلى أن ألقاه مجدداً في القاهرة بعد حصوله على الدكتوراه.

وقد غطيتُ في أثناء الزيارة التردد على المتاحف المهمة في لندن، فقضيتُ يوماً كاملاً في المتحف البريطاني، وقضيتُ وقتاً أمام حجر رشيد المعروض قائماً وراء صندوق زجاجي، وأخذتُ له عدة صور، قُدر لإحداها أن تُنشر في الهلال مع مقالٍ لي عن حجر رشيد. والمتحف يَغص بالآثار المصرية المتعددة، خاصة توابيت المومياوات الفرعونية الزاهية الألوان. وفي «تيت جاليري» تعرّفتُ على لوحات كبار الرسّامين الإنجليز الذين لم أكن أليفاً بهم، مثل كونستابل وهوبر، وأعجبني حُسن التنسيق فيها.

وفي رحلة العودة إلى مدريد، اقتربتُ من حافة الموت للمرة الثانية (الأولى في شبين الكوم، والثالثة ستكون في القاهرة عام ٢٠٠٣م) حين فاجأت طائرتنا عاصفةً رعدية تلاعبت بها وجعلت عدداً من المسافرين يصرخون هلعاً بينما المضيفات يُهرعن بأنابيب الأوكسجين للبعض، بينما أنا أتلو آيات القرآن الكريم والشهادتين. وكانت شركة سبانتاكس مشهورة بكثرة حوادثها وبأنها توظف طيارين مبتدئين (وقد وقع أخطر حوادثها في أوائل الثمانينيات، وراحت فيه ضحايا كثيرة) وظلّت الطائرة تتأرجح، والبعض يقول إنها ستهبط في مطار آخر، حتى أخذت في الهبوط بالفعل، واكتشفنا أننا في مطار مدريد. وحمدتُ الله على السلامة، وعزمتُ على استخدام الباخرة في رحلاتي كلما تيسر ذلك.

وركّزتُ جهدي في الأشهر الثلاثة الباقية — على المستوى الشخصي — في الاستزادة من الكتب التي أرى أنها ستفيدني في مصر، والأسطوانات والمواد الفنية الأخرى التي لن أجدها هناك. كذلك أمضيتُ وقتاً أكبر مع آن ماري، أخترنُ فيه ما أجتره بعيداً

عنها بعد ذلك. كنتُ أشعرُ أن علاقتنا ستنتهي بمغادرتي مدريد؛ فسفري بعد ذلك أمرُ صعب، وحضورها إلى مصر أصعب. وكانت هي ترفض ذلك المنطق، بوجهة نظرها المتفائلة الشبابية، وعدم إدراكها ظروف الحياة في مصر. وهكذا تركتُ هذا الأمر للأقدار. وتحدّد أوائل نوفمبر لشحن منقولاتي إلى مصر، وأعددتُ قوائم بها لاعتمادها من السفارة للحصول على الإعفاء الجمركي المقرّر للعاملين في الخارج.

وفي يوم ٦ أكتوبر، وكان يوم سبت، خرجتُ بعد الظهرية بقليل للقاء آن ماري في الخامسة في «كايوا» كالعادة. وحين حضّرت قالت لي إنها سمعت في الراديو قبل حضورها أن حرباً نشبت بين مصر وإسرائيل. ولم أصدّق، وحسبْتُها مجردَ مناوشات كالتّي تحدّث بين الجنود في الجبهة، من التي كان يحدثنا بها أحمد نوار. وأسّرتُ بشراء جريدةٍ مسائية وإذا بها تحفل بأنباء معارك ضارية ناشبة في جبهة قناة السويس. واشتدّ وجيب قلبي؛ فقد كانت الأخبار المتواترة قبل ذلك لا تُنبئ بحُسن استعداد مصر لخوض حربٍ قريبة. وذهبتُ إلى أقرب تليفونٍ عام، واتصلتُ بالمستشار الثقافي مدير المعهد، الذي أكّد لي نشوب الحرب بين مصر وسوريا من جهة وإسرائيل من جهةٍ أخرى، وأنه قد اتصل بالسفارة لمعرفة المزيد من التفاصيل.

وتتابعتُ الأنباء، وسعدنا بعبور قواتنا إلى الضفة الشرقية وتدميرها لخط بارليف، الذي أثبت ضعفه أمام تخطيط مهندسينا وجنودنا. وكنا نتلهّف على سماع انتصاراتنا وتحريرنا لسيناء كلها، حين علّمنّا بنبأ الثغرة، ثم قرار وقف إطلاق النار، ومفاوضات على أرض المعركة. وكان المعهد ميداناً لكثير من المناقشات والمتابعات بين الطلاب المصريين، الذين توافدوا عليه للتعبير عن سعادتهم بتحرك الجيش المصري، ونجاحه في عبور القناة. وفي أوائل نوفمبر جاء مندوبو شركة الشحن، وعملوا طوال اليوم في تغليف حاجياتي ومنقولاتي، وكان معظمها من الكتب والمجلات. ولما كنتُ مستأجراً شقة مفروشة، واصلتُ الإقامة فيها إلى يوم سفري. ونظرًا لقيام الحرب وما تبعها من مناوشات، لم تستقرّ حركة الطيران المدني ولا البواخر المتجهة إلى تلك المنطقة سريعاً؛ ولذلك تلقينا قراراً وزارياً بمدّ نوبي شهرًا آخر ينتهي في ديسمبر ٧٣. وصدر كذلك قرار بإنهاء ندب مدير المعهد، الدكتور العبادي، بعد تغيير الوزارة. وتولّى وزارة التعليم العالي وزيرٌ جديد قصرَ المدة الكلية لإعارة أساتذة الجامعات إلى الخارج على عشر سنوات، وكان ذلك ينطبق على مدير المعهد، الذي سبق أن قضى عدة سنواتٍ في المغرب.

وبالطبع، كانت فترتي الأخيرة في مدريد يُغلّفها الأسى لفراق آن ماري وتلك المدينة التي أحببناها، وذلك الشعب الذي عشتُ بينه وعشقتُ لغته وثقافته. وأخذتُ أطلع إلى

الجيل الرائع

كل ما أُمّر به كيما أحتفظ به في وعيي لأستعيده في مصر، وتواعدت مع آن ماري على التواصل عن طريق الخطابات، ولكنني شجّعْتُها على السفر إلى فرنسا لزيارة أسرتها قبل موعد سفري أنا إلى القاهرة. ومع ذلك كان يوم سفرها أليماً لنا نحن الاثنين، بينما الدنيا من حولنا تحتفل بالكريسماس والعام الجديد.

العودة إلى مصر

١٩٧٤-١٩٧٨ م

رحلتُ عن إسبانيا رحيل أبي عبد الله، آخر ملوك غرناطة، عنها. كان ذلك يرجع في أكثره لفراقي آن ماري. ظننتُ أنها مجرد علاقةٍ عابرة، ولكن الأيام أثبتت غير ذلك. وددتُ لو مكثتُ أكثر في ذلك البلد الجميل، ولكن كان هناك واحدٌ من ذوي الاتصالات المهمة يسعى للحصول على ذلك المكان، ونجح في ذلك. وقد حضر هو والمدير الجديد، الرجل الفاضل الدكتور أحمد هيكمل، الذي سَعِدْتُ بالتعرُّف عليه.

وتلوَّنتُ أسابيقي الأخيرة في مدريد بفاجعةٍ إسبانية؛ إذ نجح مناهضو فرانكو في اغتيال كاريرو بلانكو، رئيس وزرائه، الذي كان يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا. وكان حادثًا مأساويًا؛ فقد وضعوا كميةً كبيرة من الديناميت في الطريق الذي تعبره سيارته كل صباح، وفجَّروها حين مرَّت السيارة على مكان المتفجَّرات، فكان أن انقذتُ السيارة عاليًا، وتعدَّت المبنى المقابل ذا الأدوار الستة، لتسقط في الشارع المجاور.

وفي أواخر ديسمبر أخليتُ طرقي من المعهد ومن الشقة، وفي ٣٠ منه توجَّهتُ إلى مطار باراخاس لأخذ الطائرة إلى روما. لم تكن البواخر قد استأنفت سيرها بعد، كما أن الحجز من روما إلى القاهرة على مصر للطيران لم يتأكَّد، نتيجة عدم ردِّ مكتب روما على طلباتنا للحجز. وكان في وداعي الدكتور العبادي وزميلي ظافر. وفي مطار روما، كان مكتب مصر للطيران خاليًا، وكان موعد الطائرة المصرية بعد ساعاتٍ عديدة. فكرتُ في الاتصال بأخي في القاهرة لأخبره أن وصولي غير مؤكَّد، وكنتُ قد كتبتُ إليهم بالموعد. وغرقتُ في حيرةٍ بالغة ويأسٍ قاتل. وهداني تفكيري أن أتصل بزميلي في المكتب الثقافي بروما، علَّه يمكن

أن يفعل شيئاً، وبدلتُ بعض الدولارات بعملاتٍ إيطالية، وبحثتُ عن رقم أكاديمية روما وأدرتُ الرقم. وسألتُ مَنْ رَدَّ عن زميلي، فأجاب أنه في إجازة، وأن المتكلم هو الدكتور يوسف كامل، المستشار الثقافي، مدير الأكاديمية، وسأل عما أريد، ولما شرحتُ له مشكلتي قال إنه سيبعث لي من يخرجني من المطار بفيزا لدخول إيطاليا، وإنه يُسعدُه استضافتي بالأكاديمية لزيارة روما. وشكرتُ الدكتور كامل على كرمه، وقلتُ إن ذلك صعبٌ حيثُ أسرتي في انتظاري، وإن عليَّ أن ألتحق بعملي بوزارة التعليم العالي في أول يناير. وعندها قال المستشار: لا تقلق، إذن ستسافر على طائرة اليوم. وكنتُ أسمع عن مدى الصداقات التي يتمتّع بها الدكتور كامل في إيطاليا بأسرها؛ ولذلك استبشرتُ خيراً بما قال. ولم أنسُ أبداً عَوْنَ الدكتور كامل لي في ذلك الأمر.

وبعد ساعات، حَصَرَ موظّف إلى مكتب مصر للطيران، فتوجّهتُ إليه وشرحتُ له موقعي، فأجابني بأنه مكلفٌ بحجز مقعدٍ لي في الطائرة. وقام بالإجراءات المطلوبة، وتسلمتُ بطاقة الركوب. وعندما حان موعد التحميل، عرفنا أن الشركة تلقتُ مكالمَةً بوجود قنبلة في الطائرة، فبدأتُ تفتيشٌ دقيق لها استغرق وقتاً طويلاً. وحين تأكد كذب البلاغ، بدءوا ينادون على الركّاب، وتقدّمتُ ببطاقتي، ولكن الموظف المصري الذي كان موجوداً أخذ البطاقة، وأعطاني واحدةً أخرى قائلاً إن تذكرتي قد تحوّلت إلى الدرجة الأولى. وكانت سفرةً ممتعةً بجانب أحد سفرائنا بالخارج، مع الخدمة الممتازة لراكبي الدرجة الأولى. وحين وصلنا مطار القاهرة الدولي، عشنا الواقع مع رؤيتنا الجنودَ بالمدافع الرشاشة يحيطون الطائرة. وخفّف من قلقي أن وجدتُ أخي الأكبر عند سُلّم الطائرة، واصطحبني إلى داخل المطار حيثُ وجدتُ أخي الأصغر أيضاً، وكان يقضي فترة تجنيده. وسرعان ما أنهيا إجراءاتي وأوراقتي، وخرجنا بأمتعتي وأنا فيما يشبه الدهول من تلك النقلة الهائلة من أوروبا إلى مصر، والوجوه الأليفة تُحيط بي من كل مكان.

وركبنا عربّةً إلى شقتنا بالعجوزة، وكنا في الفجر والصباح الباكر، ورأيت عربات الطعام الشعبي تقف على النواصي، ففرحتُ أن الحياة تسير في القاهرة على النحو العادي، وأن هناك طعاماً للشراء والأكل ما يزال. ووصلنا إلى المنزل المألوف، وصعدتُ إلى غرفتي، وكان أول إحساس دخل إلى ذهني أنني انتقلتُ في هذه الحجرة إلى القرن التاسع عشر. كانت الحجرة مرتّبة، ورغم ذلك أحسستُ بالغرابة فيها من النقلة الكبيرة عبْر يومٍ واحد. وغرقتُ في بحر الترحيب بي مما أنساني غرابة ما حولي. ولما كنتُ قد قضيتُ أياماً دون نوم، حاولتُ الإغفاء وقتاً ما حتى دخل الليل.

وفي الصباح التالي خرجتُ لأداء مهمةٍ عاجلة. كان كل ما حملتهُ معي من نقود هو مرتَّب الشهر الذي قبضتهُ قبل عودتي مباشرة؛ فلم أكن قد ادَّخرتُ شيئاً كما هو المتَّبَع عند من يعمل بالخارج، وكنت حريصاً على سرعة تبادل الدولارات إلى جنيهاتٍ مصرية من البنك الذي لي حساب فيه، وهو البنك الأهلي، فرع ثروت. وحين نزلتُ إلى الشارع، ومشيتُ إلى محطة التروليِّ باصر، أدركتُ أن تغييراً هائلاً قد حدث في كل شيء؛ رأيتُ شباباً من الجنسين يمزحون بطريقةٍ فجّة وكلامٍ قبيح لم نكن نشهده علناً من قبل. وكان وسط البلد كعهدي به، وإن أقلَّ مرحاً ونظافةً. أما البنك فقد قضيتُ ساعاتٍ كيما أنجز ما جئتُ لأجله؛ فلم يكن صديقي حلمي موجوداً يومها كي يُسهِّل لي الأمر.

وبرغم أننا قد عبرنا القناة، وأصبحنا على أعتاب حقبةٍ جديدة، فإنني قد أدركتُ أن آثار هزيمة ٦٧ قد بدأت تظهر في سلوك الناس ومظهر المجتمع؛ فكل حربٍ مدمِّرة، وكل هزيمة تخلف ردود فعلٍ رهيبة في الناس والأوطان، ولكنها لا تظهر بالضرورة على الفور، بل تتجلى ببطءٍ وتدرّج لا يلحظه أحدٌ إلا بعد أن تستفحل الكارثة. وقد صاحبتُ الهزيمة تغييراتٍ ديموغرافية كان لها عواقبها أيضاً على الأسرة والأخلاق والأعراف. أما الطبقة المتوسّطة فقد حملتُ آلامها داخلها وجاهدتُ أن تُكَمِّل مسارها كما كانت سابقاً، حتى لو داست في سبيل ذلك على القيم والمثاليات.

عُدْتُ إلى البيت كأنما هرباً من الواقع الذي شاهدهُ. وبدأتُ أستمع إلى الأغاني التي اشتقتُ إليها، وتُفَتُّ إلى مشاهدة الأفلام والمسرحيات التي أحبها. وفي اليوم التالي، أول عام ٧٤ توجَّهتُ لاستلام عملي بالوزارة، وقابلتُ المديرية التي رحَّبت بي كثيراً، وقَدِّمَتني إلى عددٍ من الشبان الموظَّفين الجُدد، معظمهم من خريجي كلية الألسن في لغاتٍ متعددة، يُشكِّلون القسم الذي سأرأسه. وأعجبتني الفكرة؛ فقد كنا سنطَّلِع على الأنشطة التعليمية والثقافية في مختلف الدول للنظر في كيفية التعاون مع تلك الدول، والاستفادة من خبراتها. وقد لَزَمَني وقتٌ ما حتى أتعوَّد على العمل في إدارتنا، فكنْتُ أبقي قليلاً، ثم أخرج عائداً إلى المنزل. ويبدو أن مديرتنا تعرف ذلك عمَّن يعودون من الخارج؛ فقد صَبَرَت عليَّ حتى عُدْتُ كما كنْتُ في الماضي.

وكان الكثير من الأصدقاء ليسوا في مصر عندما عُدْتُ أنا؛ فعنانني ما زال في إنجلترا، وماهر الثاني في إنجلترا كذلك، وعلي ذهب منتدباً في إذاعة طوكيو ... وهكذا. ولكني سرعان ما ائتلفتُ مع من بقي، فتناوبتُ اللقاء مع أحمد وعبد الفتاح ومصطفى وعاطف. ونجح عبد الفتاح في إشراكي في النادي الأهلي، فكنْتُ أرتاح فيه قليلاً عند عودتي من العمل

سائراً على القدمين. غير أن النادي الأهلي لم يف بما أريد من جلسات مريحة وخدمة سابعة وجوه حسان، مما أدى بعد ذلك إلى انضمامي إلى نادي الجزيرة بمساعدة أحمد، وسرعان ما لحق بي عبد الفتاح إلى هناك.

بدأت ألتقي بأحمد ومصطفى، في كافيتيريا فندق ماريوت، وفي جزيرة الشاي بحديقة الحيوانات. واستمتعتُ بشمس القاهرة في يناير، وبالنقاش مع أصدقاء العمر، والاستماع إلى القصص القصيرة التي يكتبها مصطفى، وظل الأمر هكذا على الحافة حتى يوم ذهبتُ إلى نادي السينما الذي جددتُ عضويتي فيه. وخرجنا من الفيلم ليلاً وكانت الدنيا تُمطر فأحالت الطرق أوحالاً، وكان من المستحيل ركوب الباصات أو العثور على تاكسي. واضطُرتُّ إلى المشي أحياناً، وركبتُ باصاً نزلتُ منه في شارع الجبلية، ومشيتُ منه وأنا وحدي ألهث حتى وصلتُ إلى البيت. وكانت تلك الليلة الحد الفاصل بيني وبين هدوء الإقامة في مصر؛ فقد وجدتُ أنني لن أستطيع التأقلم ثانيةً مع وضعي السابق، وزاد في ذلك أيضاً وضوح مشاعري تجاه آن ماري؛ فبعد رحيلي من مدريد وإقامتي في القاهرة، أدركتُ مدى تعلُّقي بها، وأن الأمر ليس مجرد علاقة عابرة، وإنما هي موضوع حياة أو موت. وقد وضعتُ حياتي مع آن ماري في إسبانيا أو في أي بلد آخر في مواجهة مع ما شعرتُ به بعد عودتي إلى مصر، وصارت هي رمزاً لكل ما فقدته وما آمل أن أحوزه مرةً أخرى. وقد كتبتُ لها أول خطاب من مصر في ٥ يناير، وتلَّقيتُ أول خطاباتها في منتصف الشهر، وكانت بداية مراسلة لم تنقطع حتى لقائنا في نيويورك.

وقد وجدتُ أن أفضل حلٍّ للغربة التي أستشعرها في وطني هو العودة إلى «مشروعي القومي» وهو الكتابة والنشر والتحصيل الأدبي والفني، مع التركيز على اللغة الإسبانية التي تحصلتُ عليها، والتي لم يكن هناك الكثير ممن يكتبون عنها (حتى ذلك الوقت). وبدأتُ ذلك بترجمة قصيدة بابلو نيرودا عن لوركا، وأرسلتها إلى مجلة الآداب اللبنانية التي نشرتها في أحد أعدادها. وقد تركتُ هذه القصيدة المترجمة أثراً بالغاً في نفس من قرأوها، حتى إنني قرأتُ عنها بعد ذلك في الإنترنت تقريظاتٍ عدة. وقد أعجب القراء بفقراتٍ معينة منها ما يلي:

لو أمكنني أن أبكي من الخوف في بيتٍ مهجور،
لو أمكنني أن أنزع عيني وأكلهما،
لفعلتُ ذلك؛

حزناً على صوتك البرتقالي المتشح بالسواد،
وحزناً على أشعارك التي تهب صارخة.

* * *

ما فائدة الأشعار لو لم تكن لليلة مثل تلك الليلة
حين يطاردنا خنجرٌ مريع؟!

لمثل ذلك اليوم،

لذلك الشفق؟!

ما فائدة الأشعار لو لم تكن من أجل الندى؟!

لذلك الركن المحطوم؛

حيث يتهاى للموت،

فؤادُ الإنسان الكسير.

وسررتُ باستعادة الكتابة والنشر، وذهبتُ إلى الإسكندرية مرتين لتخليص أمتعتي المشحونة من مدريد. وكان وقتاً عصيباً نظراً لتعقيدات الجمارك، رغم أن معي مخلصاً جمركياً ولدينا إعفاء. وشاهدتُ كيف يقدم المخلص الأوراق والاستمارات للموظفين ومع كل واحدة ورقة بخمسة وعشرين قرشاً. وأشار لي مرةً إلى موظفٍ معين، وقال لي إن هذا الرجل لا يقبل أبداً أي نقودٍ أو رشاً. عندها أيقنتُ أن الناس تختلف، وأن المرجع هو الضمير. وبعد طول عذاب بين المكاتب، دفعتُ أربعين جنيهًا جمركاً على السخان؛ حيث إنه جديد «بالضرورة». وتم شحن الحاجيات إلى منزلي بالقاهرة. وسعدتُ طبعاً بوجود كتبي ومجلاتي وأسطواناتي وشرائطي، وبدأتُ أنغمس في القراءة والاستماع، وكان ممن وجدتُ في الإدارة من الموظفين الجدد أنور، الذي يهيم بالموسيقى الكلاسيكية، ومنه عرفتُ لأول مرة مقطوعات «كارمينا بورانا» التي عشقتها بعد ذلك، وترجمتُ كلماتها إلى اللغة العربية. وبدأتُ شيئاً فشيئاً أرتب أموري وأتعود على حياتي الجديدة، مع بقاء مركزها في معاودة اللقاء مع أن ماري بأي طريقة وفي أي مكان. كانت رسائلها لي تفيض شجناً وحزناً وأملًا في عودة اللقاء، بينما أنا أعرف مدى صعوبة ذلك في الظروف التي نحيا وسطها.

وعكفتُ على القراءة المكثفة أغرق فيها همومي، وكان تركيزي على ما صدر باللغة العربية في أثناء غيابي عن مصر، بالإضافة إلى ما جلبته معي من كتب إسبانية وفرنسية، فقرأتُ ما أصدر نجيب محفوظ وأنا غائب؛ حكاية بلا بداية ولا المدرس بعد فوات فرصة التحاق بها كطالب. وهذا فضلٌ لا أنساه أبداً للدكتور الطاهر. وقد ضُمن لي هذان

العملان الإضافيان دخلًا جيدًا، كما أنهما أطلعاني من وجه مباشر على تدهور الوضع التعليمي للطلاب إلى حدٍّ لم أكن أتصوره.

وعاد محمد عناني من إنجلترا أخيرًا في صيف عام ٧٥ بعد حصوله على الدكتوراه، واستقبلناه جميعًا بشوق وترحاب، واستعدنا لقاءتنا، وزُرنا في شقته الجديدة مع زوجته نهاد وابنته سارة. وشهدت لقاءتنا معه مناقشاتٍ جادة حول المستقبل، وهل الأجدى شد الرحال إلى الغرب أم البقاء في مصر. وكان عناني مُصرًّا على خوض معركة الفكر والأدب وهو في مصر. أما أنا فرغم موافقتي على ذلك لم يكن بوسعي سوى العمل على العيش في الغرب بسبب آن ماري، التي أصبح الوجود معها مسألة حياة أو موت، كما قلتُ قبل ذلك. كما كنا نناقش أيضًا مشروعاتنا الأدبية والفنية، فكان عناني مشغولًا بترجمة «الفردوس المفقود» لجون ملتون، علاوةً على المقالات التي ينشرها في المجلات. أما أنا فكنْتُ أركّز على الترجمة من الإسبانية، وهو حقلٌ بكرٌ قبل أن يغزوهُ بعد ذلك خريجو كلية الألسن والمبعوثون العائدون من إسبانيا.

وقد بقي عناني في مصر، وبنى مجداً أدبياً تليداً؛ إذ ألّف عدة مسرحياتٍ تم تقديم معظمها بنجاح على المسرح، ثم أصدر عدة كتبٍ في اللغة والترجمة، وباشر على مدى أعوامٍ طويلة مشروع ترجمة شكسبير إلى العربية ترجمةً سليمةً تُضاهي الأصل شعراً أم نثرًا. وهو لم يترك درباً أدبياً إلا وطرقه؛ فقد كتب دواوين شعر ومقالات نقد، وأصدر روايةً جميلة هي «الجزيرة الخضراء». كل هذا بالإضافة إلى تكوينه مدرسةً من تلاميذه الأوفياء الذين يسيرون على خطاه في الأمانة والإخلاص لفنهم.

وكان عام ٧٦ مثمراً بالنسبة لقراءاتي وكتاباتي، وأيضاً للرحلة الطويلة التي قمتُ بها لزيارة آن ماري. عكفتُ على إعداد ترجمةٍ لأجمل دواوين بابلو نيرودا، والذي جمع بين قلبي وقلب آن ماري؛ «عشرون قصيدة حب وأغنية يأس». وبرغم عدم رضائي عن الترجمة بالنسبة لبعض القصائد، فقد أرسلتهُ إلى دار الآداب باقتراح نشره في كُتيبٍ صغير. بيد أن سهيل إدريس نشر القصائد كلها في مجلة الآداب. ولم يكن أمامي مفر من نشر الديوان في القاهرة سريعاً؛ فقد كانت الأنباء تُوحى بقرب توقيع مصر على اتفاقية برن لحقوق النشر، مما سيقف عقبةً في سبيل نشر أي ترجمةٍ أجنبية إلى العربية. وهكذا نشرتُ الديوان كاملاً وعليه صورةٌ لأن ماري، مع مقدمةٍ قصيرة في مطبعة العاصمة بالقاهرة من ألف نسخة، وقامت مؤسسة أخبار اليوم بطرحه لمدة أسبوعين عند باعة الصحف فباع حوالي ٣٠٠ نسخة، ثم أعادت لي ما تبقى من النسخ. وقد أعطيتُ مكتبة مدبولي

عددًا من النسخ باعتهما كلها، وسلّمت نسَخًا منه لعددٍ من المكتبات، وأودعتُ الباقي لدى دار نشر باعته كله تدريجيًّا. وقد فوجئتُ يومًا بالأهرام ينشر خبرًا مصوّرًا عن صدور الكتاب مع مقتطفات منه، وأعتقد أن الدكتور لويس عوض هو من كان وراء ذلك؛ فقد كنتُ قد أرسلتُ له نسخةً من الكتاب بالبريد. وكان في ذهني دومًا أن أعود إلى تنقيح بعض القصائد التي لم أكن راضيًا عن ترجمتها، حين فاجأني الدكتور عناني (وكان لديه النسخة التي أهديتها له) بإصدار الهيئة العامة للكتاب — عام ١٩٩٤م — طبعةً ثانية من الديوان دون أن أقوم بالتنقيح المطلوب. وما زلتُ آملُ بإعداد ترجمةٍ جديدةٍ تمامًا للديوان. ومن قصائده التي نالت استحسان القُرّاء من أصدقائي القصيدة التالية:

ها أنتِ تلهين طَوال الأيام مع أضواء الكون،
أيتها الزائرة الشفافة،

تجيين مع الزهور ومع المياه.
إن بك ما هو أكثر من هذا الشعاع الأبيض،
الذي يتفتح كالورود بين ذراعي كل يوم.

* * *

دعيني أهدهكِ وسط أكاليل الزهور الصفراء.
من هذا الذي يسطّر اسمك بحروفٍ من دخان،
وسط نجوم الجنوب؟

دعيني أتذكرك كما كنتِ آنذاك،
حين لم تكوني بعد موجودة.

وتزمرّج الرياح فجأة،

وتضرب نافذتي المغلقة،

والمساء شبكةٌ تزينها الأسماك المكتئبة.

لقد اجتمعت الرياح كلها في هذا المكان،

كلها،

وأسقط المطر غلاته.

* * *

وتمرّق الطيور هاربةً،

الرياح، الرياح.

الجيل الرائع

أنا وحدي أستطيع أن أنزل عزيمة الرجال.
وتلفح العاصفة أوراق الشجر السوداء،
وتفك إसार السفائن،
التي أرسّت بليلٍ حبالها في مرفأ السماء.

* * *

وأنتِ هنا، لم تتبعدي،
تتجاوبين معي حتى الصيحة الأخيرة،
وتلتصقين بي كأنما بك خوف الدنيا،
وأحياناً يا حبيبتي،
يمرّق ظلٌ غريب على عينيك الجميلتين.

* * *

والآن،
الآن أيضاً يا صغيرتي،
تُحضّرين لي أزهار العسل،
ويفوح العطر من ثنايا نهديك الثائرين.
وبينما يخبُّ الريح الحزين،
ويقتُل الفراشات،
أحبك أنا،
وأسعد بالتهام شفّتك البرقوقيّتين.

* * *

لكم كلّفك أن تتعوّدي على حبي،
على روعي المنعزلة المتوحشة،
على اسمي الذي يهرب منه الجميع.
لطالما شهدنا نجم السماء يتلأأ،
ويمطر عيوننا بالقبلات.
وطالما انبسط الشفق فوق رأسينا،
كأنه مروحةٌ دوّارة.

* * *

كلماتي تسقط رذاذاً عليك،

وَتُهددك بين حباتها.
لكم أحببتُ جسدك اللؤلؤي المضيء،
فاعتبرتكِ سيدة هذا الكون.
سأهديك ورودًا فرحة،
من وراء الجبال،
وزنابق فضية،
وبندقًا مسحورًا،
وسللاً برية من القبلات.
أه...!
أشتهي أن أفعل بكِ
ما يفعل الربيع بشجرات الكرز.

وكان نيرودا حاضرًا دومًا في قراءاتي وترجماتي ونفسي، فنشرتُ ترجماتي للعديد من قصائده، وخطاب نوبل، ومقابلة معه، وديوان «أشعار القبطان» كاملاً. وهو من أقرب الشعراء إلى قلبي حتى الآن.

ثم كتبتُ في أوائل العام بحثًا مستفيضًا عن خوان رامون خيمينيث؛ الأديب الإسباني الحائز على جائزة نوبل، ونشرتُه «الكاتب» في عدد يوليو ٧٦. وكنتُ أعدُ العدة للسفر إلى برشلونة حيث ألتقي مع آن ماري. وحجزتُ في الباخرة التركية مرةً أخرى، ولكن في الدرجة الأولى هذه المرة؛ فهي أرخص من الطائرة، وتُقلني حتى برشلونة. وكنتُ في غاية القلق من هذه الرحلة؛ فقد كانت رحلةً شخصية لا تأمين عليها من أي جانب، ولكن رغبتني في لقاء آن تغلّبت على كل قلق. وكنتُ قد تقدّمتُ لامتحان جرى الإعلان عنه لطلب مترجم عربي لمنظمة الأغذية والزراعة في روما، وتحدّد الامتحان في أواخر يوليو، ولكنني لم أتمكن من حضوره لسفري في تلك الإجازة البرشلونية. ومن يدري لو كنتُ قد بقيتُ واجتازتُ ذلك الامتحان وعشنا في روما، لكنّ كنتُ قد ترجمتُ فيما بعدُ عن لويجي بيرانديلو وأونجاريتي ويوجين منونتالي بدلاً من نيرودا وخيمينيث وماتشادو!

وعليه، فقد حصلتُ على إجازة لمدة ثلاثة أشهر من العمل للسفر إلى الخارج، وأخذتُ معي ما أحتاجه طوال شهرين ونصف الشهر، وذهبتُ بالطريق الصحراوي إلى الإسكندرية، فالميناء، لأستقل الباخرة بعد الظهر.

كانت عودتي إلى إسبانيا حدثاً مهماً في حياتي؛ فبالإضافة إلى اجتماعي بآن ماري، هناك رغبتني في رؤية المجتمع الإسباني بعد هذه الفترة. كان الجنرال فرانكو قد توفى في نوفمبر ٧٥، وتولى العرش الملك خوان كارلوس، وكانت ثمة تغييرات في نظام الحكم تبعاً لذلك، وحرية أكثر مما كان عليه الحال أيام فرانكو. وكان في ذهني أيضاً إعادة الاتصال بالجديد في الثقافتين الإسبانية والعالمية؛ فلم يكن يصلنا في مصر من ذاك إلا أقل القليل. وفي ميناء الإسكندرية رأيت العجب. كان الجنود الذين يقفون على البوابات يتمهلون في عملهم حتى يفهم المرء ويُعطى البقشيش، والغريب أنهم بعد ذلك يصيحون بعضهم ببعض للذهاب إلى الصلاة. وطبعاً كنت أقدر ظروفهم ومعاناتهم، ولكن ذلك أمرٌ غير لائق عموماً، وإن كان الذنب لا يقع عليهم وحدهم. وحين فتحوا الباب للمسافرين، حدث ما يقع دائماً في مصر من هرولة البعض جرياً ليكونوا في أوائل الصاعدين إلى السفينة، رغم أن الأماكن محجوزة، ولا يُجدي الجري شيئاً. ووجدتني في قمرة مع أحد اللبنانيين، كان يدرس للدكتوراه في بلغاريا، وقال لي إنه متوجه إلى روما ومعه سيارته على السفينة، وسيقودها من روما إلى بلغاريا لزيارة البلاد التي سيمر عليها. وكانت الرحلة مريحة هذه المرة، مع بعض تقلبات الباخرة ما بين الإسكندرية ونابولي. وكان معنا جميع المدرسين الإسبان الذين يعملون بالقاهرة، عائدتين في إجازتهم للوطن، ومنهم من كان يعرفني. ولفت نظري واحدٌ منهم يبدو أنه تزوّج حديثاً من مصرية سمراء، كانت ترتدي فستاناً مكشوف الصدر بشكلٍ مبالغ فيه. وكان هو كأنما يعرضها مباحياً بها، وهي تتباهى بنفسها.

ومررنا بمضيق مسينا الرائع، ثم وصلنا نابولي حيث تجوّلتُ فيها طوال اليوم، وكذلك في جنوة. أما في مرسيليا فقد وقعتُ في تجوالي هناك على «سكس شوب» شاهدتُ فيه بعض العروض القصيرة في كابيناتٍ مفردة تعمل بالفرنكات، ولكنني وجدتُ داراً للسينما البورنو تعرض فيلماً اسمه Hurléments de Plaisir، فقطعتُ تذكرةً فيها، ودخلتُ خلسة خوفاً أن يراني أحدٌ من أصدقاء الباخرة. وبدأ العرض بإعلاناتٍ ومقدمات، وبعدها استراحة. وحين أضيئتُ الأتوار، فوجئ الجميع أن معظم راكبي الباخرة موجودون بالصالة، وكان ذلك إحراجاً كبيراً، ضحك منه الكل. ولم أعلم كيف جاءوا؛ فأنا عثرتُ على الدار بمحض المصادفة. وحين عُرض الفيلم، فوجئتُ بأن الرقابة قد رُفعت تماماً عن هذه الأفلام؛ فقد كانت «هاردكور» خالصاً، عَرَضَ كل شيءٍ بلا مواربة، وبكل الطرق المتاحة لمثل هذا النوع من الأفلام الإباحية. وعرفتُ لماذا يُقبل الإسبان عليها في فرنسا؛ فلم يكن الحظر قد رُفع بعدُ في إيطاليا وإسبانيا.

ومن مرسلينا إلى برشلونة ليلة واحدة، قضيتها في شوق وتطلع إلى لقاء آن ماري وإسبانيا. ودخلت الباخرة ميناء برشلونة في الصباح الباكر، وحين رست شاهدت أن تندفع إلى مكان الانتظار. وهاجني الشوق فغمرني تجلُّ وبُحْران أغرقاني في وجدٍ صوفي. وهتفتُ بأن من على سطح الباخرة أحبيها وردت عليّ، وأسرعتُ إلى إنهاء إجراءات الجوازات ثم الجمارك، وهرعتُ إلى الخارج حيث تلقتني آن في أحضانها. وسرعان ما حملنا التاكسي إلى الفندق الذي حجزت فيه آن لنا شقة صغيرة، وكان الفندق يعمل بنظام «الشقق السياحية» المعروفة في إسبانيا، والشقة عبارة عن حجرة كبيرة بسرير يدخل في الحائط عند عدم الاستعمال، مع حمام ومطبخ صغير.

إجازة أسطورية في برشلونة

وبدأت الإجازة الجميلة في برشلونة، التي امتدت من ١٠ يوليو حتى أواخر سبتمبر. ووجدتُ شقتنا الصغيرة رائعة، بمثابة عُشٍّ حقيقي لنا، نستكنُّ فيه حين نعود من جولاتنا في المدينة. وبرشلونة مدينة ساحرة، تجمع بين صفات مدريد وباريس، وفيها الأحياء العتيقة التي نشمُّ فيها رائحة التاريخ، كما أنها تزخر بالمتنزهات والمتاحف ودور السينما، وبها طريق «لاس رامblas» المليء بباعة الزهور والطيور والحيوانات الأليفة، وميدان «قطلونية» وهو قلب المدينة. وبرشلونة هي عاصمة إقليم قطلونية، وأهلها يتكلمون القطلونية إلى جانب الإسبانية القشتالية؛ ولذلك طالب الإقليم دائماً بالاستقلال الذاتي، وحصل عليه أيام الجمهورية الثانية، ولكن حكم فرانكو ألغى كل تلك الترتيبات (وبعد إقرار الديمقراطية في البلاد، حصلت قطلونية على الاستقلال الذاتي مرة أخرى، ولكن بعد سنواتٍ من زيارتي هذه).

وكانت آن قد أعدت لي بعض الهدايا التي تعرف أنني أحبها، كما حملتُ لها بعض الهدايا الفرعونية من الحلي وخلافه، وتبادلنا الهدايا بعد وصولنا. وكنتُ أحمل معي عدة نسخ من ترجمتي لديوان «عشرون قصيدة حب» وكان على غلافه صورة لأن ماري، فأسعدنا صدور الديوان بهذا الشكل، وقمتُ بإرسال نسخٍ إلى أقسام الدراسات العربية ببعض جامعات إسبانيا، ونسخةٍ إلى الدكتور أحمد هيكمل، المستشار الثقافي ومدير المعهد المصري، الذي تكرّم وردّ عليّ شاكرًا.

وقضيتُ وأن ماري أسعد أيامنا، كأنها كانت شهر عسلٍ لنا. وبدأتُ بأهم شيء وهو تأكيد العودة على الباخرة، ولم أجد مكاناً ليوم ٢ سبتمبر، فحجّزتُ ليوم ١٦ سبتمبر. ولا أدري ما يكون عليه الحال لو لم أجد أمكنةً طوال تلك الفترة! ولكن الله سلّم. وتواترتُ الأيام ما بين زيارة المعالم التي تُشتهر بها المدينة؛ كنيسة العائلة المقدسة، التي بدأ تشييدها المعماري البرشلوني الأشهر «جاودي»، وهو الذي صمّم العديد من المباني المتميزة بالمدينة، و«متنزه جوي». وتردّدنا يومياً على ميدان قطلونية؛ حيث كنت أجلس لأقرأ جريدة «آ بي ثي» وأقوم بإطعام الحمام هناك. وزرنا متحف بيكاسو وإن لم يكن به الكثير مما يُشاهد، والحي القوطي، والحي الصيني. وهناك «القرية الإسبانية» التي تجمع نماذج مصغرة من كل مدن إسبانيا المهمة، والنافورة الضخمة التي تندفع منها المياه بأشكالٍ مختلفة تحفّها ألوانٌ بديعة الشكل، وحديقة الحيوانات الزاخرة. وذلك علاوةً على المطاعم والكافيتيريات المشهورة، والمحلات المتعدّدة البضائع؛ حيث اشتريتُ هدايا وتذكارات. أما المكتباتُ فكنْتُ أزورها يومياً تقريباً، ووجدتُ الكثير مما ألهمني قراءته أو الكتابة عنه.

ولم أنس العمل الأدبي؛ فقد حملتُ معي نسخةً من أشعار أدولفو بكر وأخرى من «شاعر في نيويورك» لغرسيه لوركا، وكنْتُ أترجم أجزاءً منهما يومياً، وأتناقش في المعاني الغامضة — وما أكثرها في كتاب لوركا السريالي — مع آن ماري، مما جعلني أخرج بمعانٍ جديدة لم تخطر لي من قبل. وكانت تجربةً ممتعة، أن أحملَ تلك الأشعار إلى المتنزهات الجميلة، وأحاول نقلها إلى العربية. وكان عملي فيها حثيثاً حتى إنني انتهيتُ من ترجمة الكتابين — في صورةٍ أولية — قبل رحيلي من برشلونة. وقد سحرّتنا قصائد بكر، ومنها تلك القصيدة:

تسأليني ما الشعر،
وترشّقين عينيكَ الزرقاوين في مقلتي.
ما الشعر؟ وأنتِ التي تسألين؟
ما الشعر إلا أنتِ.

وقد بلغ إعجابنا بها أن خططنا على خاتمي زواجنا المرتقب السطر الأخير من القصيدة.

وقد عُدتُ إلى تلك الترجمتين مراتٍ ومراتٍ أنقُح وأصحَّ وأجمل، إلى أن نُشَرَّتَا آخر الأمر بعد سنواتٍ طويلة. وقد قُدِّرَ لديوان لوركا أن يُنَشَرَ — دون قصدٍ مني — في ثلاث طبعاتٍ مختلفة؛ عن الهيئة العامة للكتاب، وعن المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، ثم عن مكتبة الأسرة. أما ترجمتي لأشعار بكر فقد فازت بجائزة نجيب محفوظ والخارجية الإسبانية للترجمة من الإسبانية إلى العربية في دورتها الأولى، وقيمتها المادية عشرة آلاف جنيه مصري، وصدرت في حُلَّةٍ قشبية عن المشروع القومي للترجمة عام ٢٠٠٣م.

وقد أسعدني انفتاح العهد الإسباني الجديد على المحرّمات الفرنكوية (نسبةً إلى عهد الجنرال فرانكو) مثل الشعراء لوركا وإرناندث وألبرتي، فكتبتُ رسالةً سريعة عن إعادة الاعتبار للوركا، وأرسلتها من برشلونة إلى مجلة الكاتب في القاهرة، التي نشرتها في عدد سبتمبر ٧٦. وكنتُ قبل سفري قد أرسلتُ إلى مجلة الطليعة ترجمةً لثلاث قصائد عن لوركا، فنشرتها إلى جانب قصيدتين عربيتين عنه، إحداهما لصلاح عبد الصبور.

وكنتُ أقرأ مع آن ماري كذلك، فقرأنا رواية عائلة باسكوال دوارتي لخوسيه ثيلا وقُدَّاس لفلاح إسباني لرامون سندر. وقد سحرّني رواية سندر على قصرها، فترجمتها بعد ذلك ونشرتها. وشاهدنا العديد من الأفلام العالية الجودة الفنية في الصالات المسماة Arte Y Ensayo، وكانت آن تكتب تعليقاتٍ عليها. وكنا معجبين بالمخرج الإسباني «كارلوس ساورا» فشهدنا له عدة أفلام؛ أنا والذئاب، تربية الغربان، ابنة العم أنخليكا، رحلة صيد. واشتريتُ كتابًا عن ساورا بنية الكتابة عنه وتقديمه إلى المشاهدين العرب. ورأينا أيضًا الفيلم الذي كان ممنوعًا في عهد فرانكو «الدكتاتور العظيم»، لشارلي شابلي، وأعجبنا كثيرًا، ولكن الفيلم الذي ترك أكبر الأثر فينا هو «مونبارناس ١٩»، وهو فيلمٌ فرنسي من تمثيل «جيرار فيليب» ذي الصوت الساحر والتمثيل الأخاذ. ويدور الفيلم حول حياة الرسام الإيطالي «أماديو موديلياني» الذي عاش في فرنسا، وأحداثه عام ١٩١٩م، ومن هنا عنوان الفيلم. ويقوم جيرار فيليب بأحد أدواره، حين يحب موديلياني إحدى الفتيات وتعيش معه ضد رغبة والديها. ورغم شهرة الفنان فإنه لا يبيع شيئًا من لوحاته، ويرفض بيعها للمليونير الأمريكي؛ لأن ذلك المليونير لا يفهم في الفن ولا يقدره. ويصاب الرسام بمرض الفنانين في ذلك الوقت؛ السل، نتيجة فقره وحرمانه، وتنتهي حياته وهو يمر على المقاهي يعرض رسم الزبائن مقابل خمسة فرنكات، وتنتحر حبيبته حزنًا عليه.

وبعد موته، يتهافت أحد متعهدي اللوحات على شراء لوحاته علماً منه بارتفاع قيمتها بعد موت الفنان، وتُباع لوحات موديليانى الآن بملايين الدولارات. وترك هذا الفيلم أثره عندي، فلما كتبتُ بعد ذلك عن عدد من الأفلام ذات القيمة الفنية، كان فيلم مونبارناس ١٩ واحداً منها.

واقتربتُ الرحلة من نهايتها. وصعدنا إلى تل مونجويج، ورأيتُ على البعد الباخرة التركية التي سأعود عليها إلى مصر، ورتبنا الأمور بحيث سافرتُ آن ماري إلى مدريد عشية سفري بالباخرة، على أن أتصل بها في حالة احتياجي إلى أي شيء، ومع الاتفاق بأن تزورني هي في القاهرة في الصيف القادم.

ويوم ركوب الباخرة كان هادئاً، برغم وجود المُشاحنات بين بعض الركاب من الإسبان والحمّالين، خاصة ذلك المدرّس الحديث الزواج من مصرية، الذي اصطحب معه ما يبدو أنه أثاثٌ كامل لبیتٍ عصريٍّ إسباني. وفي الرحلة، كنتُ في كابينةٍ مع أحد الأساتذة الجامعيين المصريين، وركّزتُ على التفكير في مشروعاتي الأدبية، وكنتُ أشتري الكُرّاسات والأقلام الجميلة من جنوة ونابولي، في حين أرى الكثير من المصريين يعودون من مدن تلك الموانئ بالأدوات الكهربائية والتليفزيونات الضخمة، بينما اشترتُ أستاذةً في كلية البنات ثلاجةً كبيرة الحجم من نابولي. وفي ميناء الإسكندرية كانت الفوضى عارمة، وتحولتُ الباخرة إلى ميدان صراعٍ بين الجميع للتسابق على ختم جواز السفر من اللجنة التي صعدتُ إلى السفينة لتسهيل الإجراءات، والاتفاق مع الحمّالين على إنزال الحقائق والأجهزة إلى رصيف الميناء. وقد اعتصمتُ بالصبر في كل هذا؛ فلم يكن معي غير حقيبتين فيهما كتبٌ وأدواتٌ كتابية، فخرجتُ بعد وقتٍ لأجدُ رشدي ابن صديقة والدتي في انتظاري، وسهّل لي الحصول على تاكسي إلى حيث وجدتُ والدتي في انتظاري، لنستقل الأوتوبيس الصحراوي إلى القاهرة.

وعادت حياتي في القاهرة من جديد، بزيادة تلك الذكريات العامرة، وأمل العمل في الخارج مرةً أخرى كي يلتئم الشمل مع آن ماري. وشجّعني نشرُ ما أرسلتهُ لمجلتي الكاتب والطليعة على مواصلة الكتابة. وعدتُ إلى من أحبهم من الكُتّاب، فترجمتُ مجموعة من قصائد جيمس جويس ونشرتها مجلة الشعر القاهرية، وكان الغرض هو تعريف القارئ العربي بإبداعات هذا الروائي العظيم في مجال الشعر، الذي اتّبع فيه المدرسة «الإيماجية»، ولكن جاء شعره جافاً صعب التقبُّل إلى حدٍّ ما، ثم نشرتُ في مجلة الكاتب ترجمةً لقصيدة بابلو نيرودا «وداعاً باريس»، وقد تلقّيتُ إعجاب أصدقائي بهذه الترجمة،

ومنهم أحد أساتذة الإسبانية المعروفين بتشدُّدهم في الحكم على ما يُنشر ويُترجم عن تلك اللغة. وفيما يلي نص تلك القصيدة:

كم جميل هو «السين»،
النهر الوفير،
بأشجاره الرمادية،
وأبراجه ومسلَّاته.
وأنا،
ماذا أتيتُ أفعل هنا؟
كل شيء أكثر جمالاً من الزهور،
الزهور الجنوبية،
الزهور الخائرة.
هذه الأرض شفقية،
والغروب والشروق
هما محورا النهر،
يمران، ويتقاطعان،
دونما تحية،
بغير مبالاة؛
فقد تعارفا وتحابَّا،
آلاف المرات منذ آلاف السنين،
منذ غابر الزمان.
لقد تغصَّنت الأحجار،
وتكاثرت الكاتدرائيات الصفراء،
والمصانع الغريبة،
والآن يلتهم الخريف السماء،
ويتغذى على السحب والدخان،
ويقوم ملكاً أسود،
على ساحلٍ يتضمخ بالبخار.
ليس هناك أصيلٌ أحلى من هذا،

والكل يعود إلى بيته في موعده،
هذا اللون الجاف،
وهذه الصيحة الغامضة،
ويبقى الضباب وحيداً.
والضوء الملتف حول الأشجار،
يرتدي غللاته الخضراء.
عندي مشاغل كثيرة في «شيلي»،
ينتظرنني «ساليانس» و«لاورا» هناك،
في وطني،
مدين أنا للجميع بأشياء كثيرة.
وفي هذه الساعة،
يمتد السّماط في كل منزل،
في انتظاري،
وينتظرنني آخرون ليُخَنُونِي بالجراح.
وفوق ذلك،
فتلك الأشجار ذات الأوراق الحديدية،
هي من تعرف أحزاني،
وسعادتي وأشجاني.
تلك الأجنحة هي أجنتي،
وتلك هي المياه التي أحبها.
البحر ثقيلٌ ثقلَ الأحجار،
عال كهذه البنايات،
جامدٌ وأزرق،
كنجمة من نجوم السماء.
وأنا،
ماذا أتيتُ أفعل هنا؟
كيف جئتُ إلى هذه النواحي؟
عليَّ أن أعود إلى حيث يحتاجونني،

كي أغمر الأسس بمياه العماد،
كي أمزج الرمال بالرجال،
وأتلمس المجارف والأرض؛
لأن علينا أن نفعل كل شيء،
هناك.

في الأرض التي أنجبتنا،
علينا أن نقيم أساس الوطن،
الأنشودة،

الخبز والفرحة،
علينا أن ننظف الشرف
كأنما ننظف أظافر ملكة،
وبهذا تخفق في الهواء،
الرايات الطاهرة،
فوق الأبراج البللورية.
وداعاً يا خريف باريس،
أيتها السفينة الزرقاء،
يا بحر المحبة،
وداعاً أيتها الأنهار،
أيتها الجسور وداعاً،
وداعاً أيها الخبز المقدد العاطر،
أيها النبيذ المعتق الحلو وداعاً،
ووداعاً أيها الأصدقاء،
يا من أحببتموني.

إنني أرحل منشداً في البحار،
أعود لاستنشاق الجذور،
غامض هو عنواني،
أعيش في أعالي البحار،
وفي مرتفعات الأرض،
مدينتي هي الجغرافيا،

شارعي هو «أنا ذاهب»،
ورقمه «إلى حيث لا عودة».

وواصلت ترجماتي النيرودية، فأعددت ترجمةً لرائعته المعروفة «إسبانيا في القلب»، التي كتبها إبّان الحرب الأهلية الإسبانية، ونشرتها مجلة الآداب البيروتية في يناير ٧٧. وقد تأثّر شعراءُ عربٌ بهذه القصيدة وعنوانها، حتى إن هناك ديواناً شعرياً بعنوان «فلسطين في القلب». وقد تناول نيرودا في قصيدته جميع أحوال إسبانيا في ذلك الوقت، ووصف قادة التمرد العسكري بمن فيهم الجنرال فرانكو بأقذع الألفاظ، ولكن أكثر ما يبقى في ذهن القارئ هي تلك السطور المهيبة التي ذكرتها سابقاً:

لسوف تتساءلون،
لماذا لا تحدّثنا أشعاره،
عن الأحلام،
عن أوراق الشجر،
عن البراكين الفخيمة في أرض موطنه؟
تعالوا لئلاّ الدماء تغطي الطرقات،
تعالوا لئلاّ الدماء،
تغطي الطرقات!

وقد لفت نظري في تلك القصيدة الطويلة أن بدأها الشاعر بندائه الأمر «قف على»، مما ذكّرني بالشاعر أحمد شوقي، الذي استخدم ذلك الفعل في بداية الكثير من قصائده. وكان عام ٧٧ مزدحماً بالأحداث الثقافية والعاطفية والعملية في حياتي والسياسية في حياة الوطن. كانت مديرتنا قد انتدبت مستشارة ثقافية بالخارج، ورغم أن المسؤولين الكبار بالوزارة يعرفونني، فقد تضاعف الأمل بأن أنتدب مرةً أخرى بالخارج، كما كنتُ أنعشم، بعد قضائي أربع سنواتٍ بمصر؛ ولذلك ركّزتُ جهودي في سبيل العثور على عمل بالخارج؛ حيث يمكن أن أعيش مع آن ماري. وقد أعلنت الأمم المتحدة في أواخر ٧٦ عن إجراء امتحان لاختيار مترجمين للعمل في مكاتبها، وخاصة في نيويورك. وصدر إعلان آخر يطلب مصحّحي تجاربٍ طباعيةٍ عربية في الأمانة العامة للأمم المتحدة بنيويورك. وقدمتُ في الإعلانين، وقُبلتُ للدخول فيهما. وقد ساعد على قبول طلبتي لامتحان المصحّحين عملي في ذلك التخصص في مدريد، حين كنتُ أراجع تجاربَ مطبوعات المعهد، وقدمتُ

شهادةً بذلك، وكان مطلوباً خبرةً سابقةً بذلك العمل. وتوالت أفضل الله؛ فقد أعلن اليونسكو أيضاً عن طلب مترجمين عرب، وتقدّمتُ لامتحانهِ الصعب، ثم أرسل لي صديقي عبد الفتاح، الذي يعمل في الرياض بالملكة العربية السعودية، عقدًا جاهزًا للعمل هناك مترجمًا. وفي نفس الوقت، تقدّمتُ لمسابقةٍ عقدتها الجامعة الأمريكية بالقاهرة لاختيار دارسين لتحضير رسالة ماجستير، فدكتوراه، في مجال تدريس اللغة العربية للأجانب. وثانيةً نفَعَنِي عملي في مدريد لتدريس العربية للأجانب هناك في التقدُّم لتلك المسابقة، التي تضمّنت العديد من الاختبارات المضنية في اللغتين العربية والإنجليزية، وانتهت — أخيرًا — بنجاحي فيها، وتقديم عرض لي للدراسة والعمل بالجامعة في نفس الوقت، ولكنني كنتُ مضطرًا لانتظار نتيجة امتحاني الأمم المتحدة، وقد أنجزتُ الامتحانين اللذين تقدّم لكلّ منهما — وخاصة الترجمة — آلاف المتقدمين. وأديتُ كل الامتحانات التحريرية قبل حضور آن ماري للقاهرة في يوليو ٧٧. وكانت نتيجة المترجمين قد ظهرت ونجحتُ فيها، وأديت الامتحان الشفوي، وكنتُ أنتظر النتيجة النهائية.

ومن ناحية الكتابة والنشر، فقد كتبتُ مقالًا قصيرًا عن اكتشاف حجر رشيد، أرفقتُ به صورة الحجر كما صوّرته في المتحف البريطاني، وأرسلته إلى مجلة الهلال. وقد أسعدني نشرُ المجلة له في يناير ٧٧، وحين ذهبْتُ بعد ذلك لصرف المكافأة عنه وجدتُ أنها ١٥ جنيهًا وليست الخمسة جنيهات المعهودة. وكان ذلك نتيجة سياسة رئيس تحريرها في ذلك الوقت؛ رجاء النقاش. وفي فبراير أو مارس فوجئتُ بمساعدٍ للأستاذ النقاش يسكن قريبًا مني يحضُر إلى منزلي ليخبرني أن النقاش يريدني أن أذهب لمقابلته في دار الهلال. وذهبتُ بالفعل، واستقبلني الأستاذ رجاء بالترحاب، وذكر لي أنه يريد مني مقالًا بالهلال كل شهر طوال فترة رئاسته لتحريره؛ فقد كان مقرّرًا أن يتركه في يوليو ٧٧. كما طلب مني مقالاتٍ وترجماتٍ أخرى لمجلاتٍ ثقافيةٍ عربية. وسعدتُ بذلك واعدًا أن أبذل كل جهدي لتقديم مقالات الهلال في موعدها. وهكذا كان الأستاذ رجاء النقاش دائمًا؛ يرعى الكتاب ويشجعهم، ويُعطي المؤلفين حقوقًا مجزية، وكثير من الكتاب العرب المشهورين الآن خرجوا من عباءة رجاء النقاش، والبعض — للأسف — لا يذكر ذلك أو يتناساه، ولكن الأستاذ رجاء قد كوّن مدرسةً من مريديه وتلاميذه، وهو الأمر الذي نادرًا ما يفعله كبار المثقّفين اليوم.

وقد كتبتُ في هلال الأستاذ النقاش منذ أبريل حتى يونيو ثلاثة مقالات؛ لورد بايرون في الأندلس، شاعر إشبيلية العاشق، إسبانيا في حياة همنجواي وأدبه، كما أعطيته بعد

ذلك بحثًا عن «المصادر العربية في القصص الأوروبي»، الذي نشره في مجلة «قضايا عربية» البيروتية، وتقاضيتُ عنه خمسين جنيهًا كاملة! وأعطيتُ للأستاذ رجاء أيضًا في أواخر عام ٧٧ بعد أن ترك الهلال ترجمتي لروائيتين قصيرتين عن الإسبانية: «لا أحد يكتُب للكلونيل»، تأليف غرسيه ماركيز، و«صلاة على رُوح فلاح إسباني» لرامون سندر. وقد غيّرتُ عنوان رواية ماركيز لغرابته وجعلته «الخطاب المنتظر»، وهو تقليدٌ متَّبِع في أمريكا مع الروايات المترجمة وإن كان البعض يرفضه. وحين اشتهر ماركيز بعد حصوله على جائزة نوبل وتهافتَ المترجمون العرب على مؤلفاته، صدرت تلك الرواية بعنوان «ليس لدى الكلونيل مَنْ يُكاتبه»، والترجمة غير دقيقة؛ فالعنوان العربي يحتمل أن يقوم الكلونيل بالكتابة أو أن يتلقى الرسائل، بينما العنوان الإسباني يعني أن يتلقى الخطاب الذي ينتظره من سنواتٍ بتسوية معاشه باعتباره من قدامى المحاربين. وقد نشر الأستاذ رجاء الروائيتين مترجمتين في الملحق الأدبي لجريدة «الراية» القطرية عام ٧٨. ولما كنتُ قد نشرتُ قصةً قصيرةً لماركيز في مجلة الكاتب القاهرية في عدد أغسطس ٧٧ عنوانها «ليلة الكروان»، فإنني أزعم أنني أول من ترجم ونشر بالعربية للكاتب الكولومبي العظيم، الذي اكتشفته في برشلونة عام ٧٦.

ولذلك حين أتت آن ماري لزيارتي في يوليو ٧٧ كنتُ مرهقًا من كثرة العمل وضغط المواعيد، وقلقًا من احتمال السفر واقترابه مع سعيي له، ولكن الزيارة كانت ناجحة، وقضيناها على خير وجه، خاصةً بعد أن علمتُ أن باحتمالات سفري القريب. وزُرنا مرةً ثانية المتحف المصري، وترددنا على نادي الجزيرة؛ حيث أحببتُ أن «شفشق الليمون» الذي يقدمونه هناك.

وفي سبتمبر ٧٧ تلقيتُ برقيةً من الأمم المتحدة بنجاحي النهائي وترشيحي لوظيفة مترجم، حسبَ ما يشغُر من أماكن. وبعد ذلك ذهبتُ لأداء الامتحان الشفوي لوظيفة مصحح التجارب. وفي أكتوبر تلقيتُ خطابًا من اليونسكو بنجاحي في امتحان الترجمة، ويسألون عن إمكان وجودي للاستعانة بي في المؤتمرات التي يعقدها اليونسكو بصفة مترجم مؤقت. وقد أخطأتُ عند ذاك بأن أرسلتُ لهم بأني قد عُيِّنْتُ بالأمم المتحدة، ولكنني أفضلُ وظيفةً باليونسكو بباريس حين توجَد. وبطبيعة الحال، لم أسمع منهم بعد ذلك أي خبر.

وفي وسط كل هذا، واصلتُ الكتابة، فأرسلتُ مقالًا عن الشاعر القروي الإسباني ميغيل إرناندث إلى مجلة الأقلام العراقية، وآخر عن الشاعر أنطونيو ماتشادو إلى مجلة

آفاق عربية العراقية أيضًا. وقد رأيتُ مقال مجلة الأقلام منشورًا وأنا في القاهرة، أما مقال ماتشادو فقد أعطانيه منشورًا أحدُ الزملاء العراقيين العاملين في نيويورك بالأمم المتحدة بعد ذهابي إلى هناك.

وفي فبراير ٧٨ تلقَّيتُ عرضًا بالتعيين في نيويورك بقسم الترجمة العربية، مع بيان جميع المعاملات والظروف لهذه الوظيفة، وهي بعقدٍ محدّد المدة، لستَتنين. وقد فكَّرتُ في الكتابة إليهم طلبًا للتعيين في القسم التابع لهم في جنيف بسويسرا بدلًا من نيويورك، ولكن الجميع حذَّروني من ذلك بأنه قد ينتهي بإلغاء العقد المعروض. وأبرقتُ لأن ماري على الفور، وتلقَّيتُ تهنئتها. وكانت الأمانة العامة قد طلبتُ مني الاتصال بمكتب الأمم المتحدة بالقاهرة، لترتيب الفيزات المطلوبة وتسلمُ تذكرة السفر، على أن أخطرهم بموعد وصولي. وعليه، فقد حجزتُ السفر بحيثُ أمرُّ على مدريد وأقضي فيها أربعة أيام، ثم أصل إلى نيويورك في ١٩ مارس ١٩٧٨م.

وفي مدريد، كانت آن ماري في استقبالِي، ونزلنا في شقةٍ سياحية مثل التي كانت في برشلونة. وكانت عودتي إلى زيارة مدريد حدثًا فريدًا، مكَّنني من إدراك التغيرات التي طرأت على الناس والمدينة بعد زوال حكم الجنرال فرانكو. وتردَّدتُ مع آن على الأماكن التي شَهدتُ لقاءاتنا الأولى، وزرتُ مكان إقامتي السابقة في شارع رافاييلا بونيًا. ولمَّا كانت آن ماري مرتبطةً بعقدٍ للعمل في مدرستها حتى نهاية العام الدراسي، فقد اتفقنا على أن تسافر إلى نيويورك في يونيو؛ حيثُ ننزوج رسميًا في القنصلية المصرية هناك، وفي الجامع الإسلامي في نيويورك.

وأكدتُ الحجز على شركة خطوط TWA وعرفتُ هناك لأول مرة أن المسافر عبْر المحيط له حقيبتان بالعدد وليس بالوزن، وقد أسعدني ذلك لأن معظم ما أحمل هو الكتب التي تزن كثيرًا.

في العالم الجديد

كانت فكرة السفر إلى نيويورك والإقامة فيها مزعجةً بالنسبة لي؛ ففكرتني عن أمريكا ونيويورك بالذات غير مشجعة، كما أنها أول مرة أقضي بالطائرة سبع ساعاتٍ أو أكثر متواصلة. وقد تسلّحتُ بكتابين مشوّقين أستعين بهما على طول المسافة، ولكن الخدمات المتعددة التي وفّرها طاقم الطائرة ساعدت على تحمّل الوقت؛ فمن أطعمة ومشروبات، إلى فيلمٍ كاملٍ طويل، إلى فتح باب المشتريات، كل هذا ساعد على إلهاء المسافرين إلى أن أعلن قائد الطائرة أننا على وشك الهبوط في مطار جون كيندي الدولي بنيويورك. وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر؛ ذلك أن هناك فرقاً في التوقيت مع أوروبا التي تسبق أمريكا بسبع ساعاتٍ كاملة، تتغيّر حسب التوقيت الصيفي.

وحين خرجتُ من الطائرة حملنا الباص إلى المطار، وسرتُ في أروقةٍ طويلةٍ حاملاً حقيبةً يدٍ ثقيلة حتى وصلتُ إلى طابور الجوازات. وختمتُ الضابطة جوازي، وكان يحمل فيزا G-4 المخصّصة للعاملين الدوليين، ثم توجّهتُ إلى محطة وصول الحقائب، وأخذتُ حقيبتَيّ، وتأشّر لي من موظّف الجمارك بالخروج بعد أن رأى أوراقي. وفي صالة الوصول، بحثتُ عن أي شخصٍ ينتظرني كما كنتُ أمل، ولكن لم يكن هناك من أحد. وتحيرتُ ماذا أفعل. ها أنا في بوابة المدينة الماموث، أرقبها من وراء زجاج الصالة متوجساً، كأني أتوقع عالماً سحرياً وراءها. وسألتُ عن وجود مكتب للأمم المتحدة في المطار فكان الردُّ بالنفي. وتوجّهتُ إلى دفاتر التليفون محاولاً العثور على رقم للأمم المتحدة، ولكن البحث كان صعباً. وأخيراً، توكلتُ على الله، وأشرتُ إلى أحد الحمالين ليأخذ حقيبتَيّ إلى أحد التاكسيات. وأعطيتُهُ دولارين تلقّاهما بقوله Thank you sir. وكانت اللغة الإنجليزية لها وقعٌ على أذني، وأنا المعتوّد على اللغة الإسبانية، وزادت اللهجة الأمريكية من غرابة اللغة،

رغم أنها تخصصي الأساسي قبل الإسبانية أو الفرنسية. وفي التاكسي، تذكّرت اسم فندق كان مكتوباً في الأوراق التي تلقّيتها من الأمم المتحدة، فذكرته للسائق الذي تعرّف على الاسم بعد أن نطقه بالإسبانية: تودور وليس تيودور. وانطلقنا.

وحين بدأنا الدخول إلى المدينة، لاحظتُ المباني القديمة الغبراء، ثم أكياس القمامة أمام البيوت على طريقة إنجلترا، مما يُعطي منظراً غير لطيفٍ للزائر. ولم تكن الطرق في نظافة طرق أوروبا. ووصلنا إلى الفندق وأنا أرجو أن يكون اسمي عندهم. ولما لم أجده طلبتُ غرفة لمدة أسبوع فأكثر، فإذا بموظف الاستقبال يدفع تحت بصري وأنا أملأ الأوراق بمنشور مطبوع يطلب من الزبائن دفع أجر أسبوع مقدماً، وتعجّبتُ من ذلك الطلب الذي لم أره من قبل في أي فندق، ولكنني دفعتُ بالطبع. ووجدتُ غرفتي متناهية الصغر، غير أن بها تليفزيوناً صغير الحجم. وبعد أن استحمتُ واسترحتُ، قرّرتُ الخروج لأخذ أول نظرة على «عاصمة العالم». كان الفندق في شارع ٤٢، فمشيتُ فيه مُصعّداً على غير هدى، وطالعتُ أسماء الأفيوز، الجادة الثانية، الجادة الثالثة، لكسنجتون أفنيو، بارك أفنيو، ماديسون أفنيو، الجادة الخامسة، الجادة السادسة، ثم برودواي؛ حيث الأنوار البرّاقة ودور المسرح والسينما ومحلات الجنس من كل شكلٍ ونوع. اكتفيتُ بالنظر، وقفلتُ راجعاً من نفس الطريق. وتلمّستُ طريقة ترقيم الجادات والشوارع في نيويورك؛ فقد كان معظمها بالأرقام، وهي طريقة جافة، بيد أنها عملية، ككل شيء في عاصمة المال والتجارة؛ فهي تمكّن المرء من الاستدلال على الطريق الذي يبغي الوصول إليه بسهولة.

وفي غرفتي الفندقية ثانية، داعبني النوم أخيراً، وكنتُ قد قرأتُ عن الـ jet lag الناتج عن فرق التوقيت، والذي يغيّر من مواعيد النوم، فوجدتها فرصةً لنيل بعض الراحة، ولكنني استيقظتُ في الساعة الثالثة والنصف صباحاً بتوقيت نيويورك. ولما وجدتُ أنني في حالة صحوة، جلستُ إلى المائدة، وكتبتُ بعض الخطابات إلى والدتي والأصدقاء. وكنتُ أسمع بين آونة وأخرى نفيّر «السرينة» لعربات البوليس والإسعاف، التي ستُصيح من العلائم الدائمة في المدينة. ولفتُ نظري أمرٌ غريب؛ إذ كنتُ أحياناً أشعرُ بتيار كهربائي في يدي حين ألمس بعض مقابض الأبواب في الغرفة، فحسبتُ أن ذلك راجعٌ إلى خطأ في أسلاك التليفزيون الموجود بالغرفة، مما جعلني قلقاً ومحاذراً، إلى أن علمتُ بعد ذلك أن ذلك الأمر لا علاقة له بالكهرباء، وإنما هو ناتجٌ عن جفاف الجو بالغرفة نتيجة التدفئة المركزية.

وحين طلع النهار، تجهّزتُ، وارتديتُ ملابسِي، وحمِلتُ معي أوراق التعيين التي وصّلتنِي من الأمم المتحدة، وخرجتُ سائراً في الاتجاه المعاكس لليلة أمس لأصل إلى الجادة

الأولى، وما هي إلا خطوات ورأيت مبنى الأمم المتحدة قائماً أمامي. تأملتُ طويلاً. ولما كانت الساعة لا تزال مبكرة فقد توجهتُ إلى الجادة الثالثة؛ حيث كانت هناك كافيتيريا خدمة ذاتية اعتزمتُ أن أتناول إفطاري بها. ووقفتُ في الطابور لأطلب، واستفدتُ من طلبات السابقين لي، فطلبتُ بيضاً وقهوة. ولما سألتني النادلة كيف أريد البيض لم أجد جواباً، ولكنها ساعدتني بذكر شيء فقلتُ بسرعة أن نعم. وظهر أنها قالت sunshine، وهي تعني البيض المقلي، وهو ما كنتُ أريد بالفعل. وتعلمتُ طقوس الطلب والدفع التي تختلف باختلاف البلدان. وسمعتُ طريقة الأمريكيان في التخاطب والتحية والرد على الشكر؛ فهم يقولون Have a Nice Day أي يومك سعيد، ويردّون على كلمة الشكر فيقولون You Are Welcome وليس For Nothing التي تعلمناها في الكلية، والتي كنتُ أريدُ بها على شكر شريفة لي. وبعد ذلك، عرفتُ ودرستُ اختلافات كثيرة بين الإنجليزية البريطانية والإنجليزية الأمريكية.

وبعدها توجهتُ إلى مبنى الأمم المتحدة، وأطلعتُ الحُرّاس على خطاب التعيين، فوجهوني إلى إدارة شئون الأفراد، في الطابق ٢٧ على ما أذكر. وهناك، أخذتُ أملاً أوراقاً وأوراقاً والعرق يتصبّب مني من شدة التدفئة، ومنها عقد العمل الذي يبيّن شروط الوظيفة ونوعها ومدتها وأجرها، ثم كتبتُ لي الموظفة المسؤولة الخطوات التي يتعين أن أقوم بها بالتدريج. ذهبتُ إلى ما يُسمى «المكتب التنفيذي» للإدارة، التي تتبعها دائرة الترجمة العربية؛ حيث ملأتُ مزيداً من الاستمارات الخاصة بما سوف يُصرف لي كبذل استعدادٍ وغيره. وأخيراً، أشاروا لي بالتوجه إلى الدور الحادي عشر، وتقديم نفسي لمدير دائرة الترجمة العربية، لبدء عملي كمترجم بالدائرة. وذهبتُ إلى هناك، فأدخلوني إلى غرفة المدير — الأستاذ عدنان يوسف — الذي رحّب بي، وذكر أن الدائرة في مرحلة انتقالية بسبب انتقال الكثير من موظفيها إلى دائرة جنيف، وسألني إن كنتُ أعرف أحداً هنا فذكرتُ محمد العليمي، فقال إنه ممن انتقلوا مؤخراً إلى جنيف. ثم استدعى الأستاذ محمود السوقي، وطلبَ إليه أن يُعرّفني على أحوال الدائرة وموظفيها. وطفْتُ معه على المكاتب، وكان المترجمون والمترجمات من دول عربية مختلفة، ثم دخلنا إلى غرفة مدام سهير، فإذا هي التي كانت في لجنة اختبار الشفوي لمصححي التجارب الطباعية، وتعرّفتُ عليّ ورحّبت بي.

وكان موعد الغداء قد حان، فانتهرها الأستاذ محمود فرصةً لتعريفني بمكان الكافيتيريا، وعزمني على الغداء. وبعدها أراني الحجرة التي سأعمل فيها، وكان بها

ثلاثة مكاتب خالية، ذكر لي أن أحدها مشغولٌ بزميل في مؤتمر بالخارج، فاخترتُ مكتباً إلى جوار النافذة التي تطلُّ على نهر الهدسون. وقال لي محمود السوقي — وكان هو المشرف على البرمجة وتوزيع العمل — إنني لن أبدأ في الترجمة الفعلية قبل أن أقرأ العديد من التقارير والمذكرات المترجمة، حتى أتعرف على الأسلوب المتبع في الدائرة، والذي قد يختلف عن الطريقة المتبعة في كل بلدٍ عربي على حدة. وذهبتُ إلى غرفة الوثائق، وتعرفتُ على محمد عبد العزيز، الذي رحّب بي وسألني عن مصر، ثم قدّم لي بعض الوثائق الإضافية بالعربية والإنجليزية، فطلبتُ أيضاً نفس الوثائق بالفرنسية والإسبانية، فبحث عنها وأعطاه لي.

وحين بدأتُ أقرأ الترجمات وقارنتها بالنصوص الأصلية، وجدتُ فعلاً أنها تسير على نمطٍ خاص ولها مصطلحاتٌ معينة. وأخرجتُ ورقةً أخذتُ أدون فيها بعض استنتاجاتي؛ فمثلاً، كانت الشهور تُذكر بطريقتين، مثل: تموز/يوليه، مما يجمع بين ما يُستخدم في البلدان العربية. وكذلك عدم استخدام الجيم المصرية؛ فهي تنقلب غيناً، فنقول أوروغواي وغواتيمالا وغرينلاند، وهكذا. ويبدو أنهم كانوا يعتمدون الغالب الأعم بين الأقطار العربية. والحقُّ أنني في نهاية الأمر وجدتُ أن مجموعة المترجمين والمراجعين في الترجمة التحريرية يقومون بعملٍ مجمعٍ لغةً عربيةً نشيط؛ فلم يكن هناك مصطلحٌ يستعصي على ترجمته إلى العربية، ولا موضوع إلا ويُترجم على نحو واضح. وكان القائمون على الدائرة، عند إدخال اللغة العربية كلغة رسمية إلى الأمم المتحدة عام ١٩٧٤م، قد صمّموا على إثبات القدرة على القيام بكل ما تقوم به دوائر اللغات الرسمية الأخرى، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً. وكان ممن أشرف على تثبيت دعائم اللغة في بداياتها الأستاذ عدنان يوسف، وهو أكاديميٌّ لغويٌّ موسوعي المعرفة، وساعده في ذلك فريق القدامى في الدائرة، مثل محمود السوقي وأماني فهمي وعبد المجيد حسن، وغيرهم كثيرون.

وجاءني بعض الزملاء من دفعتي الميعنين معي يرحّبون بي، ومنهم إسماعيل وميشيل، وقد انعقدت صداقةٌ بيني وبين ميشيل، فكنا نخرج معاً كثيراً. وكان هناك زميلٌ ذكر لي أنه ذهب إلى لندن تلبيةً لطلب جريدة العرب، ولكن تجربته معها كانت غير موفقة، فحمدتُ الله أنني لم أذهب إليهم. ولما سألني ذلك الزميل كيف تمكّنت من الذهاب منتدباً إلى إسبانيا، أجبت بعد تفكيرٍ قصير: بالواسطة؛ فقد كنتُ أعرف تماماً عقليته التي لا تُصدّق حدوث شيء إلا عن طريق الواسطة، ولم يكن ليُصدّق حكاية الامتحان أبداً. وبالفعل، أبدى ذلك الزميل إعجابه بصراحتي، وقال إن الجميع يُخفون السبب الحقيقي لنجاحاتهم، ويُعزونها إلى قدراتهم، بينما هي جاءت عن طريق معارفهم ووسائطهم.

ومع حضور زميل حجرتي الذي كان في مهمة؛ نبيل، تقاربنا بسرعة؛ إذ كانت له ميولٌ أدبية أيضًا. وشغلت المكتب الثالث في الغرفة زميلةً جديدة من دفعتي في الأمم المتحدة، أميمة. وبدأتُ أتعرفُ على بقية الزملاء. وجاءني فواز العظم يسألني هل أنا مترجم صورة الفنان، وذكر لي أن أخاه قرأها بالعربية في ترجمتي وأعجب جدًا بها، ثم أحضر لي عبد الجبار نسخةً من آفاق عربية، المجلة العراقية، وبها مقالي عن أنطونيو ماتشادو، وقد تفضلَ فترك لي النسخة؛ إذ لم أكن أعرف بنشر المقال. وفيما بعدُ، ذكرتُ لي أمانى أن لي روايةً مترجمة تُنشر على حلقات في الملحق الأدبي لجريدة الراية القطرية، وقد رآها زوجها أحمد مرسى. ولما أبديتُ دهشتي لذلك أحضرت لي عددًا به إحدى الحلقات. وعندها عرفتُ أنها رواية ماركيز التي أعطيتها لرجاء النقاش، وهو ينشرها في الملحق الأدبي. وقد عززَ هذا من ثبات قدمي في الدائرة إلى حين.

وسرعان ما بدأ ترددي على المكتبات. ووجدتُ ثروةً من الكتب التي لم أكن أحلمُ بها، ولكنني تمهّلتُ في الاقتناء إلى أن أستقر في السكن أولاً. وكان هناك فرعٌ إداري لمساعدة الموظفين على العثور على سكنٍ مناسب، وبه إعلاناتٌ بحسب السعر، فوجدتُ استوديو معروضًا بإيجار ٢٥٠ دولارًا في الشهر، على بُعد خطواتٍ من مقر الأمم المتحدة. واتصلتُ بالمعلن الذي اتضح أنه موظفٌ هندي في المنظمة، منقول إلى فينّا ويرغب في تأجير شقته من الباطن. ولم أكن أدري مغبةً ذلك إلى أن تعرّضتُ لمضايقاتٍ لإخراجي؛ ولكنني صمدتُ حتى يونيو، ولم أترك الاستوديو إلا لأنَّ آن ماري كانت على وشك الحضور. وكنتُ على صلةٍ دائمة بأن سواء بالخطابات أو التليفون، وكانت تجهّز لحضورها، بينما أنا أرتّب أمور زواجنا الرسمي. ولما كنتُ أعتزم عقد الزواج في القنصلية المصرية، فقد ذهبْتُ للاستفسار عن الشروط، وكانت المفاجأة أنهم يطلبون لذلك خطابًا من قنصلية الزوجة يفيد بموافقة دولتها على زواجها من مصري. وكان هذا من الأمور السريالية التي بدت في بعض القرارات التي شهدتها تلك الفترة. ولكن، لما كان لا بد مما ليس منه بد، فقد توجّهتُ ذات ظهيرة إلى القنصلية الفرنسية، وطلبتُ مقابلة القنصل. وانتظرتُ دوري. وكان هناك شابٌ وفتاة ينتظران بعدي. وحين خرج الموظف من مكتبه أشار لهما، ولكن السكرتيرة نبّهته إلى أنني قبلهما، فذهبتُ إليه. وكان الخطأ أنني لم أدخل مكتبه وأقدم له نفسي، بل ذكرتُ له ونحن على عتبة الباب ما أريد. وطبعًا أدرك أنني عربي، فأجاب أنني أستطيع الزواج بمن أشاء، ولكنه لا يمكنه أن يعطيني شهادةً بأن القنصلية توافق على الزواج، فطلبتُ منه عنوان سفارة فرنسا في الولايات المتحدة، فأجابني أن السفارة لا شأن

لها بذاك الأمر. وعليه، تركته وذهبتُ خارجًا. وعدتُ إلى مكتبي وأنا أشعرُ بمهانةٍ وأسى لا يُوصفان. ولما كنتُ لا أتركُ حقًا لي، فقد عمدتُ في اليوم التالي إلى كتابة خطابٍ طويل بالإنجليزية إلى سفير فرنسا في واشنطن، شرحتُ له فيه الموضوع، والمعاملة التي تلقَّيتها في القنصلية، والتي لا تليق بالجمهورية التي تتبنَّى شعار الحرية والإخاء والمساواة. ولكنني تصرَّفتُ في نفس الوقت، فعرفتُ إجراءات الزواج المدني في بلدية نيويورك، والزواج الديني في مسجد نيويورك. وقد ذهبتُ مع بعض الأصدقاء إلى المسجد لحضور إشهار فتاةٍ فيليبينية إسلامها بعد زواجها من زميلٍ مسلم، وخاطبتُ الإمام الشيخ جابر في أمر عقد زواجي بالمسجد فرحب بذلك. وتحدَّثتُ مع السيدة بالإسبانية، فشرحتُ لي أنها أسلمت لإسعاد زوجها، ولكنها للأسف لا تعرف شيئًا عن الإسلام، فذكرتُ لها وجود كتبٍ كثيرة يمكنها أن تقرأ فيها بالإنجليزية والإسبانية. وعند ذلك عاهدتُ نفسي ألا أطلب من آن ماري أن تتحول إلى الإسلام إلا عن اقتناع، بعد مناقشاتنا الكثيرة في الدين. وعرفتُ أن كتابة شهادةٍ بتحوُّلٍ امريٍّ إلى الإسلام أو أي دينٍ آخر لا معنى له دون أن يكون الشخص مقتنعًا بما يفعله، عارفًا به.

واقترب موعد حضور آن، فبحثتُ عن شقةٍ أخرى؛ حيث ازدادت مضايقات حارس العمارة لي، فوجدتُ استوديو آخر في شارع ٢٤ بين الجادَّتين الثانية والثالثة، مفروشًا، فانقلقتُ إليه تاركًا مشاكل الشقة الأخرى. واستقبلتُ آن في المطار، وذهبنا إلى الاستوديو الجديد، ونعمنا باللقاء المتجدد. وكنتُ قد كتبتُ إلى الليسيه فرانسيه في نيويورك بمؤهلات آن ماري فطلبوا لقاءها، وذهبتُ إليهم فقبلوها للعمل بها.

وفي يومٍ تلقَّيتُ مكالمَةً هاتفية من القنصل العام الفرنسي، يذكر لي أنه سيُرسل لي الشهادة التي طلبتها بالموافقة على زواجي من فرنسية، ولكنني ذكرتُ له أنني لا أحتاجها الآن، وطلب أن يعرف من أساء مقابلي المرة السابقة في القنصلية فقلتُ إنني لا أعرف اسمه. وقال إن القنصلية ستسهِّل إجراءات الزواج على أي حال، وإنه يُمكننا التوجُّه إلى الطبيب المعتمد من القنصلية لأخذ شهادات الكشف الطبي المطلوبة للزواج المدني. وسررتُ جدًّا بالمكالمة التي أعادت الأمور إلى نصابها، وكنتُ أكلِّم القنصل بتعالٍ ردًّا على المعاملة التي تلقَّيتها من معاونه؛ فقد أدركتُ أن السفير الفرنسي قد تلقَّى رسالتي، ووجَّه القنصل إلى إجابة طلبي ومعاقبة من عاملني بذلك الجفاء. وحين ذهبتُ آن ماري بعد ذلك إلى القنصلية، قابلتُ ذلك الموظَّف، وعرفنا أن اسمه ريمون.

وفي يوم ٧ يوليو ٧٨، توجَّهْتُ مع آن ماري إلى الجامع الإسلامي؛ حيث قام الشيخ جابر بعقد زواجنا على النحو الإسلامي المتَّبَع، وشهد على العقد زوج زميلتنا أُميمة، الذي كان موجودًا هناك لصلاة الجمعة. وبما أنني كُنْتُ ما أزال مؤمنًا بعدم التقليدية، فلم نَقُمْ بأي احتفالٍ خاص أو ملابسٍ عُرس لهذه المناسبة، بل إنني عُدْتُ لأواصل العمل بعد انتهاء المراسم، ولكنني الآن آسف على ذلك؛ فقد كان من الواجب عمل ولو حدًّا أدنى من تلك الأمور التقليدية. بيد أننا كنا في غاية الفرح والنشوة من إتمام زواجنا الذي بدأناه في برشلونة. وكنا قبل عقد الزواج الإسلامي قد عَقَدْنَا الزواج المدني في بلدية نيويورك، بعد استيفاء الشروط المطلوبة، ومنها الكشف الطبي، الذي أجريناه لدى الطبيب المعتمد لدى القنصلية الفرنسية.

ورغم أن عقدي مع الأمم المتحدة كان محدَّد المدة لعامين، فقد شرحت لي السيدة سهير أنني لم أعطَ عقدًا دائمًا؛ لأنني ما زلتُ موظفًا في مصر، وقالت لي لو أنني قدَّمْتُ استقالتني من وزارة التعليم العالي بمصر فسيُعطونني عقدًا دائمًا بعد فترة من الاختبار. وجعلتُ أفكِّر في الأمر، واعتمدتُ على الله، وأرسلتُ استقالتني إلى مدير إدارتنا، مع نسخة إلى مديرتي السابقة، التي أصبحت وكيلة الوزارة. ومضى الموضوع في طريقه، ومُنِحْتُ عقدًا اختباريًّا أفضى في نهاية الأمر إلى عقدٍ دائم.

وفي أغسطس، فوجئتُ بمدير الدائرة يستدعيني، ويخبرني باختياري للسفر في مؤتمر سيُعقد بالأرجنتين، وكانت رئيسة بعثة المترجمين والمراجعين العرب السيدة سهير. وطبعًا لم أستطع الاعتذار، رغم قلقي على ترك آن ماري وحدها بعد هذه الفترة القصيرة. وكنتُ لجهلي أحسب أن شعوري تجاه السفر إلى مؤتمراتٍ خارجية هو نفس شعور زملائي، إلا أنني رأيتُ العكس هو الصحيح؛ فقد كان الجميع يتوقون إلى السفر في مثل تلك المؤتمرات. وتبيَّن أنهم وضعوني في الوفد محل أحد الزملاء، ولمَّا لقيته وذكَّرتُ له أنني ذاهب لأنه قد اعتذر عن عدم الذهاب، قال لي إنه لم يعتذر، مما أصابني بذهولٍ لم أحر معه منطفاً. وأدركتُ بعد ذلك أنهم وضعوني في بعثة المترجمين العرب لمعرفتي بالإسبانية، مما يُسهِّل الكثير من الأمور على أعضاء البعثة وعملها في بلدٍ يتحدَّث الإسبانية. وكان زملاء البعثة ممن أعرَفهم جميعًا؛ عبد المجيد، وزميل الغرفة نبيل، وأحمد، وكرم السوري، الذي اصطحب معه زوجته على نفقته الخاصة.

وأتَمَمْنَا الإجراءات، واتَّفَقْنَا مع سهير على مسار السفر، الذي شمل البرازيل والأرجنتين حيث المؤتمر، ورحلة إلى أوروغواي، ثم بيرو، فنيويورك. وكانت فرصة لا أحلمُ بها لزيارة

تلك الدول، خاصة بيرو وبها مرتفعات ماتشو بيتشو التي تغنى بها بابلو نيرودا. وكانت هذه السفرية هي التي أزلت من روعي أي خوف من الطائرة؛ فقد ركبنا عدداً كبيراً من الطائرات لمسافات كبيرة وصغيرة، وبتنا نَقْلَع ونهبط حتى أصبح ذلك الأمر شيئاً طبعياً بالنسبة لي. وسافرنا من مطار جون كيندي إلى ريو دي جينيرو؛ حيث أمضينا يومين زُرنا فيهما معالم المدينة الجميلة نهاراً، وفي الليل شاهدنا عرضاً لرقصات السامبا التي تُشْتَهَر بها البرازيل. وكنتُ أنا الذي يتعامل لغوياً مع مَنْ نقابلهم رغم أنهم يتحدثون البرتغالية وليس الإسبانية، ولكن التقارب بين اللغتين يَسِّر لي مهمتي في أغلب الأحوال. ومن أدلة الصعوبات في التواصل ما حدث في الفندق الذي نزلنا فيه، حين اتصل بي نبيل شاكياً أنه يطلب قطعة صابون من العامل دون جدوى أن يفهم ما يريد، رغم قوله له الاسم بكل ما يعرف من لغات، ويطلب مني محادثته. وكلمتُ العامل طبعاً، وفي لحظة واحدة عرف ما يريد نبيل. وقد دهشتُ لذلك؛ لأن الكلمة بالإسبانية وهي jabon قريبة جداً من معناها بالفرنسية مثلاً، ولكن هكذا الأمر؛ فأحياناً مجرد تغيير النُبر في الكلمة يجعل البعض لا يدرك ماذا تعني. وقد أعجبتني مدينة ريو جداً، بشاطئها المشهور «كوبا كابانا» وتمثال السيد المسيح الذي يُطل عالياً فوق المدينة.

ومن ريو أخذنا الطائرة إلى بوينوس آيرس، عاصمة الأرجنتين. وهناك، بما أنها مقر المؤتمر، استقبلونا بحفاوة، وصحبونا حتى التاكسي الذي يُقَلُّنا إلى الفندق الذي سبق لنا الحجز فيه. وكان فندقاً كبيراً مريحاً، يشمل وجبة الإفطار. ونزلتُ أستطلع العاصمة الأرجنتينية، التي يدعونها باريس أمريكا اللاتينية، ومعى خريطة لها. كان أكثر ما لفت نظري كثرة المكتبات، وكثرة المشترين فيها. وبالطبع، بدأتُ في شراء بعض الكتب التي لم أسمع بها، ومنها كتابٌ مهم عن ألف ليلة وليلة. وكانت الأرجنتين قد فازت لتوها في كأس العالم لكرة القدم، فكانت الاحتفالات بذلك في كل مكان.

وبدأنا العمل في ترجمة الوثائق للمؤتمر، وكنا أحياناً نسهر طوال الليل، ولكن العمل كان شائناً مع مَنْ معنا من الزملاء. وقد افتتح المؤتمر رئيس «الخونتا» الحاكمة أيامها في البلاد، كما شاهدنا العديد من رؤساء الدول الذين حضروا المؤتمر. وكنا نخرج في أوقات الراحة معاً نتسوق في المحلات؛ فقد اشتهرت الأرجنتين بصناعة الجلود والفراء والصوف، فأقبل البعض على شراء تلك المصنوعات، واشتريتُ بعض السويترات الصوفية الجيدة. وكانت الأكلة المشهورة في تلك البلاد هي لحم الماعز، والبيفتيك بصفة عامة، ولكني انتهزت الفرصة ورحتُ أطلب ما كنتُ أحبه في إسبانيا ولا يوجَد في مطاعم نيويورك عادة؛ الكبدة، والكلاوي، والمخ، حتى إن نبيل قال ضاحكاً إنني لم أترك شيئاً من البقرة إلا وأكلته!

وانتَهزنا فرصة ثلاثة أيامٍ من الإجازات، وقمنا بزيارة إلى أوروغواي، عن طريق ركوب «الهيدروفيل»، وهو مركبٌ يسير طائرًا على الماء، أوصلنا إلى شواطئ أوروغواي، ومنها أخذنا باصًا إلى العاصمة مونتفيدو. وطوال الرحلة البحرية، كنتُ أتمثل بابلو نيرودا الذي قام بنفس هذه الرحلة وهو مطاردٌ من حكومة شيلي، وقد عبّر جبال الأنديز إلى الأرجنتين، ثم «استعار» جواز سفر صديقه ميجيل آنخل أستورياس للعبور إلى أوروغواي؛ فقد كان وجهاهما متشابهين جدًا. وقد ذهب من هناك إلى باريس بجواز السفر ذاته!

وكانت زيارتنا لمونتفيدو موفقة، عمدتُ فيها إلى الطواف بالمدينة وحدي، والحديث مع أهلها كلما تمكّنتُ من ذلك. ومونتفيدو عاصمةٌ أنيقةٌ تزخر بالشوارع النظيفة والمحلات الجميلة.

وكنْتُ طوال هذه الفترة على اتصالٍ مستمر بآن ماري تليفونيًا وعن طريق الخطابات، وعرفتُ أنهم خصّصوا لها فصلًا معينًا في الليسيه فرانسيه بنيويورك، وهي قد تعرّفتُ على إحدى المدرّسات هناك كي تُعطِيها فكرةً عن التدريس بالليسيه. وكنْتُ أتعجلُ الأيام حتى أعود إلى نيويورك قلقًا عليها وهي وحدها؛ فقد استمر العمل في المؤتمر قرابة الأسابيع الثلاثة، وقرّرنا بعدها العودة عن طريق البيرو. وحين خرجنا من مطار ليما الدولي، كان المشهد شبيهًا بمطارات العالم الثالث، من الحمالين وأصحاب التاكسيات والصبية الذين يتسوّلون من المسافرين. وكنْتُ قد قرأتُ عن العاصمة، وعرفتُ أنها تنقسم إلى الأحياء القديمة، وهي الفقيرة، والحي الجديد، وهو عبارة عن فيلاتٍ أنيقةٍ بعضُها يُطل على البحر. وليما عاصمة بيرو مدينةٌ ممثلة للعالم الثالث؛ حيث الفقر المدقع والغنى الفاحش، والسكان يغلب عليهم الطابع الهندي الأمريكي، الذي يميل عامةً إلى القصر وربّعة القامة وبروز الخدين. وفي نفس الوقت تُوجَد بها المحلات الغالية والمطاعم الفاخرة، وقد دعّتنا سهر على أحدها للعشاء. وحين تغيّبت عن الحضور، أحجم بعض الزملاء عن طلب الأطباق الغالية، ثم بدّلوا طلباتهم حين ظهرت أخيرًا.

ومن ليما ذهب بعضنا إلى مدينة «كوئكو» لزيارة مرتفعات ماتشو بيتشو، وهي بعضُ بقايا بناءاتٍ منخفضة من آثار الحضارة الهندية الأمريكية السابقة على الإسبان هناك، ولكن ارتفاع المكان وقلة الهواء هناك لم يجعلنا نطيل المكوث.

وقبل أن نطير عائدين إلى نيويورك، قدّمت لي سهر عدة تذكاراتٍ مع بطاقة شكرٍ من جميع أفراد الفريق، على معاونتي لهم في أمور اللغة الإسبانية. وفي نيويورك، حصلتُ

لنا سهرير على إجازة لمدة يومين نستريح فيهما من عناء العمل في المؤتمر. وقد كان لقائي لأن ماري تجديداً للقائنا في يونيو، وكانت تحضر لدروسها في اللبسية فرانسبه بعد أن حصلت على عقد سنوي، وإن كان الأجر يكاد يكون رمزياً. وقد واصلنا التعرف على مناحي نيويورك، خصوصاً الثقافية والفنية منها، فزرت معها من جديد متحف المتروبوليتان، ومتحف الفن الحديث الذي يُتوي لوحة «جرنيكا» الشهيرة لبكاسو، ولوحة فان جوخ «الليلة المرصعة بالنجوم»، إضافةً إلى العديد من اللوحات المشهورة الأخرى. وزرنا مكتبة نيويورك العامة، واطلعت على فهرسها العربية، ووجدت أن بها معظم كتب التراث العربي، والأدب الحديث، كما وجدت كتبتي التي ترجمتها بها. وذهبت ذات مساءً لحضور عرض «كارمينا بورانا» رأينا إعلاناً عنه في الصحف، ولكن حين دخلنا القاعة، رأينا الحضور يأخذون عند دخولهم أوراقاً موضوعة على المنضدة، فأخذنا مثلهم. وفوجئنا أن تلك الأوراق بها النوتة الموسيقية لكارمينا بورانا. وعندها اتضح الأمر؛ إذ إن ذلك اللقاء كان لهواة الغناء، وإن الحضور هم من سيغنون المقطوعات. وضحكنا ما شاء لنا الضحك من هذا المقلب، بيد أننا استمتعنا بسماع الغناء، وإن لم نشارك فيه بالطبع إلا بحركات شفاهنا.

ومع الاستقرار النسبي الذي تبع الرحلة في أمريكا اللاتينية، بدأت في القراءة المنتظمة وتكوين مكتبة لي في هذا العالم الجديد، والعمل على إحضار ما أحتاجه من الكتب التي تركتها في مكتبتي بالقاهرة. وكانت آن ماري قد شحنت حاجياتها من مدريد، ووصلت إلينا، فكان منها نواة المكتبة الإسبانية، كما كنا نتردد على مكتبة إسبانية - فرنسية في الجادة الخامسة لنشتري منها ما نحتاجه رغم الأسعار الغالية التي تباع بها الكتب. أما الكنز المفتوح أمامي فكان كتب اللغة الإنجليزية، بأرخص الأسعار، فرحت أنهل منها كل ما هو أساسي وجديد، وأغرق في قراءته. وكما في مدريد حين وجدت كل الكتب المشهورة بالإسبانية في متناول اليد، وجدت في نيويورك كل ما كنت أريد من الكتب المعروفة بالإنجليزية. وأخذت أتردد على كل المكتبات واحدة واحدة، وكان من أشهرها مكتبة «ستراند» في شارع ١٢، وهي التي تعلن عن نفسها بأنها تحتوي على قدر ما يوازي أربعة عشر ميلاً من الكتب الجديدة والقديمة. واكتشفت مكتبات إسلامية في طرف مناهاتن، جلبت منها مؤلفات قيمة لكتاب من تركيا وباكستان، وفيها نظرات مستنيرة في فهم الفقه الإسلامي. كذلك تعرفت على مكتبة رشيد العربية في بروكلين، وترددت عليها مع آن ماري حيث الحي العربي، كي نأكل الأطباق العربية التي نحبها.

وركزت أيضًا على جمع مكتبة كاملة من القواميس كي تُساعدني في عملي، وأرسلتُ إلى لندن في طلب نسخة من القاموس الإنجليزي العربي، وإلى مدريد لطلب القاموس الإسباني العربي، رغم أن الاثنين عندي في القاهرة. ولما امتلأت الرفوف التي عندي بحجرة العمل، ابتعتُ رفوفًا جديدة كي تحمل كتب اللغة والقواميس. ولم يمض وقتٌ طويل حتى كان زملاء يحضرون عندي للكشف عن كلماتٍ في القواميس التي جمعتها. وابتعتُ من بروكلين كل ما وجدتُ أن من الصعب جلبه من مصر، ومنه: دائرة معارف الشعب، الوحيدة التي صدرت في مصر عام ١٩٥٥م، وتفسير ابن كثير، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، والفتوحات المكية لابن عربي، وألف ليلة وليلة من أربعة مجلدات طبعة بيروت. ووجدتُ الكثير من شرائط فيروز وأم كلثوم. بل كان هناك محلٌ ضخم في مانهاتن للأسطوانات والشرائط وجدتُ به أسطواناتٍ لم أرها من قبل، مثل حديث الروح والسودان لأم كلثوم، وإنده على الأحرار وفلسطين لعبد الوهاب. ووجدتُ في أغنية فلسطين بيتًا ليس موجودًا في الأغنية المذاعة، وهذا شيءٌ غريب. وكنا طبعًا قد اشترينا بيك أب صغيرًا لتشغيل الأسطوانات حين تسلمنا حاجيات آن ماري وبها أسطواناتٌ كثيرة. وكان عندي جهاز الكاسيت الصغير لسماع الشرائط. وبدأنا نتابع محطات التليفزيون، خاصة المحطتين الإسبانيتين اللتين تنطلقان من فلوريدا ونطقهما بالطبع النطق الأمريكي اللاتيني.

وسرعان ما ضاق بنا الاستوديو الصغير، وأصبحنا نخطو بصعوبة داخله، ولم يكن هناك رفوفٌ كافية للكتب. وعلى هذا، انتهزتُ فرصة طلب صاحب الشقة زيادة الإيجار فرفضتُ ورحتُ أبحث عن شقة أكبر. وكان البحث صعبًا؛ فالأسعار غالية. وأخيرًا وجدتُ شقةً مكونة من غرفة نوم وصالون كبير بمنافعها، ولكن خالية غير مفروشة. واتفقتُ مع صاحبها وهو لبناني كريم الخلق، وبدأنا في نقل حاجياتنا إليها، في الشارع ٣١ بين الجادة الثالثة ولكسنجتون. واشترينا مائدة وأربعة كراسي، وسرييرًا كبيرًا، مؤقتًا. وكان موقعها مناسبًا لكننا، فكنتُ أذهب وأعود من وإلى الأمم المتحدة ماشيًا، بينما تأخذ آن ماري الباص من الجادة الثالثة حتى شارع ٧٢ مقر الليسيه فرانسيه.

وغرقتُ في قراءة تفاسير القرآن الجديدة التي اشتريتها، ودفعني ذلك إلى جمع الترجمات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية التي أجدها لمعاني القرآن الكريم، ولكنني لم أكن راضيًا عن أي ترجمةٍ وجدتها حتى ذلك الوقت. وابتعتُ الكثير من المراجع والكتب عن تاريخ المسيحية واليهودية، وبدأتُ أتناقش مع آن ماري في الدين عمومًا، وقرأتُ عن الإسلام والقرآن بالفرنسية. وكانت عقيدتي تنحو إلى وحدة الدين في أساسياته، وأن كل

الاختلافات هي اختلافاتٌ فلسفيةٌ ناتجة عن تفاسير وآراء، وأن ديانات التوحيد كلها واحدةٌ من الله الواحد، وإنما تختلف الشرائع والمناهج، وكنت أفضل ترجمة الإسلام بعبارة submission to God، وما دمنا كلنا منقادين لله الواحد الخالق القهار، فكلنا على دينٍ واحد في الأصل. وقد قال جوته بعد أن درّس الإسلام: «لو أن الإسلام هو الله القنوت، فكلنا على الإسلام نحيا ونموت». وقد تقاربت رؤية أن ماري الدينية مع هذه الرؤية الأساسية. وأصبحت متعودًا على سماع آيات القرآن المرتل، التي كنت قد نقلتها من أسطوانات معهد مدريد، كل صباح، وقد أتاح لي سماع القرآن الكريم منطوقًا أن أصحح نطق الكثير من الكلمات التي كنت أخطئ في نطقها، ويخطئ كثيرون أيضًا في نطقها لأنها غير المعهودة في الكلام الآن. ومن تلك الكلمات: ربّما؛ فهي تُنطقُ بفتح الباء وليس تشديدها، بمعنى مختلف هو: كثيرًا ومرارًا، كلمة «يا أسقى» فهي تُنطقُ بالألف بدل الياء؛ «سيناء» بسكون الياء، «المصطفين» بسكون الياء وفتح الفاء، «ذنوبًا» بفتح الذال بمعنى عقاب، «يمسكون» بتشديد السين وكسرها، «أمن لا يهدّي» بكسر الهاء وتشديد الدال في يهدي. وكثير غيرها.

ومع زيادة مساحة الشقة التي نعيش فيها، زادت الكتب؛ فقد اشتريتُ مجموعة «قصة الحضارة» لويل ديورانت بالإنجليزية في ١١ مجلدًا ضخماً، وكنت قد بدأت في قراءتها بالعربية في مصر. وكان لا بُد لنا أن نذهب إلى المكتبة حاملين عربة التسوق ذات العجلات حتى نأتي بتلك المجلدات من مكتبة «ستران» في الشارع ١٢ إلى شقتنا. واستخدمنا العربة أيضًا حين اشتريتُ دائرة المعارف البريطانية من المكتبة نفسها، وقد فضلتُ شراء النسخة القديمة المطوّلة وليس الجديدة التي اختصروا فيها الشرح والكلام. واضطررنا هذا التوسّع إلى شراء رفوفٍ من البلاستيك القوي لحفظ الكتب. والحقيقة أن موسوعة تاريخ الحضارة مهمّة جدًا لأيّ مثقّف، وقد قرأتها على مهل بالإنجليزية ثم جلبتها عند زيارتي لمصر بالعربية من مكتبة النهضة المصرية. والمجلدات في مجموعها تُشكّل مهادًا مهمًّا لكل من يبغى فهم التاريخ والحضارات العالمية. والغريب أن المجموعة لم تتعرّض لتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، وهي خسارة فادحة لم أجد كتبًا أخرى تعوّض عنها فيما كُتب عن تاريخ أمريكا؛ فويل ديورانت يمزج الوقائع التاريخية بإطارها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي على نحوٍ فريد، مما يجعل القارئ يعيش ما يقرؤه ويفهمه بسهولة، ويجمع بين العناصر التي تُشكّل تاريخ دولة أو شعب أو حضارة معيَّنة. وهو يبدأ بمقدمةٍ طويلة يشرح فيها معنى الحضارة في مناحيها المختلفة؛ شروط قيامها -

عناصرها السياسية - عناصرها الأخلاقية - عناصرها العقلية - بدايات الحضارة فيما قبل التاريخ. ثم فصول عن سومر، مصر القديمة، بابل، آشور، اليهودية، الفرس، ثم ينحو إلى الهند وجيرانها؛ الصين، اليابان. وهو في تناوله تلك الحضارات يُحيط بها إحاطةً شاملة لكل شيء؛ التطور السياسي، الدين، الشعب، الفن، التجارة والاقتصاد، الحياة العقلية. وفي الترجمة العربية، صدر كل قسم من هذه الأقسام في أجزاءٍ منفصلة.

والمجلد الثاني في الأصل الإنجليزي مخصّص للحضارة اليونانية، التي تُفضي في المجلد الثالث للحضارة الرومانية منذ نشأتها وصدامها مع هانيبال حتى عصر الإمبراطورية وظهور المسيحية وانتشارها في عهد قسطنطين، ثم انحدار روما وسقوطها. وفي مجلدٍ رابع ضخم يجمع فيه ديورانت «عصر الإيمان»، ويشمل الإمبراطورية البيزنطية، وظهور الإسلام وانتشاره مقيمًا حضارةً باذخة، ثم يصف الديانة اليهودية في العصور الوسطى، وينتقل منها إلى عصور الظلام التي خيمت على الغرب حين كانت المدن الإسلامية في ذروة نهضتها العلمية والفنية والحضارية. ويصف تطوّر المسيحية وسطوة الكنيسة ومحاكم التفتيش والحروب الصليبية. والمجلد الخامس مخصّص لعصر النهضة ويركّز على الفنون والآداب، بدءًا ببتارك وبوكاتشي، ثم آل ميديتشي وازدهار فينيسيا، إلى عصر الاضطرابات السياسية في القرن السادس عشر. ويتناول المجلد السادس عصر الإصلاح، ويقصد به المؤلف الإصلاح الديني المسيحي أساسًا، ويتناول الدولة العثمانية وفتوحاتها، ولوثر والبروتستانتية، والإصلاحات الدينية في إنجلترا وفرنسا، وردّة فعل الكنيسة الكاثوليكية لدعاوى الإصلاح. كل ذلك في روافد من الأحداث السياسية والكتابات الأدبية والفنية في كل هذه الدول. ويسرد المجلد السابع بذور عصر العقل، فيصف إنجلترا في عهد الملكة إليزابث الأولى، والنهضة الثقافية فيها، وأعلامها، وعلى رأسهم وليام شكسبير، ثم ثورة كرومويل وما تبعها من اضطرابات، وينتقل إلى إيطاليا، وإسبانيا في عهدها الذهبي الأدبي والفني، أيام سرفانتس ولوبي دي فيجا وكالديرون دي لا باركا وجويا وإلجريكو وفيلاسكت. ويُعرّج على الأراضي المنخفضة ودول الشمال الأوروبي، ويقدم لمحةً عن معركة ليبانتو التي انهزم فيها الأتراك، ثم الدولة الصفوية في إيران. وعناوين المجلدات الأربعة التالية كلها تتعلق بأمور فرنسية، مما يدل على مدى تأثير فرنسا في أحوال الحضارة في تلك الفترات؛ فالمجلدان الثامن والتاسع على التوالي؛ عصر لويس الرابع عشر، وعصر فولتير، يرويان كل أحداث الدول الغربية على نفس منهج المؤلف الشامل، ويشرح الأوضاع في مقاطعات ألمانيا وسويسرا بالتفصيل، ويبيّن تقدّم النظرة الإنسانية الهيومانية على

الدينية، وانتصار حركة الفلاسفة في فرنسا بما هي الأوضاع للتغيير الثوري هناك. ويوثق المجلد العاشر وعنوانه «روسو والثورة» كل الشئون الأوروبية حتى الهجوم الفرنسي على الباستيل. ويختص المجلد الحادي عشر والأخير بعصر نابليون، ولكنه يؤرخ بالتفصيل للثورة الفرنسية وأثرها في أوروبا، ثم صعود نابليون وحروبه. وينتقل إلى إنجلترا إبان الشعراء الرومانسيين، ثم إسبانيا وإيطاليا والنمسا وألمانيا، وينتهي بأقول نجم نابليون وهزيمته مرتين، ثم نفيه إلى جزيرة سانت هيلانة؛ حيث توفي هناك.

وقد قرأت المجلدات كلها بالإنجليزية، وأحسست بعد إتمامها بأنني عشت كل ذلك التاريخ، وأني أحمل كل تلك الأحداث على ظهري فتحنيه من هول ما وقع على مر التاريخ، ثم عدت فقرأتها بعد سنوات بالعربية، من ترجمة أسانذتنا الكبار؛ زكي نجيب محمود، ومحمد بدران، وفؤاد أندراوس، وعلي أدهم، وعبد الحميد يونس. وقد توقفت نشر الترجمة في مصر عند نهاية المجلد العاشر، بينما صدرت ترجمة المجلد الحادي عشر عن مجمع أبو ظبي. وهذه المجلدات — في أي لغة — يجب ألا تخلو مكتبة المثقف منها؛ فهي تحيط بأشياء مهمة لا غنى عنها.

وأصبحنا معروفين في المنطقة التي نسكن فيها بعودتنا محمّلين بالكتب في عربة التسوق. وبدأت أفكر في العودة إلى الكتابة والنشر، ولكن إيقاع الترجمة في العمل لم يكن يترك مجالاً كبيراً لذلك. كان على المترجم أن يغطي كمية معينة كل يوم، بالإضافة إلى المهام الخاصة مثل ترجمة وثائق مطلوبة على الفور للتوزيع المبدئي على أعضاء الوفود. وكنت أدخل في الكثير من نوبات العمل الليلية، رغم كُرهي لها، وكانوا يعلّون ذلك بأنني الوحيد الذي يترجم عن الإسبانية مباشرة (أيامها). وحين انعقد مؤتمر في هافانا بكوبا كنت بالطبع من المختارين للعمل فيه. وتوجّهت أنا وعبد المجيد قبل فريق العمل للإعدادات الأولية. ولم تكن هناك علاقات بين الولايات المتحدة وكوبا؛ لذلك طرنا إلى فلوريدا، ثم أقلّتنا طائرة محركات صغيرة أشبه بالأوتوبيسات إلى هافانا. وكانت تجربة زيارة كوبا فريدة في نوعها.

قضينا وقتاً طويلاً للخروج من مطار هافانا؛ حيث إننا قادمين من أمريكا، ورغم وجود من كانوا بانتظارنا. واصطحبونا خارج المطار، ووجدنا الأهالي ينتظرون خارجاً على نفس وضع المصريين في الستينيات والسبعينيات. وشاهدنا الطقس الاستوائي في المطر الغزير. وأخذونا إلى الفندق المخصّص للعاملين في المؤتمر، وكان قريباً من قصر المؤتمرات. وكان الفندق الحكومي فاخراً، تتوافر فيه كل وسائل الراحة بما فيها حمام

للسباحة، ويُطَل على المحيط. وكنا في أواخر شهر ديسمبر ٧٩، ولكن الجو هناك كان صيفاً فاستمتعنا بالبحر، وكان عبد المجيد يسبح كثيراً في حَمَام السباحة. وكان الطعام الذي يُقدَّم لنا فاخراً، بعكس حالة البلد وأهلها؛ فقد خرجنا في زيارة للعاصمة وهالنا ما وجدناه؛ المحلات خالية من البضائع، والمقاهي لا تُقدَّم إلا قليلاً من المشروبات، وحتى المكتبات لا يُوجد بها إلا كُتُب عن الشيوعية. وكان يبدو على الأهالي مظاهر الفاقة والبؤس والاستسلام لقدَرهم. ولم يكن هناك الكثير من الآثار لزيارتها، ومعظمها خاص بالثورة الكوبية وشي جيفارا، ولكنني كنتُ مُصرّاً على زيارة متحف همنجواي القريب من العاصمة. ورتّبوا لنا زيارة لمصنع السيجار الهافاني الفاخر الذي يُقبل الجميع على شرائه؛ لأنه غير موجود في أمريكا. وكان كل مَنْ رأينا من السياح هناك وفي الأماكن الأخرى من روسيا ودول أوروبا الشرقية.

وحين ذهبنا إلى مقر المؤتمر، وجدتُ الأمر مشابهاً لما كان في مصر أيام عبد الناصر؛ فقد كان لكل مجموعة مُرافق كوبي، شاباً كان أو فتاة، يتناقش معهم، ويُراقب ما يقولون ويفعلون، ولا بد أنهم كانوا يقدمون تقارير بعد ذلك عما سمعوا أو رأوا. وافتتح المؤتمر الرئيس فيدل كاسترو، ورأينا كيف يخطب ويجذب الناس بسحر كلامه وحركاته؛ فقد كان ذا كاريزما واضحة. وكان العمل كثيفاً، فكنا نُترجم ليلاً ونهاراً. وحين سنحت فرصة راحة، طلبتُ تاكسيّاً للذهاب بي إلى بلدة سان فرنثسكو دي باولا حيث مُتَحَف همنجواي. وكنتُ قد قرأتُ الكثير عن هذه الضاحية والبيت الذي اشتراه همنجواي هناك، والذي أحالته حكومة الثورة إلى مُتَحَف. وعشتُ كثيراً في أجواء تلك البلدة وذلك البيت عند ترجمتي لكتاب «بابا همنجواي» لهوتشنر، والذي نشرته دار الآداب، كما ذكرتُ من قبل. وكنتُ قد قرأتُ أن كاسترو قابل همنجواي عدة مرات، وأنه كان معجباً برواياته، لدرجة أنه كان يصطحب واحدةً منها في كل رحلة من رحلاته.

وجاء التاكسي بعد فترة. لا بد أنهم قد أخذوا تصريحاً بذلك قبل أن يأتي. ورافقني في الرحلة نبيل وحسن، لكنني كنتُ أنا الداعي؛ فقد دفعتُ أجر السائق مُقدِّماً. وحين وصلنا انتابتنني حالة من الإشراق الروحي؛ فها أنا في وسط الضيعة التي طالما قرأتُ عنها. وطففتُ بها كأني أعرف نواحيها، وأطلتُ من نوافذ البيت على مكتبة همنجواي؛ فلم يكن مسموحاً بدخول الزوار إلى داخل المنزل، ورأيتُ الكتب المعروفة فيها، ورءوس حيواناتٍ معلّقة على الحائط، ونظّارة همنجواي على مكتبه توحى بأنه سيعود لنوّه ويستأنف قراءته أو كتابته. وأثار عَجبي وجود بعض «البافات» الفرعونية التي نبتاعها من خان الخليلي في

بعض الغرف، وعلمتُ بعد ذلك أن ماري ولش قد اشترتها فعلاً من القاهرة، إبَّان زيارة خاطفة، حين كانت الباخرة التي تستقلها مع همنجواي راسيةً في بورسعيد؛ حيث بقي الكاتب في الباخرة ولم يذهب معها. وطفْتُ بأنحاء الضيعة، فشاهدتُ البرج الذي بنته زوجة همنجواي فيها، والأشجار الكثيفة التي تَغْطِي مساحةً كبيرة من الضيعة. وقد التقطتُ الكثير من الصور بالكاميرا التي معي. وكم كان حزني بعد ذلك حين وجدتُ أن فيلم الكاميرا لم يكن يدور، وكان كل ما التقطتُ من صور «على الفاضي»!

وقبل العودة من كوبا، اشتريتُ بعض التذكارات من بطاقات مصورة وميداليات وصور. وعُدنا في الوقت المناسب لقضاء عطلة الكريسماس مع آن ماري. وأمضينا ليلة رأس السنة لأول مرة وآخرها في تايمز سكوير؛ حيث حَضَرنا تغيير التفاحة المضيئة من عام ١٩٧٩م إلى ١٩٨٠م. وكان العام مهمًّا بالنسبة لنا؛ لأنني كنت أستحق الإجازة المدفوعة إلى الوطن — وكانت كل سنتين. وقد ادَّخَرْتُ إجازاتِي كلها كي آخذها آنذاك؛ إذ كنا سنزور فرنسا عند أسرة آن ماري — ولم يكونوا رأوني بعدُ أو رأيتهم — وأهلي كذلك في مصر. وكنتُ أشعر بهدوء وسعادة بأني سأعود إلى مصر وأنا أعرف أنني في وظيفة جيدة وسأعود إليها إن شاء الله. وكان علينا الاستعداد كعادتنا في كل شيء، بشراء حقائب وهدايا لكل شخص، وتنظيم الوقت لزيارة «لي هافر»؛ حيث تقيم أسرة آن. وقبل ذلك استدعاني رئيس الدائرة ليقول لي: «أجاهزُ حقبتك؟» وإذا به يخبرني أن عليَّ الذهاب في مهمة للترجمة بفرع الأمم المتحدة في بغداد مدتها ثلاثة أشهر، وأضاف في حب: إنها بلدي، العراق. ووقعتُ في حرجٍ شديد؛ فلم أكن مستعدًّا أن أترك آن وحدها طوال هذه الفترة، كما أن إجازتي تحلُّ بعد تلك الشهور مباشرة، فذكرتُ كل هذه الأسباب للمدير، فقال إنه يمكنني أن أصطحب زوجتي معي ثم نتوجه للقاهرة مباشرة للإجازة، فشرحتُ له في ترددٍ صعوبة ذلك؛ لأنَّ آن تعمل، ولا تستطيع ترك عملها، وإذا به يقول لي: إذن أنت ترفض العمل؟ فهالني ما ذكره، ونفيتُ ذلك؛ فقد كنتُ ما أزال في فترة الاختبار، ولكنني كنتُ مضطراً إلى الاعتذار؛ لأنَّ مثل تلك المهمة ستعصف باستقرارِي وخططي. وذكرتُ للمدير أنه إذا لم يُمكن العثور على بديل لي للذهاب إلى بغداد، فلا مناصَ لي من القبول، فأجاب بأنه سيري، ولكن عليَّ أن أحضِر نفسي للسفر على أي حال.

وقضيتُ أياماً قلقاً غير مستقرة، ومضى أسبوع، فعشرة أيام، دون أن أسمع من المدير، ثم انقشعت الغمة حين سمعتُ أن أحمد سيسافر في مهمةٍ إلى بغداد، فاطمأنتُ إلى أنني لن أسافر في تلك المهمة. وعلمتُ أنه عادةً ما يتم اختيار غير المتزوجين وغير الآباء

للسفر في تلك المهام الطويلة. وواصلنا الاستعداد لسفرة الوطن من جديد. وقبلها كان لا بد من وضع تقرير الأداء لي ومنحي عقدًا دائمًا، فقابلتُ المدير الذي استعرض أدائي، وامتدحني، وركّز على حسن استعدادي، وأعطاني تقدير جيد جدًا، بما ضَمِن لي الحصول على العقد. وحين جاء وقت التقدُّم بطلب الإجازة، فوجئ المدير بالمدة التي طلبتها وهي شهران، وقال إنه عادةً لا يُحب منح إجازاتٍ طويلة هكذا؛ ولذلك طَلَب مني أن آخذ إجازاتٍ ولا أدخرها لرحلة الوطن. واعتذرتُ له بأنني لا بد أن أذهب إلى «وطنين»؛ حيث إن زوجتي فرنسية، فقال إنه سيوافق هذه المرة فقط، ولكن عليّ بعد ذلك أن أتصرّف. وبدأنا في وضع برنامج السفر، وذهبتُ لحجز التذاكر من وحدة السفر في الطابق العشرين من المبنى. ولما كنتُ لا أحب ركوب الطائرة لمدةٍ طويلة، فقد تجنَّبتُ السفر المتواصل إلى القاهرة، بل رتبتُ للمكوث وقتًا ما في فرنسا قبل التوجُّه إلى القاهرة، وكذلك في العودة، مع ما في هذا من مشقةٍ وحلٍّ وترحال.

وبدأنا الرحلة في وسط يونيو، وحلَّلنا في مطار شارل دي جول؛ حيث تركنا إحدى الحقايب الكبيرة في الأمانات لحين العودة، ثم أخذنا تاكسيًا إلى محطة سان لازار. وحين دخلنا إلى باريس، استمتعتُ من جديد بمشاهدها الفريدة التي لا تُوجد في عاصمةٍ أخرى، من جمال المباني وهندستها وتنوع الألوان فيها والأنساق. وتعرَّفتُ أكثر على محطة سان لازار بمقاهيها ومحلاتها. ثم ركبنا القطار المتجه إلى الهافر بمقاطعة نورماندي، ويصلها في مدى ساعتين من باريس. ومَرَرنا على بقاعٍ خضراء ومراعٍ بها الأبقار النورماندية المشهورة وأشجار التفاح، وأن ماري تشرح لي ما نمرُّ به من مدنٍ وقرى، خاصةً مدينة روان التي أحرقت فيها جان دارك. وحين وصلنا إلى الهافر أخذنا عربةً أجرة إلى حيث تقطن أسرة آن، في منطقةٍ تدعى «كلو كاريو»، في فيلا محاطةٍ بحديقةٍ مقدَّمة من المصنع الذي يعمل فيه والدها. وكان الجميع في استقبالنا، ورحَّبوا بنا على أفضل وجه. وقد اعتذرتُ للأبوين عن عدم اتصالي بهما طوال ذلك الوقت، وكانت أول مرة أراهما أو هما يرونني. وقابلتُ الأخ الأصغر لأن وكان ما يزال يعيش مع الأبوين ويدرس. وبعد ذلك جاءت جوزيت الأخت الكبرى مع زوجها ميشيل، ورحَّبوا بنا. وقد دعتنا جوزيت إلى رحلة بالعربة إلى المدينة القريبة «إترتا» بعد أيام، واستمتعتُ هناك بالبحر والصخور والمناظر الطبيعية الخلابة.

وحين ذهبنا إلى غرفتنا في الطابق الأعلى، استغرقتُ في النوم من شدة تعبتي وفرق التوقيت. وبعد ذلك خرجتُ مع آن أستكشف المدينة وما بها، واشترينا بعض العطور

والإشاريات الفرنسية كهدايا في مصر. والهافر مدينة صغيرة هادئة، دُمِرت في الحرب العالمية الثانية؛ ولذلك فمبانيتها معظمها جديدة. وهي ميناء مهم يُطل على بحر المانش، ويستقبل ويرسل العبّارات التي تصله بإنجلترا، وبها ساحل جميل زرنه مرتين، وشاهدت فيه الحسن الفرنسيات في لهوهن واسترخائهن، وبعضهن عاريات الصدور. وبعد أن قضينا أسبوعاً مع العائلة الفرنسية، عدنا إلى باريس فالمطار في طريقنا إلى القاهرة. وهناك استقبلنا أخواي في المطار وسهلاً ودخلنا وذهابنا إلى شقة محمد شكري؛ حيث رأيت والدتي، ورحبت بنا بعد غياب سنتين. وكان لقاءً حميماً مع الجميع، وتبادلنا الهدايا، وذهبت إلى غرفتي الحبيبة وقد وضعوا فيها مروحة كهربائية وجهازاً لمنع الناموس، خوفاً على أن ماري. وكانت صباح ما تزال مع والدتي، فقامت على راحتنا خير قيام.

واصطحبت أن كالعادة لزيارة الآثار القاهرية، وتغدينا في البرج وهو يدور بنا، وذهبنا إلى القلعة وجامع محمد علي. وأخرجت لها كارنيهها في نادي الجزيرة باعتبارها زوجتي، وأصبحنا نذهب هناك لمقابلة أحمد. وكنا قد خططنا أن تسافر أن وحدها إلى فرنسا قبلي حتى تقضي مع أسرته أكثر وقت ممكن، على أن نتقابل بعد ذلك في باريس، فنسيح فيها وقتاً إلى حين عودتنا إلى نيويورك. وبعد سفرها قضيت معظم وقتي في المكتبات، اشتري كل جديد أحتاجه، خاصة كتب اللغة العربية والنحو والقواميس، حتى القديم منها، فاشتريت قاموس النهضة، وقاموس سعادة، وقاموس إلياس، وكتاب النحو الواضح بأجزائه المتعددة. كذلك جمعت ما أصدر نجيب محفوظ من روايات جديدة، وما أصدره الروائيون الجدد. ووجدت قريباً من بيتنا فرعاً لمكتبة دار الفكر العربي، فقضيت فيها أوقاتاً كثيرة، ووجدت بها الكثير من الكتب التي أحتاجها. وزرت مقر عملي في وزارة التعليم العالي، وقابلت زملائي، ورحبوا بي، وسعدت كثيراً برؤيتهم.

كان الأصدقاء قد بلغوا مرحلة النضج، ومن المناسب أن أذكر هنا شأن بعض أفراد المجموعة. كان أحمد السودة قد أصبح مستشاراً بالنيابة الإدارية، وقد تزوج أستاذة جامعية، وواصل قراءاته المتعددة، واستمر في أنشطته الرياضية التي يمارسها في نادي الجزيرة حتى اليوم. وكان أحمد السودة وعبد الفتاح العدوي أكثر من أقابل من الأصدقاء، إلى أن ذهب عبد الفتاح للعمل في السعودية.

أما علي كمال فقد ذهب منتدباً للعمل في إذاعة طوكيو باليابان، ثم مكث هناك بعد انتهاء إعارته وتزوج يابانية. وقد توفّر عليّ على القراءة الجادة والترجمة العملية، وتخصّص في السينما والأفلام حتى أصبح مرجعنا جميعاً في شئونها. وهو يُقسّم الآن وقته ما بين القاهرة وطوكيو، فنال أفضل الحسنيين.

وقد تنقل محمد إبراهيم كثيرًا بين وظيفة التدريس ووظائف أخرى في شركات وهيئات، حتى استقر أخيرًا رئيسًا للترجمة في مجلس الشعب؛ حيث وصل إلى درجة وكيل أول وزارة. وقد أصدر عدة معاجم قيمة، توجّهًا بمعجم ألفاظ القرآن الكريم، وقد عمل فيه لمدة عشرين عامًا، فصدر في أفضل الصور الممكنة. وله أيضًا رواية لسيرة القرية التي نشأ فيها، وهو كتابٌ شيقٌ يذكّر برواية الأيام لطفه حسين.

أما نبيل راغب فقد عاش حياةً حافلةً مليئةً بالنشاط والعمل؛ فقد ثابر حتى حصل على الماجستير فالدكتوراه، وعمل في أكاديمية الفنون وعميدًا لمعهد التذوق الفني. وكان حين زيارتي القاهرة سكرتيرًا للرئيس أنور السادات، وأصدر كتبًا عديدة.

وفي تلك الإجازة، اشتريت عددًا كبيرًا من الكتب والقواميس؛ لذلك فقد ذهبتُ إلى مكتب توماس كوك لشحنها إلى نيويورك، فطلبوا مني تصريحًا من هيئة الكتاب بشحن الكتب، فكتبْتُ قائمةً بها، وذهبتُ إلى مقر الهيئة، وطلبتُ مقابلة رئيسها الشاعر صلاح عبد الصبور. وقابلني الأستاذ صلاح رغم أنه كان مع زائرٍ أجنبي، ووافق على إرسال الكتب. وقدّمتُ التصريح للشركة، ووضعتُ الكتب في حقيبة كبيرة، وذهبتُ في يوم الشحن إلى المطار كطلب مندوب توماس كوك؛ حيث تطلّب الأمر دفع بعض الإكراميات حتى جرى شحنُ الحقيبة. ورغم ذلك كان معي حين سافرتُ إلى باريس للقاء آن ماري حقيبتان معظمهما مليءً بالكتب. ووجدتُ آن في استقبالي في المطار، وكانت قد حجّزت في فندق بوسط باريس، فاتجهنا إليه بالتاكسي. وكان فندقًا مريحًا، فطرحنا حاجياتنا، وخرجنا نستكشف باريس الجميلة. وكانت قد مضت سنواتٌ طويلة على آخر زيارة لي لباريس؛ ولذلك عَزَمْتُ على مطالعة باريس على مهلٍ لأتذوّق جمالها كما يجب، خاصةً وأنا قد انتسبتُ إليها الآن.

وكنا نطلب الإفطار في الغرفة كل صباح؛ فأنا لا أستطيع الخروج دون إفطار. وأحببتُ الكرواسان الساخن مع القهوة باللبن والخبز الفرنسي ذا الشهرة مع المربّى. وخرجنا إلى جوٍّ صيفيٍّ بديع، فأردتُ أن أرى أجمل ميدان في العالم في تلك الصباحية المشرقة، فتوجّهنا إلى ميدان الكونكورد؛ حيث تأملتُ المسلة المصرية البديعة، والمنظور الجميل عبر شارع الشانزليزيه ويبدو في آخره قوسُ النصر حتى ليحسب الرائي أن المسافة إليه قريبة، ولكنها في الواقع مسافةٌ بعيدة جدًا. وبدأنا السير في الشانزليزيه وتأملُ فترينات المحلات والبوتيكات الأنيقة، وكنا نستريح في المتنزهات الخضراء للتويلري، وميدان القصر الصغير المليء بالأزاهير من كل نوع ولون. وكان الطريق طويلًا حتى إننا

ملنا في طريقنا إلى مطعمٍ مغربي في شارعٍ جانبي لتناول الغداء. وطلبنا الطاجن المغربي الشهير مع النبيذ الأحمر، ثم حلّينا بالبقلاوة التي أحبّتها آن ماري. ولن أطيل في وصف الأيام العشرة التي قضيناها في باريس، ولكنها كانت أياماً لتتبع الجمال في كل مغانيه، والفن والتاريخ. ورغم أنني زرتُ باريس قبل ذلك كثيراً، فقد طال غيابي عنها، فكنتُ أتنقل من مكانٍ إلى مكانٍ لاهتُ الأنفاس، حتى إن آن ماري لم تكن قادرةً على تتبّعي، فصعدنا إلى أعلى قوس النصر، وأكلنا في مطعم برج إيفل الشهير، وعبرنا شارع ريفولي، وقضينا ساعات وساعات في اللوفر وحي دي بوم ومُتحف التاريخ الطبيعي. وتمشّينا على نهر السين، وردّنا قصيدة أبولينير حين عبّرنا جسر ميرابو — وكانت مسجّلةً عندنا يتلوها بصوته — واشترينا عشرات الكتب من على ضفاف السين ومن المكتبات، خاصة «الفنك». وقد عدتُ بترجمتين لمعاني القرآن الكريم إلى الفرنسية، لكازيمرسكي وجروسان، ومن هنا عزمْتُ على جمع تراجم القرآن للمقارنة بينها باللغات التي أعرفها.

وعُدنا إلى شقّتنا في نيويورك محمّلين بذكرياتٍ جميلة وحصيلّةٍ كبيرة من الكتب الجديدة تكفي السنتين قبل استحقاق الإجازة المدفوعة ثانية. وسرعان ما اندمجنا في حياتنا النيويوركية ثانيةً من عملي في الترجمة وعمل آن في التدريس. وفكّرتُ في ضرورة العودة إلى الكتابة والنشر، فاخترتُ مسرحية لوركا «الآنسة روزيتا العانس» لترجمتها من الإسبانية إلى العربية. وبرغم انشغالي في العمل والنّوبات المسائية التي أكرهها لأنني لا أستطيع النوم في النهار، بدأتُ الترجمة تدريجيّاً. وهذه المسرحية شاعريّةٌ حزينة، تذكّر القارئ أو المشاهد بمسرحيات تشيكوف، وتحكي قصة روزيتا، التي تعيش في غرناطة مع عمها وعمتها، والتي اضطرّ خطيبها إلى السفر إلى أمريكا الجنوبية ليُساعد والدّه في عمله هناك، مع وعدٍ بالعودة سريعاً للزواج من روزيتا، ولكن تمرّ سنواتٌ كثيرة ولا يعود الخطيب، فيضطرّ بعد مرور خمسة عشر عاماً إلى أن يُرسل لخطيبته رسالةً يأسف فيها لعدم عودته حتى الآن، ويذكرُ أنّه لذلك قد عقد العزم على أن يتزوَّج من خطيبته روزيتا بالتوكيل، ولكن بعد مرور عشرة أعوامٍ أخرى، لم يكن الزواج قد تم، ودخلتُ روزيتا إلى مرحلة الشيخوخة، وكان العم قد مات، وتعرف العمة ومدبرة المنزل أن الخطيب قد تزوّج من ثماني سنوات من امرأة ثرية في أمريكا الجنوبية ولكنهما لم تُخبرا روزيتا بذلك، ثم نعرف أن روزيتا كانت على علمٍ بخيانة خطيبها تلك. وتنتهي المسرحية نهايةً أسيفة؛ إذ

تغادر الأسرة المنزل لأن العم كان قد ارتهنه قبل وفاته فلا بد من بيعه، فيخرجون في جُنح الظلام بينما تعصف الرياح مشاركةً لروزيتا في حزنها وقنوطها. وحين انتهيتُ من الترجمة، أرسلتُ إلى سلسلة «من المسرح العالمي» الكويتية أعرض عليهم نشر المسرحية. وبعد فترةٍ جاءني ردُّهم بالموافقة، وطلبَ كتابةً مقدِّمةً للمسرحية. وسُررتُ جدًّا، وعزمتُ على كتابةً مقدِّمةً تُعرِّف بلوركا وفنه المسرحي، بما عندي من مراجع كثيرةٍ عنه الآن.

وفي يومٍ أحسَّت أن ماري بإعياء في الصباح قبل ذهابها إلى المدرسة، ثم تكرَّر ذلك. ولمَّا أصابها غثيانٌ وقيءٌ شكَّنا في الأمر، فاشتريت اختبارًا للحمل وتركته لي كي أشاهد النتيجة صباحًا، بعد نوبةٍ ليليةٍ مضنية، وأفقتُ من غفوةٍ قصيرة، وتذكَّرتُ غلبة الاختبار، فذهبتُ إليها بين اليقظة والنوم، فوجدتُ النتيجة إيجابية؛ أي إن أن ماري حامل. وعُدتُ إلى غفوتي ولم أفكر في الأمر إلا عند الظهر. وامتزجت فرحتي الطاغية بقلقي الشديد من مسئولية الحمل ورعاية الحامل طوال فترة الشهور التسعة. وتذكَّرتُ عندها بوضوح كامل النطفة التي صعدت على ساق الوردة حتى التقت بقلبها محققةً أمرًا كان مقضيًّا من قبل أن يبرأ الله الأرض ومن عليها. وحين عادت أن من عملها فرحت بالنبأ، واستراحت من معرفة سبب تلك الأعراض الطارئة، وكان علينا البحث عن طبيبٍ لمتابعة الحمل والولادة. وفضَّلتُ العثور على طبيبٍ يتحدث الفرنسية حتى يُمكن لأن أن تتفاهم معه بسهولة دون لبسٍ أو إبهام. وعليه فتحتُ كُتُبًا كان عندنا عن الخدمات الفرنسية في نيويورك، واخترتُ طبيبًا قريبًا من الليسيه التي تعمل بها آن، واتصلتُ به وشرحتُ له ما أريد، فصرَب لنا موعدًا للكشف عليها.

وحين ذهبنا، وبعد كشفٍ دقيقٍ طمأننا الدكتور «دون سلون» أن الحمل على ما يُرام، وأوصاها بأشياء تتبَّعها لتخفيف الغثيان، وكان عليها أن تُعاود الطبيب على فتراتٍ متقاربة. وتركنا هذا الأمر يأخذ مجراه بعونٍ من الله، ولم نطلب من الطبيب معرفة نوع الحمل وهل هو ذكر أم أنثى رغم انتشار ذلك عن طريق «السونوجرام».

ولمَّا كان الحمل في آخر أكتوبر، واصلتُ آن عملها حسب مشورة طبييها، الذي طلب إليها الحركة دونما مشقة. واشترينا الكتب المتعلقة بالحمل وتربية الأطفال. وكان الحمل مدعاة تغييراتٍ كثيرة؛ فلا بد أن ننتقل إلى شقةٍ أوسع، وأن تأخذ آن إجازةً عامًّا على الأقل من عملها. ولمَّا كانت الولادة مقدَّرة في يوليو بعون الله، فقد كان أماننا متَّسع من الوقت

لتدبير كل تلك الأمور. وبعكس ما كان متوقعًا، سُررتُ بحمل آن، وتابعتُ كِبَرِ بطنها باهتمام، وكنتُ أسمعُ المولود في الداخل آيات القرآن الكريم والموسيقى الكلاسيكية. وفي يناير ٨١، ظهر إعلانٌ عام في لوحة دائرة الترجمة العربية، بطلب رئيسِ الوحدة اللغة العربية بقسم تحرير الوثائق الرسمية للأمم المتحدة بدرجة ف-٤، مع بيان توصيفي بالعمل المطلوب منه. وطبعًا، لم يُثر هذا الإعلان انتباهي على الإطلاق؛ إلى أن دعاني رئيس الدائرة يومًا للقائه، وقال لي: هيه، ألا تفكرُ في التقديم لشغل وظيفة المحرّر العربي؟ وفجأني سؤاله، بل ألمني، وأجبتُه بأن لا. ولما ذكر لي أنه يرى أنني الأصلح لشغل تلك الوظيفة، بادرتُه دون تفكير هل يريدني أن أترك العمل بالترجمة، فهتف قائلاً بحرارة أن كلا على الإطلاق وإن مكاني هنا محفوظٌ في كل وقت، ولكنه يريد أن يشغل تلك الوحدة شخصٌ منضبط، ويعرف الإسبانية والفرنسية؛ لأن هناك وحداتٍ بقسم التحرير لكل اللغات الرسمية، وأنا في سوف أقوم بتأسيس الوحدة العربية بالقسم. ولما رأيته مترددًا طلب مني أن أفكر في الموضوع عدة أيام وأتشاوّر مع زوجتي، على ألا أخبر أحدًا بالدائرة بذلك الأمر. وخرجتُ من عنده وأنا مصمّم على الرفض، وحزينٌ من عدم تمسّكه بي في دائرته.

وحين أخبرتُ آن ماري بالأمر سألتني: هل هناك نوباتٌ ليلية في ذلك العمل الجديد؟ ولم أكن أعرف، ولما سألتُ قالوا أن لا. وكان ذلك عاملاً قوياً حملني على بدء التفكير الجدي في التقديم لتلك الوظيفة. وأخذتُ أفكرُ بطريقةٍ مختلفة، وأرى أن الترجمة والمراجعة تستهلكان كل طاقتي ورغبتي في الترجمة الأدبية الحرة، وأنا لو توفّر لي بعض الوقت في الأمسيات في ذلك العمل الجديد فسيكونُ عندي الوقت والجهد للكتابة والترجمة الحرة، كما كنتُ أخطّطُ لحياتي على الدوام. وهكذا، جاء اليوم الذي طلبتُ فيه مقابلة المدير، وأخبرتهُ بموافقتي على التقدّم للوظيفة المقترحة. وطلب مني التوجّه إلى المكتب التنفيذي، وإدراج اسمي ضمن المتقدمين، مضيفاً أنني أحسنتُ الاختيار؛ لأن الوحدة المقترحة عملها هادئ، والوظيفة بدرجة ف-٤ ومن المتوقع بعد ذلك رفعها إلى ف-٥. وكنتُ أنا في ذلك الوقت بدرجة ف-٣. وكان الاختبار للوظيفة مقابلةً شفوية، جرّت لي في أواخر فبراير ٨١ وكانت مع رئيسة قسم التحرير وهي أمريكية، ومعها الرئيس الأعلى للإدارة التي يتبعها القسم، وكان من جنوب أفريقيا. وسألاني عن مؤهلاتي وعملي، ولما علّمت رئيسة القسم بحبي للأدب تكلمنا عن جويس وهمنجواي، وقالت لي إنها صديقةٌ لزوجتي همنجواي الأخيرة ماري ولش، مما جعلها جديرةً بالإعجاب في نظري.

وفي مارس، اتصلت بي رئيسة القسم، واسمها آن هيوز، وهنأتني باختيار اللجنة لي لشغل وظيفة رئيس الوحدة العربية بالقسم، وقالت إن الإجراءات تتخذ لنقلي إلى القسم بدءاً من أبريل. وكان القسم في مبنى مجاور منفصل عن المبنى الرئيسي للأمم المتحدة. ومكثت فترة في مكنتي القديم إلى أن تم إخلاء ثلاث غرف في قسم التحرير كان يشغلها فرع جهاز الأمم المتحدة للبيئة، الذي يرأسه الدكتور مصطفى طلبة. وكانت مهمتي الأولى هي اختيار الموظّفين للوحدة عن طريق الامتحانات، وكان المفروض أن تتكوّن الوحدة من رئيس، وثلاثة محرّرين ومساعد تحرير واحد وسكرتير واحد. وبدأنا باختيار السكرتير عن طريق المقابلة الشفوية. وقُمتُ مع رئيسة القسم باستقبال المتقدمين الذين كانوا من العاملين في قسم الطباعة على الآلة الكاتبة، ووقع الاختيار على خميس نظراً لنشاطه وتقبّله للعمل تحت الظروف الضاغطة، وأصبحت الوحدة مكوّنة من اثنين الآن. وكنا ننتظر الناجحين في الامتحان التحريري لمساعد التحرير حتى نختار واحداً منهم. ومكثت فترة طويلة مع خميس للتحضير لإنشاء الوحدة الجديدة. ووضعت امتحاناً تحريريّاً للمحرّرين على المستوى الدولي، وحضرت اجتماعات فحص أوراق المتقدمين واختيار من استوفى الشروط للتقدّم إلى الامتحان. وكان كل ذلك تجارب جديدة ومفيدة لي، وتلقّيت دعماً كاملاً من رئيسة القسم آن هيوز.

وكنا في تلك الفترة قد انتقلنا إلى شقة جديدة واسعة في «فلاشنج»، الواقعة في أطراف مقاطعة «كوينز». وهكذا خرجنا لأول مرة من مانهاتن إلى الضواحي. وقد اضطررنا إلى ذلك حتى نسكن في شقة كبيرة بإيجار مناسب، برغم أنه أصبح علينا استخدام المواصلات للذهاب إلى العمل. وقد سمح لي هدوء العمل أن أطلب إجازة في الفترة التي ذكر لنا الطبيب احتمال الولادة فيها. وفي يوم أحد ذهبتُ مع آن للتبضع من السوبرماركت القريب من الشقة الجديدة، وبعدها أحسّت بمقدمات الوضع. وفي الحال طلبت تاكسيّاً إلى المستشفى الذي يتعامل معه الدكتور دون سلون، وهو مستشفى «لينوكس هيل»، بالشارع ٧٣ بمانهاتن، واتصل به المستشفى؛ فقد كان يوم إجازة. وباشر الطبيب المقيم — وكان من أصلٍ عراقي — الإجراءات المبدئية. وحين وصل الدكتور سلون ونقل أن إلى غرفة الوضع، طلب مني حضور الولادة، وارتديتُ السترة المعقّمة، ودخلتُ معه إلى الغرفة؛ حيث حان خروج المولود. وأمسكتُ بيد آن ماري وهي تعاني آلام المخاض، واضطربتُ إلى تنحية بصري وأنا أدعو في سرّي بآيات القرآن، ونظرتُ حين صاح الطبيب: ماهر، انظر، إنه ولد. ونظرتُ فإذا هو ممسك بالطفل في وضعٍ مقلوب وهو مغطّى بالدماء ويصيح باكياً،

فناوله الطبيب إلى الممرضة كي تقوم بالإجراءات في تلك الحالة، بينما أنا والطبيب نُطمئن أن ماري بأن الولادة والطفل على خير ما يُرام. وبعد دقائق عادت الممرضة تحمل المولود وقد لَفَّته في قماطٍ وأعطته لي، ووجدته يبداً في فتح عينيه، وسعدتُ جداً أن كنتُ أنا أول ما وقع عليه بصره. وعجبتُ أن كان برأسه شعرٌ خفيف وأصابه بها أظافر. ولما كنا قد أخبرنا الطبيب بأننا نرغب في إجراء عملية الختان إذا كان المولود ذكراً، فقد قام الدكتور سلون بذلك بعد الولادة مباشرة، طبقاً لما هو متَّبِع بين أطباء أمريكا، برغم إشفاقي على المولود من ذلك في تلك السن الغضة. ولما كنتُ قد اتفقتُ مع آن على اختيار اسم شريف للذكر وشيرين للأنثى، فقد تم تسجيل المولود باسم شريف ماهر البطوطي في شهادة ميلاده، وحرّصتُ على كتابة الاسم الأول هكذا Sharif وليس Sherif كالمعهود في مصر. وبعد ثلاثة أيام عُدنا بشريف إلى المنزل، وكنا قد اشترينا من قبلُ كل اللوازم المطلوبة للوليد، بما فيها السرير الصغير ذو الحواجز، وعربة المولود، ولوازم النظافة والاستحمام والرضاعة. ووجدنا طبيب أطفالٍ على مقربةٍ منا يتبع التأمين ويتحدّث الإسبانية، فتسجّلنا عنده، وأصبحتُ آن ماري تحمل شريف إليه كل أسبوعٍ تقريباً لمتابعة نموه وأخذ التطعيمات اللازمة.

وبمولد شريف، وبدئي العمل في قسم التحرير، فتحتُ صفحةً جديدةً في حياتي.

أب ومحرر

ومع مولد شريف في ٧ يوليو ١٩٨١م، وإجراءات الامتحانات لشغل وظائف الوحدة الجديدة للتحرير العربي، تمكّنتُ برغم ذلك من كتابة مقدمة مناسبة لمسرحية لوركا «الآنسة روزيتا العانس»، وأرسلتها للسلسلة التي تصدر في الكويت. وأتاح لي فراغي النسبي في المساء مداعبة شريف والقراءة والكتابة على نحو مستمر. وبمناسبة مولد شريف، اشتريتُ كاميرا فيديو سوني ومسجّل فيديو «بيتا» لسوني أيضًا، مفضّلًا البيتّا على «في إتش إس» المنافس له. والتقطتُ الكثير من الصور لشريف في أثناء أطوار نُموه المختلفة. وكانت آن قد حصلتُ على إجازة سنة من المدرسة، فكان ذلك مناسبة لعنايتها بالطفل، وتركنا ما بعد تلك السنة للظروف.

وتوثّقتُ علاقتي بخميس نظرًا لكوننا نعمل معًا وحدنا، وكان يُسهّل لي الكثير من الإجراءات. وإن أنس لا أنسى يوم ٦ أكتوبر من ذلك العام، حين عرفنا في المكتب أن إطلاق رصاص وقع في أثناء العرض العسكري الذي شهده الرئيس أنور السادات، ولكنه لم يُصب بسوء. وتتابعَت الأنباء؛ إذ كان هناك فرق في التوقيت بين القاهرة ونيويورك يبلغ سبع ساعات؛ فحين تكون الساعة الثامنة مساء في القاهرة، تكون الواحدة بعد الظهر في نيويورك من اليوم ذاته. ومع التعقيم في الأنباء، انتابنا القلق، وذهب خميس وأحضر تليفزيونًا صغيرًا أخذنا نتابع منه ما يحدث. وحين أعلن المذيع أن سفارة مصر في واشنطن قد أنزلت العلم المصري إلى منتصف السارية؛ علامة الجِداد، عرفتُ أن حدثًا جلاّ قد وقع. وبعد تعليقاتٍ وأنباءٍ متضاربة، وبعد الإعلان الرسمي من القاهرة، أُعلن عن وفاة الرئيس أنور السادات، بعد إطلاق الرصاص الذي جرى في العرض العسكري للاحتفال بعيد النصر. وعند الإعلان عن هذا النبأ الأليم، انفجر خميس في بكاءٍ حار، بينما عقَدَ الحزن لساني واعتَصَرَ الألم قلبي على بلدي وما يحدث فيها.

وطبعًا تتابعت الأحداث على النحو الذي يعرفه الجميع، وتابعتها في الصحف المصرية التي كانت تصل إلينا. وقرأتُ عن الصدمات مع رجال الشرطة، وشعرتُ بالقلق على أخي الأكبر، ثم حدث ما غمرني بالقلق والسرور في الوقت نفسه؛ إذ طلبوا مني الذهاب إلى جنيف والقاهرة لإجراء الاختبار الشفوي للناجين في امتحان المحررين العرب. وكان الوقت ضيقًا، ولكن الإدارة أنجزت الأوراق المطلوبة للسفر، وحجزتُ إلى جنيف فالقاهرة، ثم القاهرة إلى مدريد فنيويورك. وقد وجدتُها فرصةً للتعرف مباشرةً على الأحوال في مصر، والاطمئنان على أسرتي القاهرية.

ووجدتُ جنيف غير ما وجدتُها عام ٧٢، ربما بسبب الجو الشتائي، فقضيتُ وقتًا في الفندق المريح أقرأ وأشاهد التلفزيون. وفي اليوم المحدد توجهتُ إلى قصر الأمم، ووجدتُ صعوبةً في العثور على قسم التحرير هناك. واشتركتُ في الاختبارات الشفوية، وكان معنا الأستاذ نزيه الحكيم، وكنتُ أودُّ محادثته ونقل إعجابي بكتاباته وترجماته، ولكنه بدا صموتًا قصيرًا فلم أتمكّن من ذلك. واشتريتُ عددًا من الهدايا السويسرية — كساعات الكوكو والشوكولاتة — للأهل في القاهرة. وهناك استقبلني أخوأي وسهّل لي إجراءات الخروج، وكانت أول مرة منذ زواجي أزور القاهرة وحدي. وقد وجدتُ كل شيء هادئًا، وعرفتُ أن البعيد عن مسرح الأحداث غالبًا ما يتصور مبالغًا لا تكون حقيقية في الواقع. وقد استفدتُ من الزيارة التي دامت ما يقرب من أسبوع التعرّف على مشاعر الناس، وقالت لي والدتي إنها بكت كثيرًا لمصرع السادات، ووجدتُ الجميع ينتظرون المستقبل القريب بآمال ووعود. وبالطبع، زُرْتُ معظم المكاتب وابتعتُ الكثير من كتب اللغة والنحو، بالإضافة إلى مجموعة كاملة أخرى مما صدر حتى وقته من ترجمة «قصة الحضارة» لويل ديورانت.

وبالطبع، أُجريتُ الاختبار الشفوي في مقر الأمم المتحدة بالقاهرة بالاشتراك مع الممثل المقيم، وكان مصريًا أردني الجنسية، واستقبلوني بحفاوة شديدة. وبعد انتهاء الاختبارات، أشرفتُ على إعداد الأوراق وإرسالها إلى نيويورك. وقد دعاني ممثل المنظمة إلى الغداء في وسط البلد، ورأيتُ عربته التي يُرفرف عليها علم الأمم المتحدة. وكان شخصًا كريمًا رأيته يعطي النقود لكل من يصادفه من طالبي الإحسان.

وفي طريق العودة إلى نيويورك، توقفتُ لعدة أيام في مدريد؛ حيث زُرْتُ مجددًا أماكن ذكرياتي فيها، وتعرّفتُ على التغيرات التي تطرأ على تلك العاصمة الفريدة مع مرور السنوات، وتصبغها بالصبغة الأمريكية الحديثة. وبالطبع زُرْتُ المعهد المصري الذي عملتُ

فيه زُهاء خمس سنوات، ورَحَّب بي مديره صلاح فضل، الذي عاصرتُه دارسًا للدكتوراه من قبلُ. ووجدت بالمعهد أيضًا شريف عمر، وظافر عبد الرؤوف. وأقام مدير المعهد حفل عشاءٍ دعاني إليه، وتعرَّفتُ مجددًا إلى زوجته الفاضلة وابنته التي شَبَّت الآن عن الطوق، وكان بالحفل سفيرنا في مدريد وبعض أعضاء السفارة. وقد كان الجميع متلهِّفين على سماع أخبار مصر مني بوصفي قادمًا لتوِّي من هناك، فأجبتُهم أن الجميع في حالة ترقُّب وأمل.

ومع العودة إلى نيويورك، بدأتُ حقبةً جديدة في حياتي، توزَّعت بين أسرتي، وعملي، وكتاباتي وقراءاتي، ثم الرحلات التي قمنا بها في مصر وفرنسا، وهو ما سأحاول نقله في الفصول التالية.

العمل يسير

وعملتُ خلال الشهور والأعوام التالية على إكمال تشكيل الوحدة العربية في قسم التحرير، وبدأتُ عملها بثلاثة محرّرين وأنا، مع مساعد تحرير وسكرتير. وسار العمل سلساً، وكانت رئيسة القسم أمريكيةً فنانة وإن كانت عصبيةً بعض الشيء. وبعد عامٍ تلقّيتُ الترقية الموعودة إلى ف-٤، وكانت سيّدةً فرنسية قد خلفتُ الأمريكية في رئاسة القسم، وبدأتُ علاقتي بها بدايةً طيبة، وذكرتُ لها أن زوجتي من مقاطعة نورماندي مثلها. وكان القسم يتشكل من رئيسة بدرجة ف-٥، ورؤساء اللغات — رئيس لكل لغة من اللغات الرسمية الست — بدرجة ف-٤، ورؤساء الأفرقة — حسب موضوعات العمل كفريق القرارات وفريق مجلس الأمن وهكذا — بدرجة ف-٤. وهناك العديد من مساعدي التحرير والسكرتيرين.

وكان عملنا في التحرير يتلخّص في مراجعة وتوثيق قرارات الجمعية العامة ومجلس الأمن أساساً، بالإضافة إلى عددٍ آخر من الوثائق. وكنا نتبع في ذلك وثيقة أمّا، محرّرةً بواسطة رئيس الفريق. وعادةً ما يكون رئيس الفريق محرّر اللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الإسبانية؛ فقد كانت رئاسة الفرق مقتصرة على هذه اللغات التي يمكن للمحرّرين متابعتها. وسرعان ما وجدتُ هناك تفرقةً في المعاملة الوظيفية بين اللغات الثلاث — الإنجليزية والفرنسية والإسبانية — وبين اللغات الأخرى؛ الروسية، والعربية، ثم الصينية حين دخلتُ القسم بعد ذلك. كانت اللغات «المحظوظة» تحظى بدرجتين أو أكثر من الفئة الرابعة، بينما اللغات الأخرى ليس لها إلا درجة واحدة مخصّصة لرئيس الوحدة. ولم تكن هناك مشكلة في البداية؛ لأنّ المحرّرين العرب معي لم يكن لهم أقدمية كافية للترقية إلى الدرجة الرابعة، ولكن بعد ذلك بدأتُ ألمح إلى عدم التساوي بين اللغات، وكان الرد الجاهز هو أن تلك الدرجة مرتبطة بتحضير الوثيقة الأم، وهذا التحضير لا يتم إلا

في اللغات الثلاث الأولى. وكان ذلك صحيحًا، ولكن يترتب عليه ظلم واضح. وحاولت مع زميلي الروسي التفكير في حلول جديدة تضمن حقوق المحررين.

معركة اللغة العربية

وبدأت المشاكل المباشرة حين رفضت رئيسة القسم ذهابي إلى القاهرة لإجراء الاختبار الشفوي للناجحين في التحرير لوظيفة المحرر العربي في الامتحان التالي الذي أعدته، ولم أعلم بذلك إلا في آخر لحظة. وأرسلت خطاب احتجاج على ذلك لإدارة الامتحانات وإلى رئيسة القسم. وبعد ذلك، اعترض خميس سكرتير الوحدة العربية على تقرير الأداء الذي وضعت له رئيسة القسم دون استشارتي، وقدم طلبًا لإعادة النظر فيه، وساعدته بشهادتي، فكسب فيه، ورفعوا تقدير بعض البنود فيه. وهكذا ساءت العلاقة بيني وبين الرئيسة الفرنسية. وحين ذكرت لها في إحدى المناقشات بيننا أنني لُغوي، قالت: وأنا أيضًا، فقلت: ولكنك لا تعرفين اللغة العربية. وبعد شهر، التحقت المديرية بفصول تعليم العربية بالأمم المتحدة! وبعد أن صفا الجو بيننا بعد زمن، كنتُ أساعدها في دروسها العربية.

وأضينا سنوات بين جذبٍ ومدٍ إلى أن تفجّر الموقف ثانيةً حين أرادت المديرية معاقبة محررٍ لبناني في فريقتي دون وجه حق — فقد كان عمله ممتازًا — وأرادت أن أساعدها في ذلك بوصفي رئيس الوحدة العربية. وكان ذلك المحرر نابهاً في عمله وإن كان يتحدث كثيرًا ويفخر بنفسه مما أثار حتى زملاءه العرب. وحاولت ملاينة المديرية إلى أن يذهب غضبها، ورفضت أن أكتب أي شيء ضد نوعية عمل المحرر اللبناني مخالفًا للحقيقة، فكان أن أثارت المديرية بعض المحررين والمساعدين العرب ضدي. وتبادلنا مذكراتٍ قاسية، ومثلنا أمام الرؤساء، بلا حل. وأصبح القسم حلبةً بيني ومعي عددٌ ضئيل من النفوس العادلة، وبين كثيرين من أفراد القسم الذين انحازوا إلى المديرية طمعًا في المزايا. وكان أن أغلقتُ بابي عليّ أعمل في هدوء، وتجاهلتُ المظاهر العدوانية التي نلاقيها من الجبهة المضادة التي ازدادت هياجًا بعد أن اختير المحرر اللبناني رئيسًا لديوان المظالم لموظفي الأمم المتحدة!

ورغم ضيقي بالوضع العدواني بالقسم، عاملت الجميع على نحوٍ طبيعي، واستغللتُ الوقت الحر في القراءة التي أفادتني كثيرًا. وبدلاً من أن تستمر المديرية الفرنسية في مطالبتها الحقّة بتحويل القسم إلى إدارة، انهمكت في النزاعات الصغيرة، يشجعها في ذلك

حلقة من المستفيدين، مما أضر بالعمل وبسمعة القسم كله وسمعتها الوظيفية، فلم تنجح في الحصول على درجة أعلى كما كانت تأمل، وجاء تاريخ خروجها إلى التقاعد، فغادرت القسم في حالة مزرية يؤسف لها. وحين جرى تعيين مدير مؤقت للقسم أحدث مني، أقمت دعوى على الأمم المتحدة أمام المحكمة الإدارية الخاصة بموظفي الأمم المتحدة. ولم يكن دافعي لذلك أي غرض لأن أصبح مديرًا، ولا كنت أعتقد أن المحكمة ستكون في صفي — فهي تنفي على الدوام وجود أي تمييز في الأمم المتحدة — ولكنني رغبت أن تتضمن أرشيفات المحكمة المذكرات والالتماسات التي قدّمتها المدير السابقة ضدنا، والتي لم تلقَ إلا الإهمال. ولقد حفظني الله من كيد هؤلاء الشائئين فلم تُصبني مؤامراتهم بشيء رغم وجود كبار الموظّفين معهم، من وكيل الأمين العام، إلى رئيس الشعبة، إلى ممثلة القسم في اتحاد الموظفين — التي كانت تدافع عن مزاعم مديرة القسم بدلاً من حقوق الموظّفين. وقد نجحت شكواي في اضطرارهم إلى تعيين مديرة أقدم مني، فاعتبرت هذا مقبولاً.

ومضت المدير الجديدة على نهج سابقتها في إهمال اللغات الثلاث، ولكنها كانت ودودةً معي. وكانت الضجة التي قمتُ بها قد أفلحت في تخصيص درجة رابعة أخرى للمحررة العربية الأقدم — فكانت هي الوحيدة التي استفادت من تلك الأزمة — رغم أنها لم تساعد في مطالبتنا بحقوقنا. وركّزتُ على عملي كمحرر، وتبقّى لي من فائض الوقت الكثير للقراءة والكتابة. وكنت أتوجه بصفة شبه يومية إلى المكتبات، وأعود محملاً بما أشتريه منها. كما كنت أتوجه لتأجير أشرطة أفلام الفيديو التي كنت أراها كثيرًا. وهكذا عشتُ حياةً فنيةً خالصة، وتركّتُ النضال الوظيفي لفترة.

ثم حدث أن تقدّمت المدير الجديدة — وهي أمريكية — بطلب للإحالة إلى المعاش المبكر، مما أدخل وظيفتها في رئاسة القسم، فتقدّمتنا لشغل الوظيفة. وكانوا قد وضعوا محررةً أمريكية قائماً بالأعمال، مما يعطيها ميزةً على المتقدمين، وكانت هي الفتاة التي تمثّل القسم في رابطة الموظفين! وحدث أن عرضوا عليها بعد قليل وظيفةً بالدرجة الخامسة في مكتب الأمين العام للمنظمة، قدّمت إليها هي وإحدى المحررات في إدارة مستر ترومان، مدير الإدارة. وقرّرت فتاة القسم قبول وظيفة مكتب الأمين العام، فقرّر مستر ترومان تعييني قائماً بأعمال رئيس القسم إلى حين عودة السيدة الإنجليزية من إجازة طويلة. ودعت فتاة القسم إلى اجتماع عامّ مهم أعلنت فيه رحيلها وأنني سأدير القسم. وكانت مفاجأةً كبرى للجميع، وجاءني بعض الذين حاربوني بالأمس يهنئونني، فقبلتُ تهنئتهم صادقاً، وعملتُ على إصلاح ذات البين بيني وبين الجميع بلا تفرقة.

وهكذا تَمَّت كلمة الله العليا، وتحقق قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، وهي سنة الله في خلقه ولكن لا يُلْقَاهَا إِلَّا الصابرون. وقمتُ بإدارة القسم لمدة شهرين، ساعدتُ فيهما قَدْر استطاعتي كل من له حاجة إدارية، وشعرتُ بتعاطف الزملاء معي، حتى مَن كانوا ضدي في السابق. ولم أفكر قط في محاولة الاستيلاء على المنصب لنفسي، وحين وصلتُ المحررة الإنجليزية رحبتُ بها، وقمتُ بتقديمها إلى أعضاء القسم بوصفها مديرتنا الجديدة. وعملتُ بعد ذلك بالقرب منها، فكانت لا تثق إلا بي؛ ورغم أنني طلبتُ منها أن يكون القائم بعمل المديرية في غيابها بالتناوب بين كل قدامى المحررين، فإنها رفضتُ وقالت إنها ستعهد لي بذلك وحدي لثقتها التامة بي. وكنتُ أعرف أنها من سني تقريباً؛ ولهذا فسنخرج على التقاعد معاً وأن لا فرصة لي في خلافتها للحصول على الترقية إلى الدرجة الخامسة، وعرفتُ أنها تخطط كي تخلّفها رئيسة الوحدة الإنجليزية، وهي من جزر البهاما، وقديرة في عملها وشخصيتها. وهكذا أمضيتُ سنوات العمل، منذ ١٩٩٦م، وحتى تقاعدي في ٢٠٠٠م، في هدوء وانسجام مع الجميع. وكانت هذه هي الفترة التي تميّزت بالهدوء في العمل؛ ولذلك قرأتُ الكثير وكتبتُ الكثير بعد ساعات العمل بالمنزل. وقد مددوا لي بعد سن الستين مدة ستة أشهر، أددتُ منها؛ لأنها غطتُ منحة التعليم إلى آخر السنة الدراسية لشريف، الذي كان يدرّس علم النفس في جامعة سيراكيوز. وقد اعتذرتُ عن عدم إقامة الاحتفال الوداعي عند التقاعد جرياً على عاداتي في تجنّب تلك الاحتفالات عند انتقالي من عملٍ لآخر، وكتبتُ رسالة على الإيميل لكل الزميلات والزملاء كان هذا نص ترجمتها العربية:

«أصدقائي الأعزاء ...»

بمناسبة تقاعدي من العمل هذا الأسبوع، أودُّ أن أعرب لكل فردٍ من زملائي عن عميق شكري وامتناني للعلاقة الدفينة والودية التي قامت بيننا. إني أشعرُ بأنني محظوظ أن عرفتُكم وعملتُ معكم.

وبرغم أنني سأكون بعيداً بجسدي عن قسم تحرير الوثائق الرسمية، فستكونون دائماً في خاطري. ولا عجب؛ فهذا القسم هو المكان الذي عملتُ به أطول فترة من حياتي الوظيفية، التي بدأت عام ١٩٦١م في القاهرة. وقد التحقتُ بالأمم المتحدة عام ١٩٧٨م، وانتقلتُ إلى القسم عام ١٩٨١م مُزوّجاً البقاء فيه سنةً أو سنتين، فبقيتُ فيه عشرين عاماً!

لقد كانت الحياة كريمة معي؛ ذلك أنني عملتُ دومًا في الميادين التي أحبها؛ اللغات، الكتابة، الفن. وأنا إذ أتطلع إلى الماضي، أجدني ممتنًا أن حققتُ قسمًا كبيرًا من أحلامي وأهدائي المبكرة.

إني أدعو لكل فردٍ منكم بأفضل الأمنيات؛ الصحة، العلاقات الأسرية القوية، العمل المثمر، وأن تتحقق معظم أحلامكم.

أشكركم مرةً أخرى على الكلمات الرقيقة الكريمة التي سطرتموها لي في نسخة كتاب «أوراق العُشب». لقد تحوَّلت تلك النسخة بذلك إلى أئمن الكتب في مكتبتني.

إنكم تعرفونني منذ مدةٍ طويلة؛ لذلك فإنني على ثقة أنكم ستتفهمون رغبتني الصادقة بأن أغادر العمل دون أي نوعٍ من الحفلات. إن هذا تقليدٌ مقدسٌ اتبعته طوال حياتي. وإني أترك رقم هاتفي وعنوان بريدي الإلكتروني حتى يكون بوسعنا أن نبقى على اتصال. بهذا، أصدقائي الأعزاء، أستأذنكم في الرحيل..»

وقد تلقَّيتُ — كالعادة — خطاب شكرٍ من الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك، وكان كوفي عنان.

وقد أمضيتُ في قسم التحرير ما يربو على عشرين عامًا، من مارس ١٩٨١م إلى يونيو ٢٠٠١م. ولم تؤثر معركتي تلك في استمتاعي بالعمل على تأسيس فكرة تحرير الوثائق العربية، وهو أمرٌ غير موجود في دور النشر العربية؛ ذلك أننا نتلقى الوثائق بعد ترجمتها في دائرة الترجمة العربية — حيث عملتُ سنواتٍ ثلاثًا — فنطالعها بدقة، ونضيف إليها الحواشي المناسبة، ونصحح أي أخطاءٍ مطبعية أو هفواتٍ مضمونية جاءت من العمل تحت ضغط الوقت والسرعة. والواقع أن فريق العمل في دائرة الترجمة العربية يضم متخصصين بارعين في اللغة العربية واللغات الأخرى، التحقوا بالدائرة بعد امتحاناتٍ عسيرة صعبة من بين آلافٍ من المتقدمين. وهم يقومون بعملٍ رائعٍ في مجال الترجمة إلى العربية، ويقدمون المصطلحات المناسبة لكل موضوعٍ مهما بلغ تعقيده؛ فهم يترجمون وثائق متعمقة في الاقتصاد والعلوم وشئون البيئة والقانون وعلوم البحار والمواد العسكرية، بمهارة وانتظام شهد بها العاملون الآخرون بالمنظمة، فليس من المبالغة القول إنهم يشكلون ما يشبه المجمع اللغوي العربي الموحد؛ حيث إن أفراداه جاءوا من الأقطار العربية المختلفة، وهم يعتمدون لغةً واصطلاحاتٍ مناسبةً لتلك الأقطار كلها. ويا ليت الجامع العربية الموجودة

تقيم صلةً لها بدائرة الترجمة العربية هذه؛ فلا شك أن التعاون معها سيكون له فوائد كثيرة لكل الأطراف.

وهكذا يبدأ عمل المحرّر العربي بعد انتهاء عمل المترجم؛ فنحن نتناول الوثيقة ونُدخل عليها التوضيحات والحواشي التي يُدخلها رئيس الفريق الذي يستخدم لغته الأم؛ إنجليزية أو فرنسية أو إسبانية؛ ولذلك كلما كان المحرّر العربي عارفاً بكل تلك اللغات كان ذلك أفضل. وذلك كان السبب وراء عدم إمكان إجراء تلك التعديلات باللغات العربية أو الروسية أو الصينية؛ حيث لا أحد من المحرّرين من اللغات الأخرى يجيد تلك اللغات. ولما كان ذلك ليس من أخطائنا، فقد طالبنا توفير درجة ف-٤ إضافية لكل لغةٍ من تلك اللغات، كما سبق بيانه. وقد نجحت مطالبتي وأثمرت في تخصيص درجةٍ أخرى للغة العربية، شغلّتها أقدم الزميلات في الوحدة العربية، بيد أن الدرجة ما لبثت أن ألغيت بعد تقاعد الزميلة!

وقد عاصرتُ مدة عملي في الأمم المتحدة أربعةً أمناءً عامين هم كورت فالدهايم، وبيريز دي كويار، وبطرس غالي، وكوفي عنان. وفي وسط معركتي من أجل اللغة العربية في قسم التحرير جرى انتخاب الدكتور بطرس غالي أميناً عاماً، مما بعث بقشعريرة في نفوس الكبار الذين لم يساندوني. وقد كتبتُ للدكتور غالي بالمشكلة، فأمر ببحث الموضوع الذي تاه بعد ذلك وسط البيروقراطية والروتين. ورغم ذلك، لم يمنع الأمر أن أشعر مع وجود أمينٍ عامٍّ مصري بالسعادة، وأصبحتُ أشعر كلما ذهبتُ إلى مبنى المقر أنني أدخل «إلى بيت أبي». وأفادني العمل في وسطٍ يجمع أفراداً من اللغات الست في التعرف على الثقافات والطباع المختلفة والوجود في مجتمعٍ دوليٍّ متعدّد اللغات بالفعل.

قراءات وكتب

إنني إذ أكتب هذه السطور الآن، أتأمل فيما حولي من الكتب التي جمعتها على مدى ذلك العمر، والتي ضاق بها المنزل الذي نقيم فيه الآن. وقد نظم تراكم الكتب تنقلاتي في أثناء حياتي في نيويورك؛ من استوديو صغير، إلى شقة من غرفة نوم واحدة، إلى شقة من ثلاث غرف نوم، إلى هذا البيت الخاص المكوّن من ثلاثة طوابق. وقد ازدحم البيت بالكتب، ولكننا لا نستطيع الانتقال إلى أي منزلٍ آخر، بسبب النفقات وبسبب ما سيستلزمه نقل كل هذه الكتب إلى مكانٍ آخر. وهكذا أصبح البيت على اتساعه أشبه بغرفتي في شقة محمد شكري بالقاهرة حين ازدحمت بالكتب. وأتطّلع الآن إلى مجموعات العمر؛ نُسخٌ متعدّدة من القرآن الكريم، وترجماته، وتفسيره، وكتب الأحاديث النبوية، والكتب الإسلامية الأخرى؛ ونسخ الكتاب المقدّس وترجماته، ومجموعة نادرة عن تاريخ اليهودية والمسيحية والأديان المقارنة.

وأمرٌ بعيني على مجموعات أعمال الأدباء والفنانين الذين وقفتُ حياتي على دراستهم والاستمتاع بإبداعاتهم، وأشعر حين أجدني محاطاً بأعمالهم أنني أجلس في صحبتهم، وأتأوّر معهم على الدوام. وفي الأرفف، في مكان الكتب بالإنجليزية، هناك ركن جيمس جويس، ويضم كل كتبه، وكل ما استطعتُ جمعه من المؤلفات التي كُتبت عنه، ومنها كتبٌ نادرة، بالإضافة إلى كثير من المتعلقات الأخرى عنه، من أسطواناتٍ مدمجة بها صوته يتلو من عوليس وفينجانز ويك، وصورته على العملة الأيرلندية في عهد ما قبل اليورو، وما إلى ذلك. ومن أجمل ما حصلتُ عليه، صورةٌ رائعة لمارلين مونرو وفي يدها رواية عوليس تقرأ فيها. وقد ترجمتُ لجويس صورةَ الفنان في شبابه، وقصةً للأطفال، وأشعاره، ونشرتُ مقالاتٍ نقدية عنه. وأمامي ترجماتُ عوليس بالعربية والفرنسية والإسبانية، وأنتظر

صدور ترجمة فينجانز ويك التي انتهت منها الدكتور طه قُبيل وفاته، ولا أدري لماذا لم تصدر حتى الآن.

ويتبع جويس على الأرفف — وفي قلبي — إرنست همنجواي؛ موضوع أول كتاب نشرته من ترجمتي، وكتاب لقصصه في روايات الهلال، والكثير من المقالات عنه، واشتركت في الندوة التي عقدها المجلس الأعلى للثقافة عن همنجواي ببحث عن «همنجواي والسينما» قرأه نيابةً عني صديقي علي كمال. وبالمثل، جمعت كل كتبه والأفلام التي أخذت من رواياته، والتي أثرت في تكويني السينمائي منذ رأيته في القاهرة. ومن الأشياء الهمنجوية التي أعزُّ بها، عددٌ من مجلة «لايف» الأمريكية مخصَّص لروايته «العجوز والبحر» كاملة، فيما يُعد أول نشر لها.

ومن المؤلفين الذين يكتبون بالإنجليزية ممن اقتنيت كل كتاب عنهم والت ويتمان، عن أشعاره وحياته وكل ما يُمكن قراءته لفهم شعره في ديوان أوراق العُشب، حتى إنني اشتريتُ ترجمة الديوان إلى الفرنسية والإسبانية.

ومن المجموعات الأخرى كتب فرانز كافكا، الذي عرفته مبكرًا في القاهرة، وقرأت له كل رواياته مترجمةً إلى الإنجليزية. وقد تأثرتُ بيوميته من ناحية كتابته لأحلامه، وكانت أول مرة أرى كاتبًا يفعل ذلك، مما حداني إلى اقتفاء أثره منذ بداية الستينيات. وقد أدركتُ بعد ذلك مدى الأثر الذي تركه كافكا في كثير من قصاصي العالم، حتى إن ماركيز ذكر أنه قرَّر أن يصبح روائيًّا بعد أن قرأ رواية «المسخ» لكافكا. كذلك تركت في نفسي الحياة التي عاشها كافكا أثرًا بالغًا، عن مرضه وضعف صحته، والوظائف المكتبية التي تولَّاه، وغرامياته وخطاباته إلى ميلينا وإلى أصدقائه، ثم وفاته في سنٍّ مبكرة. وكنتُ في ذلك الوقت أشعر أنني لن أعيش طويلًا، مثلي في ذلك مثل الفنانين الرومانسيين!

وإضافةً إلى هؤلاء، هناك بالطبع أعمال شكسبير، وتي. إس. إليوت، والشعراء الرومانسيين الإنجليز، وروايات وأشعار دي إتش لورانس، وروايات جورج إليوت وتوماس هاردي وسكوت فيتزجيرالد وفوكنر وشتاينبك، وكل من ظهر بعدهم في مجالي الشعر والرواية. وقد جمعتُ أيضًا أشهر الأعمال المترجمة إلى الإنجليزية من اللغات الأخرى التي لا أعرفها، كالألمانية والروسية والإيطالية وغيرها، مثل أعمال تولستوي ودستوفسكي وتوماس مان وجيته وجونتر جراس ودانتي وريلكه وهابنر وتشيكوف وبوشكين وميشيما وكواباتا، وغيرهم كثيرون.

ومن الموضوعات الأثيرة عندي والتي جمعتُ منها الكثير: السيرة الذاتية واليوميات والمذكرات والرسائل الخاصة، وكتبُ السيرة التي يكتبها متخصصون عن الأعلام، في اللغات الأربع التي أقرأ بها؛ فمن الأيام لطفه حسين، حتى قصة حياتي لعبد الرحمن بدوي، اقتنيتُ معظم من كتبوا سيرتهم الذاتية؛ لطفي السيد، أحمد أمين، محمد لطفي جمعة، زكي مبارك، عبد الله عنان، عبد الحميد متولي، يحيى الجمل، لويس عوض، محمد عناني، سهيل إدريس، محمد شكري. ويبرزُ هنا كتابا زكي نجيب محمود؛ قصة نفس وقصة عقل؛ فهما سيرة ذاتية من نوع خاص في قالب فلسفي قصصي نادر الوجود. ويكاد لا يُوجد كتب عن حياة كتابنا وفنانينا؛ ذلك أننا لم نعتدْ بعدُ على كشف أسرار الحيوانات الخاصة للشخصيات العامة. وحتى ما يصدرُ عن حياة السياسيين المعروفين، لا يتجاوز نشاطهم السياسي إلى حياتهم الشخصية. هذا برغم أن العرب هم من أوائل من كتبوا ترجمات الحياة منذ كتابة سيرة الرسول ﷺ، إلى كتب السير الأخرى مثل وفيات الأعيان وطبقات الأطباء وغيرهما، وغير ذلك. وهذه الندرة الحديثة في كتابة سير الحياة بتفاصيلها الكاملة هي عكس ما هو موجود في الدول الغربية؛ حيث أصبحت الآن كتب السيرة هي أشهر الكتب وأكثرها رواجاً؛ ففي اللغة الإنجليزية يُمكن للقارئ أن يجد كتباً تفصّل حياة أي شخصية معروفة في أي مجال، بدءاً من اليونان والرومان، فالعصور الوسطى، حتى عصرنا هذا؛ فمن أفلاطون وأرسطو وسوفوكليس إلى غرسيه ماركيز وبيل وهيلاري كلينتون، وكل ما بينهم من شخصيات فنية وسياسية. وكثيرٌ كتبوا ترجمة حياتهم بنفسهم، ومنهم: القديس أغسطين، جان جاك روسو، بنيامين فرانكلين، تولستوي، وآلاف غيرهم. والترجمة الذاتية معروفة عند العرب من قديم الزمان؛ فقد كتب عن نفسه حنين بن إسحاق ومحمد بن زكريا الرازي وابن الهيثم وابن سينا وابن حزم. واشتهرت الترجمة الذاتية «المنقذ من الضلال» للغزالي، وكذلك كتاب أسامة بن منقذ «الاعتبار». ومن المحدثين هناك الترجمات الذاتية لطفه حسين وتوفيق الحكيم ولويس عوض وعبد الرحمن بدوي وشوقي ضيف ومحمد عناني، من بين كثيرين.

ولا يمنع كتابة أحد الأشخاص عن حياته من صدور ترجمة لحياته بأقلام باحثين آخرين. وقد وجدتُ متعةً عظيمة في المقارنة بين حياة كتبها صاحبها وبين نفس الحياة كما كتبها باحثٌ محايد رجع إلى الوثائق والكتب كي يصوّر الشخصية التي يكتب عنها، وكثيراً ما تختلف النسختان اختلافاً كبيراً! وقد قارنتُ السيرة الذاتية لنيرودا، وكتباً عن حياته، خاصة كتاب «آدم فينستين» الشامل عن حياة نيرودا، ووجدتُ كثيراً من الأشياء

التي لم يُشر إليها نيرودا؛ فنيرودا يتحدث عن نفسه غالباً بوصفه «الماتشو»؛ ولذلك ضحك كثيراً حين ذكر فينستين كيف تصرف نيرودا حين طلب صديقه الشاعر التركي ناظم حكمت الخروج مع ماتيلدا زوجة نيرودا كي يشتري لها هدية حين كان الجميع في موسكو؛ إذ انتفض نيرودا واقفاً وشرع يرتدي ملابسه وهو يقول إنه يكون مجنوناً لو سمح لزوجته بالخروج وحدها مع أحد الأتراك! وكل ذلك رغم الصداقة العميقة التي ربطت بين الشاعرَيْن. وقد كتب نيرودا قصيدتين من أروع قصائده عن ناظم حكمت.

أما السيرة الذاتية لماركيز فتختلف في منهاجها عن سيرة نيرودا وماركيز، ولم يصدر منها إلا الجزء الأول، فقرأت السيرة التي كتبها عنه «داسو سالديفار» التي توضّح الكثير عنه، خاصة عن عمله في كتابة سيناريوهات الأفلام للسينما الكولومبية، وإن كانت السيرة قد كُتبت عام ١٩٩٧م؛ ولهذا ما زال هناك متسع لسير أخرى عنه.

وقد درستُ أيضاً السيرة الذاتية التي كتبها الرّسام المكسيكي الأشهر «دييجو ريفيرا»، ووازنْتُ بينها وبين سيرة حياته التي كتبها عنه آخرون، فوجدتُ فروقاً مدهشة! فقد زعم ريفيرا في حكايته لحياته أنه هو وزملاؤه قد جرّبوا أكل لحوم الموتى من البشر، ووجدوا أنها صحية ومغذية! وقال إنه وهو في إسبانيا نقل عدة لوحات لجويا وإلجريكو وجدت طريقها بعد ذلك على أنها أصلية! ومن الغريب أيضاً أنني علمتُ من صديقي توفيق عبد الرحمن أن يوسف إدريس كان متزوجاً من ابنة دييجو ريفيرا التي تعرّف عليها في الاتحاد السوفييتي.

وتشكّل كُتب سير الحياة والسير الذاتية جانباً مهماً من مكتبتي؛ فعندي سيرة حياة كل الكُتّاب والفنانين الذين أهتمّ بهم، بدءاً من ألبير كامي وكولن ولسون وكافكا وسارتر وفان جوخ، ولا تنتهي عند جويس وهنري جيمس وأفراد الجيل المضروب The Beat Generation. وللأسف، فإن الكتب التي تتناول سير حياة العرب نادرة، وإن وُجدت فهي قاصرة لا تتناول كل جوانب الشخصية التي يدور حولها الكتاب، والاستثناء الوحيد من ذلك ينصب على الشخصيات العربية التي يكتُب عنها مؤلفون غربيون، مثل جبران خليل جبران ومحمد حسين هيكل.

أما كتب اللغة الإسبانية فكان أساسها بعض ما جمعتُه في أثناء مُقامي في مدريد وأحضرتُه معي إلى نيويورك، ثم ما جلبته آن ماري معها، ثم ما ابتعته خلال جولتنا للعمل في أمريكا اللاتينية، وما اخترته تدريجياً من المكتبة الإسبانية – الفرنسية التي اكتشفْتُها في أيامي الأولى في نيويورك. وعماد كتبي الإسبانية مجموعة «أوسترال» التي

تشبه مشروع الألف كتاب في مصر من حيث تنوعها وتخصيص لون معين لكل موضوع، ومجموعة «لوسادا» الأرجنتينية. ومن بين أدباء اللغة الإسبانية، قرأت معظم الكلاسيات الأساسية، مثل أعمال سرفانتس ولوبي دي فيجا وكالديرون، وخوان رويث، صاحب كتاب الحب المحمود، وجوستافو بـكر. ولكن أقربهم إلى قلبي هم لوركا وبابلو نيرودا وغرسيه ماركيز، بالإضافة إلى بـكر. وقد قرأت كل أعمال هؤلاء الأربعة، والدراسات التي كُتبت عنهم.

أما في الأرفف التي تضم الكتب الفرنسية، فهناك المجموعة الكاملة لمؤلفات ألبير كامي، وجان بول سارتر، ومارسيل بروست، وآرتير رامبو، وأندريه جيد. وقد اهتمت بجميع كتاب الأمير الصغير لسانت إكزوبيري بلغات عديدة. ولا أنسى بالطبع الكتب الأساس، ومؤلفات جوستاف فلوبير، فكتور هوجو، ستندال، أناتول فرانس، وكل الكلاسيات الأخرى التي قرأتها وأن ماري، ثم درساها شريف بعد ذلك في الليسيه فرانسيه بنيويورك.

وفي الكتب العربية، تبرز عندي مجموعة «الأستاذ»، وهو ما يعني نجيب محفوظ. وكانت كتبه من أول ما قرأت وجمعت، حتى إنني أذكر أنني اشتريت الثلاثية ما يقرب من خمس مرات؛ فقد كان الجميع يستعيرونها بلا عودة. وها هي أمامي مع ترجمتها الإنجليزية والفرنسية. وقد كتبت أول مقال نشر لي عن شخصية كمال عبد الجواد، عام ١٩٦٣م، ثم كتبت عن أولاد حارتنا ومشكلة الشر، عام ١٩٦٧م. وفي رأيي أنه مع كثرة الأعمال النقدية التي تناولت روايات الأستاذ، ما نزال نفتقر إلى أعمال تتناولها تناولاً نقدياً عميقاً، مقارنة بأعمال مماثليه، كتوماس هاردي وجورج إليوت وثاكري وغيرهم. وقد اقتنيت كل ما صدر عن نجيب محفوظ وكل ما ترجم من أعماله إلى الإنجليزية، وكذلك معظم الأشرطة التي تضم أعمالاً سينمائية مأخوذة عن قصصه ورواياته.

ومع الكتب العربية، أفردت مكاناً للكاتب الذي تأثرت به أيما تأثر؛ الدكتور لويس عوض. وقد تأثرت به منذ قرأت مقالاته، وأعجبت بأسلوبه اللغوي في الكتابة، حتى إنني كنت أميزه دون حاجة إلى معرفة من هو المؤلف. وجمعت كل كتبه حتى أوراق العمر، التي لم يمهلها العمر حتى يكتب تكملتها.

أما ثالث العمالقة العرب الذين كانوا في مقدمة قراءاتي فهو المتنبي العظيم، مع عدد من الكتب عنه وعن شعره.

ولكن ذلك لا يعني اقتصاري على هؤلاء؛ فقد اقتنيت وقرأت طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد وأحمد شوقي وزكي نجيب محمود وأحمد أمين وعبد الرحمن بدوي

وجبران خليل جبران ويحيى حقي وإدوار الخراط وبهاء طاهر ورءوف مسعد وصنع الله إبراهيم وسلوى بكر وجمال الغيطاني ويوسف القعيد وإبراهيم أصلان والورداني وإبراهيم عبد المجيد وعلاء الديب، وغيرهم كثيرين. وأعجبتني بصفة خاصة روايات سهام البيومي، كما أنني أتابع الروايات الجديدة التي تصدر عن دار شرقيات ودار ميريت ودار الهلال.

وبعد أن تقاعدت من عملي بالأمم المتحدة، طرأت عندي هواية جديدة هي اقتناء توقيعات الأدباء على كتبهم. وبالطبع، هي هواية واستثمار، ولكني لم أقتن إلا توقيعات من أحب من المؤلفين. وهكذا كان أول توقيع أشتريه هو توقيع جيمس جويس، الذي كنت أحلم باقتنائه منذ رأيت إعلانات عنه حين وصلت إلى نيويورك في عام ١٩٧٨م، وكانت الأثمان أقل بكثير مما أصبحت عليه في عام ٢٠٠٠م، ولكن المرتبات أيضاً كانت أقل. ولما اشتريت، لم أصل إلا لكتيب «أنا ليفيا بلورابل» الذي صدر عام ١٩٢٨م، من حوالي ٨٠٠ نسخة مرقمة وموقعة من جويس. وكانت نسختي تحمل رقم ١٣، وكلما كان الرقم أقل، كانت النسخة أكثر قيمة. وإني لأشعر بفرحة غامرة عند التطلع إلى توقيع الأستاذ العظيم، وأتخيله جالساً إلى المكتب وهو يوقع الكتاب الذي عندي الآن، وأتلمس ملمسه عليه وكأني أخطبه وأكلّمه وهو جالس أمامي. وشيئاً فشيئاً اقتنيت توقيعات الكثير ممن أحببت؛ ألبير كامي، كولن ويلسون، ماركيز، بابلو نيرودا. وقد تعبت جداً في الحصول على توقيع نيرودا، ثم تعرّفت على أحد أصدقائه في شيلي، الذي باعني الكثير من كتبه الثمينة. واشتريت أيضاً الطبعة الأولى من «النشيد العام» الذي صدر في المكسيك عام ١٩٥٠م، مرقماً وموقعاً من نيرودا ودييجو ريفيرا وسيكيروس، اللذين زودا الطبعة بلوحتين رائعتين، واحتوى على أسماء المشتركين مسبقاً فيه، ومنهم بيكاسو وبول روبصون وإليا إهرنبورج وكثير غيرهم من المشاهير. وقد فاتني الحصول على توقيع لوركا حيث كان غالي الثمن جداً، وعرضت لوحات أصلية برسمه ولكنها كانت أغلى ثمناً. وبعد ذلك، عزمْتُ على التخصص في جمع توقيعات من فازوا بجائزة نوبل للأدب، ونجحتُ على مر السنين في جمع توقيعات ٨٠ في المائة منهم، غير أن ذلك اضطرّني إلى اقتناء كتبٍ لمن لا أهتم إلا بقراءتهم فقط، مثل سولجنتسين وتشرشل وكبلنج. والغريب أن الكتب الموقعة من تشرشل هي الأندر والأعلى ثمناً، رغم أنه دخل على الأدب وجائزته! وكان أعز توقيع عندي هو توقيع «الأستاذ» نجيب محفوظ، الذي طلبته من الأستاذ محمد سلماوي، فتكرّم بإرساله لي على عنواني بنيويورك. ثم حصلتُ على توقيع آخر من الأستاذ حين زرتُه في ندوته بالمقطم على ترجمة

كتابه عبث الأقدار إلى الإنجليزية. وأذكر في هذا المجال عدوى تلك الهواية لمن أحكي عنها له؛ مثل صديقنا الطبيب في نيويورك، الذي قال لي مرةً إنه سيحضر حفلاً فيه إدوارد سعيد، فطلبتُ منه أن يأخذ لي توقيع البروفيسور على كتابه الشهير لسيرته الذاتية، فكان أن حصل الطبيب على التوقيع لنفسه هو وليس لي! وذلك يُماثل من وكّل رئيسه كي يخطب له إحدى زميلاته في العمل، فكان أن خطبها الرئيس لنفسه وتزوجها، وقد حدث ذلك بالفعل أيضاً.

وقد سائر اهتمامي بالكتب والكتابة، الاهتمام بالفنون التشكيلية والموسيقى والسينما والتصوير الفوتوغرافي. وكان أول شيء اشتريته بعد توظفي في القاهرة «بيك أب» فيليبس بعشرة جنيهات، للاستماع إلى أغاني فيروز خصوصاً. وفي إسبانيا، ابتعتُ بيك أب متطوراً وجهازَ تسجيل كبيراً، واقتنيتُ العديد من الأسطوانات الكلاسيكية وأسطوانات الغناء والشعر الإسبانيين. وازداد العدد حين انتقلتُ إلى نيويورك، وتنوّعت مشترياتنا بين الأسطوانات وأشرطة الكاسيت وأشرطة المدارات الأربعة kstrac four. وكان اختياري للأخيرة خاطئاً؛ إذ اندثرت بعد أعوامٍ قليلة. وحين ظهرت الأسطوانات المدمجة انتقلنا إليها برغم احتفاظي ما زلتُ بالكاسيتات والأسطوانات العادية. كذلك أغرمتُ بأصوات المؤلفين يتلون شيئاً من أعمالهم، ووجدتُ أصوات جيمس جويس وألبير كامي وتي. إس. إليوت وجيوم أبولينير وحتى توماس هاردي ووالث ويطمان.

أما التصوير؛ أي الرسم، فقد اهتممتُ به في إسبانيا مع زيارة متحف البرادو العريق، ومشاهدة أعمال العمالقة الإسبان؛ جويا، فيلاسكيت، إلجريكو؛ علاوةً على كثيرين آخرين. وزُرتُ بعد ذلك متحف اللوفر والجي دي بوم الذي انتقل إلى مُتحف دورساي بعد ذلك. والآن، حين أزور اللوفر، أبدأ برؤية الموناليزا ثم تمثال فينوس، قبل أن أجوس في أبهاء المتحف الأخرى. وفي نيويورك، أدمنتُ التردد على متحف الفن الحديث لأغرق في لوحة جرنیکا لبيكاسو قبل أن تنتقل إلى إسبانيا، ولوحة الليلة المرصعة بالنجوم، التي بدأتُ معها عشقاً للوحات فان جوخ وحياته الغريبة. وقد قادنا حبنا لفان جوخ أنا وأن ماري إلى الذهاب إلى كل الأماكن التي عاش فيها في فرنسا؛ آرل، بروفانس، بونتواز، ثم زُرنا مُتحفَه في أمستردام. وقد سُررتُ أن نجيب محفوظ قال إنه يحب لوحته المسماة «فترة الراحة للسجناء» وكتبتُ مقالاً عن ذلك نشرته مجلة الهلال القاهرية.

أما السينما والأفلام فأمرها يطول. فكما ذكرتُ من قبل، اهتممتُ بالأفلام منذ كنا في شبين الكوم، وتابعتها مصريةً وأجنبيةً، وحتى الآن. وكنتُ من أوائل المنضمين إلى نادي

السينما الذي أنشأه الأستاذ الحضري عام ١٩٦٨م، وشاهدنا فيه أول فيلم وهو «القناع» السويدي. وحين ذهبْتُ إلى إسبانيا أتَيْتُ لي فرصة رؤية الأفلام التي لم تُعرض بمصر، مثل دكتور زيفاجو والوصايا العشر. وتذكَّرْتُ دهشة سيسيل دي ميل من عدم عرض الفيلم الأخير في مصر؛ لأنه حافظ في روايته على النظرة الإسلامية لتاريخ تلك الفترة، ولكنه نسي أن الإسلام يمنع تشخيص الأنبياء، فما بالك بصوت الذات الإلهية؟! وكان بمديرد صالاتُ عرضٍ للأفلام العالية القيمة الفنية شاهدنا فيها عددًا من الأفلام الإيطالية والفرنسية الجيدة. ولمَّا كانت الرقابة شديدةً في إسبانيا بعهد فرانكو، اضطرَّ الإسبان إلى العبور إلى فرنسا لمشاهدة «التانجو الأخير في باريس» الذي مُنع، وأفلام لويس بونويل كاملة؛ حيث كانت تُعرض داخل إسبانيا وبها حذفاتٌ عديدة. وكذلك لمشاهدة أفلام البورنو، والتردُّد على محلات الجنس المنتشرة في بلدان غرب أوروبا.

وفي نيويورك، كانت أفلام البورنو متاحةً في كل مكان، وكذلك الأفلام الفنية الراقية التي نهلنا منها، ولكن النقلة الهائلة جاءت مع انتشار الفيديو كاسيت بأسعارٍ معقولة، تدنَّت حتى أصبحت في متناول الجميع. وقد اشتريتُ أول مسجل للفيديو أتبعتهُ بكاميرا بعد مولد ابني شريف في يوليو ٨١ كيما أصوره وهو صغير. وقد اخترتُ كما قلتُ ما كان يوصي به الخبراء في ذلك الوقت وهو نظام «بيتاماكس» لسوني عوضًا عن نظام «في إتش إس». وكان اختياريًا خاطئًا؛ إذ توقف البيت بعد عدة سنوات، وانتشر النظام الآخر حتى قضى عليه بعد ذلك الـ «دي في دي». ولكنني سَعِدْتُ بالفيديو منذ اقتنيتهُ، وأذكرُ الدهشة والرهبة التي شعرتُ بها وأنا أرى أول فيلم في بيتي، وكان فيلم «محل العاديات القديمة» عن رواية تشارلز ديكنز، ثم توالى الأفلام، وتعلَّمتُ أن أسجِّل من التلفزيون. وكانت أول أفلام عربية اشتريتها من المكتبة العربية في بروكلين هي «غزل البنات» و«سفر برك» و«أيامنا الحلوة». وسجَّلتُ بالكاميرا لي ولشريف وللأسرة معًا.

وقد تكاثرتُ الأشرطة تدريجيًّا حتى أصبح عندي معظم الأفلام الكلاسيكية المشهورة. وعرفنا محلًّا يبيع الأفلام والمسرحيات العربية بأسعارٍ مُنخفضة فاستفدتُ منه. وقد استفدتُ من المكتبة الفيلمية التي عندي لكتابة سلسلةٍ من المقالات عن الأفلام الفنية العالمية التي لم تلقَ الإقبال الذي تستحقُّه، ونشرتها في مجلة الكواكب بتشجيع من الأستاذ رجاء النقاش، ثم جمعتها بعد ذلك في كتاب «أفلام أهملتُها الأقلام» الذي نشرتهُ الهيئة العامة للكتاب بمصر. وقد عرضتُ فيه لعشرين فيلمًا من جنسياتٍ مختلفة، منها «عشاق الموسيقى»، «ثلاثية الفلامنكو» لكارلوس ساورا، «ثلاثية من الهند»، لساتيا جيت راي،

واخترتُ من السينما العربية أفلام: السراب، دنانير المصريين، والفيلم الجزائري باب الواد
مقارناً بفيلم ثورة الجزائر. وقد وزع الكتاب جيداً، واختير كمادةٍ للمناقشة في المعهد
العالي للسينما بأكاديمية الفنون في مصر.

مواصلة الكتابة والنشر

وبعد نشر ترجمتي لمسرحية لوركا «الآنسة روزيتا العانس» واصلتُ الكتابة والنشر، سواء المقالات أو الكتب؛ ففي عام ١٩٨٥م، نشرتُ لي المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ترجمتي لرواية «السيد الرئيس»، تأليف ميجيل آنخل أستورياس، الجواتيمالي الحائز لجائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٧م. والرواية بالإسبانية، وقد عانيتُ في ترجمتها لصعوبتها؛ فهي تحتوي على تعبيراتٍ محلية وإشاراتٍ فلكلوريةٍ أسطورية خاصة بأمريكا الوسطى والتراث الشعبي الجواتيمالي. وهي مشاركة أستورياس في الكتابة عن الدكتاتورية في أمريكا اللاتينية، مستلهمًا فيها دكتاتور بلاده «كابريرا» الذي حكم جواتيمالا في الفترة من ١٨٩٨م إلى ١٩٢٠م. وقد صوّر أستورياس في روايته الصفات الأساسية في دكتاتوريات أمريكا اللاتينية في تلك الفترة، في قالبٍ قصصي لا ينتفي فيه الحب البريء والتضحية الإنسانية، في مقابل القسوة والجبروت التي يشيعها حكم الطغاة. وتُعتبر هذه الرواية — مع رواية «حفلة التيس» لماريو فارغاس يوسا — أفضل روايات الدكتاتور.

وتبع ذلك أن نشرتُ لي سلسلة روايات الهلال ترجمةً لمجموعة قصصية لإرنست همنجواي تحت عنوان «حاضرة الدنيا وقصص أخرى». وقد ضُمَّنتُ الكتاب مقدمةً عن المؤلف / ثم أشهر قصصه القصيرة، ومنها «مكانٌ نظيفٌ حسن الإضاءة»، وأنهيته بالرواية القصيرة «ثلوج كليمنجارو». وبعد ذلك، نشرتُ لي الهيئة العامة للكتاب كتابين من تأليفي قدَّمتهما لمحمد عناني؛ الأول عن «لوركا شاعر الأندلس» والثاني روايتي اليتيمة «عزلة النسر». وقد ذكر لي عناني أن كتاب لوركا وزع توزيعًا جيدًا جدًا. ولمَّا كانت طبعة هذين الكتابين مليئة بالأخطاء المطبعية، فقد نشرتُهما لدى دار «ميريت» بعد ذلك. وقد فازت رواية عزلة النسر بالجائزة الثانية لمسابقة وزارة الثقافة المصرية للروايات العربية، عام ١٩٩٧م.

وفي عام ١٩٩٦م، حَقَّقَتْ أحد أحلامي بنشر ديوان «شاعر في نيويورك» لفديريكو غرسيه لوركا لدى الهيئة العامة للكتاب، والحلم الثاني كان نُشِرَ ديوان «أشعار» لجوستافو أدولفو بكر؛ إذ إنني بدأت العمل في ترجمة هذين العمليين عام ١٩٧٦م، في برشلونة، في أثناء زيارتي آن ماري. والديوان الأول قصائد كتبها لوركا إبَّان إقامته في نيويورك عام ١٩٢٩م، التي ذهب إليها لتعلُّم الإنجليزية. وهي قصائد تُبَيِّن الأثر المهل الذي أَحَسَّ به هذا العصفور الغرناطي إزاء مادية نيويورك وناطحات سحابها وإيقاع الحياة فيها. وكان في نفس الوقت متأثراً بالحركة السريالية في الفنون، ومن مبدعيها صديقه سلفادور دالي، فجاءت قصائد الديوان مليئة بالصور العجيبة التي يحار القارئ في فهمها. ومن قصائده الشهيرة «أنشودة إلى ملك هارلم» و«أنشودة إلى والدة ویتمان». ومن الغريب أن هذا الديوان ذا القصائد الصعبة، قد نُشِرَ ثلاث مرات؛ الأولى عن هيئة الكتاب، والثانية ضمن المشروع القومي للترجمة، والثالثة ضمن مكتبة الأسرة.

أما ديوان أشعار لبكر، فقد نُشِرَ المشروع القومي للترجمة عام ٢٠٠٤م. وكنت قد تقدَّمتُ بترجمة الديوان لمسابقة جائزة نجيب محفوظ – سرفانتس للترجمة من الإسبانية إلى العربية، وفزتُ بها في أولى دوراتها. وكان لهذا الفوز صدًى كبير في وسائل الإعلام وفي نفسي؛ إذ إنني أجلُّ قصائد ذلك الديوان كثيراً، والتي تشبه في رومانسيتها أشعار كيتس وشيلي.

وفيما بين هذين الديوانين، نُشِرَت لي هيئة الكتاب مجموعة مختارة من قصائد بابلو نيرودا بعنوان «إسبانيا في القلب وقصائد أخرى» عام ١٩٩٧م، ثم نُشِرَت لي دار شرقيات الرواية القصيرة المؤثرة «موت فلاح إسباني»، تأليف الروائي الإسباني «رامون سندر» عام ١٩٩٨. وبعد ذلك عدتُ إلى بابلو نيرودا، بترجمة ديوانه «أشعار القبطان» الذي كان قد دَبَّج قصائده للتغزل في حبيبته الجديدة ماتيلدي أورتويا، ونشره في إيطاليا دون اسم المؤلف؛ حيث إنه كان ما يزال مع زوجته ماريا دل كاريل. وقد جاءت قصائد الديوان غزلاً مشبوباً مليئاً بالصور الحسية الصريحة، حتى إنني جعلتُ عنوانه «غزليات نيرودا»، كي أقدم للقارئ العربي وجه الشاعر في نيرودا، الذي يظنُّه كاتباً سياسياً وحسب، رغم دحض نيرودا لهذا بقوله إنهم لو حسبوا أبياته السياسية في كل أعماله لما تجاوزت أربع صفحات فقط.

وكنتُ بعد أن انتهيتُ من سلسلة مقالات أفلام أهتملتها الأقلام في مجلة الكواكب، قد بدأتُ مقالاتٍ أخرى تحت العنوان العريض «في خطى نجوم الفن والأدب» بنفس المجلة

رغبةً مني في العمل مع رجاء النقاش. وكنتُ أكتبُ عن حياة واحد من هؤلاء النجوم، والأماكن التي عاش فيها. وبدأتُ بفان جوخ الذي زُرْتُ معظم الأماكن التي عاش فيها، ثم كل من أحببتُ وعرفتُ من الكُتَّاب والفنانين؛ لوركا، جان جاك روسو، بيير لوتي، إرنست همنجواي، جيمس جويس، جورج صاند، شكسبير، آرثير رامبو، وقد زرتُ أماكن حياة كل هؤلاء. واخترتُ من بين العرب نجيب محفوظ وأحمد شوقي. وقد جمعتُ هذه المقالات في كتابٍ نشرته هيئة الكتاب تحت عنوان «بين الفن والأدب»، واختار محمد عناني العنوان بعد أن اعترض سميح سرحان على عنوان «في خطى نجوم الفن والأدب». وقد أصدرت مكتبة الأسرة الكتاب بعد ذلك ضمن منشوراتها.

واتجهتُ بعد ذلك إلى جمع مقالاتي المؤلفة والمترجمة عن الرواية والروائيين لإصدارها في كتاب، خاصة أولى المقالات التي نشرتها في مجلة الآداب منذ عام ١٩٦٣م، وصدر الكتاب في لبنان بعنوان «رواة وروائيون من الشرق والغرب»، وقد ضمّ مقالاتٍ عن نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وكافكا وهمنجواي وماركيز وجيمس جويس وتوني موريسون ونابوكوف. وكنتُ قبل ذلك قد كتبتُ إلى الدكتور جابر عصفور أشكره على نشر ديوان شاعر في نيويورك ضمن مهرجان لوركا، وأطلب الرأي في ترجمة كتاب الفن الروائي لديفيد لودج، لنشره ضمن المشروع القومي للترجمة. ولمّا جاءني الردُّ بالموافقة، شرعتُ في إجراء الترجمة، وكان الكتاب عبارةً عن خمسين مقتطفًا من رواياتٍ معروفة، يعلّق عليها المؤلف لتيان ناحيةً معيّنة من نواحي الصنعة القصصية. وقد وجدتُ أن هذا الأسلوب هو الأجدي في تصوير النواحي التقنية في الكتابة الروائية؛ لذلك أقدمتُ على ترجمته بحماسٍ ووعي رغم صعوبة الترجمة. ولم تكن الصعوبة تكمن في اللغة، ولكن في تناول الكتاب لخمسين رواية، ومنه مقتطفاتٌ من تلك الروايات، فكان يجب على المترجم أن يكون محيطًا على الأقل بالمحتوى العام لها. وحتى عناوين بعض الروايات تكون مُلغزةً إذا لم يكن المترجم عليمًا بها، مثل عنوان «هواردز إند» لفورستر، الذي تُرجم قبل ذلك على أنه «نهاية هوارد» رغم أن المقصود بيتٌ بهذا الاسم. وقد جلبتُ الترجمة الفرنسية للكتاب واستعنتُ بها كثيرًا. وصدر الكتاب في عام ٢٠٠٢م، وانضم إلى غيره من كتب فنون الرواية والقصة، مثل كتب فورستر ولوكاتش وغيرهما.

واخترتُ بعد ذلك مجموعةً من القصص القصيرة لأدباء أمريكا الإسبانية لتقديمها معًا، وكان مقدّرًا أن تُنشر في مكتبة الأسرة، ولكن لم يتيسر ذلك، ونُشرت في سلسلة الألف كتاب الثانية. ويضم الكتاب ١٤ قصةً متنوّعة، اخترتها بحيث تغطي أساليب قصّ

مختلفة، ما بين قصة «ليلة الكروان» لماركيز بما فيها من غموض وحادثة، إلى قصة «البوابة رقم ١٢» لبلدوميرو ليلو من شيلي، وهي واقعية اجتماعية تدين سُخرة الأطفال في العمل. وفي الكتاب قصصٌ لروبين داريو وأوكتافيو باز وسيزار فاييخو. وكنتُ أفضلُ لو اختارت مكتبة الأسرة هذا الكتاب لإعادة إصداره فيها، بدلاً من ديوان شاعر في نيويورك، ذي القصائد السيرالية المكتوبة للخاصة.

وكنتُ في ذلك الوقت قد بدأتُ في تسطير حُلُم من أحلامي القديمة، وهو إعداد كتاب عن «ألف ليلة وليلة» باعتبار أنها من بدايات الأعمال الروائية في العالم، وتأثيرها في كل من قراها. وكانت حكايات ألف ليلة هي من أوائل الحكايات التي سمعتها في طفولتي، ثم قرأتُ منها ما هو مكتوب للصغار، ثم طبعة صبيح التي اشتريتها من سور الألبانية. وكانت دراسة الدكتورة سهير القلماوي عنها علامةً فارقة في معلوماتي عن هذا الكتاب الفريد. ولما درستُ نشوء الرواية رأيتُهم يعودون إلى الروايات اليونانية القديمة فقط، ولا يذكرون ألف ليلة وليلة. بيد أن أوائل القصص الأوروبي في العصور الوسطى كان يعتمد على القصص العربية، ووجدتُ في إسبانيا العربية الوصلة التي انتقلت عن طريقها قصص ألف ليلة وكليلة ودمنة إلى الأدب الشعبي الأوروبي.

وبدأتُ في تسطير كتابي عن أثر ألف ليلة وليلة في الأدب العالمي في بداية عام ٢٠٠٣م، واستغرق مني عامين ونيفًا، قرأتُ فيها العشرات من المراجع؛ حيث كان كل مرجع يقودني إلى كتبٍ أخرى، فتجمعتُ عندي مكتبةٌ كاملة عن هذا الموضوع، واقتنيتُ عن طريق المكتبات من الإنترنت نسخًا نادرة لألف ليلة وليلة بالإنجليزية والفرنسية والإسبانية. ورجعتُ إلى كتب محسن مهدي الفائقة القيمة، واعتمدتُ أساسًا على كتب منها «ألف ليلة وليلة في الأدب الإنجليزي»، تحرير البروفيسور كاراتشيولو. وقد أضفتُ ابتكاراتٍ جديدة، مثل القصص البوليسي في ألف ليلة، واحتواء الكتاب على كل أساليب القصص والرواية، ومنه ما يوصف الآن بالواقعية السحرية. وقد خرج الكتاب في ٤٠٠ صفحة بعد أن حذفْتُ الكثير منه حتى لا يتضخم. ومع ذلك، فهناك الكثير في ذلك الموضوع بحيث يُمكن إصدار جزءٍ آخر أو أكثر عنه.

وبعد ألف ليلة عُدتُ إلى ترجمة بعض قصائد أوراق العُشب لوالث ويطمان. ولما كنتُ أحب دائمًا وحدة الموضوع فقد اخترتُ قصائد الحرب الأهلية الأمريكية لترجمتها جميعًا، بالإضافة إلى مرثيات ويطمان لأبراهام لنكولن بعد اغتياله. وقد قضيتُ أيامًا سوداء — باستعارة عبارة طه حسين — في ترجمة قصائد ويطمان؛ فهي — رغم جمالها — غريبة

التكوين واللغة، فيها كل ما استحدثه الشاعر الأمريكي من مضامين جديدة وأشكال جديدة؛ إذ لم يتقيد بالوزن ولا بالقافية، وابتدع لنفسه أسلوبًا خاصًا به في طريقة تهجئة الكلمات وقواعد الترقيم والتكرار المقصود والإكثار من الجمل الاعترافية التي كثيرًا ما يضعها بين قوسين. وقد حاولتُ قَدْرَ إمكاني التعرف على طريقة ويتمان الشعرية عن طريق قراءة ما عندي من كُتُب عن حياته وشعره، وطالعتُ نماذج من شعره المنقولة إلى الإسبانية، وأخذتُ أترجم في بطءٍ أشعار لنكولن والحرب الأهلية، وألحقتُ بها عدة قصائد طويلة له، منها «سلامًا أيها العالم». وكتبتُ مقدمةً ضافية عنه، وأرسلتُ الكتاب إلى محمد عناني، وصدرَ بعد ذلك عن هيئة الكتاب. وبعد ذلك، جمعتُ عددًا من مقالاتي السابقة عن بعض الشعراء الإسبان، وترجماتٍ لقصائد، وأصدرتها بعنوان «السفينة النشوى - قصائد وشعراء» عن هيئة الكتاب أيضًا.

رحلات أدبية وفنية

باريس

في خلال الفترة التي سبقت عام ١٩٦٩م، لم أكن قد غادرتُ مصر، أو فكّرتُ في مغادرتها، ولم أزرُ إلا المحافظات التي ذكرتها في سياق هذه الأوراق. وفي إسبانيا زُرْتُ جميع المقاطعات الإسبانية تقريبًا، بما تحوي من آثارٍ قيمة ومتاحفٍ شهيرة، بما فيها الجنوب الذي يضمُّ أعظم الآثار العربية، وذلك خلال السنوات التي تُقاربُ الخمس التي قضيتها في عملي بإسبانيا. وبعد انتقالي للعمل في نيويورك وزواجي هناك، كنا نذهب لزيارة الوطن كل عامين. ولمّا كانت زوجتي فرنسية من مقاطعة نورماندي في شمال البلاد، كانت الرحلة تشمل مصر وفرنسا. وفي مصر، زُرنا جميع الآثار في القاهرة مرات، ثم قمنا أخيرًا عام ١٩٩١م، بالرحلة النيلية من الأقصر إلى أسوان، فذهبنا إلى أسوان في قطار عربات النوم ليلاً، فلم نشاهد إلا القليل من مناظر الطريق، وما زلتُ أذكر الصحراء المترامية على الجانبين بعد شريطٍ صغير جدًا من الأرض المزروعة في بعض بلدان الصعيد، بينما تتناثر هنا وهناك بيوتٌ صغيرة كالأكواخ يعيش فيها الفلاحون. وفي أسوان، أخذنا الباخرة السياحية التي تُقل مجموعة سياحٍ إسبانٍ ومعهم مرشدٌ مصري يُتقنُ الإسبانية. وكانت قمرتنا رائعة، والبوفيه متنوعًا، والصحبة جميلة. وفي أسوان أخذنا قاربًا نوبياً إلى معبد فيلة، وطفنا بالجزيرة، ثم شاهدنا عرض الصوت والضوء، وكان رائعًا. وفي اليوم التالي طرنا إلى معبد أبي سمبل، وشاهدنا التمثالين الهائلين والمعبد الذي وراءهما. ثم تحرّكت الباخرة في طريقها إلى الأقصر. وزرنا في الطريق إدفو وآثارها، وإسنا حيث عبّرت الباخرة السد الذي هناك. وفي الأقصر، مكثنا عدة أيام، زُرنا في صباحٍ باكرٍ معبد الكرنك، وجُلنا في أبهائه الفخيمة، واستمعنا إلى شرح «هشام» المستفيض بالإسبانية، وعُدنا إليه

مرة ثانية في المساء كيما نشهد جلال المنظر وسط الأضواء. وتذكّرت كيف دعا الموسيقار محمد عبد الوهاب مصطفى النحاس وصحبه إلى هنا، وشدا لهم بأغنيته «الكرنك»، حين علم أن الزعيم المصري غير مُعجّب بها، وكيف أنه غيّر رأيه بعد تلك السهرة الفنية. وزرنا أيضًا معبد الأقصر ببهوهِ الجميل المزيّن بالتماثيل. وفي يومٍ آخر زرنا وادي الملوك وبعض المقابر السفلية فيه، ويومًا آخر معبد حتشبسوت وما فيه من رسوم وألوانٍ زاهية كأنها رُسِمت بالأمس. وفي طريقنا لإحدى تلك الزيارات، توقّفنا لمشاهدة تمثاليّ ممنون (وهو الاسم اليوناني للفرعون أمينحتب الثالث، ويُسمّيهما العرب «الصنمان»). وقد قضيتُ وقتًا طويلًا أتفحص التمثالين، وأحاول قراءة ما كتبه الرّحالة الأقدمون عليهما من كلمات وأبياتٍ شعر؛ فقد كانا منذ أيام الرومان من الآثار التي يطوف بها «السياح» حين زيارتهم لمصر. وقد دهشتُ لمنظر التمثالين تحيط بهما الحقول من كل جانب، ثم قرأتُ أنهما ما تبقى من معبدٍ ضخم كانا يقفان على أبوابه.

والآن، وبعد تجوالي بين العديد من البلدان، أجد أن تلك الرحلة النيلية هي من أفضل الرحلات الممتعة التي يمكن القيام بها، وأصبحتُ أوصي أصدقائي ومعارفي جميعًا بها. وقد زاد من استمتاعي بها، اصطحابي الـووكمان الصغير معي وسماع أغنية النهر الخالد؛ إذ الباخرة تطوي صفحته، وأغنية الكرنك؛ إذ نحن نتجول في أبهاء المعبد، مما يُضفي على مشاعر المرء فيضًا حيويًا ومنتعةً فنية يستعصيان على الوصف.

وكما أن آن ماري شجّعَتني على استكشاف الأقصر وأسوان، فقد ردّت لها الفضل بأن طفنا معًا بكل أنحاء فرنسا، نتلمس تاريخها المليء بالأحداث، ونقتفي أثر أدبائها وفنانيتها. وكان البدء في باريس ثم نورماندي بطبيعة الحال، فكانت نقطة وصولنا إلى فرنسا هي العاصمة باريس، وأسرة آن تقطن مدينة الهافر في نورماندي شمالي فرنسا. وفي كل مرة نزور باريس، كنتُ أتعمد اختيار فندقٍ مختلفٍ في منطقةٍ مختلفة، كي أتعرف إلى حياة كل تلك المناطق. وباريس هي كما قال همنجواي بحق «عيدٌ متنقّل»، فكنتُ في كل مرة أرى جديدًا وألّهت من مكانٍ إلى آخر ومعني خريطة المدينة ودليل مترو الأنفاق الذي لا أستخدم غيره. كانت أولى سياحاتي «العميقة» في شارع الشانزليزيه بطوله — وما يتفرّع منه من طرقاتٍ عديدة. كان في نظري أجمل شوارع العالم، كما أن ميدان الكونكورد هو أجمل الميادين، تتوسّطه مسلة كليوباترا، وتُثبّت أركانهُ التماثيل الأربعة. وأروع منظرٍ هو عند المسلة المصرية باتجاه البصر نحو قوس النصر؛ حيث الطريق تحفّه الأشجار على الجانبين يبدو كأنه منظرٌ رسمته فرشاة فنانٍ انطباعي، ويتغيّر المشهد لتغيّر

الوقت والطقس. وفي الطريق يُوجَد القصر الكبير والقصر الصغير، وتُقام فيهما المعارض المختلفة، وبعد عبور ميدان الكونكورد، على الناحية المقابلة، تُوجَد حدائق التويلري ذات التاريخ العريق بأحداث الثورة الفرنسية؛ حيث حدثت فيها مذبحة الحرس السويسري، الذي كان يحرس الملك لويس السادس عشر، والتي أقام فيها روبسبير بعد ذلك مهرجان «الكائن الأعظم»! وفي الحدائق أيضاً تماثيل «مايول» المشهورة، ومتحف الأورانجير.

وفي طَرَف الشارع يقع قوس النصر، وهو بناءٌ فخيم بدأ بناءه نابليون بوناپرت، ولكنه لم يكتمل إلا عام ١٨٣٦م في عهد لويس فيليب. وفي أسفلهِ قبر الجندي المجهول وعنده شعلَةٌ دائمة. ويُمكن الصعود إلى قمة القوس ورؤية باريس من هناك، خاصةً الشوارع العريضة الاثني عشر المتفرعة من الميدان، وقد سُمِّيَ لذلك ميدان النجمة، ثم أُضيف إليه اسم شارل دي جول.

ومن هناك، ندلف إلى أشهر شيءٍ سياحي في باريس؛ برج إيفل. وهو يقع في طَرَف حدائق «شان دي مار» ويطل على نهر السين عند جسر بينا. وقد أُقيم البرج عام ١٨٨٩م، وصمَّمه المهندس المشهور جوستاف إيفل، ويبلغ ارتفاعه الآن ٣٢٠ متراً. ويمكن زيارة البرج في ثلاثة طوابق، وبه محلاتٌ عديدة، ولكن الأفضل هو منظر باريس وضواحيها حين يُطل المرء عليها من الطابق الثالث، وحين يكون الطقس رائعاً. وبالقرب من البرج، يمكن زيارة مبنى اليونسكو، والإنفاليدي حيث قبر نابليون، وشارع ريفولي وفيه تتركز محلات العاديات والتذكارات الباريسية.

أما المتاحف في هذه المنطقة فأبرزها بالطبع متحف اللوفر، وهو المتحف الأشهر في فرنسا والعالم، وتحتاج زيارته إلى أيامٍ عدة للإلمام بما فيه من تحف وذخائر. والمتحف ينقسم إلى صالاتٍ متعددة، كلٌّ منها يختص بموضوعٍ معيَّن؛ فهناك صالة الآثار المصرية القديمة، وآثار حضارات بين النهرين، والآثار الإسلامية، والإغريقية، والرومانية، وهكذا. وفي المتحف أمثلةٌ لكل مدارس الرسم؛ الفرنسية بكل عصورها، والإيطالية، والفلمنكية، والإسبانية، والألمانية، والإنجليزية. والمتحف في حالة تطوُّر وتغيُّر دائم؛ حيث إنني في كل زيارةٍ له أجد شيئاً جديداً وتسهيلاتٍ أكثر في الدخول والطواف. وبعد عشرات الزيارات له وللمتاحف الأخرى، أصبحت زيارتي لها لدراسة شيءٍ معيَّن والتمعُّن فيه. وكنتُ أبدأ زيارتي التالية للوفر بالمرور على شيئين في البداية؛ الموناليزا، وتمثال فينوس اليوناني؛ قبل أن أرى ما جئتُ له. وقد أدهشنا فيما بعدُ التصميم الجديد للمتحف، الذي وضعه مهندس ياباني، وجعل على بوابته وفي بهوه هرمين من الزجاج، ولكننا اعتدنا عليه بعد ذلك ورأينا إبداعه.

ورغم أن اللوفر قد طغت شهرته على المتاحف الأخرى، فهناك متاحف أخرى في باريس ذات أهمية كبرى بما تحويه؛ فقد كان الفرنسيون من الذكاء بحيث يوزعون الآثار الشهيرة على متاحف عدة، حتى يضطر الزوار إلى زيارة المتاحف كلها. وكانت الرسوم الحديثة في متحف صغير هو الجي دي بوم، وزرته حين كان يضيق بالسياح، ولكن لوحة مونييه «انطباع شروق الشمس» التي أعطت الانطباعية اسمها، كانت في متحف صغير آخر في الضواحي، اضطرت إلى الذهاب إليه لمشاهدتها. واليوم، انتقلت كل لوحات ذلك المتحف إلى «متحف دورساي» الضخم الذي أصبح من السهل التنقل فيه ورؤية كل لوحات مونييه وفان جوخ وسيزان ومانيه وديجا وتولوز لوتريك وجوجان وبونار ورينوار وبيسارو وسيزلي، بالإضافة إلى آلاف أخرى من القطع الفنية التي تعود إلى الفترة ما بين ١٨٤٨م و١٩١٤م.

وقد أحببت متحف رودان لتنظيمه الدقيق وحدائقه الجميلة التي تضم تماثيل رودان الضخمة. وقد أخذت في تصوير تلك القطع ذات مرة بكاميرا الفيديو «بيتا» أول ما ظهرت، ولم تكن قد عرفت بعد في فرنسا، وبعد وقت وجدنا مشرفة من المتحف تسألني عما أفعل. وحين شرحت لها أن ماري الأمر بينما أنا أصور، أجابت أن ذلك محظور تمامًا، فتأسفت لها، وأغلقت الكاميرا بعد أن سجّلت حديثها لنا.

وفي باريس مئات المتاحف الأخرى المتخصصة، منها متحف التاريخ الطبيعي، ومتحف الاكتشافات، ومركز بومبيدو الذي يضم أيضًا متحف الفن الحديث، ومتحف الشمع، ومتحف تاريخ فرنسا، ومتحف السينما، وعشرات أخرى. وقد شغفت إلى جانب المتاحف بزيارة الدور التي عاش فيها الأدباء والفنانون وأصبحت متاحف لهم بعد ذلك، فزرت متحف فكتور هوجو، وبلزاك، وبيكاسو. وقد بحثت عن الشارع الذي كان توفيق الحكيم يسكن في بيت فيه فلم أعثر عليه، ولكنني تمثّلت كاتبنا الكبير عند مرأى مسرح الأوديون؛ حيث كان يهيم غرامًا بعاملة الشباك فيه.

كما زُرنا المثوى الأخير للعديد من الأدباء والفنانين في مقابر «بير لاشيز» و«مونبارناس» و«مونمارتر»، وفي الأولى توقفنا عند قبور كوليت وشوبان وموليير وموديليانى وإديث بياف وبول إيلوار ومارسيل بروست وسيمون سينيوريه. وفي مونبارناس رأينا في المدخل قبري سارتر وسيمون دي بوفوار، وقرأت سارتر السلام — فقد رأيته حين كان حيًا وصافحته — وقلت له: «أوجدت ما وعد ربي حقًا؟» ولا بد

أنه أجاب أن نعم. وهناك أيضًا قبور بودليير وجي دي موباسان وسانت بيف. وفي مقبرة مونمارتر زُرنا مرقد إرنست رينان ونجنسكي وديجا وفرانسوا تريفو. وفي باريس أيضًا مئات من دور الفنون والمباني التي تجب زيارتها؛ مبنى أوبرا باريس، والأوبرا الجديدة، والكوميدي فرانسيز، والأكاديمية الفرنسية، والمكتبة الوطنية، والبانتيون الذي يضم رفات جان جاك روسو وفولتير، وميدان فاندوم الأنيق ووسطه عمود نابليون، وميدان الباستيل. وهناك الكاتدرائيات والكنائس، وهي قطع من المعمار الفائق الروعة، وأشهرها كاتدرائية نوتردام دي باري، وكنيسة سان سلبيس التي يتدفق السياح لزيارتها الآن بعد ذكرها في رواية شفرة دافنشي، وكنيسة لا مادلين وكنيسة الساكر كير، ثم هناك حدائق باريس؛ غاب بولونيا وما فيه من أماكن وذكريات الأدباء عنه، ومنهم أحمد شوقي، الذي قال فيها:

ياغاب بولون، ولي	نمُّ عليك ولي عهود
زمنٌ تقضى للهوى	ولنا بظلك، هل يعود؟
حلمٌ أريد رجوعه	ورجوعٌ أحلامي بعيد
وهب الزمان أعادها	هل للشبيبة من يُعيد؟

كانت الأبيات، وأفكار بروست عن الغاب كما وردت في الجزء الأول من روايته الطويلة، تتردد في ذهني وأنا أطوف بأنحاء. وقد حضرنا فيه ذات صيف مسرحية زواج فيجارو، وطُفنا بأزاهير «الباجاتل»، ورأينا حديقة شكسبير به، وهي تحوي الأزهار والأشجار التي ورد ذكرها في أعمال الشاعر الإنجليزي العظيم. والحديقة الشهيرة الأخرى هي لكسمبور التي توفر مكانا لطيفا للتأمل والراحة.

وكانت مقاهي باريس من مناطق استهدافاتي الفنية، خاصة التي اشتهرت بتردد أدباء وفنانين معروفين عليها؛ فحين نجلس في كافيتيريا «كلوزيري دي ليلاس» أرى في ذهني همنجواي وجيمس جويس وسكوت فيتزجيرالد. وهناك مقهى «الدوم» ومقهى «الروتند» المتواجهان، وكان يغشاهما معظم الكتاب الأمريكيين فيما بين الحربين العالميتين، كما أن لينين كان يخطط لثورته على موائد الدوم. «كافيه دي لا بي» التي تأسست عام ١٨٧٢م، واشتهرت في «الحقبة الجميلة» وارتادها هنري جيمس وتورجنيف وبلزاك وفلوبير، وظهر في رواية همنجواي «وتشرق الشمس ثانية». أما أهم مقهى زرناه فهو «البروكوب» الذي يرجع تاريخه إلى ما قبل الثورة الفرنسية، وكان يتردد عليه جان جاك

روسو وعيون الثورة الفرنسية، وبول فيرلين بعد ذلك. وحين تناولنا غداءنا فيه كانت الأطباق ذات مسمياتٍ من عصر الثورة، مثل «مخ دانتون»، بينما دورات المياه عليها عنوان «المواطنون» و«المواطنات» بدلاً من الرجال والسيدات!

ويتبقى بعد كل ذلك آلاف الأشياء في باريس؛ حي بيجال وما به من محلات الجنس، والكباريهات المشهورة مثل المولان روج الشهير في نفس الحي، والباتو موش، وهي المراكب البخارية التي تحمل السياح في جولات في نهر السين، ثم هناك ساحة الفنانين في مونمارتر؛ حيث يتجمع الرسامون، ومحلات التذكارات الفنية الفرنسية من كل نوع، والمطاعم والمقاهي من كل المستويات. وقد جلست آن ماري لرسم صورتها هناك، وكانت تذكراً جميلاً لنا. وفي الطريق المتعرج صعوداً إلى الميدان القريب من الساكر كير، توجد «المولان دي لا جاليت» التي استوحاها فان جوخ ورينوار وغيرهما في لوحاتهم، وكذلك الشقة التي عاش فيها فان جوخ حين كان في باريس.

وكل ما سبق ذكره لا يغطي إلا جزءاً صغيراً من مفاثن باريس. ومن حول العاصمة كنوزٌ أخرى كثيرة، منها قصر فرساي، وبلدة «شانتيني» بمتحفها وقصرها ومنتزعتها وغابتها الشاسعة، وفونتنبلو أحد مقرّات نابليون، ومونمورنسي، وبها متحف جان جاك روسو في البيت الذي أقام فيه ست سنوات وكتب فيه عدداً من أعماله الرئيسية. ذلك علاوة على رحلة «قصور نهر اللوار» التي زُرنا فيها العديد من قصور وقلاع العصور الوسطى، ومنها قصر «شامبور» العتيق.

الهافر

كانت مدينة الهافر هي المدينة الأخرى التي زرتُها مراراً وتكراراً؛ فهي مدينة آن ماري، وبها أسرتها، وهي مدينةٌ قديمةٌ حديثة؛ إذ إن الحرب العالمية الثانية قد أشاعت فيها الخراب ودمرت مبانيها — فهي تقع في إقليم نورماندي الذي شهد إنزال قوات الحلفاء في يونيو ١٩٤٤م — فتم بناء معظم المدينة من جديد بعد ذلك. وهي مكانٌ نظيفٌ جميل، به المحلات الحديثة والمقاهي والمكتبات والحدائق البهيجة، فكنتُ أستمع بالتجول في أنحاء المدينة والدخول إلى المكتبات لتصفح الكتب التي أريدها. ومن معالم المدينة وقوعها على بحر المانش الذي يفصل بين فرنسا وإنجلترا، والذي كان المصريون يفوزون في مسابقات قطعه سباحة. وما زلتُ أذكر الفرحة التي عمّت مصر عند فوز سباح مصري في تلك المسابقة عام ١٩٥١م. وشاطئ الهافر جميلٌ أنيق، استمتعتُ فيه برؤية الفاتنات عاريات

الصدور لأول مرة قبل أن أشاهدهن بعد ذلك في بلدانٍ أخرى. وبالمدينة مكتباتٌ عدة اشتريتُ منها الكثير من الكتب الفرنسية، وعددٌ من دور السينما التي تعرض أفلامًا فرنسية وأمريكية.

ومن حول الهافر، زرنا المدينة الساحلية الصغيرة «إترتا» بساحلها وصخرتها المدببة التي أوحى لموريس لبلان روايته البوليسية «المسلة الجوفاء». وقد افتُتِح فيها متحف لأرسين لوبين فيه كل ما يهتم به المعجبون بالكاتب البوليسي وبطله من معلومات وتذكارات.

واصطحبْتُني آن ماري منذ البداية إلى مدينة «روان» عاصمة نورماندي، وبها الكثير من الآثار التاريخية، وأهمها ميدان السوق القديم الذي جرى فيه إحراق «جان دارك» بتصميم من الإنجليز؛ إذ حكمتُ عليها محكمةٌ كنسيةٌ فرنسية بالسجن مدى الحياة، ولكن الإنجليز احتجُّوا وتأَمروا عليها إلى أن صدر الحكم بإحراقها، وتم ذلك في ٣٠ مايو ١٤٣١م. وقد أعادت فرنسا الاعتبار لجان دارك عام ١٤٥٦م، وخلعتُ عليها الكنيسة الفرنسية القُداسة عام ١٩٢٠م، حين أصبحت قديسة فرنسا كلها. وفي المدينة أماكنٌ قديمةٌ جميلةٌ أشهرها «الساعة الضخمة» التي ترجع إلى عام ١٥٢٥م، والكاتدرائية التي رسمها الفنان كلود مونيه تكررًا تحت أشكالٍ مختلفة. وبالقرب من روان قمنا بزيارة متحف فلوبير، وهو مكان البيت الذي كتب فيه مدام بوفاري وسالامبو. وكذلك متحف فكتور هوجو في بلدة «فيلكويه»؛ حيث جرى الحادث المأساوي الذي غرقت فيه ابنة هوجو ليوبولدين وزوجها شارل.

كذلك زُرنا تكررًا مدينة «هونفليز» القائمة تجاه الهافر، وفي البداية كان يتعيَّن علينا أن نقطع مسافةً كبيرة للدوران والوصول إليها، إلى أن أقاموا جسرًا مُعلقًا رائع التكوين على أحدث النظريات الهندسية بين الهافر وهونفليز، فأصبحت المسافة تُقطع في دقائق، مع دفع رسم بسيط لاستخدامه.

ومع تعلُّم آن ماري قيادة السيارات كيما تصطحب «شريف» إلى الليسيه فرانسيه، اعتدنا منذ عام ١٩٨٦م أن نستأجر سيارةً في فرنسا، وننطلق بها في جولة تشمل قطاعًا معينًا من البلاد. وكانت أولى تلك الرحلات تغطي الشمال ومدينة «رن»؛ حيث منزل ميشيل، الأخ الأكبر لآن ماري.

نورماندي

كانت أول رحلة نقوم بها بالسيارة إلى أقاليم فرنسا المختلفة في صيف عام ١٩٨٦م. وحجّزنا السيارة في الهافر، وتطلّب ذلك وقتًا؛ لأنّ آن ماري كانت معتادة على السيارات الأوتوماتيك، التي كانت شحيحة في أوروبا. ووجدنا السيارة التي حجزوها لنا فورد صغيرة بيضاء اللون. وتولّت آن قيادة السيارة بينما توقّرت أنا على خرائط الطريق المفصّلة وترتيب مسار الرحلة. وكانت أول مدينة في خطتي هي «دوفيل» ذات الشهرة العريضة بشاطئها وكازينوها ومرتاديهي من الشخصيات والنجوم، الذين كان من بينهم سابقًا الملك فاروق. ووصلنا إليها عبر جسر تانكرفيل المعلق، وقضينا فيها يومين استمتعنا فيهما بالشاطئ الجميل والطريق الخشبي الموازي له، الذي تمشينا عليه جيئةً وذهابًا، وكنا أحيانًا نرى السماء تُمطر على مبعده بينما لا تُمطر في منطقتنا، ونرى السحب تتجه نحونا بأقطارها، مما يشكّل مشهدًا بديعًا لم نره من قبل. وكان المصطافون والمصطافات من نوعية عالية في الجمال وفي استعراض ذلك الجمال، فنعمتُ وأترعتُ نفسي بألوانه من كل نوع ولون. ودخلنا إلى الكازينو الشهير الذي سمعنا أنّ عمر الشريف هو صاحبه، وطفنا بأرجائه علّنا نراه، ولكن لم يحدث ذلك. وبعدها مضينا بالسيارة على طول الساحل المزهر إلى مدينة «كابور» الساحلية، التي شهّرها مارسيل بروسست في روايته الطويلة، خاصة الجزء المسمى «في ظل الفتيات المتجمّلات بالأزهار»، التي تجري بعض أحداثها في تلك المدينة. وقد حاولنا أن نقضي ليلةً في الحجرة بالفندق الكبير، والتي كان ينزل فيها بروسست حين قضائه الصيف في كابور، فوجدنا أنها محجوزة طوال عام كامل!

وتوجّهنا بعد ذلك إلى مدينة «كان» Caen وهي غير Cannes بالريفيرا، وزرنا معالمها، ومنها الكاتدرائية والكنائس القديمة. وتغدينا هناك، وأنا أذكر ذلك لأنني اخترتُ طبقًا من اللحوم يُسمّى «تارتر» ولم أكن أدري أنه لحمٌ نيئٌ متبلّ، ولكنني أكلتُ معظمه كي أرى ما هو؛ وبعدها أصبتُ بأوجاع في المعدة دامت يومين؛ ولذلك اتجهنا مباشرةً من «كان» إلى منزل أخي آن ماري في مدينة «رن» كي أرتاح هناك. وكان ميشيل قد ترك لنا مفتاح المنزل في صندوق البريد الذي أعطانا مفتاحه. ووجدنا المنزل فسيحًا وبه وسائل المعيشة المريحة، بالإضافة إلى مكتبة ثرية وكثير من شرائط الكاسيت السمعية، ومن ضمنها أغاني عربية لفريد الأطرش وفيروز؛ ذلك أنه سبق أن أمضى عدة سنواتٍ في الجزائر مدرّسًا للفرنسية هناك. وبعد راحة يومٍ انطلقنا من المنزل في ضاحية «سان جريجوار»

لزيارة العديد من المدن القريبة، وأولاهما مدينة «رن». ووجدتُ المدينة جميلة، خاصة القسم القديم منها.

وانطلقنا من رن لزيارة العديد من البلدان القريبة نوعًا ما، مثل «نانت» التي وُلد فيها «جول فيرن»، ومدينة «سان نازير» البحرية. أما زيارتنا الثقافية فكانت إلى مدينة «كومبور»؛ حيث قصر شاتوبريان، ثم «سان مالو»؛ حيث مثنوا وسط البحر؛ ففي كومبور، زُرنا القصر الذي عاش فيه الكاتب الدبلوماسي، وطُفنا بأبھائه مع الدليل الذي شرح لنا حياة شاتوبريان، وكيف كان والده قاسيًا عليه في طفولته، حتى إنه كان يخاف من النوم وحيدًا في ذلك القصر الكبير، وطُفنا بحداثقه الواسعة؛ حيث كان الكاتب يتجول طويلاً مع شقيقته لوسيل. وقد غادر شاتوبريان فرنسا غداة الثورة الفرنسية، وارتحل كثيرًا إلى البلدان الأوروبية، ثم عمل دبلوماسيًا أيام نابليون وبعده. وقد قام برحلة من باريس إلى القدس، وسجّل وقائعها في كتاب مشهور.

أما مدينة «سان مالو» فتزخر بالسيّاح وبالبحّارة؛ إذ إنها ميناء كبير مشهور، وفيها طريق حجريّ علوي مرّنا عليه كيما نشاهد الجزيرة الصغيرة المواجهة للساحل؛ حيث يُوجد قبر شاتوبريان. ويُقال إنه أوصى بأن يُدفن في تلك الجزيرة على نحو عمودي، وهذا من غرائب أهل الفن والأدب.

أما المكان الآخر الذي ترك في نفسي أثرًا بالغًا فهو «مون سان ميشيل»؛ جبل القديس ميشيل. وهو يمثل مع حصن «كاركاسون» أكثر معالم فرنسا القديمة جلالًا وجمالًا. ويتبدّى الجبل من على البعد كنقطة في الأفق، ويكبر شيئًا فشيئًا عند الاقتراب منه. وهو عبارة عن كتلة هائلة الحجم في وسط المياه، إلا من المعبر الذي ندخل إليه منه. وكان لا بد أن نترك السيارة في مكان بعيد ونسير على الأقدام للدخول إلى الجبل بكل ما فيه. وما إن ندلف حتى نجد نفسينا في عالم آخر، فما اسم الجبل إلا مسمّى فقط؛ فهناك محلات للتذكارات والكُتبيات التي تتحدث عن تاريخ الدير، الذي أنشئ في هذا المكان في أوائل انتشار المسيحية في فرنسا، ثم اتسع الجبل على مرّ السنوات ليضمّ مظاهر الحياة السياحية العادية. وهناك متاحف صغيرة داخل الدير – الجبل، ومطاعم مشهورة، أكلتُ في أحدها وجبة من فاكهة البحر لا أنسى لها ذكرًا. ومن الطريف أن الجبل يتنازع تبعيته إقليمان من أقاليم فرنسا؛ فهو يقع ما بين نورماندي وبريتاني، إلا أنه يصنّف الآن بوصفه نورمانديًا أصيلًا!

وبعد أن قضينا وقتًا في منزل ميشيل في سان جريجوار، ورأينا ما كنا نوّد زيارته انطلاقًا منه، بدأنا رحلة العودة على طول شاطئ نورماندي. وكان أهم ما زُرنا من

هذا الشاطئ العريض الأماكن التي دارت فيها معارك غزو نورماندي على يد الحلفاء عام ١٩٤٤م، إبَّان الحرب العالمية الثانية. وكانت ألمانيا تحتل الجانب الشمالي الأكبر من فرنسا، وأقامت الحصون المنيعة على الشاطئ الشمالي للبلاد، الذي كان يُتوقع أن يبدأ الحلفاء غزوهم منه. وقد شاهدنا في الأفلام التسجيلية والأفلام العادية قصة ذلك الغزو الرهيب، والدشم الحصينة التي أقامها الألمان على شواطئ نورماندي، والإنزال الذي قام به جنود الحلفاء في وجه كل هذا، والذي كلفهم أرواحًا كثيرة حتى تمكَّنوا من إقامة رءوس جسرٍ لهم في نورماندي. وكنتُ أتعجَّب من وجود أسماء مدنٍ أمريكية لأجزاء من الشاطئ النورماندي، مثل «أوهاما» و«يوتاه»، إلى أن قرأتُ أن القادة الأمريكيين قد استخدموا هذه الأسماء الأمريكية كشفرة للعمليات الحربية التي عزموا على البدء بها في شواطئ سان لوران وكولفيل وفيرفيل سيرمير، وهي الأسماء الأصلية لهذه المناطق. وشاطئ يوتاه يقع بالقرب من «سانت مير-إجليز»، التي أظهر فيلمٌ مشهور عن الغزو كيف سقط أحد الهابطين بالباراشوت فوق برج الكنيسة؛ حيث تعلَّقت حبال الباراشوت به. وكان يوم الغزو هو ٦ يونيو ١٩٤٤م، ويجري الاحتفال به كل عامٍ في فرنسا. وينتشر الكثير من تذكارات الحرب في بعض تلك الشواطئ، إلى جانب المعارض التي تحكي قصة الغزو النورماندي، والكثير من النُصب التذكارية لمن قُتلوا في الحرب.

الألزاس واللورين

وكانت إجازة الوطن التالية لنا تُستحق في عام ١٩٨٨م، ولكنني لم أستطع القيام بها في موعدها؛ فقد كنتُ حزينًا بسبب وفاة والدتي في ديسمبر ١٩٨٦م، وتوقَّعي بما سأشعر به في منزل محمد شكري من غربة دون وجود والدتي؛ ولذلك فقد أُجِّلَت الإجازة إلى العام التالي، وقمنا بها في صيف ١٩٨٩م. وبعد زيارة مصر ثم العائلة الفرنسية، توجَّهنا إلى باريس وقد عزمنا أن تكون رحلتنا الفرنسية إلى الألزاس واللورين. وكنا حجزنا سيارة أوتوماتيك من شركة «هرتز» بفرعها فيما وراء قوس النصر بباريس، وحين توجَّهنا لأخذها فوجئنا بهم يقدِّمون لنا سيارة فولفو ضخمةً من نوع الستيشن واجون ذات لوحاتٍ سويسرية، واعتذر الوكيل بأنهم لم يجدوا إلا هذه، وأنهم يقدِّمونها لنا بنفس سعر السيارة الصغيرة دون زيادة. وجاء معنا الوكيل يشرح لأن ماري عمل السيارة، وترك لنا دليلها وهو مكتوب بالسويدية والألمانية، وتمنَّى لنا رحلةً سعيدة، وتركنا وعاد إلى محله! وكانت آن شبه مصدومة، وقالت إنها لا تستطيع قيادة سيارة بهذا الحجم،

وهي تجد صعوبة في «الركن» بسيارة صغيرة، فكيف بها بمثل هذه السيارة الضخمة. وتناولتُ أنا الدليل وحاولتُ فك ألغازه الألمانية، وأشرتُ لأن على بعض المفاتيح. وجربتُ هي بعض الأجهزة في السيارة، ثم أعلنتُ أنها لن تسوقها أبداً مهما حدث. عندها استعنتُ بالصبر وقلتُ إذن سنظل في السيارة إلى أن يأذن الله، وتناولتُ كتاباً وتظاهرتُ بالقراءة. وبعد فترة ليست بالقصيرة، بدأتُ أن ماري تجرُّب مفاتيح السيارة، وشجَّعتها بأن تناولتُ الخريطة، وقلتُ لها أن تحاول على الأقل الخروج من أمام وكالة السيارات. وعندها أدارت المحرك وبدأتُ في السير ببطء وهي تقول إنني سأكون مسئولاً لو حدث أي شيء.

وخرجنا من باريس من دون أن نمر على ميدان النجمة الزاخر بالسيارات، وجهتُنا مدينة «رانس» Reims، أول محطة لنا. ومررنا على الكثير من القرى والمدن الصغيرة الساحرة؛ حيث تناولنا الغداء في واحدةٍ منها. وفي رانس عثَرنا على فندقٍ مناسب به ساحةٌ للسيارات صغيرة وجدتُ أن صعوبة في إدخال سيارتنا فيها. وطفنا بالمدينة نزر معالمها، وأهمها كاتدرائية رانس الفخيمة، المشهورة بتمثال «الملاك الباسم»، ومبنى البلدية الذي يعود إلى قرونٍ خلت. وفي الصباح، وعند خروجنا بالسيارة، احتكَّ رفرفها بجدار البوابة فتركَّت أثراً طفيفاً فيه، مما كان بدايةً غير مشجَّعة لنا في أخذ تلك السيارة الضخمة. وعُدنا إلى طرقات فرنسا Sur Les Routes De France كما كنتُ أسميها في حبور؛ حيث الطريق محفوف بالأشجار السامقة، وعن اليمين والشمال حقولٌ مليئةٌ بأعواد القمح الذهبية، أو بأشجار التفاح، أو بأعواد عبَّاد الشمس الزاخرة الاصفرار. وحين مررنا بمنطقة «فردان» عُدنا إلى واقع التاريخ بزيارتنا متحف الحرب العالمية الأولى، في نفس الساحات التي شهدت أعنف قتال بين المتحاربين وسط الحرب وقبل انتهائها في نوفمبر ١٩١٨م. وقد أقامت فرنسا متحفاً لذكرى مواجهات فردان في قلب إحدى القلاع الحصينة داخل جبلٍ شامخ، جمعت فيه نماذج من المعارك الأساسية التي دارت بين الفرنسيين والألمان هناك، والأسلحة المستخدمة والملابس العسكرية بطبقاتها. والزيارة تتم مع شرح مسجَّل ينقل الزائر من رَدده إلى أخرى. ولما كانت الحرارة داخل الحصن منخفضة للغاية، يُعطون كل زائر مع التذكرة غطاءً كثيفاً يتدَثَّر به ويردُّه عند الخروج.

وبعد تلك الزيارة التاريخية المؤلة، توجَّهنا نحو أولى المدن الرئيسية في المنطقة؛ متز. وكانت متز واحدةً من المدن التي تنقَّلت ما بين فرنسا وألمانيا على مرَّ العصور؛ فبعد حرب عام ١٨٧٠م، ذهبَت الألزاس واللورين إلى ألمانيا، وبعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة ألمانيا انتقلت المنطقة إلى فرنسا. ومع الحرب العالمية الثانية عادت إلى ألمانيا، ثم أصبح

فرنسية في نهاية الحرب. وبدءاً من متز، أخذنا نستمع إلى لهجة فرنسية مختلفة، وأحياناً لغة أخرى يتكلمونها فيما بينهم.

وبعد متز اتجهنا مباشرة إلى قلب الألزاس؛ ستراسبورج، وهي مدينة ضخمة تنقسم إلى الأحياء الحديثة والمدينة القديمة، وكثيرٌ من الشخصيات المشهورة ترتبط على نحو ما بستراسبورج؛ ففيها عاش جوتنبرج مخترع الطباعة، وبها ميدانٌ يحمل اسمه، مع تمثالٍ له. كما أن «جيت» أقام في المدينة فترةً طويلة إبان تكوينه الأدبي والفني. ويلتصق النشيد الوطني الفرنسي «المارسييز» بمدينة ستراسبورج؛ ففيها وُضِعَ الضابط الشاب، في عام ١٧٩٢م، كلمات النشيد ولحنه في ليلةٍ واحدة بعنوان «نشيد الحرب لجيش الرين». وبعدها تبنى جيش مارسيليا النشيد، وأطلقوا عليه اسمه الحالي ويعني «المارسيلية». وفي مبنى المصرف الفرنسي بالمدينة توجَد لافتة تحيي ذكرى مؤلف النشيد.

وقد زرنا المدينة وكاتدرائيتها الشهيرة، وأعجبنا المدينة القديمة بطرقاتها الضيقة ومبانيها العتيقة، وفيها حي «لا بتيت فرانس» الذي يقع على ضفاف بحيرة جميلة؛ حيث يتجمّع الشباب ويعرضون مواهبهم في الغناء والرقص والتمثيل. وزُرنا أيضاً متحف الفنون الجميلة بستراسبورج، وبه عدد من اللوحات المهمة لجويا وإلجريكو وروبنز وفان ديك.

وفي الميدان الكبير الذي يتوسّطه تمثال القائد كبير، الذي لقي مصرعه في مصر، أكملتُ دورة حياته؛ فبعد أن رأيتُ المكان الذي قتله فيه سليمان الحلبي في قصره، بالقرب من حديقة الأزبكية الحالية، في مكان فندق شبرد القديم في القاهرة، عرفتُ أن قبره موجودٌ تحت تمثاله في الميدان الذي يحمل اسمه وسط ستراسبورج. وقد اهتممتُ بالحملة الفرنسية على مصر ووقائعها، ومنها مقتل كبير، ومحضر محاكمة سليمان الحلبي، ثم إعدامه على نحوٍ وحشي، وعرض هيكله العظمي في أحد متاحف باريس.

كذلك فستراسبورج مقر البرلمان الأوروبي التابع للاتحاد الأوروبي، وزُرنا مبانيه الفخمة هناك، وتجوّلنا بين أرجائه التي تشبه مكاتب اليونسكو في باريس.

وبعد ذلك توجّهنا إلى مدينة كولمار، وبها مناظرٌ طبيعيةٌ ساحرة، حيث تناولنا وجبة الغداء في مواجهة منطقة يُطلَقون عليها «فينيسيا الصغيرة». وفي طريقنا إلى كولمار، مررنا بمنطقة طيور اللقلق، وشاهدنا في بلدة «ريكفير» أعشاش الطيور الضخمة في أعالي البنايات، وبالقرب من مداخن المنازل. وانطلقنا بعد كولمار إلى مدينة «ميلوز» Mulhouse، وهي مشهورة بمُتحفَيها عن السيارات والقطارات. ومتحف السيارات واسعٌ

ضخم، قضينا فيه وقتاً طويلاً، وبه أكثر من ٥٠٠ سيارة أوروبية قديمة، منها كثير من سيارات المشهورين من رؤساء فرنسا، إلى فنانين كشارلي شابلن، وهو يبيّن تطوّر السيارة منذ نشأتها وطُرُزها القديمة، وبه أكبر مجموعة من سيارات «بوجاتي» في أنواعها المختلفة.

وانطلقنا بعد ذلك إلى بحيرة «جيرارمي» الشهيرة، عن طريق «الجران بالون»، وهو عبارة عن جبالٍ عالية انطلقت فيها السيارة إلى مرتفعاتٍ لا عهد لنا بها، وحمّدا الله على أن منحنا تلك السيارة الكبيرة المتينة حتى تسير بنا في سهولةٍ إلى تلك الأعالي. وكنا نتوقّف في الطريق، ونتطلّع تحتنا إلى المناظر الطبيعية الخلابة، التي لم تضارعها في نظري سوى جبال التيرول النمساوية. وعند البحيرة الساحرة، استأجرنا قارباً صغيراً بدلاً من تجوّلنا به بعض الوقت بالقرب من الشاطئ. وبعد قضائنا الليل في مدينة «إبينال»، توجّهنا إلى مدينة نانسي. وفي الطريق، وجدنا لافتة تدعو إلى زيارة مصانع المياه المعدنية الفرنسية الشهيرة «فيتل»، فدلفنا إليها، وانتظمتنا في زيارةٍ مصحوبةً بدليل، ورأينا المراحل المتعدّدة التي تمرّ بها المياه وتعبئتها، وعرفنا أن فيتل تُنتج أيضاً الكثير من مواد الزينة إلى جانب المياه، وخرجنا وقد اشترينا بعضاً من تلك المنتجات.

وفي الطريق أيضاً لمَحْنَا أمامنا من بعيدٍ صليب اللورين، قائماً على تلٍّ صغير، وعرفنا أننا على مقربةٍ من قرية «كولومبي لي ديزجليز»، وهي قرية الجنرال دي جول. ودخلنا إلى المكان، وزُرنا منزله المسمّى «لابواسيري»، الذي تحوّل إلى مُتحف، ومرّرنا على مقبرته، وعَجَبنا لبساطتها حسب ما أوصى به، ولم يكن مكتوباً على شاهدتها سوى: «شارل دي جول» (١٨٩٠-١٩٧٠م).

أما مدينة نانسي فقد كانت مفاجأة الرحلة، بتناسقها البديع في المباني وحُسن الذوق والتوازن في كل ما فيها. ويعود الحي القديم بها إلى القرن الخامس عشر، بينما أهمُّ ميدان فيها، وهو ميدان ستانيسلاس، يرجع إلى القرن الثامن عشر، حين وضع لويس الخامس عشر والد زوجته، البولندي ستانيسلاس ليزنسكي، دوقاً على نانسي بعد عزله عن عرش بولندا. والميدان فسيحٌ جداً على نحوٍ مستطيل، على جوانبه مبانيٌ متناسقة، منها مبنى البلدية، ومبنى قصر الدوق، وبه بواباتٌ من الحديد المعشّق المذهب تتدلى منها مصابيحُ زخرفية في غاية الإبداع والجمال. ومما لا يزال في ذاكرتي المطعم الصغير الفخم الذي تناولنا غداءنا في تراسه، وكيف كان الطعام جيّداً، والخدمة غاية في اللطف والكياسة، والنظافة ناصعة، وأمامنا منظر الميدان الفسيح بأناقته وجماله. وبعدها زُرنا كالعادة

مُتَحَفُ الفنون الجميلة بالمدينة، ورأينا فيه أعمالاً لديلاكروا ومانيه وكوربيه وأوتريلو وموديليانى وروبنز وغيرهم، جرياً على عادة فرنسا في توزيع ثروتها الفنية في كل المدن، وعدم إهمال أي مدينة رئيسية من أعمال كبار الفنانين. وربما كان من المستحسن أن نتبع تلك السياسة في مصر بالنسبة للآثار، بحيث لا تتركز القِطَع المشهورة في القاهرة فقط، بل يمكن توزيعها على متاحف المدن المهمة، مما يشجّع السياح على زيارة تلك المدن لرؤية تلك القِطَع الأثرية.

ولا أنسى مرورنا على بلدة «باكارا» المشهورة بصناعة الزجاج والطُرف الزجاجية الثمينة التي يجمعها هواة التُّحَف الفنية، وزُرنا مُتَحَفَ الزجاج هناك الذي يزخر بالثريات الضخمة البديعة، إلى جوار المُنمنمات، وروائع الكريستال النقي من كل صنف ولون.

رحلة مارسيل بروسـت وجورج صاند وبير لوتي عام ١٩٩١م

وفي رحلة زيارة الوطن التالية، عام ١٩٩١م، وبعد زيارة جميلة لمصر، كان دور الترحال الفرنسي إلى منطقة «شارانت ماريتيم» أساسًا، وما حولها من أماكن؛ ذلك أن منزل جوزيت، شقيقة آن ماري، يقع في بلدة روشفور بالقرب من مصيف لا روشيل الشهير. وكالعادة، انطلقنا من باريس في العربة المستأجرة مستهدفين مدينة أورليان، وكنت قد زرتها سابقًا وأعجبتني آثارها، ومنها كاتدرائيتها الفخيمة، وشوارعها التي تحيط بها «البواكي» والمكتظة بالمشتريين، وتمثال جان دارك في الميدان الذي يحمل اسمها. ومن أورليان إلى «بورج» ونواحيها التي عاش فيها «آلان فورنييه» مؤلف «مولن الكبير»، رائعته التي تحولت فيلمًا جذب إليه الأنظار بروعة ألوانه الطيفية، والخيال الدافق الذي ترجم ما في الرواية من حسّ مُرهّف.

وكانت ترحالات ذلك العام الأكثر ثراءً من الناحية الأدبية؛ فقد زرنا بلدة «إلييه-كومبريه» التي خلّدها مارسيل بروسـت في روايته الضخمة «البحث عن الزمن الضائع»، وهي تقع على مبعدة عشرين كيلومترًا جنوب مدينة شارتر. وكانت البلدة تُسمّى إلييه فقط حتى عام ١٩٧١م، حين أضيف إليها اسم كومبريه في الاحتفال بمئوية مولد بروسـت، تخليدًا له، وهو الذي خلّدها في عمله، وجذبًا للسياح والمهتمين بأدب ذلك الروائي العظيم. وقد دخلنا إلى البلدة بالسيارة على النحو الذي وصّفه بروسـت عند زهابه لها مع والديه بالقطار، وأطلّ علينا من بعيد برج الكنيسة، وهو أول شيء كان بروسـت يراه من البلدة على بُعد عشرة كيلومترات. وتجوّلنا في البلدة الصغيرة على خطى بروسـت، وأكلنا كعكات المادلين الصغيرة مع الشاي في ميدان السوق، ثم عبرنا إلى «طريق سوان»، وسرنا في مرج كاتلان، الذي ورد ذكره كثيرًا في الرواية.

والزيارة الأدبية الهامة الأخرى كانت ضَيْعَة، «نوهان» مقر الكاتبة الفرنسية الشهيرة جورج صاند (١٨٠٤-١٨٧٦م)، وهو قصرٌ تحيط به السهول الخضراء المنبسطة في كل مكان. وقد عاشت صاند في هذا المكان عقب انفصالها قانونياً عن زوجها عام ١٨٣٦م، وتقسيم ممتلكاتهما؛ حيث حصلت هي على ضَيْعَة نوهان. وفي هذا المكان الساحر، كتبت معظم كُتُبها، واستقبلت مشاهير عصرها، وعاشت مع الموسيقار العظيم فردريك شوبان؛ حيث خصّصت له غرفةً في القصر، ومكاناً يعزف فيه على البيانو. وقد عاشت حفيدة صاند في القصر حتى وفاتها في ١٩٦١م، وتحول بعدها إلى مُتَحَفٍ للكاتبة الشهيرة. وعند دخولنا للزيارة، كان هناك من يعزف ألحان شوبان العذبة، وقادتنا المرشدة إلى طوابق القصر وهي تحكي لنا عن حياة جورج صاند وكُتُبها وعلاقاتها بالفرد موسيه ثم شوبان، وشاهدنا غرفة الطعام حيث المائدة مهياً للطعام، وأمام كل مقعد اسم شاغله، ومنهم: فلوبير، تورجنيف، إسكندر ديما الابن، ديلاكروا. وقد عاصرت صاند عودة الملكية بعد نفي نابليون بونابرت، وثورة عام ١٨٤٨م، التي جاءت بالجمهورية الثانية وعلى رأسها لويس نابليون، الذي سرعان ما أعلن نفسه إمبراطوراً باسم نابليون الثالث، وحاول إحياء عهد سلفه بونابرت، ولكنه لم ينجح في ذلك، وانتهى حكمه بهزيمته على يد بسمارك، وقيام الجمهورية الفرنسية الثالثة، التي دامت حتى غداة الحرب العالمية الثانية. وفي المُتَحَف كافيتيريا أنيقة تحمل اسم «فاديت الصغيرة»، إحدى روايات صاند، ومحلّ لبيع تذكاراتها وكُتُبها.

وكان ثالث الأدباء الذين زُرنا متاحفهم ذلك العام، بيير لوتي. وسهّل علينا الأمر أن متحفه يقع في مدينة روشفور التي قضينا فيها عدة أيام في منزل شقيقة آن ماري. والمُتَحَف هو البيت الذي عاش فيه لوتي، والذي أضاف إليه منزلاً مجاوراً حتى يتسع لتذكاراته التي أتى بها من أسفاره المتعددة؛ فهو قد عمل في البحرية الفرنسية، التي حملته إلى الكثير من البلاد؛ فقد زار تاهيتي والسنغال والجزائر في البداية، ثم يبدأ غرامياته وهو في سالونيك ثم الآستانة، حين يهيم بسيدة تركية تُسمّى «آزيادي»، وحاول أن يستدعيها إلى فرنسا بعد وفاة زوجها إلا أنه فشل في ذلك. وحين يذهب بعد ذلك إلى تركيا ويعلم بوفاة آزيادي، يحمل معه شاهد قبرها — وهو يزعم أنه حقيقي — الذي يُوجد في الصالون التركي بالطابق الأول من متحفه، مع صورة لها رسمتها أخته بناءً على وصفه لها. وهو بعد زيارته للجزائر يقيم صالوناً عربياً في البيت — المُتَحَف. وبعد زواجه وقضائه شهر العسل في إسبانيا وزيارته للآثار الإسلامية هناك، انعكس ذلك في

تصميمه للتذكارات العربية والإسلامية في البيت. وقد صمّم جامعًا كبيرًا في صحن البيت، ملأه بالنقوش الإسلامية التي نقلها معه من البلدان التي زارها. وقد زار لوتي مصر، وتعرّف على مصطفى كامل، ودعم خطواته في التحرّر من الاستعمار البريطاني، ووضع كتابه بعنوان «أنس الوجود» عن زيارته النيلية من القاهرة إلى معابد فيله، وأهداه إلى مصطفى كامل، الذي تُوفي قبيل نشر الكتاب.

وعدا الزيارات الأدبية والفنية التي قمنا بها ذلك العام، ألقت بنا المصادفة إلى أحضان التاريخ؛ فقد مررنا على بلدة تُدعى «أورادور-سير-جلان»، ووجدنا أنه قد وقع بها حدثٌ مأساوي رهيب في نهايات الحرب العالمية الثانية لا يعلم عنه إلا قليلٌ من الناس؛ فبعد أن بدأ الحلفاء غزو نورماندي كمدخل لإزاحة الألمان من فرنسا، نشطت المقاومة الفرنسية في كل الأراضي التي تحتلها ألمانيا، وأراد الألمان أن يوجّهوا تحذيرًا للسكان بعدم التعاون مع المقاومة، فكان أن اختاروا بلدةً مسالمة لا حول لها ولا طول، كيما تكون عبرةً لمن يعتبر؛ فقد وقع اختيارهم على قرية «أورادور-سير-جلان» الواقعة بالقرب من مدينة ليموج، فأمرت القيادة الألمانية هناك أهالي البلدة — يوم ١٠ يونيو ١٩٤٤م — بالتجمّع كلهم في الميدان الرئيسي بها، للتفتيش على أوراق الهوية. وبعدها أدخلوا النساء والأطفال إلى كنيسة القرية، وبدأ الجنود في إطلاق النيران على مَنْ بقي في الميدان، وبعد أن قضوا على كل مَنْ كان هناك، تحوّلوا إلى الكنيسة وأضرموا فيها النيران بمن فيها من نساء وأطفال، ثم أغلقوا أبواب كل شيء في البلدة، وأشعلوا النار فيها حتى أصبحت أطلالًا وخرابًا. وقد قضى في هذه المذبحة ٦٥٠ نسمة، ولم ينجُ منها إلا بضعة أفراد كي يقصّوا ما حدث. وقد اختلفت الأقوال في سبب المذبحة؛ فقد ذكر البعض أن السبب هو أسر المقاومة لضابط ألماني، بيد أن ردّة الفعل، أيًا كان السبب، كانت وحشيةً تفوق الوصف. وبعد انتهاء الحرب، قرّر الجنرال دي جول الإبقاء على القرية المحترقة كما هي، كذكرى وتذكرة.

وقد دخلتُ أنا وزوجتي لرؤية تلك الأطلال، وكانت على درجةٍ من البشاعة، حتى أن آن ماري لم تقوَ على متابعة الزيارة، وبقيت عند المدخل حتى انتهتُ أنا من رؤية تفاصيل المأساة؛ بيوت محترقة، سيارات محطّمة، محلات القرية لم يتبقّ منها إلا آثار الحريق، وعلى كل مكان اسم صاحبه أو صاحبتة، وكلهم من المواطنين المسالين الذين كانوا يعيشون في تضاؤُن وسلم. وحين لحقتُ آن ماري بعد ذلك وجدتها تبكي، وقالت إنها لم تتحمّل مشاهدة تلك المناظر المريعة بينما الشمس تسطع والطيور تغرد والأزهار متفتّحة، كأنما ليست هناك مجزرة قائمة أمامنا. وتذكّرتُ المجازر التي تُسببها الحروب

على مدى الزمن، وكم عانى فيها أناسٌ عاديون لا ذنب لهم، وخسروا فيها ممتلكاتهم وبيوتهم وأنفسهم، وما أبناء فلسطين منا ببعيد؛ إذ العالم كله لا يشعر بآلامهم ومعاناتهم. وقد بقيتْ ذكرى تلك الحادثة تخيم علينا مدةً طويلة؛ فقد كانت أقرب ما شاهدنا من حيواتٍ بشرية استحالت رمادًا بسبب الشر والقسوة والجبروت.

المسارات الأخرى للرحلة

وفي رحلة ذلك العام — ١٩٩١م — زُرنا مدناً أخرى عديدة، منها مدينتا تور وبواتييه، وهما المدينتان اللتان شَهِدتا معارك العرب مع الفرنسيين عند تقدُّم العرب في فتوحهم في الأراضي الفرنسية. وقد حاولتُ أن أعثرُ على أي دليل أو لافتة تبين أو تدلُّ على أماكن تلك المعارك فلم أعثرُ على أي شيء، رغم أهمية تلك المعارك في التاريخِ الفرنسي والعربي، حتى سمَّى العرب معركة تور «بلاط الشهداء» لكثرة مَنْ استشهدوا فيها من الجانب العربي.

كذلك حَرَصْتُ على المرور بمدينة «نيفير» التي جرت فيها بعض أحداث فيلم مارجریت دیراس الشهير «هيروشيما حبي»، بيد أنني لم أجد أي إشارة في أماكنها المختلفة إلى ذلك، كما لم أستطع تمثُّل المشاهد التي ظَهَرَت في الفيلم. ولكننا استمتعنا بجمال المدينة، كما استمتعنا بمدن تور وبواتييه وأنجوليم وألانسون، التي طفنا بها في تلك الرحلة.

رحلة جان جاك روسو عام ١٩٩٣م

وكانت رحلة عام ١٩٩٣م رحلة جان جاك روسو بامتياز! وأصل الحكاية هو قراءتي لتحفة روسو «خواطر جوال منفرد» ولإعجابي بها إلى درجة أن عزمتُ على نقلها إلى العربية؛ فلم أكن أذكر أنني رأيْتُها مترجمةً من قبلُ (وقد علمتُ بعد ذلك أن ترجمةً لها سبق أن صدرت مع الأصل الفرنسي عن منظمة اليونسكو، ولكن لم يكن ممكناً العثور على أي نسخةٍ منها). وقد أمتعني ذلك الكتاب بأفكار مؤلفه في أخريات حياته، ونظرته إلى الناس والدنيا من موقف المتفرد المظلوم؛ ولذلك قرَّرتُ أن أسير في أماكنه، وأعيش في الجو الذي عاش فيه، كمقدمةٍ لي لترجمة تلك الخريدة الرائعة. وكنت قد حصلتُ على تأشيرة دخول سويسرا في لحظاتٍ من القنصلية السويسرية بنيويورك. وعليه، فما إن أخذنا السيارة المؤجرة كالعادة في باريس، حتى سرنا إلى مدينة مولد روسو؛ جنيف. ومزنا بالطبع على المدن الفرنسية في الطريق، وحرصتُ على أن تكون مدناً لم نرها من قبلُ، فمَررنا على مدينة «صانص»، وبتنا في «أوكسير» الجميلة؛ حيث كانت غرفتنا بالفندق من الأبنوس الأسود الذي يعكس صورتنا في ظلالٍ بديعة. وفي مدينة «ديجون»، تناولنا الغداء من شرائح اللحم كيما ننعِم باستخدام المسطرده التي اشتهرت بها المدينة، وراجت في العالم بأسره. وبعد المرور على بيزانسون، دلفنا إلى نيوشاتيل في سويسرا بعد أن ختموا جواز سفري الدولي، وألصقوا علامةً على السيارة تسمح لنا بالسير بها في سويسرا. وبقينا يوماً في نيوشاتيل، وهي مدينةٌ سياحيةٌ رائعةٌ نظيفة، بها كل أنواع الراحة والجمال. وقد زُرنا عدداً من متاحفها، وإن لم يكن بها ما يسترعي الانتباه مقارنةً بما تحويه المتاحف المشهورة.

وفي العاصمة «برن» التي كنتُ أحلم بزيارتها ثانيةً بعد زيارتي الأولى لها في ١٩٧٢م التي فتنّني، أصبْتُ بخيبة أمل؛ إذ لم أشعُر بنفس الروعة التي شعرتُ بها سابقًا، وإن أعجبتني ما تزال بطابعها الفريد ومقاهيها وعربات الترام الأنيق بها. بيد أن ازدحام المدينة تعذّر معه علينا أن نجد غرفةً لنا في أي فندق، وخاصةً حين كنا نتعامل باللغة الفرنسية في معقل ألمانيا سويسرا، فقضينا النهار فيها نستمتع بجمالها قبل أن نذهب إلى ضواحيها؛ حيث نزلنا في فندق على الطريق السريع المفضي إلى مونترو. ولا ننسى مشهد برن المزدهمة في وسط الصيف بينما تلوح قريبًا منا قمم الجبال المغطاة بالثلوج، وكذلك عربات الترام التي كانت تُطارِد أن ماري وهي تقود السيارة فتضطرّ إلى الهروب من طريقها إلى حيث ندري ولا ندري!

وفي مدينة «فريبور» استمتعنا بنفس الصفاء الذي وجدناه في نيوشاتيل، بسحر النظافة والجمال. وهي نموذجٌ للمدن السويسرية التي تتبدّى فيها الطبيعة في أبهى صورها، وحيث المنازل لا تخلو من الأزهار في الشرفات، مما يُحيلها إلى جنّة مزهرة. ثم توجّهنا إلى «مونترو»، وهي مشهورةٌ في ذهني بما عُقد فيها من مؤتمرات دولية ومعاهدات مهمة، وأكثر بما شهَرها به روسو من جعل مكان روايته «هلويز الجديدة» في «كلارانس» من أعمال مونترو. وقد زُرنا كلارانس، وعادت إلى ذاكرتي رومانسيّة رواية روسو وبراعته في تصوير العاطفة فيها. ومونترو مصيفٌ جميل يشابه الريفييرا الفرنسية، بيد أن الفندق الذي نزلنا فيه كان مجاورًا لشلالاتٍ من المياه أزعجت نومنا إزعاجًا شديدًا. وفي اليوم التالي توقّفنا في «إفيان لي بان»، وحاولنا زيارة مصانع مياه إيفيان، ولكنها لم تكن متاحةً للجمهور؛ ومن ثَم، اتخذنا طريقنا إلى جنيف.

وهناك، في موطن جان جاك روسو، شاهدنا المنزل الذي وُلد فيه في ٢٦ يونيو ١٧١٢م، ولكنه لم يتحوّل إلى متحف، وكل ما به لوحةٌ تشير إلى أن جان جاك روسو قد وُلد في هذا البيت. والحق أنه عند مطالعة «الاعترافات»، نجد أن مسرح حياة روسو الأولى هي كل المنطقة ما بين جنيف وباريس، وخاصة إقليم السافوا، بمدن آنسي وشامبيري وليون؛ ولذلك فإن مُتحمّفي روسو هما في منطقة شامبيري، وفي مونمرنسي، ولكن جنيف بقيت في ذهني ونحن نجوب بحيرة ليمان التي تغنى روسو بجمالها، وطُفنا بداخلها في القارب البخاري السياحي الذي أرانا الفيّلات الشهيرة على ضفاف البحيرة، ومنها المقر الذي اجتمع فيه لورد بايرون وشيلى وماري شيلي التي كتبت رواية فرانكنشتاين في ذلك المكان.

وقد كُرِّمت بلدية جنيف روسو بإقامة تمثال له في قلب متنزه المدينة الرئيسي، وحرصت على التقاط صور له لاستخدامها في الكتاب المنتظر.

ومن جنيف اتجهنا إلى مدينة «أنسي»، التي يتكرر ذكرها كثيراً في اعترافات روسو، وبها شارع رئيسي باسمه، وفي وسطه كوة بها تمثال نصفي له ... وأنسي مدينة رائعة الجمال، تتخللها بحيرات صغيرة، وبها حي قديم يزخر بالمباني الأثرية. وقد راقني في أنسي شيء آخر، هو المناظر التي تم تصويرها فيه من فيلمي الأثير «ركبة كلير» Les Genoux De Claire للمخرج «إريك رومر»، وقد أمتعني رؤيتها تماماً كما جاءت في الفيلم.

وبالقرب من مدينة شامبيري، زُرنا معقل روسو العتيد، شارميت، التي أقام فيها سنواتٍ مع مدام فارانس، التي أحاطته برعايتها وحبها، والتي انتهى بها الأمر أن قدّمت له نفسها كي تحميه من غواية النساء! وشارميت هي الآن من متاحف روسو المهمة، والدار مؤنّثة بحيث تعطي للزائر فكرة واضحة عن طريقة معيشة الكاتب فيها، والتعرف على حجرته بها. وتقع وراء الدار حديقة واسعة رأينا فيها نفس النباتات التي كانت موجودة أيام روسو، والتي استرعت انتباهه فدرسها وقرأ عنها.

وبعد أن قضى روسو ١٨ شهراً في الكوخ الذي أعدّه له راعيته مدام دينياني في ضاحية مونمورنسي، وأسموه «الإرميتاج»؛ أي الصومعة، انتقل إلى منزل آخر بنفس منطقة مونمورنسي، قضى فيه الأعوام بين ١٧٥٧م و١٧٦٢م، وكان يُطلق عليه اسم «مون لوي»، فأصبح الآن متحفاً ثانياً لجان جاك روسو. وقد كتب روسو في هذا البيت أشهر كُتبه، ومنها «هلويز الجديدة»، وإميل، والعقد الاجتماعي. ويضم المبنى طابقين مليئين بآثار وتذكارات الفيلسوف العظيم؛ ففي المدخل، نرى البارومتر الذي كان يعتمد عليه روسو في معرفة أحوال الطقس كيما يحدّد أوقات نزحاته الخلوية أو عمله خارج البيت، ثم تمثالاً نصفياً من صنع النحات «أودون». وكان الطابق الأول مخصصاً لتيريز، وهي رفيقة روسو التي تزوّجها بعد ذلك، وغرفة الطعام والمطبخ. أما الطابق العلوي فكان مخصصاً لغرفة نوم روسو، فنرى فيها سريره، وغرفة مكتبه التي لا تزال بها المنضدة التي كتّب عليها روايته «هلويز الجديدة». كما نرى في خارج المبنى المقعد والنضد الحجريّين اللذين تعود الكاتب أن يعمل عليهما حين يسمح الطقس بذلك. ويضم المتحف أيضاً المخطوطات والطبعات النادرة لكتبه.

بقية رحلة ١٩٩٣م

وقد ألقى روسو بظلاله أيضًا فيما بقي من الرحلة؛ فبعد شامبيري رحلنا إلى مدينة «فيين»، المشهورة بالمدْرَج الروماني فيها، ثم إلى مدينة ليون، التي تردّد ذكرها كثيرًا في حياة جان جاك. ومكثنا عدة أيامٍ فيها في فندقٍ صغيرٍ جميل، بعد أن أودعنا السيارة في جراجٍ أسفل ميدان بلكورت الضخم في وسط المدينة. وكانت ليون قديمًا عاصمة بلاد الغال، فرنسا قديمًا؛ ولذلك تكثرُ فيها الآثار الغالِيَّة، والرومانية، فزرنا تلك المواقع، والمتحف التاريخي للمدينة. وقضينا وقتًا طويلًا في زيارة مُتحَف الطباعة فيها، المكوّن من عدة أدوار، وكذلك مُتحَف الفنون الجميلة.

وفي طريقنا من ليون إلى فيشي، مررنا ببلدة «لامبير» وبها مصنعٌ صغير شهير لصنع الورق الثمين المزخرف بالأزهار. وشهدنا كيف يصنعون ذلك النوع من الورق على الطبيعة، ثم ابتعنا عددًا من تلك الأوراق التي طُبِع عليها سلفًا قصائد مشهورة وأقوال مأثورة.

وقد ذهبنا إلى فيشي لشهرتها بمياهها المعدنية، وبكونها كانت محل الحكومة الفرنسية الموالية للألمان، التي قامت فيها برئاسة الماريشال بيمان. وقد كانت كذلك في طريقنا إلى فونتنبلو، فباريس؛ حيث اختتمنا تلك الزورة الجميلة.

رحلة فان جوخ عام ١٩٩٥م

أما عام ١٩٩٥م فقد حملنا إلى جنوب فرنسا، بدفئه وجماله وفنونه، خاصة الرسام الشهير فنسنت فان جوخ (واسمه الأخير يُنطق جوج بالإنجليزية، وينطق خوخ بالهولندية). ورغم أن فنسنت هولندي الجنسية، فقد كانت سنوات إقامته بفرنسا هي التي كرّس حياته فيها تمامًا للرسم والفن.

وقد عرفتُ فان جوخ منذ أيام الطلّب في الجامعة، حين وقع في يدي تقويمٌ سنوي به لوحاتٌ لفنانين منهم فان جوخ، وتعجّبتُ من الخطوط الملتوية التي رَسَم بها الأشجار، وخلصتُ إلى أن هذا كان نتيجة جنونه الذي قرأتُ أنه أصيب به، ولكن لوحته تركت في نفسي أثرًا بالغًا منذ أيامها. ورأيتُ بعد ذلك عدة لوحاتٍ للفنان في مُتَحَف جي دي بوم بباريس، وقرأتُ عن حياته ولوحاته. وحين ذهبتُ إلى نيويورك للعمل هناك، كان من حُسن حظي الفني أن واحدةً من لوحات فان جوخ المفضّلة عندي — الليلة المرصّعة بالنجوم — كانت في مُتَحَف الفن الحديث هناك، مما أتاح لي الاستمتاع برؤيتها مرارًا وتكرارًا.

وفي الرحلة إلى جنوب فرنسا، عام ١٩٩٥م، فضّلنا أن نبدأها من هناك — من الجنوب — توفيرًا للوقت والجهد، فحجّزنا عربةً من مرسيليا، وتوجّهنا إلى مرسيليا من باريس في القطار الفرنسي السريع المسمى T.G.V. والقطار كان فائق السرعة فعلاً؛ فقد قطع المسافة الطويلة في أربع ساعاتٍ ونصف الساعة فحسب، بيد أنه لم يكن مريحًا تمامًا بسبب ضيق المسافات بين المقاعد، مما جعل الجلسة متعبة والانتقال صعبًا، ولكن ما إن وصلنا حتى استعدنا نشاطنا، ونزلنا في فندقٍ مناسب، واستعدّنا لاستكشاف مرسيليا. وكنتُ قد مرّرتُ على هذه المدينة في طريقي إلى برشلونة، ومكثتُ فيها عدة ساعات كل مرة، ولكن ذلك كان منذ سنواتٍ بعيدة.

ومارسيلىا مدينةً ساحليَّة هامة، يقترب سكانها من مليون نسمة، وتُطل على البحر الأبيض المتوسط، وهي كمعظم المدن الفرنسية تنقسم إلى الحي القديم والأحياء الجديدة، ولكن قلبها النابض هو الميناء، وهناك ميناءان؛ الميناء القديم والميناء الجديد. وقد زُرنا الميناءين، وأخذنا جولةً بالباص مع مرشد، طافت بنا جميع أنحاء المدينة، وصعدت بنا إلى حيث كنيسة نوتردام دي لا جارد، التي تقوم على قمة جبل. وقد وجدت صعوبة في تتبُّع حديث الناس في مرسيليا بسبب اللهجة الخاصة التي يتكلمون بها، وقد أحببتُها لطرافتها وللنطق فيها ببعض الحروف التي لا تُنطق في الفرنسية! وفي يومٍ تالٍ، أخذنا قاربًا كبيرًا من عند الميناء القديم اتجه بنا إلى «شاتو دي إيف»، وهو مكانٌ سياحي اشتهر بعد أن ورد في رواية إسكندر ديمَا «الكونت دي مونت كريستو». وقد تم تشييد القصر أساسًا كحصنٍ يحمي المدينة من غزوات البحر، وبعد ذلك استُخدم كسجنٍ يضمُّ الخطيرين على الدولة، وما تزال الزنزانات على حالها، وعلى جدرانها ما كان السجناء يكتبونه بأظافرهم من شكايات.

وقد زُرنا كذلك معظم المتاحف التي تضمُّها مرسيليا، ومنها مُتحَف «مارسيل بانيول»، الكاتب والسينمائي الذي أمتعنا بكتبه وأفلامه ومنها «جان دي فلوريت» و«مانون دي سورس» و«أمجاد أبي» و«قصر والدتي»، وهي كلها من تأليفه وإخراجه. وقد ابتعنا كُتبه تلك من مرسيليا أيضًا.

وبعد أن أخذنا كفايتنا من مرسيليا توجَّهنا إلى «إكس آن بروفانس»، قلب الإقليم النابض. وبعد أن اطمأنَّا إلى الفندق ومكانٍ للعربة، توجَّهنا إلى المدينة، وبها شارعٌ عريض تظللُّه الأشجار الضخمة، وتحفُّ به المحلات من كل صنفٍ ولون. وابتعنا التذكارات التي نريد، ومنها لعبة من البلاستيك تُمثِّل الزيزران، الحشرة-الطائر التي تزخر بها المدينة والريف وتطنُّ باستمرار من على فروع الأشجار. وقد ذكَّرت بطاقة في الفترينة أنها تُعني إذا وُضعت تحت الشمس؛ وحين سألنا البائع في الداخل إذا كان ذلك صحيحًا، فأجاب أن نعم، ولكن لا يسمع شِدوها إلا من كان شفيف القلب محبًّا للطيور والحشرات!

وأهم فنانٍ في المدينة هو بول سيزان، الذي وُلد فيها وتعرَّف إلى الروائي الكبير إميل زولا في المدرسة هناك. وبعد إقامته في باريس، عاد إلى إكس، واستقرَّ فيها بقية عمره. وهناك جولة سيزان التي تقود الزائر إلى الأماكن التي تتعلق بالرَّسام الشهير، عبْر لوحاتٍ نحاسية في الأرض تشير بأسهم إلى الأماكن التي ارتبطت بسيزان في المدينة. بيد أن مُتحَف

الفنون الجميلة في إكس آن بروفنس لا يحتوي إلا على عددٍ قليل من لوحاته التي توزَّعت على العديد من متاحف العالم.

وبعد ذلك سرنا على درب فان جوخ، فتوجَّهنا أولاً إلى مدينة «آرل»، حيث توجَّه إليها فنسنت سعيًا وراء شمس الجنوب التي يستطيع في ظلالها التعمُّق في دراساته للضوء، وكان يحلُم بإقامة مستعمرة للرسميين هناك؛ حيث يعملون جنبًا إلى جنب، ويتبادلون الخبرات الفنية. وقد حرَّصنا عند وصولنا إلى آرل على اختيار فندقٍ مناسب بالقرب من ميدان لامارتين، الذي كان به منزل فان جوخ، الذي دمَّرتَه الغارات الألمانية في الحرب العالمية الثانية. بيد أن المنطقة تزخر بذكريات الفنان عن ذلك المكان، ونهر الرون الذي رسَّمه عدة مرات. وقد أعادت تلك الزيارة إلى أذهاننا تفاصيل حياة فان جوخ فيها، واشتركنا في جولةٍ فنية عن الفنان، مع شرحٍ وافٍ من أحد المتخصِّصين في الموضوع.

فقد وصل فان جوخ إلى آرل بالقطار من باريس في ٢٠ فبراير ١٨٨٨م؛ حيث خيَّبت آماله الأولى بالثلج الذي وجده يغطي كل شيء هناك، وبمشاكله مع صاحب الفندق الذي كان يتشاجر معه بسبب اللوحات والألوان التي كان فنسنت ينثرها في كل مكان، ولكن موقفه يتغير بعد أن تعرَّف على ساعي البريد «جوزيف رولان» الذي ساعده على استئجار منزلٍ صغيرٍ بسعرٍ رخيص، اشتَّهر بعد ذلك باسم المنزل الأصفر بعد أن خلَّده الفنان بلوحةٍ تحمل ذلك الاسم. وكان رولان هو صديقه الوحيد في تلك المدينة، فرسَم له فان جوخ أربع لوحاتٍ مختلفة. وقام الفنان بالعمل المستمر في كل الأنحاء، فطَفَّق يرسم الحقول والفلاحين والأنهار والكباري واليادين والمقاهي والناس. ولما اشتدَّت عليه وطأة الوحدة، أرسل إلى صديقه الرسام بول جوجان يتعجَّله الذهاب إليه في آرل. وحضر جوجان بالفعل، وأقام معه في المنزل الأصفر، وشرعا يرسمان معًا ويتناقشان في أمور الفن، ولكن حدة طبع فان جوخ وبدائية جوجان جعلتاها في شقاقٍ مستمر، انتهى بالحادثة المشهورة التي قطعَ فيها فنسنت جانبًا من أذنه.

ودفعت تلك الأحداث سكانَ آرل إلى كتابة التماسٍ يحتجُّون فيه على وجود ذلك «المجنون» في بلدتهم، ويطلبون إبعاده عنها. وتوفَّر الطبيب «فيلكس ري» بمستشفى آرل على علاج فان جوخ، وأوصى — بموافقة ثيو أخي فنسنت — بإلحاقه بمصحَّة «سان بول» ببلدة سان ريمي القريبة من آرل. وقد رسَّم الفنان صورة الطبيب امتنانًا منه له، ولكن والدة الطبيب لم تُعجبها اللوحة، فاستخدمتها لسد ثغرة في أحد أبواب منزلها! واللوحة موجودة الآن في مُتحَف بوشكين بموسكو.

وقد تعجّبنا من المعاملة التي لقيها فان جوخ من سكان آرل؛ إذ إن البلدة كلها تعيش الآن سياحيًا على اسم فنسنت فان جوخ وأثاره هناك، وكل المحلات تباع تذكاراته وبطاقات لوحاته والكتب التي ألّفَت عنه. ورغم ذلك لا يُوجَد في آرل أي لوحة أصلية من لوحات فان جوخ، وإنما هي خُطاه وروحه ووجوده يلمسها الزائر في كل أنحاء المدينة. وقد شَهِدنا الكثير من الأماكن التي خلّدها الفنان في لوحاته، وقضينا ساعاتٍ طويلة نتأمل الشمس وغروبها على شاطئ نهر الرون، وبذلك رأينا على الطبيعة نموذجًا للوحته الخالدة «ليلة مرصعة بالنجوم فوق نهر الرون»، ورأينا المستشفى الذي خضع فيه للعلاج في آرل، ورسم فيه حديقته التي وجدناها على ما هي عليه، وزرنا حدائق المقبرة الأثرية التي رسمها كلٌّ من فان جوخ وجوجان، كلٌّ بأسلوبه الخاص.

وقبل أن نتوجّه إلى سان ريمي، وجدنا أنّ آرل التي كانت جدًّا قاسية على فان جوخ قد قست علينا أيضًا؛ فحين توجّهنا صباح الترحال إلى السيارة التي كنا نتركها في ميدان لامارتين، وجدنا أن بها شيئًا مختلفًا. وسرعان ما اكتشفنا سرقة الدوائر النحاسية البرّاقة من الإطارات! وكانت مفاجأة سخيفة أضاعت علينا الكثير من الوقت في الإبلاغ عن السرقة، خاصة أن اليوم كان الأحد والكل في إجازة.

وفي سان ريمي، التي قضى فان جوخ ما يربو على السنة في مَصَحّة سان بول بها، قمنا بالجولة التي يُعدها مكتب استعلامات المدينة مع إحدى المتخصّصات في فن فان جوخ. وقد استمتعنا بشرحها وهي تقودنا إلى المَصَحّة وتبيّن لنا مستعينةً بنسخٍ معها من لوحات الفنان طبيعة حالته النفسية حين كان في سان ريمي. وقد أنجز فان جوخ العديد من اللوحات المشهورة إبّان وجوده في المَصَح، منها «الليلة المرصعة بالنجوم»، و«أزهار السوسن»، و«سجناء في فترة الراحة»، وغيرها. وقد شاهدنا المنطقة التي تحيط بالمَصَح، وبها الكثير من أشجار السرو وأشجار الزيتون. ويعود بداية رسم الفنان لأشجار السرو إلى تلك الفترة، وكتب إلى أخيه ثيو أنها تفتّنه بسموقها الذي يشبه المسلات الفرعونية القديمة.

وبعد خروج فان جوخ من مصحة سان بول، يزور أخاه ثيو في باريس، ثم يتوجه إلى بلدة «أوفير سيرواز» جنوب باريس؛ حيث اعتزم البقاء هناك ليرسم تحت رعاية طبيب يدعى «جيشيه». وذهبنا إلى تلك البلدة، بيد أننا لم نجد فيها أي فنادق أو بنسيونات يُمكننا البقاء فيها بالليل، فعُدنا إلى مدينة «بونتواز» على مبعده ربع ساعة بالسيارة من أوفير، ثم بگَرنا صباحًا إليها؛ حيث قضينا اليوم بكامله ننتبّع آثار فان جوخ هناك. وأهم

تلك الآثار في أوفير هو مقهى فان جوخ الذي يعلوه البيت الصغير الذي تُوفيُّ الفنان فيه، بعد أن أطلق الرصاص على نفسه في حقلٍ مجاور بينما كان يرسم هناك. والبيت الآن متحف يؤمُّه الزوّار، وشاهدنا فيه غرفةً فان جوخ التي استأجرها بعد وصوله إلى أوفير، وبالمتحف صالة مبيعاتٍ لكل التذكارات التي يُمكن تخيلها عن الفنان ولوحاته. أما المقهى فيتحوّل في ساعات الطعام إلى مطعمٍ فاخرٍ يقدّم وجباتٍ غالية الثمن. وفي مواجهة المقهى يُوجد مبنى البلدية، الذي رسمه فان جوخ في لوحةٍ مشهورة.

وبعد الغداء، صعدنا في الطريق الذي يقع خلف المقهى، ورأينا الفيلات على الجانبين، ومنها منزل الدكتور جاشيه، ثم في النهاية نصل إلى كنيسة أوفير التي خلّدها الفنان في لوحةٍ جميلة هي الآن في متحفٍ دورسي بباريس. وعند زيارتنا وجدنا عروسين يحتفلان بزواجهما في الكنيسة، مما خفّف من وقع ما رأيناه من أواخر أيام فان جوخ المأساوية. وفيما وراء الكنيسة، هناك طريقٌ طويل يشقّ حقول القمح المترامية الأطراف، التي طالما رسمها الفنان في كثيرٍ من لوحاته، فعاد إلى ذهنينا لوحته الأخيرة «غربان فوق حقل قمح»، وهي نذيرٌ بالنهاية الأليمة التي لاقاها فان جوخ في أوفير؛ إذ أطلق النار على نفسه وسط أحد هذه الحقول، ومات بعدها بأيامٍ قليلة في حجرته بأعلى المقهى المذكور. ويقودنا الطريق كذلك إلى مقبرة البلدة؛ حيث دُفن فان جوخ في ٣٠ يوليو ١٨٩٠ م. وهو يرقّد هناك إلى جوار أخيه ثيو، الذي مات بعده بستة شهور في هولندا، ونقلت زوجته جثمانه ليرقد إلى جوار أخيه في أوفير ... وقد قمتُ أنا وآن ماري — بعد أن أكملنا طوافنا بأماكن فان جوخ الفرنسية — بوضع زهرتين من تلك الزهور — التي هام بها الفنان، ورسمها في كثيرٍ من لوحاته — على مثواه هو وأخيه، تذكّارًا لزيارتنا، وتقديرًا لهذا الرسّام الذي أمتعتنا لوحاته، وما تزال تُمتعننا في كل حين.

فيما وراء فان جوخ

وقد زُرنا مواقعَ أخرى في جنوب فرنسا، غير مرسيليا وفان جوخ؛ فقد توجّهنا حين كنا في آرل إلى منطقة «فونيفي» وبها «طاحونة ألفونس دوديه» (١٨٤٠-١٨٩٧ م)؛ حيث كان الشاعر الكبير يُحب أن يزورها، ليستمع إلى أحاديث الفلاحين وهم يأتون إليها لطحن غلالهم. وهي الآن بمثابة مُتحفٍ صغيرٍ يضم آثارَ الكاتب ومخطوطاتٍ له، بالإضافة إلى كتاب «رسائل من طاحونتي» بكل اللغات التي صدر بها، ورأينا النسخة العربية التي صدرت للكتاب في بيروت.

وذهبنا كذلك إلى بلدة «بوكير»؛ حيث يُقام احتفالٌ ليس له نظير عند مشارف قلعتها؛ فهناك يقوم شبابٌ متدربون يرتدون ملابس العصور الوسطى بإطلاق نسور وصقورٍ جارحة في الهواء، ويقودونها بإشاراتهم وكلامهم وصفيرهم إلى القيام بما يريدون من حركات وطيّران وعودة إلى أماكنها. ويتجمّع السيّاح من كل المناطق القريبة لمشاهدة ذلك العرض الجميل في كل مرة يُقام فيه.

وبعد ذلك، اتجهنا إلى مدينة مونبلييه، وهي التي كانت في ذهني حين كنا نفكر في الاستقرار في فرنسا بعد التقاعد من عملي في الأمم المتحدة، شجّعني على ذلك ما سمعته من مُناخها المعتدل، ومن الحياة الهادئة التي تسودها بالقياس إلى المدن والعواصم الكبيرة. وبالفعل شاهدنا بعض إعلانات المنازل في واجهات مكاتب العقارات هناك، بيد أننا لم نتخذ قرارًا بشأن ذلك. وقلب المدينة النابض هو ميدان «كوميدي» الفسيح، الذي يمتلئ بالمطاعم والمحلات، وتتفرّع منه الشوارع الرئيسية التي تؤدي إلى قوس النصر بالمدينة. وقد قمنا بالجولة التي يُعدها المكتب السياحي مع مرشد، وشاهدنا الأبنية القديمة بالمدينة، وصعدنا داخل قوس النصر وشاهدنا المدينة كلها من أعلاه. وكنتُ حريصًا على زيارة مباني جامعة مونبلييه؛ حيث درّس طه حسين في كلية الآداب بها. وعلمنا أيضًا أن الروائي الفرنسي المشهور «فرانسوا رابليه» قد درس أيضًا في الجامعة، وإنما في كلية الطب التي اشتهرت بها مونبلييه منذ العصور الوسطى.

وبعد كل هذا، أخذنا وجهتنا إلى أثرٍ آخرٍ عظيم؛ حصن كاركاسون، الذي أطلق عليه العرب اسم «قرقشونة». والمدينة كلها تتركّز داخل الحصن الفسيح، الذي يضم بين جنباته المحلات والمطاعم وأماكن الاحتفالات والمهرجانات. وقد وصلنا إلى قرقشونة في ظهر يومٍ شديد الحرارة، وقد بلغ بنا الجوع والعطش مبلغًا كبيرًا، فنزلنا في أول فندق وجدناه خارج الحصن، وكان فندقًا من الدرجة الأولى، وجدنا به الميني بار الذي أطلقاً منا الجوع والعطش إلى حين! وبعد قليلٍ من الراحة انطلقنا فعبرنا قنطرة تؤدي إلى الحصن-المدينة، ووجدنا أنفسنا في شيءٍ أشبه بما وجدناه سابقًا داخل «مون سان ميشيل». وطفنا بالمحلات من كل نوع وصنف، واشترينا تذكارات عليها صور الحصن، ومطبوعاتٍ عن فرقة الكاثار، التي انتشرت في تلك المنطقة في القرن العاشر، وهددت العقيدة الكاثوليكية، التي اعتبرتُها فرقةً مُهرطقة؛ إذ كانت تنادي بعدم وجود وسيط بين الإنسان والله، ولا يعترفون بسلطة البابا المطلقة ولا بعصمته. وحين ازداد نفوذ الكاثار وتكاثر أتباعهم، شنت عليهم الكنيسة حملةً كبيرة، وكانوا هم السبب في إنشاء أول محكمة

للتفتيش لتتبع الكاثار وإحراقهم وإبادتهم. وترتبط محاكم التفتيش بإسبانيا أساسًا، ولا يعرف الكثيرون أن أصلها فرنسي، وأنها أنشئت كي تستأصل شأفة الهراطقة الكاثار، ويُسمَّون أحيانًا «الألبيين» نسبةً إلى مدينة «ألبى»، التي انتشروا فيها أيضًا.

وأخذنا قطارًا صغيرًا طاف بنا في أنحاء حصن قرقشونة، ونحن نسمع تسجيلًا يشرح تاريخ الحصن، ويصف الأماكن التي نعبر بها. وبعد ذلك اتخذنا أماكننا لمشاهدة عرض فروسية، مما كان يجري في القرون الوسطى بين الفرسان في مبارزاتهم، بملابس ذلك العصر التقليدية. وكان المساء قد حل، وإذا بالحصن كله يكتسب روعةً وبهاءً تحت الأنوار، التي توزعت بين أنحائه بطريقةً فنيةً رائعة.

ولاستكمال نصيب فن التصوير في هذه الرحلة، ذهبنا إلى مدينة «ألبى» مقر الرسام «تولوز لوتريك» وبها مُتحفه الذي زُرناه، واشترينا منه نُسخًا من أشهر لوحاته، كما شاهدنا القصر الذي وُلد فيه، والذي شهد مأساة سقوطه من سلمه، وإصابته بضمور النمو. واستعدنا الفيلم الجميل الذي شاهدناه عن حياته بعنوان «المولان روج»، والذي كنتُ قد شاهدته قبل ذلك في سينما كايرو بالقاهرة.

ويبقى من تلك الرحلة زيارتنا لمدينتين كبيرتين من مدن فرنسا، هما تولوز وبوردو. وقد طُفنا بكل ما في المدينتين في رحلاتٍ منظمّة بالأوتوبيس، فرأينا معالم المدينتين، ثم تجوّلنا فيهما بعد ذلك على مهل.

رحلة آرثير رامبو عام ١٩٩٧م

وكانت إجازة الوطن عام ١٩٩٧م هي آخر رحلاتي في فرنسا؛ إذ أتممتُ فيها ما بقي لي من مدنٍ أودُّ زيارتها، وأهمها مدينتا «ليل» و«كاليه»، ثم بعد ذلك، وهو الأهم، زيارة مدينة شارلغيل، موطن آرثير رامبو. كما اشتملتُ الزيارة على بلجيكا وهولندا أيضًا، لإكمال السير في خُطى فان جوخ برؤية المتحف المخصَّص له في بلده الأصلي.

وكانت وجهتُنا الأولى إلى مدينة «إميان»، وفي الطريق إليها مررنا ببلدة «كومبيني» وبها ذكرى تاريخية غريبة؛ فحين دلفنا إلى طريقٍ جانبي منها، وجدنا مُتحفًا لعربة القطار التي شَهِدت توقيع أكثر من معاهدة استسلام بين فرنسا وألمانيا. وتبدأ القصة التاريخية عقب انتصار فرنسا على ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وفرضها شروطًا قاسية لإنهاء الحرب؛ فقد قام الجنرال الفرنسي فوش باستقبال الوفد الألماني لتوقيع الهدنة في عربة قطار في غابةٍ بالقرب من بلدة كومبيني، وبعدها أقامت فرنسا في المنطقة نفسها تذكاراتٍ عديدة لذلك الانتصار، منها ساحةٌ كبيرة عليها صفحةٌ من الجرائد مكتوب عليها: «إلى جنود فرنسا الأبطال ... حُماة الوطن والحق ... المحرِّرين الأمجاد للألزاس واللورين»، ونُصِبَ آخر يمثل الصقر الألماني يلقي مصرعه، وتحتة عبارة: «هنا، في يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨م، لقي كبرياء الإمبراطورية الألمانية مصرعه، بعد أن دحره الشعب الحر الذي كان يسعى إلى استعباده»، ثم تمَّت إقامة تمثالٍ للجنرال فوش في المكان نفسه. وعلى هذا، حين انتصرت القوات الألمانية على فرنسا في يونيو ١٩٤٠م، في أثناء الحرب العالمية الثانية، أصرَّ هتلر على توقيع الهدنة بين البلدين في نفس المكان، وفي نفس عربة القطار التي شَهِدت توقيع الهدنة السابقة، بل وحضَّر بنفسه إلى العربة، وجلس في المقعد الذي سبق أن جلس فيه الجنرال فوش. وكانت الشروط الألمانية للهدنة أقسى كثيرًا من شروط فرنسا عقيب الحرب العالمية الأولى؛ فقد احتل الألمان حوالي ثلثي الأراضي الفرنسية،

والإبقاء على أسرى الحرب الفرنسيين إلى حين انتهاء الحرب. وبعد الهدنة، أزالَت الجِرافات الألمانية معالم المكان الذي كانت فيه عربة القطار، ونقلت العربة ذاتها إلى برلين. وخشية من تكرار نفس السيناريو بعد ذلك، حطَّم الألمان العربة عشية هزيمتهم النهائية عام ١٩٤٥م. وفيما بعدُ، أعد الفرنسيون نموذجًا للعربة وضعوها في نفس المكان على سبيل التذكُّار ليُشاهدَها الزوَّار مثلنا. بيد أن ما أثار دهشتي هو أن محل التذكُّارات الذي كان مُلحقًا بالمكان السياحي، كالعادة، كان يبيع ضمن بطاقاته التذكارية صورةً لهتلر!

وبعد ذلك وصلنا إلى مدينة «إميان»، وهي شهيرة بكاتدرائيتها السامقة، وبمستنبتاتها التي يزورها السياح في قارب يأخذهم في جولة ما بين المزروعات والأشجار والجُزر الصغيرة في مشاهد فاتنة، ولكن ما أهُمَّنَا في المدينة هو متحف جول فيرن؛ فرغم أن فيرن قد وُلد في مدينة «نانت»، فقد عاش فترةً طويلة في إميان؛ حيث كتب في أثناء ذلك عددًا من أشهر كُتبه، ومنها «حول العالم في ٨٠ يومًا». ومُتَحَفُه هناك يضمُّ كثيرًا من الوثائق المتعلقة به وبكُتبه، من مخطوطاتٍ ونُسخٍ من الطبعات الأولى لكُتبه، وهو ما فتنتني؛ فقد بدأتُ أعد العدة لجمع الكتب النادرة، خاصة الطبعات الأولى وتلك الممهورَة بتوقيع مؤلفيها. وبالمتحف أيضًا عددٌ من مقتنيات فيرن وأثاثه، ومنها المكتب الذي كان يستخدمه.

وفي مدينة «أراس» استمتَعنا بَغْداءٍ شهِي في الميدان الفسيح للغاية هناك، وذلك قبل أن ننطلق إلى مدينة «ليل» المركزية، وليل بلدٌ صناعيٌّ هام بالنسبة لفرنسا، وعملتُ أيضًا على إثرائه ثقافيًّا وفنِّيًّا؛ ففيه مُتَحَفٌ للفنون الجميلة يجمع بين جدرانه أمثلةً شهيرة لمدارس الرسم والنحت المختلفة، وشاهدنا فيه لوحاتٍ جميلة لكلود مونيه وجويا وغيرهما. وفي جولةٍ إرشادية لنا في المدينة، شاهدنا ما بها من معالم هامة، ومنها ما ذكره المرشد بأنها أكبرُ دارٍ لبيع الكتب في أوروبا. وغنيٌّ عن الذكر أننا قضينا وقتًا طويلًا بعد ذلك في تلك المكتبة الضخمة، ووجدنا فيها كتبًا بمختلف اللغات، وإن كنتُ أشك في كونها أكبر مكتبةٍ أوروبية!

وفي مدينة «كاليه»، أقرب نقطةٍ فرنسية إلى دوفر بإنجلترا (٣٨ كيلومترًا)، رأينا محطة القطار السريع، الذي يربط باريس بلندن تحت البحر، وتأمَّلنا أصل منحوتة رودان الشهيرة «سادة كاليه»، بينما كنتُ أستعيد قصتها التاريخية التي تعود إلى عام ١٣٤٦م؛ ففي أواخر ذلك العام قام ملك إنجلترا، إدوارد الثالث، بحصار كاليه حتى استسلم أهلها بعد ثمانية أشهر من الشدة والضيق، وعندها تقدَّمت مجموعةٌ من سادة المدينة وقد وضعوا الأغلال عليهم إلى الملك يفتدون أهل المدينة، بيد أن الملكة فيليبين عَفَّت

عنهم؛ ولم تُعد كاليه إلى السيادة الفرنسية سوى عام ١٥٥٨م. والتمثال رائعة من روائع رودان، التي وضعتها المدينة في المكان اللائق بها. وفي المدينة متنزه ضخم جميل التنسيق، به مُتحف عن الحرب العالمية الثانية يضم وثائق وصوراً نادرة عن مسار الحرب وتواجد الألمان في فرنسا.

وعند خروجنا من المدينة مررنا شمال كاليه على شاطئ جميل ذكرني بالإسكندرية في أيام عزها. وعند توجُّهنا إلى دنرك استعدت دور تلك المدينة في الحرب العالمية الثانية؛ ذلك أن الحلفاء كانوا قد حشدوا قواتهم هناك قبل أن تفصل قوات المحور الطريق بينهم وبين بقية فرنسا، وكانت على وشك الإيقاع بجنود الحلفاء لولا تحرُّكهم السريع للانتقال بحرًا إلى إنجلترا، وبهذا أمكن إنقاذ ٣٥٠ ألف ضابط وجندي من الأسر. وكنت أعتقد أنني سأجد في المدينة تذكارات لذلك الحدث العظيم الذي غير مسار الحرب، ولكني لم أجد أي ذكرٍ عنه فيها! وقد دُمِّر حوالي ٨٠٪ من المدينة في الحرب، ثم أعيد بناؤها بعد ذلك كي تصبح ثالث أهم ميناء بحري في فرنسا.

وبعد دنرك كان علينا الخروج من فرنسا إلى بلجيكا، فكان الطريق السريع يقود من دنرك إلى مدينة «أوستند» في بلجيكا. وقد عبرنا الحدود الفرنسية إلى داخل بلجيكا دون أي حاجز أو جمارك أو جوازات سفر؛ فقد كانت اتفاقية شنجن قد سرى مفعولها، وأصبح من يحمل تأشيرة دخول لإحدى الدول المنضمة للاتفاقية له الحق في دخول الدول الأخرى. بيد أنه حين دخلنا الحدود البلجيكية وجدت نظام الشوارع والبيوت مختلفًا، فصرنا نتنقل بحذر وببطء كي نرى أنماط الاختلاف رغم تجاور البلدان، وكى نبحت عن مكان نُبدل فيه بعض النقود إلى فرنكات بلجيكية. بيد أننا وصلنا إلى أوستند دون العثور على مكانٍ مصرفي؛ فقد كان اليوم يوم أحد والمصارف مغلقة. وتركنا العربة في وسط المدينة، وحاولت سحب نقود بلجيكية ببطاقة الفيزا، ولكن المحاولة لم تنجح. وسألنا في مكتب الاستعلامات السياحي، فأشاروا علينا بالبحث عند الشاطئ. وقطعنا طريقًا طويلًا أوصلنا إلى شاطئ أوستند الرائع، ووجدنا محلًا لاستبدال النقود، فتمكنا من ارتياد المطعم، وتمشينا على الشاطئ مستمتعين بالجو الجميل وروح الاصطياف. وسرعان ما توجَّهنا إلى محطتنا الأولى في بلجيكا، وهي مدينة «بريج» التي سمعنا بجمالها.

وبلجيكا لها وضعٌ فريد من الناحيتين التاريخية والسياسية؛ فأقاليمها قد توزعت على مدار التاريخ بين دول وإمبراطوريات وقوميات عديدة؛ فكانت تحت حكم الدولة الرومانية، ثم دوقيات فرنسا، وأصبحت زمنًا تحت حكم أسرة هابسبورج النمساوية، ثم

كوّنت مع هولندا دولة الأراضي الواطئة التي دخلت تحت حكم إسبانيا. واحتل نابليون تلك المناطق في اجتياحه لأوروبا، وبعده عادت بلجيكا إلى هولندا، قبل أن تثور ويعلن البلجيكيون استقلالهم عام ١٨٣٠م. وقد عانت بلجيكا من تعدّد قومياتها ولغاتها، ففي الشمال إقليم الفلاندر يتحدث اللغة الفلمنكية، بينما الجنوب يسوده اللغة الفرنسية، وتسود اللغة الألمانية منطقة الشرق. وفي عام ١٩٩٣م أصبحت بلجيكا دولةً فدرالية تتكوّن من ثلاثة أقاليم تتمتع بالحكم الذاتي، وهي الفلاندرز والونيا وبروكسيل.

وحين وصلنا إلى «بريج»، كان صعباً العثور على فندقٍ مناسب، إلا أن الحظ حالقنا بوجود غُرفٍ يؤجرها مشرب في الميدان الرئيسي، وتقع أعلى مبناه، كما كان هناك جراجٌ عمومي أسفل الميدان. وفوجئْتُ أن الغُرف في ذلك الفندق قد سُمّيت بأسماء فنّانين وفنانات مشهورين، وأن غُرفتنا هي جناح مارلين مونرو! وأنها قد احتوت على صورٍ لها من أفلامها المشهورة. وقد سرّرتُ لذلك؛ لأنني كنتُ من المُعجّبين بها، وأتوقّر على جمع الكتب التي تحدّثت عنها، وصورها، حتى إني اشتريتُ صورتين نادرَتين لها؛ الأولى وهي تقرأ رواية عوليس لجيمس جويس، والأخرى وهي ممسكة بديوان أوراق العُشب لوالث ويتمان، والكتابان من المؤلّفات المحبّبة جدّاً عندي. وكانت الغرفة فسيحة والحمام المُلحق بها فاخراً، فاستمتّعنا بالإقامة فيها. وكالعادة، اشتركنا في جولةٍ منظّمة في المدينة رأينا فيها معالمها الأساسية، ثم تجولنا في طرقاتها، وطالعنا ما فيها من مبانٍ شهيرة. وتُشتهر بريج بقنواتها العديدة التي تتخلل المدينة، والرحلات التي ينظّمها أصحاب القوارب للسياح للتجول عبر تلك القنوات، والتمتّع بمناظر المدينة على الجانبين.

وانتقلنا بعد ذلك إلى مدينة «أنتويرب» التي تكرّر ذكرها كثيراً في مجال طباعة الكتب المتنوعة سياسياً ودينياً في الدول الأوروبية. ومن الغريب أن المدينة تُعرف كذلك باسمها الفرنسي «أنفرس»، مما يدعو إلى الخلط في بعض الأحيان. وهي ثاني أكبر مدن بلجيكا بعد العاصمة بروكسل، كما أنها أحد أكبر موانئ العالم البحرية، وهي تزخرُ إلى جانب ذلك بالمتاحف، التي اكتفينا منها بزيارة متحف الطباعة؛ حيث اطّلعتنا على نواذر المطبوعات، ومنها إنجيل ريجيا المطبوع بخمس لغات، هي العبرية والسريانية والآرامية واليونانية واللاتينية. وفي المُتحف ما يربو على ٢٥ ألف مطبوعةٍ عتيقة، منها نسخة من إنجيل جوتنبرج، الذي لا يُوجد منه الآن سوى ١٣ نسخةً أصلية. وقد زُرنا كذلك منزل الرسّام الشهير روبنز (١٥٧٧-١٦٤٠م)؛ حيث يعرضون نماذج للغُرف التي كان يعيش فيها ومرسمه وبعض لوحاته. ونحن نتذكّر أنتويرب جيداً؛ إذ إننا نسينا الموقع الذي

تركنا السيارة فيه، وكِدنا نلجأ إلى الشرطة لتُعاوننا في العثور عليها، قبل أن نهتدي إلى مكانها.

واشترينا من إحدى مكتبات أنتويرب كتاب ميشلان عن هولندا، ثم انطلقنا إلى أول محطة هولندية لنا وهي «بريدا»، وجاوزنا الحدود إلى أراضي هولندا دون أي عائق أو توقُّف، وبعدها قمنا بتغيير بعض النقود إلى العملة الهولندية. وفي بريدا لم نعرَّ على أماكن في الفندق الذي وجدناه، وبعد لأيٍ قرَّرنا الذهاب إلى روتردام وقضاء الليل بها. وقد نزلنا هناك في أول فندقٍ وجدناه، وبعد راحةٍ ذهبنا للعشاء ولم نجد إلا مطعمًا فرنسيًّا غريبًا، كانت الخدمة فيه على النمط الكلاسيكي الفاخر رغم عدم وجود طاعمين غيرنا، ولكن أكله كان جيدًا، وخرجنا ونحن سعيدين. وكانت روتردام مرتبطةً في ذهني بمهرجانات السينما التي تُقام فيها، ولكن لم يكن أمامنا وقتٌ للبحث في ذلك؛ فبعد جولةٍ قصيرةٍ في صباح الغد في روتردام، أخذنا وجهتَنا إلى مدينة لاهاي عَبرَ بلدة دلفت، التي خلَّدها فرمير بلوحاته وبروست بإعجابه بلوحة «منظر من دلفت». ووجدنا دلفت بلدةً هادئةً، تُشتهر بالمصنوعات الخزفية، وبقنواتها الجميلة التي تتخلَّل كل شيء. وترجع شهرة البلدة إلى فرمير (١٦٣٢-١٦٧٥م) الذي عاد الاهتمام به من جديد في أواخر القرن العشرين، وتُعرض أكثر أعماله في لاهاي وأمستردام.

وعلى هذا، ففي لاهاي اجتهدنا في العثور على متحف «موريتس»، وضلَّلنا الطريق إليه وقتًا ما، نتيجةً للمساحة الكبيرة للمدينة وابتعاد الأحياء بعضها عن بعض، وكذلك لنقص الإرشادات المروية وعدم تفهُمنا لها؛ فمثلًا، نحن أخذنا اسم لاهاي عن الفرنسية، بينما هي في الإنجليزية «لاهيج» وبالهولندية «دن هاج»! وعثرنا أخيرًا على المتحف، وهو يضارع أثمن المتاحف رغم قلة لوحاته، بمجموعته من لوحات روبنز ورمبرانت وفرمير. وقد توقَّفتُ طويلًا أمام لوحات فرمير، ودخلتُ في لوحته منظر دلفت، التي قال عنها بروست إنها أجمل لوحة في العالم، ومدَّحها فان جوخ بأنها تفوق التصوير. ولوحاته كلها معبرة، خاصةً لوحته «الصبية ذات اللؤلؤة». كما أن لوحات رمبرانت بالمتحف تضم اللوحة الشهيرة «درس التشريح»، ولوحتهِ الذاتيتين اللتين رسم أولاهما في ١٦٢٩م، والأخرى في ١٦٦٩م، مما يتيح للمشاهد رؤية تطوُّر الرسَّام وفنه خلال مسيرته التصويرية.

وبعد زيارةٍ سريعةٍ لمحكمة العدل الدولية، مرَّزنا بالمدينة المصغرة المسماة «مادورودام»، وهي نموذجٌ مصغَّر لهولندا، بمبانيها وأبنائها، وأقيمت عام ١٩٥٢م للأطفال أساسًا، ولكنها أصبحت من المزارات الأثيرة للجميع.

وخرجنا بصعوبةٍ من لاهاي بعد أن عَجَزنا كثيراً من الهرب من «الرنج»، وهو البريفيريك هناك، متجهين إلى نقطة الأساس؛ أمستردام. والغريب أنه بعد دخولنا إلى أمستردام، وجدنا أنفسنا في وسط الحي العربي فيها، فاستفدتُ من هذه الفرصة لشراء جريدة الأهرام الدولي من أحد المَحَال. وبعدها تجوَّلنا بحثاً عن فندقٍ مناسبٍ حتى وجدناه على مبعدةٍ دقائقٍ من مُتَحَفِ فان جوخ! ووجدنا الغرفة وحمَّامها فاخرين، وكان صاحب الفندق هولندياً أصيلاً، دلَّنا على جراجٍ قريبٍ لعربتنا وضعناها به إلى حين مغادرتنا هولندا. ولم يكن ممكناً تناول الإفطار في الغرفة، بل في الطابق الأسفل؛ حيث يقوم الرجلُ وزوجتهُ بخدمة النازلين بإفطارٍ شهي، ويتبادلان الحديث معنا. وقد استفهمتُ منه عن نطق اسم «جوخ» بالهولندية الأصيلة، فإذا بها تكون «خوخ» أو بالأحرى «خُخ» بعدم إطالة الواو!

وكان طبيعياً أن تكون أول زيارة لنا المُتَحَفِ المخصَّص لفان جوخ، وقد افتُتِح في عام ١٩٧٣م، وهو من المتاحف النادرة المخصَّصة لأعمال فنانٍ واحد. والمُتَحَفِ ذو تصميمٍ حديثٍ جميل، ويضمُّ أربعة طوابق؛ الأول مخصَّص للأعمال التي كانت سائدةً أيام فان جوخ في الرسم والنحت. والطابق الثاني يعرض أهم أعمال الفنان، وبه حوالي ١٠٠ لوحةً معروضة على نحوٍ زمني يتيح للمشاهد والباحث تبيين تطوُّر الرسم عند فان جوخ خطوةً خطوة، منذ أيامه في هولندا في نيونن وأنتويرب إلى باريس وأرل وسان ريمي وأوفير. والدور الثالث يضمُّ الأعمال الأخرى للفنان، ومجموعة رسومٍ يابانية كانت لدى فنسنت وأخيه ثيو، وتُعرض به مجموعات من خطاباتٍ ورسومٍ فان جوخ بالتبادل نظراً لحساسيتها للضوء. ويُخصَّص الطابق الرابع لمعارضٍ طارئةٍ مؤقتة.

وأهمية مُتَحَفِ فان جوخ هي أنه يجمع لوحاتٍ له من كل طَوَرٍ من أطوار أسلوبه؛ ففيه لوحتهُ المشهورة «أكلو البطاطس» التي ترجع إلى حقبة «نيونن» بهولندا. وبالمُتَحَفِ ٨٥ لوحةً رسمها فان جوخ في فرنسا، منها «المنزل الأصفر» و«غرفة الفنان» و«عباد الشمس»، بالإضافة إلى ١٨ لوحةً ذاتية self portrait. وقد توقَّفتُ طويلاً أمام لوحة «حقل قمح وغربان» وتبيَّنتُ كم هي تعبُّر عن عذابات الفنَّان، وهي لوحةٌ تُنبئُ بالمأساة التي انتهت بها حياته. ويذكرُ دليل المتحف أنه كان يُعتقد أنها آخرُ لوحاتِ فان جوخ، ولكن ثبت أن ذلك غير صحيح.

وقد لزم الأمر قضاء يومٍ في رحلةٍ إلى الريف الهولندي قبل أن نزور مُتَحَفِ أمستردام القومي «ريجكز» الذي يرجع تأسيسه إلى أيام لويس بونابرت عام ١٨٠٨م، وأصبح الآن

يضارع المتاحف العالمية في تنوع محتوياته وأهميتها. وجميع مدارس الرسم الهولندية والفلمنيكية ممثلة فيه، ويُخصّص قاعاتٍ عديدة لمربرات، وهو الذي قضينا أكثر الوقت أمام لوحاته. وبه أيضًا أربع لوحاتٍ جميلة لفرمير، أهمها «فتاة تصب اللبن». ويضمُّ المُتَحَفَ عرضًا لتاريخ هولندا منذ العصور الوسطى عن طريق اللوحات، التي شارك في رسمها «فان ديك». وبالمُتَحَفَ مجموعةٌ كبيرة من الفنون الآسيوية من التماثيل واللوحات والفنون التطبيقية من عديد من بلدان الشرق الأقصى.

وقد قمنا في اليوم السابق برحلةٍ لرؤية الريف الهولندي، وشاهدنا الكثير من طواحين الهواء التي تُشتهر البلاد بها، وزُرنا مصانعٍ ريفية لصناعة الجبن بأنواعه، ومصنعاً سياحيًا يحفر «القباقيب» الخشبية بألوانها الزاهية، والتي يعود صنُّها إلى القرون الوسطى.

وبالطبع، لا تكتمل زيارة أمستردام دون الإلمام بالمنطقة الحمراء فيها، التي ذاع صيتها في كل الأنحاء. ورغم أن أحياء البغاء موجودةٌ في كثيرٍ من المدن، فقد اشتهر هذا الحي الهولندي بعرض الفتيات في فتريناتٍ كالْبضاعة. وقد توقَّفتُ طويلًا في تأمل هذه الظاهرة؛ فرغم تحضُّر البلاد ورقيها، ودفاعها عن المرأة في كل مكان، كيف تسمح بمثل تلك المهانة العلنية؟! وكانت المشاهد غريبة؛ فالفتيات والنساء «المعروضات» من كل لونٍ وشكل، وبعضهن بالملابس الداخلية فقط، وما إن يفزَن بزبون، يُغلِقن الستار الكثيف، بما يُعلن للجميع أنهن مشغولات. وبعض الفتيات يقفن على الرصيف في انتظار الزبائن بالطريقة العادية في العواصم الأخرى. والغريب أيضًا أن تلك المنطقة تقع إلى جوار إحدى الكنائس، وكثيرًا ما رأينا القسس يدخلون الكنيسة، بينما فتاةٌ شبه عارية تقف على غير بعيدٍ منهم. ولا تقتصر صناعة الجنس في هولندا على ذلك؛ فهناك مُتَحَفٌ لتاريخ الجنس هو في الواقع مجرد مُتَحَفٍ بورنوجرافي وحَسَب، كما أن هناك مُتَحَفًا-محلًا للعوازل الطبية من كل لونٍ ونوع، وبعضها مغلفٌ على هيئة الحلوى أو الشيكولاتة! ومعروفٌ أيضًا أن هولندا تسمح باستخدام أنواعٍ من المخدرات الممنوعة في البلاد الأخرى، للاستخدام الشخصي.

ولكن، إلى جانب تلك الغرائب، استمتعنا بجمال القنوات المائية التي تتخلَّلُ أمستردام كلها، وتخلَّع عليها غلالةٌ رومانسيةٌ جميلة. وقد تعجَّبتُ حين كنتُ أحادث صديقًا لي بالهاتف من هناك حين ذكَّر لي أن أهم ما في تلك البلاد هو «الألماظ»، وهو ما يحرص الزوَّار المصريون على جلبه منها. وبالفعل، كنا نرى لوحاتٍ تُعلن عن محلاتٍ لبيع الماس

والمجوهرات، ولكننا كنا بعيدين كل البعد عن تلك الأمور؛ فقد كنا نبحث عن الفن والتاريخ والجمال.

وبعد أن أخذنا كفايتنا من هولندا، عُدنا ثانيةً إلى بلجيكا لزيارة العاصمة، فمررنا مرةً أخرى بعدة مدنٍ هولندية — منها أوترخت — قبل الوصول إلى أنتويرب ثانية، ومنها إلى بروكسل، العاصمة البلجيكية. وكان من أول الأشياء التي بحثنا عنها في وسط بروكسل بعد أن استقررنا في أحد الفنادق، الفندق الذي شهدَ حادثة إطلاق الشاعر فيرلين النارَ على آرثير رامبو في أثناء إقامتهما في بروكسل.

ففي عام ١٨٧٣م، رحل فيرلين إلى بروكسل وكتب إلى رامبو أن يَلْحَقَ به هناك، وهو ما فعله رامبو. وهناك، في أحد الفنادق بشارع «براسير»، عادا إلى الشجار والجدال، مما دعا فيرلين إلى التهديد بالانتحار، واشترى بالفعل مسدسًا من أحد محلات بروكسل. وفي غمرة شجارهما، أطلق فيرلين النار على رامبو فجرّحه في ذراعه. وأبلغ رامبو الشرطة فقبضت على فيرلين وقُدِّم للمحاكمة، وقضى عامين في السجن.

وقد بحثنا عن ذلك الموضع، وهو متفرع من «الميدان الكبير»، قلب بروكسل النابض، ولدهشتنا وجدنا لوحةً تذكاريةً مكتوبةً عن تلك الحادثة ونصّها كالآتي: «هنا كان يقوم فندق «كورتريه»؛ حيث قام بول فيرلين — يوم ١٠ يوليو ١٨٧٣م — بإصابة آرثير رامبو بجراحٍ من طلقة مسدّس». واللوحة وضعتُها الجالية الفرنسية في بلجيكا، في مناسبة الذكرى المئوية لوفاة آرثير رامبو، في ١٠ نوفمبر ١٨٩١م. والتقطنا بعض الصور للوحة التذكارية، مما أثار فضول المارة لمعرفة ما نصّوره؛ إذ لم يكن من أحدٍ يُلقِي بالاً لتلك اللوحة، والكل مشغول بالتمثال الشهير للطفل الذي يتبول، الذي اشتهرت به العاصمة، وهو يقع على ناصية شارع براسير.

وتتابعت زيارتنا لما هو مهمٌ في بروكسل، ومنه الميدان الكبير الذي يُشتهر بالزهور في مواسمها، والمحلات الأنيقة، وتجمّعات الشباب من كل أنحاء العالم.

وفي بروكسل عديد من المتاحف الهامة، على رأسها المتحف الملكي للفن والتاريخ، وبه نماذجٌ للحضارات المختلفة، بدءًا من حضارات الهلال الخصيب حتى العصور الحديثة، وبه مجموعةٌ كاملة من آثار الأسر الفرعونية كلها. وهناك متحفُ الفنون الجميلة الذي يضمُّ الكثير من روائع التصوير، من لوحات بروغل وروبنز ودافيد مصوِّر الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت، الذي نُفي إلى الأراضي المنخفضة بعد عودة الملكية في فرنسا. أمّا المتحف الفريد الذي تميّز به بروكسل فهو «المركز البلجيكي للرسوم المصورة»، الذي يعرض في

مبناه الضخم الفخيم تاريخ ذلك الفن، ونماذج للسلاسل التي اشتهرت فيه وعلى رأسها «تان تان».

وفي بروكسل مقر حلف شمال الأطلسي، ومقر مجلس الاتحاد الأوروبي. وقد اشتركتنا في جولة إرشادية طفنا فيها بأهم معالم المدينة وضواحيها.

وقبل العودة إلى فرنسا، كان لا بد من زيارة موقع تاريخي هام في مسارنا؛ واترلو، مسرح آخر معارك نابليون بونابرت ضد الحلفاء الأوروبيين الذين كانت قواتهم تحت قيادة ولنجتون. وقد أصبح ذلك الموضع بقعة سياحية، شهدنا فيه «ماكيت» يمثل سير المعارك، وعروضاً تصويرية عنها، بالإضافة إلى الكتب والتذكارات عن نابليون ولونجتون. وساحة المعركة يتوسطها ما يشبه التل الصغير تغطيه الخضرة، وفي جانبه سلم طويل يقود إلى القمة التي يعلوها تمثال حديدي يمثل أسداً، ويزن ٢٨ طناً. وقد أعادت تلك الزيارة إلى ذهني الكتب والأفلام العديدة التي دارت حول تلك المعركة، فوجدتها كلها ماثلة حية أمام عيني.

وبعد أخذ العبر من هذا التاريخ القتالي المرير، استرحنا في كافيتيريا واترلو، قبل أن نيمم وجهنا شطر المدينة التي بقيت لنا زيارتها في فرنسا الأدبية؛ شارلفيل، بلدة الشاعر الجوال آرتير رامبو. وبينما راحت السيارة تقطع بنا الطريق بين بلجيكا وفرنسا، كانت أبيات قصيدته الشهيرة «السفينة النشوى» تتردد في ذهني: «بينما رحل أهبط عبر أنهار جامدة، لم أعد أشعر بالملاحين يقودون خطاي؛ فقد صوب إليهم الهنود الحمر الصارخون سهامهم، وشدوهم عرايا إلى الصواري الملونة». وقد كنت دائماً أتساءل عند قراءتي المبكرة عن حياة هذا الشاعر، كيف ينتقل هكذا في صباه بين دولتين — بلجيكا وفرنسا — مشياً على قدميه في بساطة ويسر، كلما ضاق ببلدته وأسرته والقيود التي تفرضها عليه. وعندما وصلت بنا العربة إلى الخط الفاصل بين الدولتين، وضحت لي الإجابة على الفور؛ فقد كانت الحدود تتداخل، والطبيعة واحدة والجبال واحدة والأنهار واحدة. وما هو إلا وقت قصير حتى كنا في بلدة الشاعر.

وصلنا شارلفيل ونحن ننتوي المكوث فيها يومين، فتطاولا حتى بلغا سبعة. وكانت تجربة لا تنسى أن أسير على ضفاف نهر «الميز»، التي سار عليها الشاعر وهو يرقب مياه النهر، وأنا أتنقل بين ربوع البلدة التي تنقل فيها، وأرى المنزل الذي وُلد فيه، والمدرسة التي تعلم فيها، والتي تحولت الآن إلى مكتبة البلدية. وتُعطي الطبيعة الساحرة التي

تُحيط بالبلدة، والتي تصلُّها بالأراضي البلجيكية، فكرة طيبة عن كيفية انتقال رامبو مرارًا بين البلدين سيرًا على الأقدام.

وقد وُلد آرثير رامبو في ٢٤ أكتوبر ١٨٥٤م، وكان أبوه ضابطًا مغامرًا لا يستقرُّ له قرار، وما لبث أن هَجَرَ الأسرة حين كان رامبو في السادسة من عمره، ولم يَرَ بعد ذلك أبدًا. ولا شك أن رامبو قد وَرِث عن ذلك الأب حُبَّ الترحال وعدم الاستقرار وجموح الطباع والثورة على كل شيء؛ بينما وَرِث عن أمه ما اشتُّهر به بعد أن عَمِلَ بالتجارة من حُسْن التدبير في كسب المال. وقد التحَّق رامبو بمعهد «روسا»، ثم بالمدرسة الثانوية بالبلدة، وتلقَّى بها التعليم الفرنسي التقليدي أيامها، الذي كان يركِّز على تعلُّم اللغتين اليونانية واللاتينية، والتاريخ واللغة والرياضيات. وكانت فترة صباه التعليمية فترةً عاصفة؛ فهو لم يَكُن يطبق النظام والقيود التي كان يفرضها عليه البيت والمدرسة، فكان يتمرَّد عليهما دائمًا. ورغم ذلك، مكَّنه ذكاؤه الحادُّ من التفوُّق في دروسه دون جهد، فكان يحصِّد الجوائز المدرسية على الدوام. وقد أتقن اللاتينية إلى الحد الذي كان يَنظُم شعرًا بها، وحازت بعضُ قصائده جوائزَ عامة. وكان يقضي وقته هائمًا في الريف وعلى ضفاف «الميز»، ويقرأ كل ما تقع عليه يده. وقد شجَّعه على طموحاته الأدبية والتحريرية أستاذه «إيزمبار» الذي أقرَّضه الكتب الجديدة التي كانت محرَّمة في بيئةٍ إقليميةٍ منغلقة مثل بيئة شارلفيل. وطالع رامبو كُتِب هوجو وبودلير وسان سيمون وميشليه، وسرعان ما بدأ يُدبِّج القصائد بالفرنسية، ويضع تصوُّره الخاص لما يجب أن يكون عليه الشعر والشعراء.

ولما بَلَغ رامبو السابعة عشرة من عمره، كان قد حاول بالفعل أن يهجر منزله وبلدته أربع مراتٍ على الأقل، منها المرة التي توجَّه فيها إلى باريس كي يشترك في ثورة الكوميون، تلك الثورة التي أعقبت هزيمة فرنسا عام ١٨٧٠م، أمام القوات البروسية الألمانية، والتي أدَّت إلى سقوط الإمبراطور نابليون الثالث. وبعد ذلك، عكف رامبو على تعويض إحساسه بالمرارة بالانكباب على الكتابة؛ وكان نتاج ذلك مقالته عن الفن والشعر التي ذكر فيها أن الفن الحقيقي يجب أن ينبُع من «الذات الأخرى» الخفية لدى الفنان، وأن سبيله إلى الكشف عن تلك الذات هي الحب والألم والجنون، وعلى الفنَّان أن يخلط في ذاته بين كل أنواع الحواسِّ بحيث يمكنه في النهاية أن يصبح «بصيرًا»، وتكون جميعُ حواسه في اتصالٍ وتألف، كما لو أنه عاد إلى ينبوعٍ واحد لها جميعًا، فالعين ترى رفيف الأجنحة، والأذن

تسمع عبور الرؤى، وكل جارجة من جوارح الإنسان تزدهر وتنتعش أمام تألق الأشياء بالألوان والأضواء والأشياء وتقويض بالشعر (من كتاب صدقي إسماعيل عن رامبو).

وواكب كتابة تلك المقالة تدبيجه قصيدتين طويلتين من أبرز أشعاره؛ الأولى بعنوان «ما يُقال للشاعر عن الأزهار»، أما الثانية فهي قصيدته الشهيرة «السفينة النشوى»: «لقد خَبَرْتُ السماوات المنصدعة في بروق؛ خَبَرْتُ المساء، والفجر الطالع كأنه رهطٌ من الحمام؛ ورأيتُ أحياناً كل ما ظن الإنسان أنه رآه!»

وقرّر رامبو أن يبدأ حياته كشاعر، فأرسل مجموعةً من قصائده إلى «بول فيرلين»، الذي قرأها وأدرك على الفور أنه أمام ظاهرةٍ جديدة في الشعر الفرنسي فأرسل يستدعيه إلى باريس، وقَدَّمه إلى كبار شعراء زمنه. وارتبط رامبو وفيرلين ارتباطاً وثيقاً جعلهما لا يفترقان، وتبدأ بذلك المساة في حياة الشاعرين، والتي انتهت بإطلاق فيرلين النار على رامبو في فندق ببلجيكا، وهو الحادث الذي أشرتُ إليه سابقاً. ويعود رامبو بعدها إلى عائلته في شارلويل، ويقوم بكتابة آخر ما خطَّت يداه: «فصل في الجحيم»، وهو كتابٌ من النثر الشعري، ولم يُكتشف إلا بعد وفاته. ومع آخر حرفٍ من ذلك الكتاب، يهجّر رامبو الكتابة والشعر والأدب، ويبدأ حياةً من الأسفار والمغامرات والتجارة، أخذته إلى أصقاع نائية في الشرق الأقصى، ثم إلى أفريقيا، في الحبشة وزيلع وجيبوتي؛ وكان على وشك العمل مفتشاً في الجمارك بالإسكندرية لولا أنه لم يُطق الانتظار لإتمام الأوراق الخاصة بذلك. وزار القاهرة عدة مرات، وأودع في فرع مصرف «الكريدي ليونيه» في حي الغورية أموالاً ذهبية كوديعة لمدة ستة أشهر بفائدة ٤٪! وقد أصيب رامبو بسرطان العظام الذي أدّى إلى وفاته عام ١٨٩١م.

وقد زُرنا متحف رامبو بالبلدة مرتين، ورأينا فيه بعض المخطوطات الأصلية للشاعر، وكثيراً من مُعدّات أسفاره، ومنها حقيبته الأفريقية، بالإضافة إلى صورهِ الأصلية، ونص قصيدة السفينة النشوى مكتوبةً بخط بول فيرلين. ويَعْرِض المتحف أيضاً الطباعات الأولى لكتبه، والعديد من الكتب التي صدرت عنه. وكنا نتجول في أبهاء المتحف وسُطور قصيدته الخالدة تتردد في أذهاننا. وقد ابتعنا من المتحف عدداً من الكتب والبطاقات التذكارية، والكتاب الذي صدر بأعماله الكاملة في ذكراه.

والآن، كما قال الناقد الكبير رجاء النقاش: «لا يُوجَد مُحب للشعر الإنساني دارس له في أي مكان من العالم إلا ويعرف اسم رامبو. إنه شاعرٌ مهم وموهوب، وأشعاره تزداد تألقاً مع الأيام، ويجتهد الباحثون في تقديم تفسير لها كلما ظهرت مناهج جديدة للبحث في الشعر ودراسته.»

النهايات

وهكذا انقضى ترحالي في أنحاء فرنسا، ولم أَرِدْ أن أعود إليها بعد أن حَمَلْتُ في عقلي وقلبي — وما زِلْتُ أحمل — كل هذه الثروة الفنية من الجمال والتاريخ والفن والأدب التي وصفتها في الصفحات السابقة بإيجاز شديد.

وها أنا ذا الآن؛ أسطرّ ذلك الكتاب وأسترجع في ذهني كل أحداث الحياة وكل التجارب التي تعلّمتها وكل مَنْ عرفته وشارك في حياتي سواء بشخصيته أو بكتبه وأفكاره. ويخطر على بالي ما أحب أن أعيد النظر فيه، أو شيءٌ أندم على أنني قمتُ به، فأجِدُنِي أَحْمَدُ الله على أن حَقَّقْتُ الكثير من أحلامي، خاصةً في مجال الإيمان، وفي مجال الكتابة والنشر.

وكثيراً ما أفكّر في أحوالي لو أنني بقيتُ في مصر ولم أغادر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٨م، بل إنني سألتُ الكثير من أصدقائي عما يتصوّرونه في ذلك الأمر. قال قائل إنه لا يتصوّر أن أظل حياً إلى الآن لو أنني بقيتُ في القاهرة. وقال أمثلهم طريقةً إنني كنتُ سأعيش في شقة محمد شكري على نحوٍ معتاد، وإن حياتي كانت ستمضي كما هي الآن. ويجول ببالي أنني كان يمكن أن أمضي في مشروع تدريس اللغة العربية بالجامعة الأمريكية، وأحصل على الدكتوراه في ذلك التخصص، وربما ذهبتُ إلى أمريكا أيضاً لأدرّس العربية هناك. بيد أن الفكرة التي تُلازمني هي في اتخاذني ركناً في مسجد الحسين أجلس فيه للتأمّل والتعبّد والانقطاع عن أحوال الدنيا وما فيها! وربما كانت الحاجة قد ألجأتني إلى طلب الحاجة؛ إذ كنتُ غير قادر على الدفاع عن شقة محمد شكري بعد وفاة والدي، ولم يُعَد لي من ملجأ سوى الطريق. وفي المقابل، كانت هناك أيضاً فكرة إصدار مجلة تُعنى بالتنوير وبكل ما هو جديد، اخترتُ لها اسماً مؤقتاً هو «طواحين الهواء». وربما لو تحقّقت كان طريقي إلى الجلوس على الرصيف أسرع؛ فذلك كان أقرب طريق إلى الإفلاس.

والحال نفسه في فكرة إنشاء دار نشر أسميها «ماهر وماهر» على وزن فابر وفابر. وعلى هذا، ينبغي لي أن أقول: ليس في الإمكان أفضل مما كان.

وكنْتُ لما عَزَمْتُ على اتخاذ الكتابة مهنةً لي قَرَّرْتُ أن أخصَّص في الرواية، سواء من ناحية الإبداع أو النقد والعرض. وقد بدأتُ بدايةً حسنة في تلك السبيل، بمقالتي عن كمال عبد الجواد وعن جيمس جويس، ثم اتجهتُ إلى الترجمة بفكرة أن ينتشر اسمي فأتمكَّن من كتابة رواياتي ونشرها. بيد أن الظروف قد طغت على هذه الخطة الأصلية، ووجدتني أدخل أكثر إلى مجال الترجمة، خاصة ترجمة الشعر بعد الثناء الذي نلتُه من غالي شكري على ترجمتي لقصيدة سفينة الموت للورانس عام ١٩٦٤م. ومع ذلك، كانت قراءاتي ودراساتي في أغلبها تتعلق بالرواية، العربية والعالمية. وتتمَّه لذلك فإنني أقدم فيما يلي ثبوتًا بالروايات التي ينبغي لأي مبدع — عربي — يريد أن يكتب الرواية أن يكون على علم بها. وهذا الثبوت خاصٌ بي لا ألزم به أحدًا، انتهجتُ فيه نهجًا موضوعيًا لا محاباة فيه لأحد، وهو نتاج قراءاتي ودراساتي الروائية. وأعتزم — لو مد الله في العمر وأفاء بالصحة — إكمال ذلك بكتابٍ نقدي للروايات البارزة لروائيي الجيل الرائع ومن تلاهم حتى يومنا هذا، ويضمُّ أيضًا تصوُّري لأفضل مائة روايةٍ عربية.

فبالإضافة إلى قراءة النماذج العليا من الروايات العالمية، لا بد لروائي المستقبل أن يدرس أيضًا الكتب التي تناولت فن الرواية بالبحث، وهناك المئات من الكتب في هذا الموضوع أذكر أهمها، والكثير منها مُترجم إلى اللغة العربية: «أركان القصة» لفورستر، «نشأة الرواية» لأيان واط، «تاريخ الرواية الإنجليزية» لإرنست بيكر، «نظرية الرواية» لجورج لوكاتش، «البلاغة الروائية» لوين بوث، «مقالات في الرواية» لميشيل بيتور، «الفن الروائي» لديفيد لودج، «فن الرواية» لهنري جيمس، «فن الحكيم» لفرانك كرمود، «فن الرواية» لميلان كونديرا، «الزمن والسرد» لبول ريكور، «فن القصة» لإحسان عباس، «القصة السيكلوجية» لليون إيدل، «تاريخ الرواية» لمنندث بيلايو، «القصة الحقيقية للرواية» لمارجريت آن دودي، «فن الرواية» لكونلن ويلسون. وهناك الكثير غير ما ذكَّرت.

أما الروايات العالمية الهامة فهي في القائمة التالية، وقد اخترتها خصوصًا كيما يرى روائي المستقبل — العربي — كيف يُعالج المؤلف موضوعه، ويرسم شخصياته، ويتفنَّن في طرق السرد، ويستخدم الزمن واللغة، ودُرر التراث، وغير ذلك من أركان القصص.

مائة رواية عالمية ورواية

- (١) دون كيشوت/ميجيل دي سرفانتس
- (٢) الحرب والسلام/ليو تولستوي (وكل ما يمكن من رواياته الأخرى)
- (٣) الجريمة والعقاب/فيدور دوستوفسكي (وكل ما يمكن من رواياته الأخرى)
- (٤) عوليس/جيمس جويس (صورة الفنان في شبابه)
- (٥) مدام بوفاري/جوستاف فلوبيير
- (٦) الموت في فينيسيا/توماس مان (آل بودنبروك، الجبل السحري)
- (٧) البحث عن الزمن الضائع/مارسيل بروست
- (٨) الغريب/ألبير كامي (السقوط، الطاعون)
- (٩) الثلاثية/نجيب محفوظ (وكل ما يمكن من رواياته الأخرى)
- (١٠) موبي ديك/هرمان ملفيل
- (١١) طاحونة نهر فلوص/جورج إليوت (ميدل مارش، آدم بيد)
- (١٢) العجوز والبحر/إرنست همنجواي (وكل ما يمكن من رواياته الأخرى)
- (١٣) تس سليلة آل دربرفيل/توماس هاردي (عودة ابن البلدة)
- (١٤) صورة سيدة/هنري جيمس (السفراء، جناحا اليمامة)
- (١٥) جاتسبي العظيم/سكوت فيتزجيرالد (رقعة الليل، هذا الجانب من الفردوس)
- (١٦) مائة عام من العزلة/جابريل غرسيه ماركيز (وكل ما يمكن من رواياته الأخرى)
- (١٧) الأحمر والأسود/ستندال
- (١٨) الأنساب المختارة/جوته (آلام فرتر)
- (١٩) جسر على نهر درينا/إيفو أندريتش
- (٢٠) الصخب والعنف/وليام فوكنر (الحرم، سارتوريس)
- (٢١) نساء عاشقات/د. ه. لورانس (أبناء وعشاق، قوس قُزَح)
- (٢٢) لوليتا/فلاديمير نابوكوف (نيران ذابلة)
- (٢٣) شجرة البؤس/طه حسين (الأيام، دعاء الكروان، الحب الضائع)
- (٢٤) مرتفعات وذرنج/إميل برونتي
- (٢٥) طريق إلى الهند/إ. م. فورستر
- (٢٦) هاكليري فن/مارك توين (توم سوير)

الجيل الرائع

- (٢٧) السيد الرئيس/ ميغيل آنخل أستورياس
- (٢٨) البؤساء/ فكتور هوجو (أحدب نوتردام)
- (٢٩) الغثيان/ جان بول سارتر (دروب الحرية)
- (٣٠) المسخ/ فرانز كافكا (وكل رواياته الأخرى)
- (٣١) حكاية جانجي/ ليدي موراسكي
- (٣٢) البومة العمياء/ صادق هدايت
- (٣٣) زوربا اليوناني/ كازانتزاكيس (الإخوة الأعداء)
- (٣٤) ثلاثية راما والتنين/ إدوار الخراط (طريق النسر)
- (٣٥) محبوبة/ توني موريسون (العينان الأشد زرقة)
- (٣٦) لورد جيم/ جوزيف كونراد (قلب الظلمات)
- (٣٧) إلى المنارة/ فرجينيا وولف (مسز دالواي، الأمواج)
- (٣٨) الولايات المتحدة الأمريكية/ دوس باسوس
- (٣٩) بدرو بارامو/ خوان رولفو
- (٤٠) مولن الكبير/ ألان فورنييه
- (٤١) ذئب الأحراش/ هرمان هسه (لعبة الكريات الزجاجية، سيدهارتا)
- (٤٢) الجميلات النائمت/ كواباتا
- (٤٣) موسم الهجرة إلى الشمال/ الطيب صالح
- (٤٤) الزيني بركات/ جمال الغيطاني
- (٤٥) مزرعة الحيوانات/ جورج أورويل (١٩٨٤م)
- (٤٦) تحت البركان/ مالكوم لوري
- (٤٧) أوليفر تويست/ تشارلز ديكنز (وكل ما يمكن من أعماله الأخرى)
- (٤٨) رباعية الإسكندرية/ لورانس داريل
- (٤٩) نهاية العلاقة/ جراهام جرين
- (٥٠) أطفال منتصف الليل/ سلمان رشدي
- (٥١) حارس في حقل الشوفان/ سالنجر
- (٥٢) رباعية رابيت/ جون أباديك
- (٥٣) الطلسم/ والتر سكوت
- (٥٤) روبنسون كروزو/ دانييل ديفو
- (٥٥) عودة الروح/ توفيق الحكيم

- (٥٦) واحة الغروب/ بهاء طاهر (وكل ما يمكن من رواياته الأخرى)
- (٥٧) النهايات/ عبد الرحمن منيف
- (٥٨) منزل الأرواح/ إيزابل أليندي
- (٥٩) الأمير الصغير/ سانت إكزوبيري
- (٦٠) الحمار الذهبي/ أبوليوس
- (٦١) الطبلة الصفيح/ جونتر جراس
- (٦٢) الماندارين/ سيمون دي بوفوار (قوة الأشياء)
- (٦٣) نهر الدون الهادئ/ شولوخوف
- (٦٤) الأرض/ عبد الرحمن الشرقاوي
- (٦٥) رباعية بحري/ محمد جبريل
- (٦٦) ثلاثية غرناطة/ رضوى عاشور
- (٦٧) تلك الرائحة/ صنع الله إبراهيم (ومعظم رواياته الأخرى)
- (٦٨) ثلاثية مالون يموت/ صمويل بيكيت
- (٦٩) حكايات كانتبري/ جيوفري تشوسر
- (٧٠) الديكاميرون/ جيوفاني بوكاشيو
- (٧١) اعترافات/ جان جاك روسو (خواطر جوال منفرد)
- (٧٢) الأرض/ إميل زولا
- (٧٣) كانديد/ فولتير
- (٧٤) ألف ليلة وليلة
- (٧٥) رحلة وجدانية/ لورانس ستين
- (٧٦) فتح الأندلس/ جورج زيدان (وكل ما يمكن من رواياته التاريخية)
- (٧٧) دكتور زيفاجو/ بوريس باسترناك
- (٧٨) جارجانتوا وبانتاجرويل/ فرانسوا رابليه
- (٧٩) سوق الغرور/ ماكبيس تاكري
- (٨٠) الحرف القرمزي/ ناثانيل هوثورن
- (٨١) الرجل الخفي/ رالف إليسون
- (٨٢) مقتل طائر غرد/ هاربر لي
- (٨٣) الأرواح الميتة/ جوجول (المعطف)
- (٨٤) صورة دوريان جراي/ أوسكار وايلد

- (٨٥) آلة الزمن/هـ. ج. ويلز
(٨٦) رحلة إلى آخر الليل/فردينان سيلين
(٨٧) مذكرات هادريان/مارجريت يوسنار
(٨٨) تاريخ حصار لشبونة/جوزيه ساراماجو
(٨٩) مغامرات أوجي مارش/صول بيلو
(٩٠) سيد الذباب/ويليام جولدنج
(٩١) الأشياء تتداعى/شينوا أتشيبي
(٩٢) رجل ذو أخلاقٍ مخالفة/أندريه جيد (المزيفون)
(٩٣) ثلاثية نيويورك/بول أوستير
(٩٤) العطر/باتريك ساسكيد
(٩٥) استحواذ/أ. س. بيات
(٩٦) المريض الإنجليزي/مايكل أونداتجي
(٩٧) حفلة التيس/ماريو فارغاس يوسا
(٩٨) اسم الوردة/إميرتو إيكو
(٩٩) وكالة عطية/خيري شلبي (ومعظم رواياته الأخرى)
(١٠٠) آباء وأبناء/إيفان تورجنيف
(١٠١) الأب جوريو/أونوريه دي بلزاك

